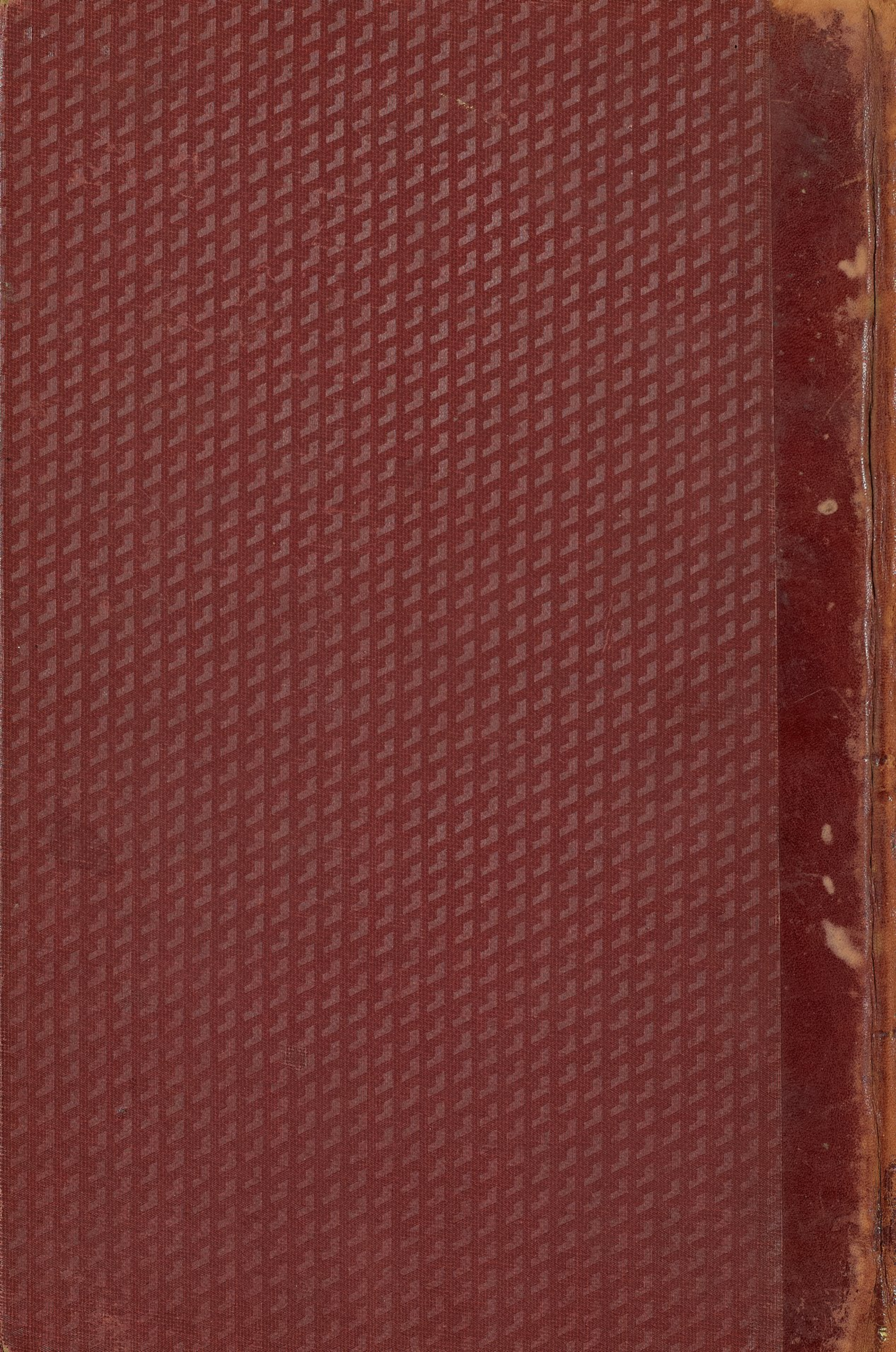
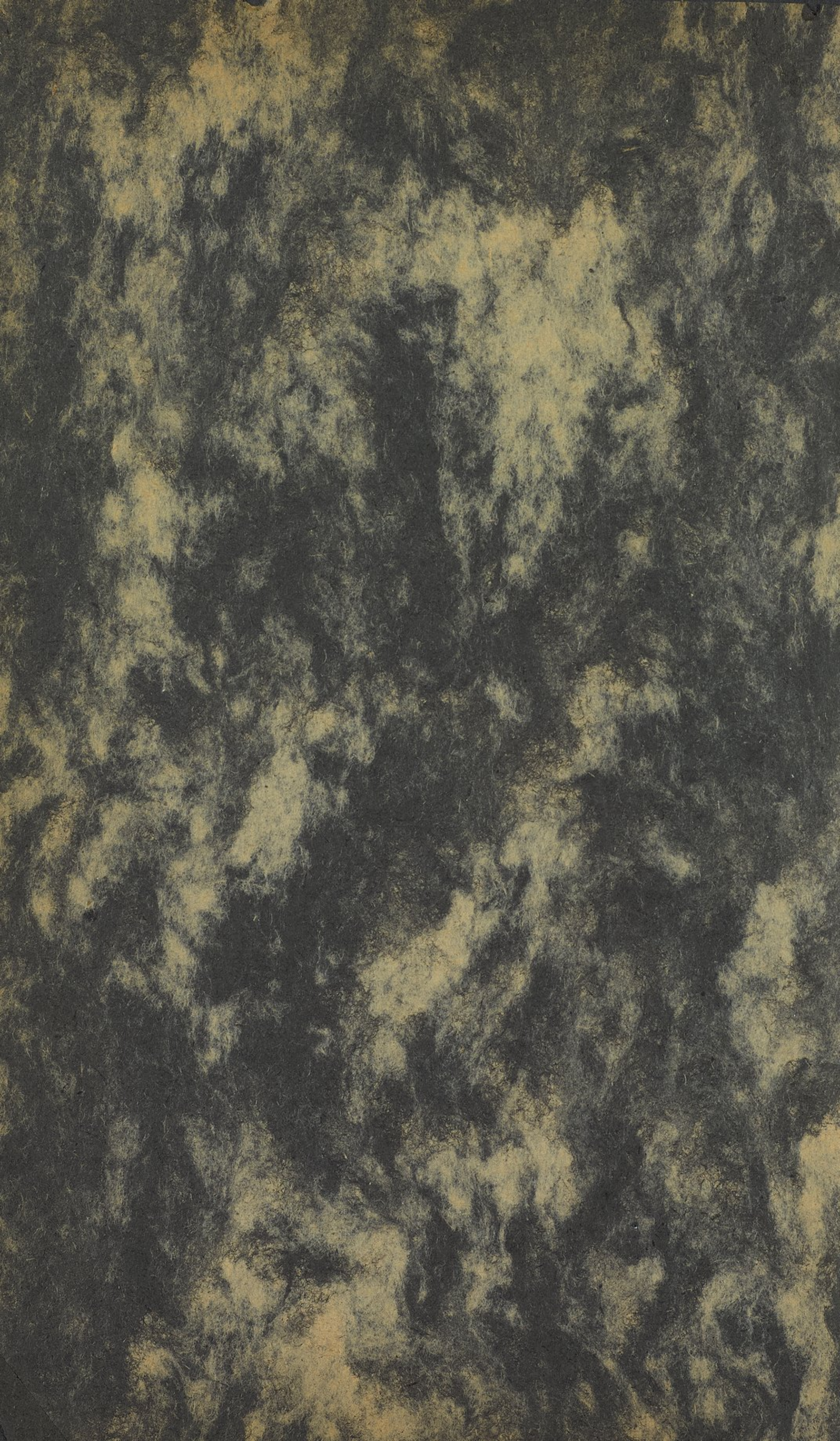
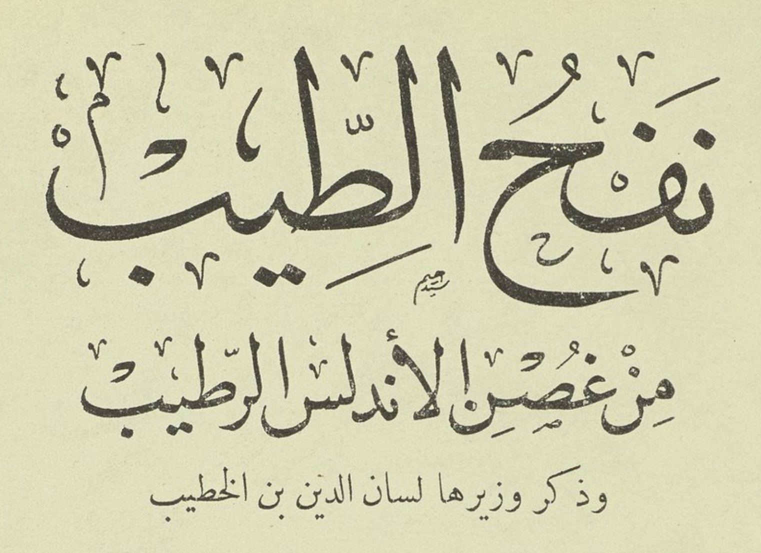



SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN





وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

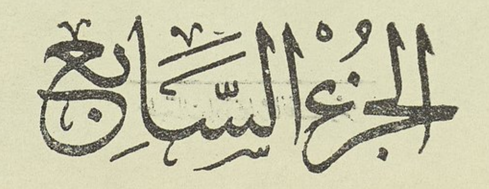
تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقَّرِىّ التِّلِمْسَانِىّ

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد



الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد على ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

الباب الثانى

فى نشأته، وترقيه ووزارته وسعادته، ومساعدة الدهر له، ثم قلبه له ظهر المِجَنِّ على عادته فى مصافاته، ومنافاته، وارتباكه، فى شباكه، ومالقى من إحَنِ[1] الحاسد، ذى المذهب الفاسد، ومحن الكائد المستأسد وآفاته، وذكر قصوره وأمواله، وغير ذلك من أحواله فى تقلباته، عندما قابله الزمان بأهواله، فى بَدْئِه وإعادته إلى وفاته.

أقول: كان مولد الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله كما فى الإحاطة فى الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة، وقال الرئيس الأمير أبو الوليد بن الأحمر رحمه الله: نشأ لسان الدين بن الخطيب على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبى عبد الله بن عبد المولى العوّاد تكتبا، ثم حفظا، ثم تجويدا، ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى، وقرأ عليه العربية وهو أوّل من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبى القاسم بن جُزَى، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبى عبدالله بن الفخار البيرى شيخ النحويين لعهده، وقرأ على قاضى الجماعة أبى عبد الله ابن بكر، وتأدب بالرئيس أبى الحسن بن الجياب، ورَوَى عن كثير من الأعيان، وسرد ابنُ الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى، ثم قال: وأخذ الطب والتعليم وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا يحيى بن هُذَيل ولازمه، انتهى

وقال بعضهم فى حق لسان الدين: هو الوزير العلامة المتحلى بأجمل الشمائل وأفضل المناقب، المتميز فى الأندلس بأرفع المراقى[2] وأعلى المراتب، علم الأعلام

---

(١) الإحن: جمع إحنة — بكسر الهمزة فيهما — وهى الضغينة.

(٢) المراقى: جمع مرقاة، وأصلها السلم ونحوه مما يرقى به من سفل إلى علو وأريد بها درجات الكمال.

ورئيس أرباب السيوف والأقلام ، جامع أشتات الفضائل ، والمُرْبِي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل ، حائز رتبة رياسة السيف والقلم ، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم ، صاحب القلم الأعلى ، الوارد من البراعة المنْهَل الأحلى ، صاحب الأحاديث التى لا تمل على كثرة ما تُتْلَى ، والمحاسن التى صورها على منصة التنويه تجلى ، انتهى .

وقال لسان الدين فى «الإحاطة» بعد ذكر سلفه رحمهم الله تعالى ، ما ملخصه : وخلفنى ، يعنى أباه عبد الله ، عالى الدرجة ، شهير الخطة ، مشمولا بالقبول ، مكنوفا بالعناية ، فقلدنى السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صِوَان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه ، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقَصَر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أهل أعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك ، وتقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأغلاق[1] ، وأبرد إلى ما ناء[2] ، واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولاربات الأمثال ، فى تبحر الغَلّة ، وفَرَاهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية ، واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظَهْر الحمولة[3] وقوام الفِلاَحة والخيل ، فأخذ ذلك البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة

(١) الأغلاق : جمع غلق ، وهو ما يرتج به باب الدار ونحوها .

(٢) أبرد إلى : أراد أوصله ، وناء : أثقل كاهلى وبهظنى .

(٣) ظهر الحمولة : الدواب التى يحمل عليها .

والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، وأعملت الحيل ، وطوقت الذنوب ، أمد الله تعالى بالعون ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية(١) مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقدانىَ المنصور من آل عامر(١)

ووصلت الشفاعة فىَّ مكتتبةً بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصى شرطا فى العقدة ومسالمة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطانى المكفور الحق إلى المغرب ، وبالغ ملكه فى برِّى منزلا رحباً ، وعيشاً خفضا ، وإقطاعا جماً ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدرا ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سَلَا مُنَوَّه الصكوك ، مهنأ القرار ، متفقدا باللُّهَا والخلع ، مُخَوَّل العقار ، موفور الحاشية ، مخلى بينى وبين إصلاح مَعَادى ، إلى أن ردَّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبى عبد الله بن أمير المسلمين أبى الحجاج مُلْكه ، وصير إليه حقه ، فطالبنى بوعد ضربته ، وعملٍ فى القدوم عليه بولده أحكمته ، ولم يُوسِعْنى عذراً ، ولافسح فى الترك مجالا ، فقدمت عليه بولده ، وقد ساءه بإمساكه رهينة ضده ، ونغص مسرة الفتح بعده ، على كل حال من التقشف والزهد فيما بيده ، وعزف عن الطمع فى ملكه وزهد فى رفده ، حسبما قلت من بعض المقطوعات :

قالوا لخدمته دعاك محمد فأنفتها وزهدت فى التنويه
فاجبتهم أنا والمهيمنِ كاره فى خدمة المولى محب فيه

عاهدت الله تعالى على ذلك ، وشرحت صدرى للوفاء به ، وجنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أملى ، ومَرْمَى نيتى وعملى ، فعلق بى ، وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أن موازرته أبرُّ القُرَب ، وراكننى إلى عهد بخطه فسح لعامين

---

(١) مصحفية : منسوبة إلى الحاجب جعفر بن محمد المصحفى ، وكان المستنصر قد استوزره ، ثم نكبه المنصور بن أبى عامر ، وقد مر خبره في القسم الأول مكرراً .

أمد الثواء[١]، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه فى طلب الزيادة على تلك النسبة[٢]، وأشهد مَنْ حضر من العلية، ثم رمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكم عقلى فى اختيارات عقله، وغطى من جفائى بحلمه، وحثا فى وجوه شهواته تراب زَجْرى، ووقف القبولَ على وعظى، وصَرَف هواى فى التحول ثانيا وقصدى، واعترف بقبول نصحى، فاستعنتُ الله تعالى، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجراية، ولا تشبث بولاية، مقتصرا على الكفاية، حذرا من النقد، خامل المركب، معتمدا على المنسأة، مستمتعا بخَلَق النعل، راضيا بغير النبيه من الثوب، مشفقا من موافقة الغرور، هاجر الزخرف، صادعا بالحق فى أسواق الباطل، كافا عن السِّخال براثِنَ السباع، ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة، بل بالجزيرة، فيما سلف من المدة، فتأتّى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن ورَوْم الثغور وتثمير الجباية و إنصاف الحُمَاة والمُقَاتلة ومُقَارعة الملوك المجاورة فى إيثار المصلحة الدينية والصَّدْع فوق المنابر ضمانا من السلطان بتِرْيَاق سم الثورة و إصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازى عليه، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه، وخطر اقتحمته من أجْلِهِ، لا للثريد الأعفر، ولا للجرد تمرح فى الأرسان، ولا للبِدَر تثقل للاكتاد، فهو الذى لا يضيع عمل من عمل ذكرا أو أنثى سبحانه وتعالى، ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور، والاستغراض للمحذور، والنظر الشزر المنبعث من خُزْر العيون، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء، ورعاية سخطة أرزاق السماء، وقَتَلَة الأنبياء، وعَبَدَة الأهواء، ممن لا يجعل لله تعالى إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة، ولا يُجْمِل فى الطلب، ولا يتلبس مع الله بأدب، ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، والحال إلى هذا العهد ـ وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة ـ على ما ذكرته،

(١) الثواء ـــ بفتح الثاء المثلثة ـــ الإقامة .

(٢) يشير إلى قصة شعيب وموسى عليهما السلام، وقد زوج شعيب موسى ابنته على أن يكون أجيره سبع سنين، وقال له (فإن أتممت عشرا فمن عندك) .

أداله الله بحال السلامة ، و بفيأة العافيـــة ، والتمتع بالعبادة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

وعَلَيَّ أن أسعى وليـــس على إدراك النجاح

ولله سبحانه فينا علمُ غيبٍ نحن صائرون إليه ، ألحفنا الله بلباس التقوى، وختم لنا بالسعادة ، وجعلنا فى الآخرة من الفائزين ، نمثت عن بث ، وتأوّهت عن حمى، ليظهر بعد المنقلب قصدى ، و يدل مكتتبى على عقدى ، انتهى ، وجُلُّه بلفظه .

وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ عارفا بأحوال الملوك ، سريع الجواب ، حاضر الذهن ، حادَّ النادرة .

ومن حكاياته فى حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال : حضرت يوما بين يدى السلطان أبى عنان فى بعض وفاداتى عليه لغرض الرسالة ، وجرى ذ كْرُ بعض أعدائه ، فقلت ما أعتقده فى إطراء ذلك العدوّ ، وما عرفته من فضله ، فأنكر على بعضُ الحاضرين ممن لايحطب إلا فى حبل السلطان، فصرفت وجهى وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة فى شىء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبَ عدوه كان قد غَلَبَ غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، و إن غلبه العدو لم يغلبه حقير(١) ، فيكون أشدَّ للحسرة ، وآكد للفضيحة ، فوافق ــ رحمه الله تعالى ! ــ على ذلك واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعترض ، انتهى .

وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ مبتلىً بداء الأرق ، لاينام من الليل إلا النزر اليسير جدا ، وقد قال فى كتابه « الوصول ، لحفظ الصحة فى الفصول » : العَجَبُ منى ــ مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب ، وعملى ذلك ــ لا أقدر على مُداواة داء الأرق الذى بى ، أو كما قال ، ولذا يقال له « ذو العُمْرَين » لأن الناس

---

(١) هذا المعنى كثير الورود فى شعر العرب ، وفى كلام امرىء القيس :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

ينامون فى الليل وهو ساهر فيه ، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل ، وقد سمعت بالمغرب بعضَ الرؤساء يقول : لسان الدين ذو الوزارتين ، وذو العمرين ، وذو الميتتين ، وذو القبرين ، انتهى . وسيأتى ما يعلم منه معنى الأخيرين .

السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل

وقد عرّف ـ رحمه الله تعالى ! ـ بالسلطان أبى الحجاج فى « الإحاطة » فقال ما حاصله : يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، الأنصارى الخزرجى ، أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجاج ، تولى الملك بعد أخيه بوادى السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذى الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، وسنه خمسة عشر عاما وثمانية أشهر ، أمه أم ولد ، وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده، وتلوه أخوه إسماعيل محجوره ، وثالثهم قيس شقيق إسماعيل ، وذكر لسانُ الدين أنه وَزَرَله بعد شيخه ابن الجياب ، وتولى كتابة سره مضافة إلى الوزارة فى أخريات شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة ، انتهى . وقد علم أنه وزر بعده لابنه محمد كما تقدم ويأتى ، وأما إسماعيل بن أبى الحجاج فهو الذى تغلب على الأمر ، وانتهز الفرصة فى ملك أخيه محمد كما تقدم ، وفيه وفى أخيه قيس حين قتلا يقول لسان الدين :

* بإسماعيل ثم أخيه قيس * البيتين .

وقد ذكر أيضا ـ رحمه الله تعالى ! ـ حكاية وفاة السلطان أبى الحجاج ما محصله أنه هجم عليه رجل من عداد الممرورين[1] ، وهو فى الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فطعنه بخنجر ، وقُبِضَ عليه،واستفهم فتكلم بكلام مخلط ، واحتمل إلى منزله على فوْر ، ولم يستقر به إلا وقد قضى ، وأخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه ، وأحرق بالنار ، ودفن عشية اليوم المذكور

---

(١) يقال « هذا رجل ممرور » وهو الذى هاجت به المرة ، وهى خلط من أخلاط البدن.

فى مقبرة قصره ، ضجيع والده ، وولى أمره ولدُه محمد ، ورثيته فى غرض ناء عن الجزالة مختار ولده :

العمر نوم ، والمنى أحــلام ماذا عسى أن يستمر مقـام
وإذا تحققنا لشىء بَدْأة فله بما تَقْضِى العقــولُ تمامُ
والنفس تجمح فى مـدى آمالها ركضا ، وتأبى ذلك الأيام
من لم يصب فى نفسه فمصـابه بحبيبه ، نفـذت بذا الأحكام
بعـد الشبيبة كبرة ، ووراءها هرم ، ومن بعد الحياة حِمـامُ(١)
ولحكمة ما أشرقت شهب الدجى وتعاقب الإصباح والإظلام
دنياك يا هــذا محلة نقلة ومُنَاخُ ركب ما لديه مقــام
هذا أمير المسلمين ومَنْ به وجد السماح وأعدم الإعدام
سر الأمانة والخلافة يوسف غيث الملوك وليثها الضِّرْغَامُ
قصدته عادية الزمان فأقصدت والعـــز سام والخميس(٢) لهام
فجعت به الدنيا وكدر شِرْبُها وشكا العراقُ مصابه والشامُ
أسفاً على الخلق الجميل كأنما بدر الدجُنَّة قد جلاه تمام
أسفاً على العمر الجديد كأنه زهو الحديقـة زهره بسـام
أسفاً على الخلق الرضىِّ كأنه زهر الرياض همَا عليـه غمام
أسفاً على الوجه الذى مهما بدا طاشت لنور جمـاله الأفهام
يا ناصِرَ الثغر الغريب وأهـله والأرض ترجف والسماء قتَامُ
ياصاحب الصدقات فى جُنْحِ الدجى والناس فى فرش النعيم نيـام
يا حافظ الحرم الذى بِظلاله ستر الأرامل واكْتَسَى الأيتام
مولاى هل لك للقصور زيارة بعـد انـتزاح الدار أو إلْمَام

(١) الحمام — بكسر الحاء المهملة — الموت

(٢) الخميس : الجيش ، سمى بذلك لأنهم يقسمونه إلى خمس فرق : المقدمة ، والمؤخرة ، والجناحان ، والقلب . ولهام — بضم لامه — أى كثير العدد

مولاى هل لك للعبيد تذكر ... حاشاك أن ينسى لديك ذِمام
يا واحد الآحاد والعلم الذى ... خَفَقَتْ بعزة نصره الأعلام
وافاك أمر الله حين تكاملت ... فيك النُّهَى والجود والإقدام
ورحلت عنا الركب خير خليفة ... أثنى عليك الله والإسلام
نعم الطريق سلكت كان رفيقه ... والزاد فيه تهجد وصيام
وكسفت ياشمس المحاسن ضحوة ... فاليوم ليل ، والضياء ظلام
وسقاك عيدُ الفطر كأسَ شهادة ... فيها من الأجَلِ الوحيِّ مدام(١)
وختمت عمرك بالصلاة فحبذا ... عمل كريم سعيه وختام(٢)
مولاى كم هذا الرقاد؟ إلى متى ... بين الصفائح والتراب تنام
أعد التحية واحتسبها قربة ... إن كان يمكنك الغداةَ كلامُ
تبكى عليك مصانع شيدتها ... بيض كما تبكى الهديلَ حَمامُ
تبكى عليك مساجد عمرتها ... فالناس فيها سُجَّد وقيام
تبكى عليك خلائق أمنتها ... بالسلم وهى كأنها أنعام
عاملت وجه الله فيما رُمْتَه ... منها فلم يَبْعَدْ عليك مرام
لو كنت تفدى أو تجار من الردى ... بذلت نفوس من لدنك كرام
لو كنت تمنع بالصوارم والْقَنَا ... ما كان ركنك بالغلاب يرام
لكنه أمر الإله ، ومالنا ... إلا رضاً بالحكم واستسلام
والله قد كتب الفناء على الورى ... وقضاؤه جفت به الأقلام
نَمْ فى جوار الله مسروراً بما ... قدمت يوم تزلزل الأقدام
واعلم بأن سَلِيلَ ملكك قد غدا ... فى مستقر علاك وهو إمام
ستر تكنف منه من خلفته ... ظل ظليل فهو ليس يضام

(١) الأجل الوحى : أراد به الموت السريع
(٢) أراد « كريم سعيه وختامه » فحذف المضاف إليه من الثانى لدلالة الأول

كنت الحسام وصرت فى غمد الثرى ولنصر ملكك سُلَّ منه حسام
خلفت أمة أحمد لمحمد فقضت بسعد الأمة الأحكام
فهو الخليفة للورى فى عهده ترعى العهود وتُوصَلُ الأرحام
أبقى رسومك كلها محفوظةً لم ينتثر منها عليك نظام
العدل والشِّيَمُ الكريمة والتقى والدار والألقاب والخدام
حسبى بأن أغشى ضريحك لاثماً وأقول والدمع السفوحُ سِجَامُ(١)
يامدفن التقوى ويامَثْوَى الهدى منى عليك تحية وسلام
أخفيت من حزنى عليك، وفى الحشا نار لها بين الضلوع ضرام
ولو أننى أديت حقك لم يكن لى بعد فقدك فى الوجود مقام
وإذا الفتى أدى الذى فى وسعه وأتى بجهد ما عليه ملام

قال لسان الدين : وكتبت فى بعض معاهده

غبت فلا عين ولا مخبر ولا انتظارٌ منك مرقوب
يا يوسف أنت لنا يوسف وكلنا فى الحزن يعقوب

ورحم الله تعالى الجميع بمنه ! وقد قدمنا ما كتبه لسان الدين على لسان سلطانه إلى السلطان أبى عنان فى شأن قتل السلطان أبى الحجاج فى الباب الثامن من القسم الأول

وقال لسان الدين فى كتابه « اللمحة البدرية ، فى الدولة النصرية » فى ذكر ما يتعلق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه خلال ذلك ، مانصه : كان السلطان أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار داره مُرَفَّهاً عليه ، متممة وظائفه له ، وأسكن معه أمه وأخواته منها ، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة فى بيتها فوجدت السبيل إلى السعى لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبى

(١) السفوح : أراد الكثير الانصباب ، وسجام — بكسر السين — أحد مصدرى « سجم الدمع — من باب قعد — سجوما ، وسجاما » إذا سال

عبد الله بن الرئيس أبى الوليد بن الرئيس أبى عبد الله المبايع له بأندرش بن الرئيس أبى سعيد جدهم الذى تجمعهم جرثومته ، وشَمَّر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وجده وهو على ما هو [عليه] من الإقدام ، ومداخلة ذؤبان الرجال ، واستعان بمن أسفته الدولة ، وهتفت به الأطماع(١) ، فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شَفًى صعب المرتقى(٢) ، واتخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنية كانت به عن التمام ، وكبسوا حَرَسيا بأعلاه بما اقتضى صمانه ، فاستووا به ، ونزلوا إلى القلعة سَحَر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائةٍ ، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ ، وعالجوا دار الحاجب رضوان ، ففضوا أغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده ، وانتهبوا ما اشتملت عليه داره ، وأسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيـل ، وأركبته ، وقرعت الطبول ، ونودى بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان متحولا بولده إلى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره ، وهى المثل المضروب فى الظل الممدود ، والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع ، فما راعه إلا النداء والعجيج وأصوات الطبول ، وهبَّ إلى الدخول إلى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شِعابُها كلها ونقابها ، وقذفته الحراب ، ورشقته السهام ، فرجع أدراجَهُ ، وسدده الله تعالى فى محل الحَيْرة ، ودَسَّ له عرق الفحول من قومه ، فامتطى صَهْوَة فرس كان مرتبطا عنده ، وصار لوجهه فأعيا المتَّبِـع ، وصبح مدينة وادى آش ، ولم يشعر حافظ قصبتها إلا به ، وقد تولج عليها ، فالتفت به أهلها وأعطوه صَفْقتهم بالذبِّ عنه ، فـكان أملك بها ، وتجهزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدد أخوه المتغلبُ على ملـكه عقدَ السلم مع طاغية قَشْتَالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرّاء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته ، واغتبط به أهـلُ المدينة ،

---

(١) فى ب « وهفت به الأطماع » ولـكل منهما وجه وجيه

(٢) متسنمين : مرتفعـين ، وشفى — بفتح الشين ، بزنة عصى — هو فى الأصل حرف كل شىء ، وأراد جدارا أو نحوه

فذبُّوا عنه ، ورَضُوا بهلاك نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ، ووصله رسولُ صاحب المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا إلى حضرته ، لما عجز عن إمساكها ، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مُعَوَّل ، فانصرف ثانى يوم عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمعُ الوافر من أهل المدينة خيلا ورجلا إلى مربلة من ساحل إجازته ، وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبا من البرِّ والكرامة بما لا مزيد عليه فى السادس من شهر محرم فاتح عام أحد وستين وسبعمائة ، وركب السلطان للقائه ، ونزل إليه عند ماسلم عليه ، وبالغ فى الحفاية به ، وكنتُ قد ألحقت به مُفْلتا من شَرَك النكبة التى استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال ، بشفاعة السلطان أبى سالم قدس الله روحه ، فقمت بين يديه فى المحفْل المشهود يومئذ وأنشدته :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونَمَّ به الزهر
وهل باكر الوَسْمى دارا على اللوى ... عفت آيُهَا إلا التوهم والذكر(١)
بلادى التى عاطيتُ مشمولةَ الهوى ... بأكنافها والعيش فَيْنان مُخْضَر
وجوِّى الذى رَبَّى جناحىَ وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر
نَبَتْ بىَ لا عن جفوة وملالة ... ولا نَسَخَ الوصلَ الهنىء بها هجر
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعُها ... ولذاتها دأبا تزور وتَزْوَرُّ
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا ... مَدًى طال حتى يومُه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللأسى ... ضرام له فى كل جانحة جمر
وقد بددت درَّ الدموع يدُ النوى ... وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية ... فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعانى وقد غالَهَا السُّرَى ... وآنسها الحادى وأوحشها الزجر

(١) الوسمى : المطر أول الربيع ، وعفت : انمحت معالمها ودرست ، والآى : جمع آية ، وهى العلامة ، وإنما رفع المستثنى وصدر الكلام موجب ، لأن « عفت » فى معنى لم تبق على حالها ، فهو مما عومل فيه الإثبات معاملة النفى رعاية للمعنى

رويدك بعد العسر يسر أناَ أبشرى بإنجاز وعد الله ، قد ذهب العسر
ولله فينا سر غيب ، وربما أتى النفع من حال أريد بها الضر
وإن تخنِ الأيام لم تخن النهى وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإن عركَت منى الخطوبُ مجرِّباً نقابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عودا صليبا على الردى وعَزمًا كما تمضى المهندة البُتْرُ(١)
إذا أنت بالبيضاء قررت منزلى فلا اللحم حِلٌّ ماحييت ولا الظهر
زجرنا بإبراهيم برء همومنا فلما رأينا وجهه صَدَقَ الزجْرُ
بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبانُ طيبَ حديثه فلما رأته صَدَّقَ الخبرَ الخُبْرُ
ندًى لو حواه البحر لذ مذاقه ولم يتعقب مَدَّهُ أبدا جزر
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى وتَرْفل فى أثوابه الفتكة البكر
أطاعته حتى العصم فى قُنَن الربا وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر
قصدناك ياخير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدُكَ الدهر
كففنا بك الأيام عن غُلَوائها وقد رابنا منها التعسُّف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ولذنا بذاك العزم فانهزمَ الذعر
ولما أتينا البحر يُرْهَبُ موجه ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
خلافتك العظمى ومَن لم يَدِنْ بها فإيمانه لغو وعرفانه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه إذا ضلَّ فى أوصاف مَنْ دونك الشعرُ
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت وقد طاب منها السر لله والجهر
ومَدَّتْ إلى الله الأكف ضراعة فقال لهن الله : قد قضى الأمر
وألبسها النعمى ببيعتك التى لها الطائر الميمون والمحتد الحر

(١) المهندة : السيوف ، اشتقوا لها من الهند اسما لأنها كانت تجلب لهم من هناك ، والبتر : أراد جمع الباتر ، وهو القاطع ، ولكن فعلا إنما يقاس جمعا لأفعل

فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا ... وقد كان مما نابه ليس يَفْتَرّ(١)
وأمنت بالسلم البلادَ وأهلها ... فلا ظبية تُعْرَى ولا روعة تعرو
وقد كان مولانا أبوك مُصَرِّحا ... بأنك في أبنائه الولد البر
وكنت حقيقاً بالخلافة بعده ... على الفور، لكن كل شيء له قدر
وأوحشت من دار الخلافة هالة ... أقامت زمانا لا يلوح بها البدر
فردَّ عليك الله حقك إذ قضى ... بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
وقاد إليك الملك رفقا بخلقه ... وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا
وزادك بالتمحيص عزاً ورفعة ... وأجرا، ولولا السبك ما عرف التبر(٢)
وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخْلَفَ القطر
وأنت إذا جار الزمان محكم ... لك النقض والإبرام والنهى والأمر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... مَهِيضٌ، ومن عليا يُلْتَمَسُ الجبر(٣)
غريب يرجِّى منك ما أنت أهله ... فإن كنت تَبْغِي الفخر قد جاءك الفخر
ففز يا أمير المسلمين ببيعة ... موثقة قد حل عروتها الغدرُ
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيا لَمَرِينٍ جاءه العزُّ والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
فإن قيل مال مالك الدَّثْرُ وافر ... وإن قيل جيش عندك العسكر المَجْرُ
يُكَفُّ بك العادى، ويحيا بك الهدى ... ويَبْنِي بك الإسلام ما هدم الكفر
أعده إلى أوطانه عنك راضيا ... وطوّقه نعماك التى مالها حَصْرُ
وعاجِلْ قلوب الناس فيه بجبرها ... فقد صدهم عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصَفْقَة ... تحاولها يمناك ما بعدها خُسْرُ

---

(١) تقول « افتر فلان » إذا بدت أسنانه مما يضحك ، ويكنى بها عن السرور .
(٢) التمحيص : أراد الابتلاء والاختبار (٣) تقول « جناح مهيض » تريد أنه ضعيف ، وأصله قولهم « هاض فلان العظم » إذا كسره بعد ما انجبر

مَرَامُكَ سهل لا يَؤُدُكَ كلفة ... سوى عَرَضٍ ما إن له فى العلا خَطْرُ
وما العمر إلا زينة مستعارة ... تردُّ ، ولكنَّ الثناء هو العمر
ومن باع ما يفنى بباق مخلد ... فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى ... جيادُ المَذَاكى والمحجَّلة الغر
وِرَاد وشُقْر واضحات شِياتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در (١)
وشُهْب إذا ما ضُمِّرت يوم غارة ... مطهمة غارت بها الأنجمُ الزهر
وأسدُ رجالٍ من مَرِين مخيفة ... عمائمها بيض وآسالها سمر
عليها من الماذىِّ كل مُفَاضة ... تدافع فى أعطافها اللجج الخضر (٢)
هم القوم إن هبوا لكشف ملمة ... فلا الملتقى صعب ولا المرتقى وعر
إذا سئلوا أعطوا وإن نوزعوا سَطَوْا ... وإن واعدوا وفوا وإن عاهدوا بروا
وإن مُدِحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم ... نشاوى تمشت فى معاطفهم خمر
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس ... حرامٌ على هاماتها فى الوَغَى الْفَرُّ
وتبسم ما بين الوشيج ثغورُهم ... وما بين قُضْبِ الدَّوْحِ يبتسم الزهر
أمولاى غاضت فكرتى ، وتبلدت ... طباعى ، فلا طبع يعين ولا فكر
ولولا حنان منك داركتنى به ... وأحييتنى لم تبق عين ولا أثر
فأوجدت منى فائتا أىَّ فائت ... وأنشرت ميتا ضم أشلاءه قبر
بدأت بفضل لم أكن لعظيمه ... بأهل ، فجل اللطف وانفرج الصدر
وطَوَّقتنى النعمى المضاعفة التى ... يقل عليها منىَ الحمدُ والشكر
وأنت بتتميم الصنائع كافل ... إلى أن يعود الجاه والعز والوَفْرُ
جزاك الذى أسنى مقامك عصمةً ... يُفَكُّ بها عانٍ وينعش مضطر
إذا نحن أثنينا عليك بمدحة ... فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر

(١) الوراد ـ بكسر الواو وفتح الراء ـ جمع ورد ـ بفتح فسكون ـ وهو الفرس بين الأشقر والأسود ، وشقر : جمع أشقر ، وهو من الخيل الذى لونه الحمرة
(٢) الماذى ، هنا : كل سلاح من الحديد ، وأراد بالمفاضة الدرع .

ولـكننا نأتى بما نستطيعه ومن بذل المجهود حق له العذر

فلا تسأل عن امتعاض و إنغاض(١)، وسداد أنحاء فى التأثر لنا وأغراض ، والله أغالب على مره .

وفى صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه إلى الأندلس وقد ألحَّ صاحب قشتالة فى طلبه ، وترجح الرأى على قصده ، فقعد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة ، و برز الناس وقد أسمعهم البريح ، واستحضرت البنود والطبول والآلة ، وألبس خلعة الملك ،وقيدت له مراكبه ، فاستقل، وقد التفَّ عليه كل من جلا عن الأندلس من لَدُن الـكائنة فى جملة كثيفة ، ورأى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة ، إلى كونه مظلوم العقد ، منتزع الحق، فتبعته الخواطر ، وحميت عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن بُرُنْدة مستقل بهاو بجهاتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن على بن يوسف بن كماشة الحضرمى ، و بكتابته الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرَك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح مالا ينكر ، كان الله لنا وله بفضله ! انتهى كلام لسان الدين بن الخطيب فى « اللمحة البدرية » .

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة ، واستبد بملك الأندلس ، وعاد لسان الدين إليه حسبما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه الله تعالى فى كتاب من إنشائه على لسـان سلطانه الغنى بالله ، وخاطب به ملك الحرمين ومصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ، وقد ذكرنا منه مايتعلق بالأندلس فى الباب الثانى من القسم الأول ، وقال بعد ذلك فيما يتعلق

(١) فى ب « وانتغاض » وإنغاض : مصدر « أنغض فلان رأسه » إذا حركه كالمتعجب ، وفى القرآن الـكريم : « فسينغضون إليك رءوسهم » . وفى « اللمحة البدرية » للسان الدين « وانتفاض »

من خطاب للسان الدين عن سلطانه بعد عوده لملكه

بالخلع المذكور ما نصه : ولماصير الله إلينا تراثهم الهنى ، وأمرهم السنى ، و بناءهم العادى ، وملكهم الجهادى ، أجرانا ـ وله الطَّوْل ـ على سننهم ، ورفع أعلامنا فى هضابهم المشرفة وقُنَنِهم ، وحملنا فيهم خير حمل ، ونظم بنا لهم أى شَمْل ، وألبس أيامنا سلما فسح الدارة ، وأحكم الإدارة ، وهنأ الإمارة ، ومكن العمارة ، وأمن فى البحر والبر السيارة والعبارة ، لولا ما طرقهم فينا من تمحيص أجلى عن تخصيص ، وتمحَّصَ تبره بعد تخليص ومَرَام عَويص ، نبثكم بَثَّه ، ونوالى لديكم حثه ، ونجمع مُنْبَثَّه ، فإن فى الحوادث ذكرا ، ومعروف الدهر لايؤمن أن يعود نُكْرا ، وشر الوجود معاقَبٌ بخيره ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والحزم أفضل ما إليه ينتسب ، وعقل التجربة بالمرانة يكتسب ، وهو أن بعضا ممن ينسب إلينا بوشائج الأعراق ، لا بمكارم الأخلاق ، و يمتُّ إلينا بالقرابة البعيدة ، لا بالنصبة السعيدة ، ممن كفلناه يَتيما ، وصُنَّاه ذميما شئيما ، و بوّأناه مُبَوّأ كريما ، بعد أن نشأ حرفوشا دميما ، وملعونا لئيما ، ونوّهناه من خموله بالولاية ، ونسخنا حكم نسجه بآية العناية ، داخل إخاء لنا كنا ألزمناه الاقتصار على قَصْره ، ولم نجعل أداة تدل على حَصْره ، وسامحناه فى كثير من أمره ، ولم نرتب بزَيْدِه ولا عَمْره ، واغتررنا برَمَاد علا على جَمْره ، فاستدعى له من الصعاليك شيعة ، كل دَرِبٍ بفك الأغلاق ، وتسرب أنفاق النفاق ، وخارق للإجماع والإصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفُسَّاق ، وتسور بهم القلعة من ثلم شرع فى سدّه ، بعد هده ، ولم تكمل الأقدار المميزة فى ليلة آثرنا مبيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من يضطلع بأمورنا ، فاستتم الحيلة التى شرعها ، وافتتح القلعة وافترَعها ، وجدّل حَرَس النوبة وصَرَعها ، وكبس محل النائب عنا وجَدَّله ، ولم ينشب أن جدّله[1] ، واستخرج الأخ البائس فنصبه ، وشدبه تاج الولاية وعَصَبه ، وابتز أمرنا وغصبه ، وتوهم

---

(١) « جدله » فى الفقرة الأولى فعل ماض مقترن بضمير الغائب ، أى صرعه على الجدالة وهى الأرض ، و « جدله » الثانية فعل ماض من الجد ولام الجر وضمير الغائب ، أى اجتهد له .

الناسُ أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بنا قد ألمت ولقد همت ، فخذل الناصر ، وانقطعت الأواصر ، وأقدم المتقاصر ، واقتحمت الأبهاء والمقاصر ، وتفرقت الأجزاء وتحللت العناصر ، وفقد من عين الأعيان النور الباصر ، فأعطوه طاعة معروفة ، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة ، وركضنا وسَرْعَانُ الخيل ثقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفى علينا السماء والله يكفيها ، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادى آش خلوص القمر من السِّرار ، لا نملك إلا نفسا مُسَلِّمة لحكم الأقدار ، ملقية لله مَقَادة الاختيار ، مسلوبة بموجب الاستقرار ، وناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار ، واستبصروا فى الدفاع عنا أتم الاستبصار ، ورَضُوا لبيوتهم المُصْحِرة ، و بساتينهم المستبحرة ، بفساد الحديد وعياث النار ، ولم يرضوا لجوارهم بالإخفار ، ولا لنفوسهم بالعار ، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الأقلام سبحا طويلا ، وتوسعها الشجون شرحا وتأويلا ، وتلقى القصص منها على الآذان قولا ثقيلا ، وجُزنا البحر وضلوعُ موجه إشفاقا علينا تخفق ، وأكف رياحه حسرةً تصفق ، ونزلنا من جناب سلطان بنى مَرِين على المَثْوَى الذى رَحُب بنا ذَرْعُه ، ودل على كرم الأصول فَرْعُه ، والكريم الذى وهب فأجزل ، ونزل لنا عن الصَّهْوة وتنزل ، وخير وحكم ، ورد على الدهر الذى تهكم ، واستعبر وتبسم ، وآلى وأقسم ، و بَسْمَل وقدّم ، واستركب لنا واستخدم ، ولما بدا لمن وراءنا سيئاتُ ما كسبوا ، وحققوا ما حسبوا ، وطفا الغُثَاء ورَسَبوا ، ولم ينشب الشقى الخزى أن قتل البائس الذى موّه بزيفه ، وطوّقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه ، إذ أمن المضعوف من كيده ، وجعل ضرغامه بازيًا لصيده (١) ، واستقل على أريكته ، استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة ، مستظهرا بأول الجهالة والجهامة ، وساءت فى محاولة عدوّ الدين سيرته ، ولما حصحص الحق

---

(١) يشير بهذه الفقرة إلى قول أبى الطيب المتنبى :

ومن جعل الضرغام بازا لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

انكشفت سريرته ، وارتابت لجبنه المستور جيرتُه ، وفتح عليه طاغية الروم فمه ، فالتقمه ، ومد عليه الصليبُ ذراعه ، فراعه ، وشد الكفر عليه يده ، فما عضده الله ولا أيَّده ، وتخرمت ثغور الإسلام بعد انتظامها ، وشكت إليه باهتضامها ، وغصت بأشلاء عباد الله وعظامها ، ظهورُ أوضامها ، ووكلت السنة والجماعة ، وانقطعت من النجع الطَّماعة ، واشتدت المجاعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ، وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسيرا ، ورياحُه لا تعرف فى غير وجهتنا مَسيرا وكأن ماءه ذوب لقى إكسيرا ، ونهضنا يتقدمنا الرعب ويَتَقدَّمُنا الدعاء ، وتجاجئ بنا الإشارة ويخفرنا الاستدعاء ، وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة ، والإخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا مختومة ، وأخذت الخائن الصيحة فاختبل ، وظهر تهوّره الذى عليه جُبِل ، فجمع أوباشه السِّفْلَة وأوشابه ، وبَهْرَجه الذى غش به المحض وَشابه ، وعمد إلى الذخيرة التى صانتها الأغلاق الحريزة ، والمعاقل العزيزة ، فملأبها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق والوُشُحَ والقراطق ، واحتمل عُدَدَ الحرب والزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة[1] ، ودَوْلَةُ بغيه الزائلة ، أن يقصد طاغية الروم بقَضِّه وقَضِيضه ، وأوْجِهِ وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الأمة المسلمة ، فلم يكن إلا أن تحصل فى قَبْضته ، ودنا من مضجع رَبْضَته ، واستشار نصحاءه فى أمره ، وحكم الحيلة فى جناية غدره ، وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، وألحق به جميعَ مَنْ أمدّه فى غيه ، وظاهره على سوء سَعْيه ، وبعث إلينا برؤسهم فنصبت بسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها ، وأصبحت عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين ، وأحق الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين

---

(١) أخذه من قول سعد بن قرط :

يا ليما أمنا شالت نعامتها | أيما إلى جنة أيما إلى نار

وعدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته ، بعد كيته وكيته ، أو العقد إلى جيدِه ، بعد انتثار فَرِيده ، أو الطير إلى وَكْره ، مُفلتا من غَوْل الشرك ومكره ، ينظر الناس إلينا بعيون لم ترومذ غِبْنَا من مُحَيَّا رحمة ، ولا طَشَّتْ عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة فى ذِمَّة ، ولا ركنت لدين ولا همة ، فطوينا بساط العتاب طى الكتاب ، وعاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب ، وآنسنا نفوسَ أولى الاقتراف (١) بالاقتراب ، وسَهَّلنا الوصول إلينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا ، فلا تسألوا عما أثار ذلك من استدراك نَدَم ، ورسوخ قَدَم ، واستمتاع بوجود بعد عدم ، فسبحان الذى يُمَحِّص (٢) ليثيب ، و يأمر بالدعاء ليجيب ، و ينبه من الغفلة و يهيب ، ويجتبى إليه مَنْ يشاء ويَهْدى إليه من ينيب (٣) ، ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسبيبا للمفاتحة المعتمدة ، وتمهيدا للموالاة المجدّدة ، فأخبار الأقطار مما تنفقه الملوك على أسمارها ، وتَرْقُم ببدائعه هالات أقمارها ، وتستفيد منه حسنَ السير ، والأمان من الغِيَر ، وتستعين على الدهر بالتجارب ، وتستدل بالشاهد على الغائب ، و بلادُكم ينبوعُ الخير وأهله ، ورواقُ الإسلام الذى يأوِى قريبه و بعيدُه إلى ظله ، ومطلع نور الرسالة ، وأفق الرحمة المنثالة ، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط أفلاكها ، وتتخلل مداريها المذهبة غدائر أحلاكها ، وتستعلى البدور ، ثم يدعوها إلى المغرب الحدور ، وتطلع الشمس متجردة من كمائم ليلها ، متهادية فى دركات ميلها ، ثم تسحب إلى الغروب فَضْلَ ذيلها ، ومن تلقائكم ورد العلم والعمل ، وأرعى الهمل ، فنحن نستوهب من مظان الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد ، ويعدل منه الشىء بالمال والعدد ، ففى دعاء المؤمن بظَهْر الغَيْب ما فيه مما ورد ، و إياه سبحانه نسأل أن يدفع عنا وعنكم دواعى الفتن ، وغوائل المِحَن ، ويحملنا على سَنَن السُّنَن ،

(١) أولى الاقتراف : المذنبين الذين اقترفوا الذنوب وارتكبوا الجرائم

(٢) يمحص : يبتلي ويختبر (٣) أناب إلى الله : رجع

ويلبسنا من تقواه أوقى الجُنَن(١)، وهو سبحانه يصل لأبوّتكم ما تستقل لدى قاضى القضاة رسومه ، فتكتب حقوقه وتكبت خصومُه ، ولا تكلفه الأيام ولا تسومه ، بفضل الله وعزته ، وكرمه ومنته ، والسلام الكريم الطيب المبارك بَدْأً بعد عَوْد ، وجَوْدًا(٢) إثر جَوْد ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

وللسان الدين بن الخطيب رحمه الله عن سلطانه المذكور كتاب آخر فى هذه الكائنة إلى كبير الموحدين أبى محمد عبد الله بن تفراجين ، ولعلنا نذكره إن شاء الله تعالى فى الباب الخامس من هذا القسم ، عند تعرضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه الله تعالى !.

رواية ابن خلدون فى خلع ابن الأحمر

وقد ساق هذه القضية قاضى القضاة الشهير الكبير ولى الدين عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمى رحمه الله تعالى فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان الشهير أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المَرِينى صاحب المغرب مما نصه : الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومَقْتَل رضوان ومقدمه على السلطان - لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونصب ابنه محمد للأمر واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته ، فلما عدلوا بالأمر عنه حَجَبُوه ببعض قصورهم ، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل ابن ابن الرئيس أبى سعيد ، فكان يدعوه سرا إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصة فى الدولة بخروج السلطان إلى بعض منتزهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين فى أوشاب جَمَعَهم من الطَّغام لثورته ، وعمد إلى دار الحاجب رضوان ، فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسَه وركب ، فأدخلوه القصر وأعلنوا ببيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفر السلطان من مكانه بمنتزهه ، فلحق بوادى آش ، وغدا الخاصة

---

(١) الجنن : جمع جنة - بضم الجيم فى المفرد والجمع - وهى الوقاية

(٢) الجود - بفتح فسكون - المطر الغزير ، وقد يقع « الجود » وصفا فيقال « أمطرتنا سماء جود » أى تجود بالمطر

والعامة على إسماعيل ، فبايعوه ، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لأشهر من بيعته ، واستقل بسلطان الأندلس ، ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادى آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالمولى السلطان أبى سالم ، امتعض لمهلك رضوان وخَلْع السلطان رَعْياً لما سلف له فى جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادى آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب كانوا اعتقلوه لأوّل أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه ، ولحق مع الرسول أبى القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادى آش للاجازة إلى المغرب ، وأجاز لذى القعدة من سنته ، وأقدم على السلطان بفاس ، وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه ، وغص بالمشيخة والعلية ، ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرته على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ثم سرد ابن خلدون القصيدة ، وقد تقدمت .



ثم قال بعد ما صورته : ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نُزُله(١) ، وقد فرشت له القصور ، وقربت الجياد بالمراكب الذهبية ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجى وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدبا مع السلطان ، واستقر فى جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره ، انتهى المقصود جَلْبه من كلام ابن خلدون فى هذه الواقعة ، وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق فى اللمحة البدرية ،

---

(١) النزل ـ بضم النون والزاى ، بزنة العنق ـ المكان المعد لإنزال الضيفان ، والنزيل : الضيف ، وفى القرآن الكريم : (كانت لهم جنات الفردوس نزلا)

إذ قال فيها : إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمان وعشرين من رمضان ، وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه ، والخطبُ سهل ، وقال فى « اللمحة » إن انصراف السلطان من وادى آش كان ثانى يوم النحر ، وقال ابن خلدون فى ذى القعدة ، ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة ، ورائية ابن الخطيب التى ذكرها هى من حُرِّ كلامه وغُرَرِ شعره ، على أنه كله غرر ، إذ جمع فيها المطلوب فى ذلك الوقت بأبدع لفظ وأحسن عبارة فى ذلك المحفل العظيم ، ولم نزل نسمع فى المذاكرات بالمغرب أنه لما انتهى فيها إلى قوله * فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر * قال له بعض مَنْ حضر ولعله أراد الغض منه : أحسنت يا وزير فيما قلت ، وفى وصف الحال والسلطان ، غير أنه بقى عليك شىء ، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بنى مَرِين وهم مَنْ هم ، ولا ينبغى السكوت عنهم ، فارتجل ابنُ الخطيب حينئذ قوله « ومن دون ما تبغيه ـ إلى آخره » حتى تخلص لمدح بنى مَرِين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه ، ثم قال بعد ذلك معتذراً « أمولاى غاضت فكرتى ـ إلى آخره » وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبى تمام فى سينيته حيث قال « لا تنكروا ضَرْبى له ـ البيتين »(١) لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط ، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتا ، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال ، فأين فأين الحال من الحال ؟

وقد كرر ابن خلدون رحمه الله تعالى فى تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه فى موضع آخر ، ولنذكره و إن سبق بعضه لاشتماله على منشأ الوزير لسان الدين ، وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكه فنقول : قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبد الله والد لسان الدين وأنه انتقل من لَوْشَة إلى غَرْنَاطة ، واستخدم لملوك

(١) يروى أن أبا تمام مدح ابن المعتصم بقوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم　　فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقيل له : ما زدت على أن شبهت الأمير بمن لا وزن له ، فقال على البديهة :

لا تنكروا ضربى له من دونه　　مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره　　مثلا من المشكاة والنبراس

لابن خلدون فى نشأة لسان الدين ونهايته

بنى الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ما محصله : ونشأ ابنه محمد هذا ، يعنى لسان الدين بن الخطيب بغرناطة ، وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيْل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز فى الطب ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ من حول اللسان نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ فى الشعر والترسيل بحيث لايجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكتاب ببابه مرؤسا بأبى الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سَلَفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه ، فاستبد ابنُ الخطيب برياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدْوة ، ثم داخله السلطان فى تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالا ، وبلغ به فى المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله ، وسَفَر عنه إلى السلطان أبى عنان ملك بنى مَرِين بالعُدْوة معزيا بأبيه السلطان أبى الحسن فجَلَّى فى أغراض سفارته ، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عَدَا عليه بعضُ الزعانف فى سجوده للصلاة ، وطعنه فأشْوَاه ، وفاظ لوقته ، وتعاورت سيوفُ الموالى المعلوجى هذا القاتل ، فمزقوه أشلاء ، وبويع ابنُه محمد لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، وجُعِل ابنُ الخطاب رديفا لرضوان فى أمره ، ومشاركا فى استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان مستمدين منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها

واستأذنه فى إنشاد شعر قدمه بين يدى نَجْواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفَةَ الله ساعَدَ القــــدرُ علاكَ ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كفُّ قدرته ماليس يسطيع دفعه البشر
وَجْهُكَ فى النائبات بدرُ دجى لنا وفى المَحْلِ كفُّكَ المطر
والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن فى غير عليـاك ماله وطر
ومن به مذ وَصَلْتَ حبلهم ماجحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم فوجهونى إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له فى الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردهم بجميع ما طلبوه ، وقال شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف ، وكان معه فى ذلك الوفد : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه فى جده الرئيس أبى سعيد ، وتحين خروج السلطان إلى منتزهه خارج الحمراء ، وتسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان فى بيته فقتله ، ونصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبى الحجاج بما كان صهره على شقيقته ، وكان معتقلا بالحمراء ، فأخرجه ، وبايع له ، وقام بأمره مستبداً عليه ، وأحس السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجيا إلى وادى آش ، وضبطها ، و بعث بالخبر إلى السلطان أبى سالم إثرما استولى على ملك آبائه بالمغرب ، وقد كان مثواه أيام أخيه أبى عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيسُ القائم بالدولة هذا الوزيرَ ابن الخطيب وضيق عليه فى محبسه ، وكانت بينه و بين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالبا على هوى السلطان أبى سالم ، فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادى آش يعده زبونا على أهل الأندلس ، ويكف به

عادية القرابة الموشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس فى تسهيل طريقه من وادى آش إليه ، و بعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمسانى ، وحمله مع ذلك الشفاعة فى ابن الخطيب وحل معتقله ، فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادى آش ، وسار فى ركاب سلطانه ، وقدموا على السلطان أبى سالم ، فاهتز لقدوم ابن الأحمر ، وركب فى الموكب لتلقيه ، وأجلسه إزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصرته ، فوعده ، وكان يوما مشهوداً ، ثم أكرم مَثْوَاه ، وأرغد نزله ، ووفر أرزاقَ القادمين مع ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب فى الجراية والأقطاع ، ثم استيأس واستأذن السلطان فى التجوال بجهات مراكش والوقوف على أعمال الملك بها ، فأذن له ، وكتب إلى العمال بإتحافه ، فتباروا فى ذلك ، وحصل منه على حظ ، وعند مامر بسَلاَ إثر قُفُوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبى الحسن ، وأنشد قصيدة على روى الراء يرثيه و يستجير به فى استرجاع ضياعه بغرناطة ، مطلعها :

إن بان منزله وشَطَّتْ داره ... قامت مَقَامَ عِيانه أخبارُهُ[1]

قسم زمانك عبرة أو عبرة ... هٰذِى ثراه وهذه آثاره[2]

فكتب السلطان أبو سالم فى ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشفَّعوه ، واستقر هو بسلا منتبذا عن سلطانه طول مقامه بالعُدْوة ، ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، و بعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد ، والقائمُ بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد الله بن على ، فاستقدم ابن الخطيب من سلا ، و بعثهم لنظره ، فسر السلطان لقدومه ، ورده إلى منزلته

---

(١) بان منزله : بعد ، وشطت داره : بمعناه ، والعيان ـ بكسر العين ـ المعاينة والمشاهدة

(٢) العبرة ـ بكسر العين وسكون الباء ـ الاعتبار والاتعاظ ، والعبرة ـ بفتح العين وسكون الباء ـ الدمعة ، وفى ابن خلدون « عبرة أو غبرة »

كما كان مع رضوان كافله ، وكان عثمان بن يحيي بن عمر شيخ الغُزَاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية ملك النصارى فى ركاب أبيه عند ما أحس بالشر من الرئيس صاحب غَرْنَاطة ، وأجاز يحيي من هنالك إلى العُدْوة ، وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان فى مَثْوى اغترابه هنالك ، وتقلب فى مذاهب خدمته ، وانحرفوا عن الطاغية عند ما يئسوا من الفتح على يده ، فتحولوا عنه إلى ثغور بلادهم ، وخاطبوا الوزير عمر بن عبد الله فى أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التى لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفتح ، وخاطبنى السلطان المخلوع فى ذلك ، وكانت بينى وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ، وخاصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله ، وحملته على أن يرد عليه مدينة رُنْدَة إذ هى من تراث سلفه ، فقبل إشارتى فى ذلك ، وتسوّغها السلطان المخلوع ، ونزل بها ، وعثمانُ بن يحيي فى جملته ، وهو المقدم فى بطانته ، ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركابا للفتح ، وملكها السلطان ، واستولى بعدها على دار ملكه بغَرْنَاطة ، وعثمانُ بن يحيي متقدّم القدم فى الدولة ، عريق فى المخالصة ، وله على السلطان دلة واستبداد على هَوَاه ، فلما وصل ابنُ الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعاده إلى مكانه فى الدولة من علوّ يده ، وقبول إشارته ، أدركته الغيرة من عثمان ، ونَكِرَ على السلطان الاستكفاء(١) به ، وأراه التخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره السلطان ، وأخذ فى التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوته فى رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وأودعهم المطبق ، ثم غربهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجوّ ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابنُ الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابَه الخاصةُ والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعايات

---

(١) نكر — بفتح النون وكسر الكاف — أنكر ، وفى التنزيل : (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم) والاستكفاء : طلب الكفاية به ، أو اعتباره كافيا إياه فى مهامه

فيه ، وقدهَّمَ السلطان عن قبولها ، ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمر عن ساعده فى التفويض ، واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ملك العُدْوة يومئذ فى القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ابن السلطان أبى على ابن السلطان أبى سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، كانوا قد نصبوه شيخا على الغُزَاة بالأندلس لما أجاز من العُدْوة بعد ما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة فى كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بنى مَرين ، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساى ، ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة وستين وسبعمائة ، فأكرم نزلهم ، وتوفى على بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه ، وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقع انتقاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرُّ بها فى بنى مَرين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب فى اعتقال ابن أبى يفلوسن وابن ماساى وإراحة نفسه من شغبهم على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس ، وكاتبه أبى يحيى بن أبى مدين ، وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبى يفلوسن وابن ماساى ، فقبض عليهما واعتقلهما ، وفى خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه (١) ، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور ، وسار إليها فى لُمة (٢) من فرسانه ، وكان معه ابنه على الذى كان خالصة للسلطان ، وذهب لِطِيته ، فلما حاذى جبل الفتح فُرْضَة المجاز إلى العُدْوة مال إليه ، وسرح إذنه بين

(١) أحفظوه عليه : أثاروا حفيظته ، والحفيظة ــ بفتح الحاء ــ الغضب، فكأنه قال : أغضبوه عليه

(٢) لمة ــ بضم اللام وتشديد الميم ــ الفرقة والجماعة

يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة ، وتلقاه وُلاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس فى طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون له فى شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وإبداء ما كان كامنا فى نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحْصَوْها عليه ونسبوها، ورفعت إلى قاضى الحضرة أبى الحسن بن الحسن ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضى ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصم عن ذلك ، وأنف لذمته أن تخفر ، ولجواره أن يرد ، وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جِوَارى ، ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس فى جملته ، فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنومَرِين إلى المغرب وتركوا تلمسان سار هو فى ركاب الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، فنزل بفاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق فى بناء المساكن واغتراس الجنان ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التى رسمها له السلطان المتوفى ، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره ، انتهى .

حديث ابن خلدون عن نهاية لسان الدين

وقال ابن خلدون فى تاريخه ماصورته : كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رُندة إلى ملكه بغرناطة فى جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقَتَل له الطاغية عدوَّه الرئيس المنتزى على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى

على كرسيه ، واستقلّ بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه[١] ، وعقدله على وزارته ، وفوّض إليه فى القيام بملكه ، فاستولى عليه ، وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه ، إلى أن نزلت به آفة فى رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبى الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبى على ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبدالرحمن ابن أبى يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه[١] لنجواه ، ورفع فى الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زَنَاتة مكان بنى عمه من الأعياص ، فكانت له آثار فى الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب ساعيا فى مرضاته عند سلطانه ، فدس إليه باعتقال عبدالرحمن بن أبى يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساى ، وأدار ابن الخطيب فى ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما إلى أن سطابهما ابنُ الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ، وتغير الجوّ بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب ، وأظلم ، وتنكرله ، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ، ومهد من السوابق ، فقبله السلطان ، وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابن الأحمر فى أهله وولده ، فبعثهم إليه ، واستقر فى جملة السلطان ، ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر ، فرغَّبَ السلطان عبد العزيز فى ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمى ذلك[٢] إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجى السبى وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسْلاَمَ وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره ، ولما هلك السلطان

---

(١) استخلصه : جعله من خلصانه ومن يركن إليهم ، وفى القرآن الكريم : (ائتونى به أستخلصه لنفسى) (٢) نمى ذلك إليه – بالبناء للمجهول – بلغه ، وتقول « نمى فلان الحديث ينميه – مثل رمى يرمى » تريد أنه نقله

واستبدّ الوزير ابن غازى بالأمر تحيَّزَ إليه ابن الخطيب ، وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر بمثل فيه ما خاطب السلطان عبد العزيز ، فلجَّ واستنكف عن ذلك ، وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن[1] وأركبه الأسطول ، وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساى ، ونهض - يعنى ابن الأحمر - إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيراً تركته لطوله ، وملخصه أن الوزير أبا بكر ابن غازى الذى كان تحيز إليه ابنُ الخطيب ولَّى ابنَ عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو - أعنى الوزير - إلى منازلة عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقاتله أياما ثم رجع إلى تازا ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأى إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم ، وهو المعروف بذى الدولتين ، وهذه هى دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح ، وأخذ بمُخَنَّقه وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعتب له ، وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازى من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابنُ الأحمر فى ذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله فى البيعة لابن السلطان أبى سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطانا ولا يتركهم فوضى وهملا تحت ولاية الصبى الذى لم يبلغ ولا تصبح ولايته شرعا ، وهو السعيد بن أبى فارس الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازى بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمد بن أبى سالم

---

(١) يقع هذا الاسم فى ابن خلدون تارة « يفلوسن » بالنون ، وتارة أخرى « يفلوس » بغير نون

من بين أولئك الأبناء لماسبق بينه وبين أبيه أبى سالم من المواتّ(١) ، وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحِزْبِهِ شروطا : منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذى هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبنـاء الملوك من بنى مَرِين ؛ ليكونوا تحت حَوْطته ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه ، فانعقد أمرهم على ذلك ، وتقبَّل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه ، وحمل الناسَ على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا و بايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتح فبـايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم ، و بعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليـــه ، ودخله ، ومحادولة بنى مرين ممـا وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبى العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره ، ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبى بكر بن غازى قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يُمَوه بأن هذا عن أمره ، فتبرأ من ذلك ، ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتـلَّ له بانعقاد البيعة لأبى العباس ، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى مارامه منه(٢) بلغهُ الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمه ، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبـد الرحمن بن أبى يفلوسن ، فاهتبل فى غيبته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو سمائة ، وعسكر آخر من الغزاة ، و بعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ومظاهرته واجتماعهما على ملك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك

(١) المواتّ : جمع ماتة ، وهي الأمر الذى يتوسل به ، تقول « مت فلان إلى فلان بكذا » أى توسل إليه به ، ووقع فى ب « من المواتى »
(٢) رامه منه : طلبه

سلفه ، فتراضيا ، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس ، و بلغ الخبر إلى الوزير أبى بكر بمكانه من تازا ، فانفضّ معسكره ، ورجع إلى فاس ، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاختل مصافه ، ورجع على عقبه مفلولا[١] ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الجديد ، وجأجأ بالعرب أولاد حسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف ، وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزَنَاتة ، و بعثوا إلى ولى دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذى اختطه بملوية ، فجاءهم ، وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ، فاجتمعوا بوادى النجا ، وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين و برز إليهم الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ، وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الريق ، واضطرب معسكر السلطان أبى العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ، ووصلهم مَدَدُ السلطان ابن الأحمر ، فأحكموا الحصار ، وتحكموا فى ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس ، فهدموها وعاثوا فيها ، ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان ، لكون الحصار قد اشتد به ويئس وأعجزه المال ، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة ، فعقدوا له على كره ، وطَوَوْا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان ، و بايعه ، واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش ، واستولى عليها ، انتهى .

---

(١) فى ب « مغلولا » بالغين المعجمة ــ تحريف

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر فى تاريخه ماصورته : لما لحق الرئيس أبو عبدالله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة ، وكان من وفاة مجيره والحامى عنه السلطان عبد العزيز ما ألمعنا بذكره شدَّ الوزير أبو بكر بن غازى يده على ابن الخطيب بانيا على أشد الأشياء ألا يُسْلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء ، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبدالعزيز فى إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمُقْذِع من مُوبِقات ابن الخطيب ، ولج فى الغُلَوَاء ، وسجل موجبات الوفاء ، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد ، والأساطيل تتجهز ، والآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب ويتخير ، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح ، وكان إذ ذاك راجعا إلى إيالة المغرب ، فأناخ عليه كلكل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاط والجُؤَار(١) من باب الشطائين قريب ، والخالصة من الثقات مستريب ، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب ، ولم يبق بغَرْناطة مَنْ له خلوص ، ولا من تترامى به همة إلا وأعمل السير الحثيث(٢) ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب ، حتى أهلُ العلم ، والرجاحة والحلم ، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبى سعيد قطب الجملة ، وعميد الملة ، وهو الذى بلغنا نظمه فى هذه الوجهة ، وعندما ألقى عصا التسيار فى الجهة القريبة من أولى العداوة ، ومن ذلك قصيدته المشهورة التى أولها :

أيا جَبَلَ الفتح استَمَلْتَ نفوسنا — فلا قلب إلا نحو مَغْناكَ قد سبق

فأرسلت إذ جئناك فينا صواعقا — تخال بها جوّ السماء قد انطبق

وقوله فى إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئا معجبا رحمة الله تعالى عليه :

وذمّوا وما يعنون إلا مذمما — وأنت - بحمد الله - تدعى محمدا

---

(١) الجؤار — بضم الجيم — رفع الصوت (٢) السير الحثيث : السريع

وقول حامل اللواء الآتى ذكره فى تضاعيف الأسماء :

أمَّا مَرَامك فى عِراض البيد ... فمبلِّغٌ ما شئت من مقصود(١)
والهجر إنْ ألفته ألسنة العدا ... يأباه فضلُ مقامِك المحمود
سحقالهم سفهاء كل قبيلة ... شذت مقالتهم عن المعهود
قد ضلت الأحلام منهم رشدها ... هذا ، ومنك الحلم غير بعيد
مع عزمة لو شئت هدَّتْ كل ما ... قد أحكموا من معلم ومَشِيدِ

إلى أن قال : الخبر عن اجتماع الأميرين أبى العباس وأبى زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبى بكر بن غازى بن الكاس، وكتب الرئيس أبو عبد الله بن زَمْرك فى ملخص(٢) هذه الكائنة حث الوزير محمد بن عثمان السير فى وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة ، وتلاقى بسلطانه أبى العباس مع الأمير أبى زيد عبد الرحمن ، واستقلا بالطائلة ، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبى بكر بن غازى فى متسع الخطة ورحيب ذرع الخلافة ، وتصالحا عن رضا وتسليم منهما ومن أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان فى طنجة من الأمراء ، واتصل السلطان عبد الرحمن بمراكش ، فكان ملكها ، وجابى أموالها ، وتملك السلطان أبو العباس مدينةَ فاس وما والى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوى عليه ملك المدينة البيضاء برا و بحرا

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملكها بقوله : و إلى هذا فقد ارتفع الالتباس ، واطرد القياس ، وغيرُ خفىٍّ عن ذى عقل سليم ، وذى تفويض للحق وتسليم ، أن دار الملك المرينى كامة بلا زهر ، ورياض بلا نهر ، إن لم يقتعد كرسيها ، من يزين جيدها و يجيد حليها ، وآن أوان البشرى أن يمتعض للدين ، والآن قلادة التقوى مَنُوطة

---

(١) البيد — بكسر الباء — جمع بيداء ، وهى الصحراء، وعراضها : الواسعة منها
(٢) فى ب « مخلص »

بقلم أعلام الملوك المهتدين ، ثم ذكر ما يطول من فصول ، وربما اشتملت على فضول ، وملخصه مثل ما ذكر ابن خلدون .

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون ـ بعد ماتقدّم جَلْبه من تاريخه ـ الكلام على محنة لسان الدين بن الخطيب ووفاته مقتولا رحمه الله تعالى فقال ماصورته[١] :

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتحَ ستٍّ وسبعين استقل بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه ، وسليمان بن داود بن اعراب كبير بني عسكر رديفه ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر ـ عند ما بويع بطنجة ـ على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نمى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طَنْجة ولقيه أبو بكر بن غازى بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان، ولازمه بالحصار ، أوى معه ابنُ الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر ، وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغُزَاة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى ملكه ، فلما استقرّ إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرا عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضيا عهده من السلطان ، فصده الوزيرُ ابن الخطيب عن ذلك ، محتجا بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص[٢] الملك من بني عبد الحق ، لأنهم يعسوب زَنَاتة ، فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يحْفظه مما كمن في صدورهما[٣] ، وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعدَ ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله

---

(١) في بعض ما هنا مخالفة لما جاء في تاريخ ابن خلدون (٧/٣٤١)

(٢) في ب «لأعياض» بالضاد معجمة (٣) يحفظه : يغضبه ، وكمن : استتر وخفي

ابن زَمْرَك ، فقدم على السلطان أبى العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه فى المحبة ، فعظم النكير فيها ، فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم نقل إلى محبسه ، واشْتَوَرُوا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زَعَانفة جاؤا فى لفيف الخدم مع سُفَرَاء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقا فى محبسه ، وأخرج شِلْوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على سافة قبره طريحا ، وقد جُمعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان ، واعتدّوها من هَنَاته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد .

أبيات قالها لسان الدين وهو فى السجن

وكان - عفا الله تعالى عنه ! - أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتُجْهِش هَوَاتِفُه بالشعر يبكى نفسه ، ومما قال فى ذلك رحمه الله تعالى :

بعدنا و إن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صُمُوتْ
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت (١)
وكنا شموسَ سماء العُلاَ ... غربنا فناحت علينا السموت (٢)
فكم جدلت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كم جَدَّلته البخوت (٣)
وكم سيق للقبر فى خرقة ... فتى ملئت من كُساه التُّخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ، ومَنْ ذا الذى لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له ... فقل : يفرح اليوم من لا يموت

(١) عظاما الأولى : جمع عظيم ، وعظاما الثانية : جمع عظم

(٢) عجز هذا البيت فى ابن خلدون * عزين فناحت عليها البيوت * محرف

(٣) فى ابن خلدون « فكم جزلت ذا الحسام » وفيه « وذو البحث. التحوت »

انتهى كلام ابن خلدون فى « ديوان العبر ».

وقال الحافظ ابن حجر فى « أنباء الغمر » بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل الاختصار، مانصه : واشتهر أنه — يعنى لسان الدين — نظم حين قُدِّم للقتل الأبيات المشهورة التى يقول فيها :

وقل للعداة مضى ابنُ الخطيب وفات فسبحان من لا يفوت[١]

فمن كان يشمت منكم به فقل : يشمت اليوم من لا يموت

والصحيح فى ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولى الدين ابن خلدون أنه نظم الأبيات المذكورة وهو فى السجن ، لما كان يستشعر من التشديد ، انتهى .

ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وَجَّهه إلى ملك الإفرنج فى رسالة ، فلما أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر ، فلما قرأها قال له : مثل هذا كان ينبغى أن لايقتل ، ثم بكى حتى بل ثيابه ، انتهى كلام الحافظ ، و بعضه بالمعنى .

فانظر — سددك الله تعالى ! — بكاء العدوّ الكافر على هذا العَلَّامة ، وقَتْل إخوانه فى الإسلام له على حظ نفسانى ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم ، لا رب غيره .

قلت : ورأيت بحضرة فاس — حاطها الله تعالى ! — تخميسا لهذه الأبيات بديعا منسو با إلى بعض بنى الصباغ ، وزاد فى الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة ، والمزيدُ يشبه نفسَ لسان الدين بن الخطيب ، فلعل ابن خلدون اختصر منها ، أو لم يقف على الزائد ، ولنثبت جملته تتميما للمقصود ، فنقول : قال رحمه الله تعالى :

---

(١) العداة — بضم العين — جمع عاد بمعنى العدو ، بوزن قاض وقضاة وغاز وغزاة ، ولا يكون جمع عدو

(٢) فى ب « مثل هذا كان ينبغى أن يقتل » ولا يصح معه المعنى

تخميس أبيات لسان الدين

أيا جاهلا غره ما يفوت وألهاه حالٌ قليـل الثبوت

تأمل لمن بعد أنس يقوت بَعُدْنا و إن جاورتنا البيوت[(١)]

وجئنا بوعظ ونحن صموت

لقد نلت من دهرنا رفعة تقضت كبرقٍ مضى سرعة

فهيهات نرجو لها رجعة وأصواتنا سكنت دفعة

لجهر الصلاة تلاه القنوت

بدا لى من العز وجه شباب يُؤَمَّلُ سَيْبِي و بأسى يُهاب[(٢)]

فسرعان مزق ذاك الإهاب ومدت وقد أنكرتنا الثياب

علينا نسائجَهَا العنكبوت

فآها لعز تقضَّى مناما منحنا به الجاه قوما كراما

وكنا نسوس أموراً عظاما وكنا عظاما فصرنا عظاما

وكنا نقوت فها نحن قوت

وكنا لدى الملك حَلْىَ الطلى فآها عليـــه زمانا خلا

نعوّض من جِدَةٍ بالبلى وكنا شموس سماء العُلاَ

غربنا فناحت علينا السموت

تعوّدت بالرغم صرف الليالى وحملت نفسىَ فوقَ احتمالى

وأيقنت أن سوف يأتى ارتحالى ومَنْ كان منتظرا للزوال

فكيف يؤمل منه الثبوت

هو الموت يا ماله من نَبَا يجوز الحجاب إلى مَنْ أبى

و يألف أخذ سَنِىّ الْحُبَا فكم أسلمت ذا الحسام الظبا

وذا البخت كم جدَّلته البخوت

(١) كذا فى ب ، ولعله « تأمل لمن بعد أنس يفوت » أو « بعد أنس يموت »

(٢) السيب ـ بفتح السين وسكون الياء ـ العطاء .

هو الموتُ أفْصَحَ عن عجمة وأيقظ بالوعظ من خفقة
وسَلَّى عَنِ الحزن ذا حرقة وكم سيق للقبر فى خرقة
فتى مُلئت من كسَاه التخوت

تقضى زمانى بعيش خصيب وعندى لذنبى انكسار المنيب
وها الموت قد صبت منه نصيبى فقل للعدا ذَهَبَ ابنُ الخطيب
وفات ومن ذا الذى لا يفوت

مضى ابن الخطيب كمن قبله ومن بعده يقتفى سُبْلَه
وهذا الردى ناثر شَمْلَه فمن كان يفرح منهم له
فقل : يفرح اليوم من لا يموت

هو الموت عم فما للعدا يُسَرُّون بى حين ذقت الردى
ومن فاته اليوم يأتى غدا سيبلى الجديد إذا ما المدى
تتابع آحادُه والسُّبوت

أُخَىَّ توخَّ طريق النجاة وقدم لنفسك قبل الممات
وشمر بجدٍّ لما هوآت ولا تغترر بسراب الحياة
فإنك عما قريب تموت

وقد ذكرنى قوله رحمه الله تعالى « فمن كان يفرح منهم له ـ إلى آخره » قولَ بعض العلماء الشاميين :

يا ضاحكا بمن استقلَّ غباره سيثور عن قدميك ذاكَ العِثْيَرُ (١)
لا فارس بجنودها مَنَعَتْ حمى كسرى ، ولا للروم خُلِّد قيصر
جَدَدٌ مضت عادٌ عليه وجُرْهُم وتلاهُ كهلان وعَقَّب حِمْيَرُ (٢)
وسطا بغسَّان الملوك وكِنْدَة فلها دماء عنده لا تُثْأر

(١) العثير ـ بوزن درهم ـ الغبار والتراب .

(٢) الجدد ـ بفتح الجيم والدال جميعا ـ المستوى من الأرض ، وأراد أن هذا طريق معتاد لا يتخلف أحد عن السير فيه .

لعبت بهم فكأنهم لم يخلقوا ونسُوا بها فكأنهم لم يذكروا

وما أحسن قول أبى الخطاب بن دِحْية الحافظ بعد كلام ما صورته : وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان ، وزرت بها قبر صاحب النبى صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمّر سَلْمان ، وأعملت منها السير والإغذاذ ، إلى مدينة بغداذ ، فنظرت إليها معالم وربوعا ، وأقمت بها مرة عاما ومرة أسبوعا وأسبوعا ، وأنا أبدى فى ندائهم وأعيد ، والترب قد علا على منازلهم والصعيد ، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنْشُدُ(١) ، ولسان الحال يجاوبنى و ينشد :

يا سائل الدار عن أناسٍ ليس لهم نحوها مَعَادُ
مرت كما مرت الليالى أين جَدِيس وأين عاد

بل أين أبو البشر آدم الذى خلقه بيده الكبيرُ المتعال ؟ أين الأنبياء من ولده والأرسال ؟ أهلُ النبوّة والرسالة ، والوحى من الله ذى الجلالة ، أين سيدهم محمد الذى فضله عليهم ذو العزة والجلال ؟ وجعله شفيعهم مع أمته والناسُ فى شدائد الأهوال ، أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والأقيال ؟ أين ملوك هَمْدان ؟ أين أولو الأبرق الفرد أو غُمْدان ؟ أين أولو التيجان والأكاليل ؟ أين الصِّيد والبهاليل ؟ بل أين النمارذة وأكبرهم نمروذ إبراهيم الخليل؟ أين الفراعنة ومَنْ هو بالسحر عليم ، الذين منهم فرعون موسى الكليم ؟ أين ملك الهدنانية هدد بن بدد الكردى ، الذى لم يكن غدره بمفيد له ولا مُجْدى ؟ وقد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غَصْبا(٢) ، وزعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رُعْبا ، ويَسُوم أصحابه قتلا وصَلْبا ، مع الطمع فى المال ، وعدم النظر فى عقبى المآل ، أين الفرس وملوكها ، وعدلها وعدولها ؟ أين دارا بن دارا بن بهمان ؟ أين إسكندر بن فلبس

---

(١) « أنشد » هنا : مضارع قولهم « نشد فلان الضالة ينشدها » إذا طلبها .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى والخضر (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) .

اليونانى الذى غلبه وملك بلاده فى ذلك الزمان ؟ وأطاعه جميع ملوك الأقاليم ، وقدر الله به امتحانَ الخلق ذلك تقدير العزيز العليم ، أين كسرى وقيصر؟ غلبهما من الموت الأسد القَسْوَر ، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عُمَر ، لما ظهرت الملة الحنيفية كما ظهرت الشمس و بدَا القمر ، أين أولاد جَفْنَة وملوك غسَّان ؟ أين مماديح زياد وحسان[١] ؟ أين هَرِم بن سنان ؟ أين مُلاَعب بالسِّنان[٢]؟ أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؟ أين بنو عبد المَدَان؟ أين أرباب العواصم ؟ أين قيس بن عاصم ؟ أين العرب العَرْباء الأمة الفاضلة، والجماعة المناضلة ؟ أين أولو الباس والحِماظ ، وذوو الحمية والإحفاظ ؟ حيث الوفاء والعهد ، والحِباء والرِّفد ، إلى علوّ الهمم ، والوفاء بالذِّمم ، والعطاء الجَزْل ، والضيف والنزل ، وهبة الأفَال والبُزْل ، و إنها لا تدين عزا ولا تُقَاد ، ولا ترام أَنفَة ولا تفاد ، أين قريش المغرورة فى الجاهلية بالحى اللقاح ، والشعب الوَقاح ؟ أين الماضون من ملوك بنى أمية ذوو الألسن الذلْق ، والأوجه الطلق ؟ والحمية ؟ أين خلفاء بنى العباس بن عبد المطلب، الذين شرفُهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب؟ ذوو الشرف الشامخ ، والفخر الباذخ ، والخلافة السنية الرضية ، والمملكة العامة المرضية، بلغتنا والله وفاتُهم ، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم ، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا ، ولم يترك لهم حراكا ولا نبضا ، ومزق الدود لحومهم قددا ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ، إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وقد تكلمتُ على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم ، وخرجت طرقه فى كتابى العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم ، فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ، كم وعظه الدهر وكم وصاه ، يخلط الحقيقة بالمحال ، والعاطل بالحال[٣] ، ولا توبة حتى يشيب الغراب ،

(١) زياد : هو النابغة الذبيانى ، وحسان : هو ابن ثابت الأنصارى .
(٢) ملاعب الأسنة : لقب أبى براء عامر بن مالك بن جعفر
(٣) العاطل : الذى لا يلبس حليا ، والحالى : ضده .

ويألف الدم التراب ، فيا لهفى لبعد الدار ، وانقضاض الجدار ، وأنت هامةُ ليل أو نهار(١) ، وقاعد من عمرك على شَفَىٰ جُرُفٍ هار ، تقرأ العلم وتدعيه ، ولا تفهمه ولا تعيه ، فهو عليك لا لك ، فأولى لك ثم أولى لك ، أما آن لليل الغى أن تنجلى أحلاكه ، ولنظم البغى أن تنتثر أسلاكه ، وأن يستفظع الجانى جناه ، ويأسف على ما اقترفه وجناه ، وأن يلبس عهاده بتا ، ويطلق الدنيا بتا ، ويفر منها فرار الأسد ، ويتيقن أنه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد ، نبهنا الله تعالى من سِنات غفلاتنا ، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا ، وجعل التقوى أحصن عددنا وأوثق آلاتنا ، اللهم إليك المآب ، وبيدك المتاب ، قد واقعنا الخطايا ، وركبنا الأجرام رواحل ومطايا ، فتب علينا أجمعين ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين الطائعين ، وصلى الله على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة ، وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين ، وسلام الله عليه وعليهم إلى يوم الدين ، انتهى وهو آخر كتابه « النبراس ، فى تاريخ بنى العباس » وذكرته بطوله لمناسبته .

قلت : وقد سلكت هذا المنحَىٰ نظما فى خطبة هذا الكتاب كما مر ، وللسان الدين رحمه الله تعالى كلام قريب من هذا سيأتى فى نثره إن شاء الله تعالى.

وأقول : إنى قد تذكرت هنا قول القائل :

نطوى سبوتا وآحاداً وننشرها ... ونحن فى الطَّىِّ بين السبت والأحد
فعدّ ماشئت من سبت ومن أحد ... لابد أن يدخل المطوى فى العدد

وقول الآخر :

ألم تر أن الدهر يوم وليلة ... يَكرّانِ من سبت عليك إلى سبت
فقل لِجَديد العيش لابد من بِلًى ... وقل لاجتماع الشمل لابد من شَتّ(٢)

---

(١) يقال « فلا هامة اليوم أو غد » كناية عن كونه عرضة لموت سريع

(٢) شت ـ بفتح الشين وتشديد التاء ـ أى تفرق

تهم ألصقها أعداء لسان الدين به

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة ، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه(١) ، فلما قلبت الأيام له ظهر مِجَنِّهَا ، وعاملته بمنعها بعدمنحها ومَنِّها ، أكثر أعداؤه فى شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام ، بتنقص النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول بالحلول والاتحاد ، والانخراط فى سلك أهل الإلحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة فى الاعتقاد ، وغير ذلك مما أثاره الحقدُ والعداوة والانتقاد ، مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوىّ ، وكلمات كدروا بها مَنْهَل علمه الرّوِىّ ، ولا يدين بها ويفوه إلا الضال الغوىّ ، والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بَرِى ، وجنابه سامحه الله تعالى عن لبسها عَرِى ، وكان الذى تولى كبر محنته وقَتْله ، تلميذه أبو عبد الله بن زَمْرَك الذى لم يزل مضمرا لَخَتْلِهِ ، فلقد وقفت على خط ابن لسان الدين على أنه تسبب فى قتل لسان الدين أبيه ، وسيأتى الإلماع والإلمام بابن زمرك المذكور فى تلامذة لسان الدين ، مع أنه ـ أعنى لسان الدين ـ حلاه فى الإحاطة أحسن الحِلَىٰ ، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا ، وقد سبق فى كلام ولى الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبى العباس أحمد المرينى فى شأن الوزير ابن الخطيب ، وأخرج إلى مجلس الخاصة ، وامتحن والمجالسُ بالأعيان غاصة ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون فى مرضاته سعى العبيد القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى ، فكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال ، وجَدّ فى أمره مع ابن زَمْرَك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته ، فسبحان من لا يتحوّل ملكه ولا يبيد .

وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضى ابن الحسن قدم على

(١) يطمس : أراد أنه يخفى ، والمعالم : جمع معلم ، وأراد به الأمر الظاهر المعلوم

السلطان عبد العزيز فى شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها ، فأبى السلطان من ذلك، وقال : هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم؟ وامتنع لذمته أن يَخْفِرَه (١) ، فلما أراد الله بنفوذ الأمر ، وعدم نفع زيد وعمرو ، توفى السلطان عبد العزيز ، واختلت الأحوال ، واضطربت بالمغرب نيران الأهوال ، فقدم فى شأنه الوزير الكاتب ابن زَمْرَك خادمه الذى رباه وصنيعته ، فكان ما كان مما سبق به الإلمام .

وقد ذكرنا فى الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى فى قصيدته النونية :

تَلَوّن إخوانى علىَّ وقد جنت ... على خطوبٌ جمة ذات ألوان

وما كنت أدرى قبل أن يتنكروا ... بأن خِوَانى كان مجمع خُوَّانى (٢)

وكانت وقد حُمَّ القضاء صنائعى ... على بما لا أرتضى شر أعوان

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، على أنه قال هذه القصيدة فى النكبة الأولى التى انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب ، كما مر مفصلا (٣) ، وكأنه عبر عن هذه المحنة الأخيرة التى ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زَمْرَك والقاضى ابن الحسن ، سامح الله الجميع ! .

ويرحم الله أبا إسحاق التلمسانى صاحب الرجز فى الفرائض حيث يقول :

الغدر فى الناس شيمة سلفت ... قد طال بين الورى تصرفها

ما كل من قد سَرَتْ له نعم ... منك يرى قدرها ويعرفها

بل ربما أعقب الجزاء بها ... مضرة عز عنك مصرفها

أما ترى الشمس كيف تعطف بالنـ ... ـور على البدر وهو يكسفها

وقال لسان الدين ، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى ، ولاذبه ،

---

(١) يخفره : مضارع « خفر فلان ذمة فلان » أى نقض عهده

(٢) الخوان ـ بكسر الخاء ، بزنة الكتاب ـ المائدة ، والخوان : جمع خائن

(٣) انظر هذه القصيدة بطولها فى الجزء السادس (ص ٣٣٧) من هذا الكتاب

ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عباد من أحواز[1] رُنْدة ، فسلم عليه ، ويقال : إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان زَنَاتة الماء ليغسل يده به من قُبْلة الفنش أو مصافحته ، مانصه : والشيء بالشيء يذكر ، فأثبت حكاية اتفقت لى بسبب ذلك ، أستدعى بها الدعاء ممن يَحْسُن عنده موقعُها ، وهى أن اليهودى الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش المذكور وصل إلينا بغرناطة فى بعض حوائجه ، ودخل إلى بدار سكناى مجاور القصر السلطانى بحمراء غرناطة ، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، و بيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبى عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبى الحسين ، وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قَشْتالة ، واستدعى من قبله إلى الملك ، فسهل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ، ور بما وصله خطابه بما لم يقنعه فى إطرائه ، فقال لى : مولاى السلطان دُنْ بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هـذا الشخص ، وكان بالأمس كَلْبا من كلاب بابه ، حتى ترى خسارة الكرامة فيه ، فأخذت الكتابَ من يده وقرأته ، وقلت له : أبلغه عنى أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب و بالأسود ، و بمن تُغْسَل الأيدى منهم إذا قبلوها ، فَتعلم مَنِ الكلبُ الذى تغسل اليد منه ومن لا ، و إن جدّ هذا الولد هو الذى قبل جَدُّكَ يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ، ونسبةُ الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد ، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعرض إلى اللَّجَأ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به ، فقام أبو الحسن المستقضَى يبكى ، ويقبل يدى ، و يصفنى بولى الله ، وكذلك مَنْ حضرنى ، وتوجه إلى المغرب رسولا ، فقصَّ على بنى مرين

حكاية لسان الدين مع رسول ملك النصارى

(١) الأحواز : جمع حوز ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ وأصله الموضع الذى تتخذ حوله مسناة ، ويراد منه ههنا الأرباض التى تكتنف البلد ، وهى ضواحيها

خبر ما شاهده منى وسمعه ، و بالحضرة اليوم ممن تلقى منـه ذلك كثير ، جعل الله تعالى ذلك خالصا لوجهه ! انتهى .

مدح لسان الدين للقاضى أبي الحسن

وقد أثنى لسان الدين فى « الإحاطة » على القاضى ابن الحسن المذكور كما سيأتى ، وقال فى ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه : ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالَقَةَ ، المخصوص برسم التجلة والقيام بالعقد والحل ، فسدد وقارب ، وحمل (١) الـكَلَّ ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطة ، وأكرم المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف فى حسن التأنى على غاية ، فاتفق على رجاحته ، ولم يقف فى النصح عند غاية ، انتهى .

ذم لسان الدين للقاضى أبي الحسن

وحين أظلم الجو بينه و بين لسان الدين ذكره فى « الـكتيبة الـكامنة » ، بما يباين ماسبق ، ولقبه بالجُعسوس (٢) ، ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه « خلع الرسن فى وصف القاضى ابن الحسن »

خطاب عتاب من القاضي لسان الدين

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطوّل كتبه ابن الحسن للسان الدين بعد تحوّله عن الأندلس ، ونص ما تعلق به الغرضُ هنا : فشرعتم فى الشراء ، وتشييد البناء ، وتركتم الاستعداد لهـاذم اللذات ، هيهـات هيهات ، تبنون مالا تسكنون ، وتدَّخرون مالا تأكلون ، وتؤملون مالا تدركون ؟ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فأين المهرب ممـا هو كائن ، ونحن إنمـا نتقلب فى قدرة الطالب ، شرقتم أو غربتم ، والأيام تتقاضى الدَّيْنَ ، وتنادى بالنفس الفرَّارة إلى أين إلى أين ، ونترك الـكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تزكية نفسه ، وعَدِّ ما جلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدد به من حديد لسانه ، خشية اندراجه فى نمط من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحْشِهِ » ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، وزخمه (٣) على

---

(١) الـكل — بفتح الـكاف وتشديد اللام — العاجز الضعيف

(٢) الجعسوس — بزنة العصفور — القصير الدميم

(٣) زخمه — بالزاى والخاء المعجمتين — دفعه أشد الدفع

ما أبداه أو أهداه من العيوب التى نسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيـه ، ونذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق ، هو الذى حملنى على نصحكم ، ومراجعتكم فى كثير من الأمور : منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به فى التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتا لغير شىء حصل بيـدكم وضررتم نفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قِبَلكم ، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل ، وقد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المُسَوَّدة بما دعوتم إليه من البدعة والتلاعب بالشريعة إن حقها التخريق والتحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأنى نصحتكم وما غششتكم ، وليس هـذا القول وإن كان ثقيلا عليكم بمخالف كل المخالفة لما زُنِنتم (١) به من تقدم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة فى الدين ، بل هى محمودة فى بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بيَّنه العلماء ، إذ هى مقاربة فى الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها وإصلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهى بذل الدين لمجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ، ومن خالط للضرورة مثلكم ، وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحة مقالته ، فقـد سلم والحمد لله من مداهنته ، وقام لله تعالى بما يجب عليه فى حقكم من التحذير والإنكار

(١) تقول « زن فلان بكذا » « وهو يزن بكذا » بالبناء للمجهول — إذا اتهم به ونسب إليه ، وفى ب « لماذنبتم به » وأحسبه محرفا عما أثبتناه

مع الإشفاق والوجل[1] ، وأكثرتم فى كتابكم من المن[2] بما ذكرتم أنكم صنعتم ، وعلى تقدير الموافقة لكم ليتكم مافعلتم ، فسلمنا من المعرة وسلمتم ، وجل القائل سبحانه : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم) وقلما شاركتم أنتم فى شىء إلا بأغراض حاصلة فى يدكم ، ولأغراض[3] دنيوية خاصة بكم ، فالملام إذن فى الحقيقة إنما هو متوجه إليكم ، وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم من التندم على فراق محلكم ، والتَّعَلُّل بأخبار قطركم وأهلكم ، فتناقض منكم وإن كنتم فيه بغدركم :

أتبكى على ليلى وأنت تركتها ... فكنت كآت غَيَّه وهو طائع
وما كُلّ ما مَنَّتْك نفسُك مخليا ... تُلَاقِى ، ولا كل له أنت تابع
فلا تبكين فى إثر شىء ندامة ... إذا نَزَعته من يديك النوازع

وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة غالبة عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى التمتع بغيرها عينيكم ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما خُصَّت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفاها فخراً على ما يجاورها من سائر البلاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » وقال عليه الصلاة والسلام « الرَّوْحَة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكملة ، والاستغفار مع الانقطاع فى أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع ، وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس ، فقد خسرتم صفقة رحلتكم ، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ، اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مائة نفس ، وسأل أعلم أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة

(١) الوجل : الخوف ، أو أشده

(٢) المن : تعدادك النعم على من أنعمت عليه ، وذكر فضلك فيها

(٣) كذا ، وأحسبه « ولأعراض دنيوية » بالعين المهملة

بمفارقة المواطن التي ارتكب فيها الذنوب، واكتسب بها العيوب، فأمر آخر، مع أن كلام العلماء في هذا الحديث معروف، ويقال لكم من الجواب الخاص بكم: فعليكم إذاً بترك القيل والقال، وكسر حربة الجدال والقتال، وقصر ما بقي من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال، ووقعت في مكتوبكم كلمات أوردها النقد في قالب الاستهزاء والازدراء، والجهالة بمقادير الأشياء، ومنها «ريح صرصر» وهو لغة القرآن، و«قاع قرقر» وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد صلى الله عليه وسلم، ثبت في الصحيح في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله، قيل: يارسول الله، والبقر والغنم؟ قال «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها — الحديث الشهير» قال صاحب المعلم: بطح لها بقاع قرقر: أي ألقي على وجهه، والقاع: المستوى من الأرض، والقرقر: كذلك، هذا ما حضر من الجواب، وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش(١) بعيد من الحشمة والحياء، رأيت من الصواب الإعراضَ عن ذكرِه، وصَوْن اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم بحال مرض، فلا حرج فيه عليكم(٢)، أنسأ الله تعالى أجلكم(٣)، ومكن أمنكم، وسكن وَجَلكم، ومنه جل اسمه نسأل لي ولكم حسنَ الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن وفقه الله، وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة.

وقيد رحمه الله تعالى في مدرج طي هذا الكتاب ما نصه: يا أخي — أصلحني الله وإياكم! — بقي من الحديث شيء الصوابُ الخروجُ عنه لكم، إذ هذا أوانه،

(١) تقول «أقذع فلان في هجوه» و«قذع» أيضا، إذا رمى بالنقيصة وأساء القول وسب فأفحش في السب

(٢) المرض، هنا: الجنون، وهو يشير بهذه الفقرة إلى قوله جلت كلمته: (ليس على الأعمى حرج، ولا على الاعرج حرج، ولا على المريض حرج)

(٣) أنسأ أجلكم: أجل مدة بقائكم وأطال عمركم

وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه(١) ، وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله ، وحاصله أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات ، وقطعتم بنسبة الأمور كلها إلى أنفسكم ، وأنها إنما صدرت عن أمركم و بإذنكم ، من غير مشارك فى شىء منها لكم ، ثم مَنَنتم بها المنَّ القبيح المبطل لعمل بركم على تقدير التسليم فى فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير فى حاله كله طريقةَ من يبصر القذَى فى عين أخيه ويدع الجِذْعَ فى عينه(٢) ، وأقصى ماتسنى المحب أيام كونكم بالأندلس تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنه لا مُوجِدَ إلا الله ، وأنه إذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاضد له على تحصيل مُراده ولا مُعين ، ولكنه جلت قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه ، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه ، وكأنى بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك فى جملة مسائل : منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجبانه على كره منكم ، ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن على آرائه المُضِلَّة التى كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تَنَاوُلَ إخراجه من الثقاف من غير مبالاة بأحد ، ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنفتم لذلك ، وسجنتم الطالب وَلِيَّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يحمل بى

(١) اتفق العلماء على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة غير جائز ، ويجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة إليه

(٢) يشير إلى قول بعضهم « فلان يرى القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عينه » إذا كان كثير العيب للناس على توافه الأمور وهو ملىء بكبار العيوب

ولا بكم ذكره ، والمسألة الأخرى أنتم توليتم كِبْرَها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال ، والحمد لله على كل حال ، وأما الرمى بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق فى التكلم به ، فشىء قلما يقع مثله من البهتان ممن كان يرجو لقاء ربه ، وكلامكم فى المدح والهجو ، هو عندى من قبيل اللغو ، الذى نَمُرُّ به كراما (١) والحمد لله ، فكثِّروا أو قَلّوا من أى نوع شئتم ، أنتم وماترضونه لنفسكم ، وما فهت لكم بما فهت من الكلام ، إلا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فمذهبى غيرمذهبكم ، وعندى ما ليس عندكم ، وكذلك رأيتكم تكثرون فى مخاطباتكم من لفظ الرُّقْيَة فى معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمى بالمنقصة والحمق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرتم فى شىء من كتب السنة وسير الأمة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يدكم ، فهو قادح كبير فى عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع فى سورة الفلق أنها خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه المراد بها هو وآحاد أمته ، وفى أمهات الإسلام الخمس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى رَقَاه جبريل ، فقال : بسم الله يُبْرِيك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن شر كل ذى عين » وفى الصحيح أيضاً أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فى سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راق فإن سيد الحى لديغ ، أومصاب ؟ فقال رجل من القوم : نعم ، فأتاه فرَقاه بفاتحة الكتاب ، فبرئ الرجل ، فأعطى قطيعا من غنم – الحديثَ الشهير ، قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك وأحمد والشافعى وأبى ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفى هذا القدر

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن من سورة الفرقان : (والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما)

كفاية ، وما رَقَيْتُ قط أحدا على الوجه الذى ذكرتم ، ولا استرقيت والحمد لله ، وما حملنى على تبيين ما بينته الآن لكم فى المسألة إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع فى إصلاح باطنكم وظاهركم ، فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ، ورمى علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات ، وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناسٍ أعلامٍ قلما تجوز عليهم — حفظهم الله ! — المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التى لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من درك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجَهْدِ البلاء ، وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغر المحجلين[1] ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نُقِل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضا لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدُّوَل ما صدر عنكم من العَيْث فى الأبشار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر ، والحيل والغدر ، فى غالب الأحوال للشريف والمشروف ، والخادم والمخدوم ، ولو لم يكن فى الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم من الاتّسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفى الكثير من أهل قطره لكفاكم وَصْمة لا يغسِلُ دَنَسها البحر ، ولا ينسى

(١) الغر : جمع أغر ، ويريد به الأبيض الوجه ، والمحجل : أصله الفرس الذى فى قوائمه بياض وسائر جسمه ليس بأبيض ، وهو مأخوذ من الحديث « أنا قائد الغر المحجلين من أثر الوضوء يوم القيامة »

عارها الدهر ، فإنكم تركتموه أولا بالمغرب عند تلوّن الزمان ، وذهبتم للكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء ، وضربتم وجوه رجاله بعضا ببعض ، حتى خلا لكم الجوّ ، وتمكن الأمر والنهى ، فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكرا منكم ، فلما بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم الهروب الذى أنكره عليكم مَنْ بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العدوتين من مؤمن وكافر و بر وفاجر ، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم ، أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح ، ولو كان قد بقى لكم من العقل ما تتفكرون به فى الكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة فى المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت فى الصحيح(١) لحملكم على مواصلة الحزن ، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمارة من التورط والتنشب فى أشطان الآمال ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيآت الأعمال

وأما قولكم عن فلان « إنه كان حشرة فى قلوب اللوز » و « إن فلانا كان برغوثا فى تراب الخمول » فكلام سفساف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأنتم ياهذا أين كنتم منذ خمسين سنة مثلا ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم ولا استكثاراً وأنشأهم كما قدر أحوالا وأطواراً ، واستخلفهم فى الأرض بعد أمة أمما و بعد عصر أعصاراً ، وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هَمَلاً ، وأمرهم ونهاهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، و بكل اعتبار فلا نعلم فى نمط الطلبة تدريجا كان أسمج من تدريجكم ، ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحملا وتقللا فى نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن

(١) يشير إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »

الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم ، وكذلك فعلت بنت جزَيّ زوج الرهيصى معكم ، حسبما هو مشهور فى بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث نقرتم بذكر العرض وهو بفتح العين والراء حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد ، وقال أبو زيد : هو بسكون الراء المال الذى لا ذهب فيه ولا فضة ، وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف على ما كان قد تبقى عنده من مَجْبى قرية مترايل ؟ ثم من العدد الذى برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم ، وأما الفلاحة التى أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هى فى الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما بيدكم على ما تقرر فى الفقهيات ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حساً ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سقطاتكم فى القال والقيل ، ولم يصرف إلى دفع معرتها عنكم وجه التأويل ، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبى الخير بل أبى الشر الحادثة أيام خلافة الحَكَم الحكم المسطورة فى نوازل أبى الأصبغ بن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتى عليكم قديما وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات ، والعمل على التخلص من التبعات (إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)

وقلتم فى كتابكم « أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد » وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية عَيْبَةَ الجاهلية[1] فى التفاخر بالآباء ، ولكنى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره ، قال القاضى أبو عبد الله ابن عسكر وقد ذكر فى كتابه من سلفى فلان بن فلان ، ما نصه : و بيته بيت

(١) العيبة ــ بفتح العين وسكون الياء ــ مثل العيب والعاب ، وهو النقيصة والوصمة وكل ما يخلو عنه الشىء بأصل فطرته ، وقالوا « العيبة » لمستودع الثياب ونحوها ، ثم كنوا عن القلوب والصدور بالعياب كما فى الحديث « الأنصار كرشى وعيبتى » لأن القلوب والصدور مستودع السرائر كما أن العياب مستودع الثياب

قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ، استقضى جـدّه المنصورُ ابن أبى عامر ، وقاله غيره وغيره ، و بيدى من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هـذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده ، و إن كانت الإشارة للغير من الأصحاب فى الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحق وُجِد أقربَ منكم نسبا للخطط المعتبرة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساويا على فرض المسامحة لكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه » .

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يافلان من قومكم فى عمود نسبكم نبيهامشهورا(١) ، أو كاتباً قبلكم معروفا ، أو شاعرا مطبوعا ، أو رجلا نبيهامذكوراً ، ولو كان يالوشى (٢) وكان لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتقاطع ، « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ، وكذلك العجب كل العجب ، من تسميتكم الخَرِبات التى شرعتم فى بنائها بدار السلام ، وهيهات هيهات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ، ولولم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار فى الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقين بمآلها .

وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتم حيث أنتم من الشهوات التى ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخِرَق والقعود بإزاء جارية الماء على نطع الجلد ، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من الخسة والخبائث والخبث ، و بالجملة فسرور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يجمل تقدمه من

(١) نبيها : أراد طائر الذكر رفيع القدر

(٢) لوشى : نسبة إلى لوشة أصل منبت لسان الدين وقومه

زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وَصاة الحبيب أو البغيض بعضاً عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم ، هذا الذى قلته لكم ، وإن كان لدى من يقف عليه من نمطِهِ الكثير ، فهو باعتبار المكان وما مر من الزمان فى حيز اليسير ، وهو فى نفسه قول حق وصدق ، ومستندُ أكثرِه كتابُ الله وسنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر أنبيائه ، فاحمدوا الله العلى العظيم على تذكيركم به إذ هو جارٍ مجرى النصيحة الصريحة ، يَسَّرنى الله وإياكم لليسرى ، وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكرى ، والسلام ، انتهى كلام القاضى ابن الحسن النباهى فى كتابه الذى خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى .

صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى أبى الحسن النباهى القضاء

وأين هذا الكلام الذى صدر من ابن الحسن فى حقه من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى فى تولى ابن الحسن المذكور القضاء ، وهو : هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسُه ، ودل على ما يرضى الله عز وجل التماسه ، وأطْلع نور العناية الذى يجلو الظلام نبراسه ، واعتمد بمثابة العدل من عرف بافتراع هضبتها ناسُه ، وألقى بيد المعتمد به زمامَ الاعتقاد الجميل تروق أنواعُه وأجناسُه ، وشيد مبنى العز الرفيع ، فى قبة الحسب المنيع ، وكيف لا والله بانيه ، والمجد أساسه ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه أميرُ المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أوامره ، وخلد مفاخرة ! - لقاضى حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ، المخصوص لديه بترفيع المزية ، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النصرية ، قاضى الجماعة ، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة ، الشيخ الكذا أبى الحسن ابن الشيخ الكذا أبى محمد بن الحسن - وصل الله سعادته ، وحرس مجادته ، وسنَّى من فضله إرادته ! -

---

(١) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة »

عَصَبَ منه جبين المجد بتاج الولاية ، وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية ، ماألقى منه بيمين عَرَابة السراية(١)، وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآية ، وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان العناية ، وأنطق بتبجيله ، ألسن أهل جيله ، بين الإفصاح والكناية ، ولما كان له الحسب الأصيل الذى شهدت به ورقات الدواوين ، والأصالة التى قامت عليها صحاحُ البراهين ، والآباء الذين اعتد بمَضَاء قضاتهم الدين ، وطَبّق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين ، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين ، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير ، وقاض فى الأمور الشرعية ووزير ، أو جامع بينهما جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، تعدد ذلك واطرد ، ووجد مَشْرَع المجد عذبا فورد ، وقصرت النظراء عن مَدَاه فانفرد ، وفرَى الْفَرِىَّ فى يد الشرع فأشبه السيف البرد ، وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لما درس ، بما حقق ودرس ، جانيا لما بذر السلف المبارك واغترس ، طاهر النشأة وقورها ، محمود السجية مشكورها ، متحليا بالسكينة ، حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة ، ساحبا أذيالَ الصَّوْن ، بعيدا عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون(٢) ، فَخَطَبته الخطط العلية ، واغتبطت به المَجَادة الأوّلية ، واستعملته دولته التى ترتاد أهل الفضائل للرتب ، واستظهرت على المناصب بأبناء التقى والحسب ، والفضل والمجد والأدب ، ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب ، فكان معدودا من عدول قضاتها ، وصدور نبهائها ، وأعيان وزرائها ، وأولى آرائها ، فلما زان الله تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص ، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص ، كان ممن صحب ركابه الطالب للحق بسيف الحق ، وسلك فى مظاهرته أوضح الطرق ، وجادل من حادَّه بأمضى من الحِداد الذُّلْق ، واشتهر خبر وفائه فى الغرب والشرق ، وصلى به صلاة السفر

(١) يشير إلى قول الشماخ بن ضرار يمدح عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(٢) الكون ، هنا : الوجود

والحضر ، والأمن والحذر ، وخطب به فى الأماكن التى بعد بذكر الله عهدُها ، وخاطب عنه ـ أيده الله تعالى ! ـ المخاطباتِ التى حُمِدَ قصدُها، حتى استقل ملكه فوق سريره ، وابتهج منه الإسلام بأميره وابن أميره ، ونزل الستر على العباد والبلاد ببركة إيالته ويُمْن تدبيره ، وكان الجليس المقرب المحل ، والحظىّ المشاور فى العقد والحل ، والرسول المؤتمن على الأسرار ، والأمين على الوظائف الكبار ، مزين المجلس السلطانى بالوقار ، ومتحف الملك بغريب الأخبار ، وخطيب منبره العالى فى الجمعات ، وقارئ الحديث لديه فى المجتمعات ، ثم رأى أيده الله تعالى أن يشرك رعيته فى نفعه ، ويصرف عوامل الحُظْوَة على مزيد رفعه ، ويجلسه مجلس الشارع صلوات الله عليه لإيضاح شَرْعه ، وأصله الوثيق وفرعه ، وقدمه أعلى الله تعالى قدمه ، وشكر آلاءه[1] ونعمه ، قاضيا فى الأمور الشرعية ، وفاصلا فى القضايا الدينية ، بحضرة غَرْناطة العلية ، تقديم الاختيار والانتقاء ، وأبقى له فخر السلف على الخلف والله سبحانه يمتعه بطول البقاء ، فليتولَّ ذلك عادلا فى الحكم ، مهتديا بنور العلم ، مسويا بين الخصوم حتى فى لَحْظِه والتفاته ، متصفا من الحلم بأفضل صفاته ، مهيبا فى الدين ، رؤفا بالمؤمنين ، جزلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصل بأمضى حُسام ، مراقبا لله عز وجل فى النقض والإبرام ، وأوصاه بالمشورة التى تقدح زناد التوفيق ، والتثبت حتى ينتج قياس التحقيق ، بارا بمشيخة أهل التوثيق ، عادلا إلى سعة الأقوال عند المضيق ، سائرا من مشورة المذهب على أهدى طريق ، وصية أصدرها له مُصْدَرَ الذكرى التى تنفع[2] ، ويُعْلِي الله بها الدرجاتِ ويرفع ، وإلا فهو عن الوصاة غنى ، وقصده قصد سنى ، والله عز وجل ولىُّ إعانته ، والحارس من التبعات أكناف ديانته ، والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته ، وأمر أيده الله تعالى أن ينظر فى الأحباس على اختلافها ، والأوقاف على شتى أصنافها ،

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بكسر الهمزة وفتح اللام منونة

(٢) أخذه من قوله تعالى : (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

واليتامى التى انسدلت كفالة القضاة على إضعافها ، فيذود عنها طوارق الخلل ، ويجرى أمورها بما يتكفل لها بالأمل ، وليعلم أن الله عز وجل يراه ، وأن فلتات الحكم تعاوده المراجعة فى أخراه ، فيدّرع جنة تقواه ، وسبحان من يقول : إن الهدى هدى الله ، فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال ، صائنا منصبه من الإخلال ، مبادرا أمره الواجب بالامتثال ، بحول الله ، وكتب فى الثالث من شهر الله المحرم ، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة ، عرف الله سبحانه فيه هذا المقام العلى عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لارب غيره ، انتهى .

مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى ابن زمرك كتابة السر

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبى عبد الله ابن زَمْرَك حين تولى كتابة السر ، ونصه : هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه ، وأفرد له متلو العز وجمعه ، وأوتره وشفعه ، وقربه فى بساط الملك تقريبا فتح له باب السعادة وشرَعه(١) ، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على مَنْ دون رتبته من أولى صنعته أن يتبعه ، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزه الله من يد الغاصب وانتزعه ، وحَسْبُك من زمام لا يحتاج إلى شىء معه ، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان ، وصل الله سعادته ، وحرس مَجَادته ، أطلع الله تعالى [له] وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم ، وأقطعه جناب الإنعام الجسيم ، وأنشقه آراج الحظوة عاطرة النسيم ، ونقله من كرسى التدريس والتعليم ، إلى مَرْقى التنويه والتكريم ، والرتبة التى لا يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم ، وجعل أقلامه جياد الإجالة أمره العلى ، وخطابه السنى ، فى ميدان الأقاليم ، ووضع فى يده أمانة القلم الأعلى ، جاريا من الطريقة المُثْلَى ، على المنهج القويم ، واختصه بمزية التفوّق على كتاب بابه والتقديم ، لما كان ناهض الفكر فى طلبة حضرته زمن البداية ، ولم تزل تظهر عليه لأولى التمييز مخايل هذه العناية ، فإن حضر فى حلق العلم جلى

(١) تقول « شرع فلان بابه إلى الطريق » تريد أنه أنفذ الباب إلى الطريق العام

فى حَلْبة الحفاظ إلى الغاية ، و إن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة ، والمخاطبات المنقولة ، فاشتهر فى بلده وغير بلده ، وصارت أزِمَّة العناية طوعَ يده ، بما أوجب له المزية فى يومه وغده ، وحين رد الله عليه ملكه الذى جبر به جَنَاح الإسلام(١) ، وزين وجوه الليالى والأيام ، وأدال الضياء من الظلام ، كان ممن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك عود خلوصه وخَبَرَه ، فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومُضْمَره ، واستصحب على ركابه الذى صَحِبَ اليمن سفره ، وأخلصت الحقيقة نفره ، وكفل الله وِرْدَه وصَدَره ، ميمون النقيبة ، حسن الضريبه ، صادقا فى الأحوال المريبة ، ناطقا عن مقامه بالمخاطبات العجيبة ، واصلا إلى المعانى البعيدة بالعبارة القريبة ، مبرزا فى الخدم الغريبة ، حتى استقام العماد ، ونطق بصدق الطاعة الحى والجماد ، ودخلت فى دين الله أفواجا العبادُ والبلاد ، لله الحمد على نعمه الثَّرَّة العِهَاد(٢) ، وآلائه المتوالية الترداد ، رعى له أيده الله هذه الوسائل وهو أحقّ من يرعاها ، وشكر له الخدم المشكور مسعاها ، فنص عليه الرتبة الشماء التى خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدمه ، أعلى الله قدمه ، كاتبَ السر ، وأمين النهى والأمر ، تقديم الاختيار بعد الاختبار ، والاغتباط بخدمته الحسنة الآثار ، وتيمن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإكبار ، فليتول ذلك عارفا بمقداره ، مقتفيا لآثاره ، مستعينا بالكَتْم لأسراره ، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفافه ووقاره ، مُعْطِيا هذا الرسم حقه من الرياسة ، عارفا بأنه أكبر أركان السياسة ، حتى يتأكد الاغتباط بتقريبه و إدنائه ، وتتوفر أسباب الزيادة فى إعلائه ، وهو إن شاء الله غنى عن الوَصَاة فهما ثاقبا يهتدى بضيائه ، وهو يعمل فى ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل ، وعلى من يقف عليه من حَمَلة الأقلام ، والكتاب الأعلام ، وغيرهم من الكافة والخدّام ، أن يعرفوا قدر هذه العناية

---

(١) جبر به جناح الإسلام : أراد قواه به ، وأصل الجبر إصلاح ما انكسر من عظم ونحوه

(٢) الثرة من السحب والعيون : الغزيرة الماء الفياضة به ، قال عنترة بن شداد :

جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم

الواضحة الأحكام ، والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام ، بحول الله ، وكتب فى كذا ، انتهى .

موازنة من المؤلف بين لسان الدين والنباهي وابن زمرك

فانظر صانني الله وإياك من الأغيار ، وكفانا شرَّ مَنْ كَفَرَ الصنيعة التى هى على النقص عنوان ومعيار ، إلى حال الوزير لسان الدين بن الخطيب مع هذين الرجلين ، القاضى ابن الحسن والوزير ابن زَمْرك اللذين تسببا فى هلاكه حتى صار أثراً بعد عين ، مع تنويهه بهما فى هذا الإنشاء وغيره ، وتفيئهما — كما هو معلوم — ظِلالَ خيره ، فقابلاه بالغدر ، وأظهرا عند الإمكان حِقْدَ القلب وغِلَّ الصدر ، وسددا لمَقْتَلِهِ سهاماً وقِسِيًّا ، وصيرا سبيل الوفاء نسياً منسياً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مرسوم من لسان الدين بتولى النباهي الخطابة مع القضاء

ومن إنشاء لسان الدين فى حق القاضى ابن الحسن أيضاً — حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء — على لسان سلطانه : هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء(١) اختيارا واختبارا ، وأظهر معانى الكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثارا ، ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتبارا ، ورقى فى درجات العز من طاولها على بهر أنوارا ، ودينا كرم فى الصالحات آثارا ، وزكا فى الأصالة نِجارا ، وخلوصا إلى هذا المقام العلى السعيد الذى راق إظهاراً وإضمارا ، أمر به وأمضاه وأنفذ حكمه ومقتضاه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ، إلى آخره ، للشيخ الكذا القاضى العَدْل الأرضى قاضى الجماعة ، وخطيب الحضرة العلية ، المخصوص لدى المقام العلى بالحُظْوة السنية ، والمكانة الحفية ، الموقر الفاضل ، الحافل الكامل ، المبرور أبى الحسن ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل ، الأصلح المبارك الأكمل ، الموقر المبرور المرحوم أبى محمد بن الحسن ، — وصل الله عزته ! ووَالَى رفعته ومبرته ! ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته ! — لما أصبح فى صدور القضاة العلماء مُشَارا إلى جلاله ، مستندا إلى معرفته

---

(١) تقول « احتفى فلان بفلان احتفاء » إذا بالغ فى إكرامه ، وأظهر السرور والفرح به ، أو أكثر السؤال عن حاله .

المخصوصة بكماله ، مطرزا على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخِصاله ، محفوفا معقد الحكم النبوى ببركة عدالته وفضل خلاله ، وحل فى هذه الحضرة العلية المحل الذى لا يرقاه إلاَّ عين الأعيان ، ولا يَثْوى مهاده إلا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان ، وموئل العلم الواضح البرهان ، والمبرزين بالمآثر العلية فى الحسن والإحسان ، وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان ، والأنظار الحسنة الأثر والعِيان ، والمقاصد التى وفت بالغاية التى لا تستطاع فى هذا الميدان ، فكم من قضية جلا بمعارفه مُشْكلها ، ونازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها ، ومسألة عرف نكرتها وقرر مهملها ، حتى قرت بعدالته وجزالته العيون ، وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون ، وكان فى تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون ، كان أحق بالتشفيع لولاياته وأولىٰ ، وأجدر بمضاعفة النعم التى لا تزال تترادف على قدره الأعلى ، فلذلك أصدر له أيده الله هذا الظهير الكريم مشيدا بالترفيع والتنويه ، ومؤكدا للاحتفاء الوجيه ، وقدّمه ، أعلى الله قدمه ، وشكر نعمه ! خطيبا بالجامع الأعظم من حضرته ، مضافا ذلك إلى ولايته ورفيع منزلته ، مرافقا لمن بالجامع الأعظم عمره الله بذكره من علية الخطباء ، وكبار العلماء ، وخيار النبهاء الصلحاء ، فليتداول ذلك فى جمعاته ، مظهرا فى الخطة أثر بركاته وحسناته ، عاملا على ما يقربه عند الله من مرضاته ، ويظفره بجزيل مَثُوباته ، بحول الله وقوّته ، انتهى .

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضى ابن الحسن ، وإشادته بذكره(١) ، وبإشارته وتدبيره وَلِىَ قضاءَ القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغَرْناطة ، وهذان المنصبان لم يكن فى الأندلس فى ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلُّ منهما ، ولما حصل للسان الدين رحمه الله تعالى ما حصل من النفرة عن الأندلس ، وإعمال

(١) تقول « أشاد فلان بذكر فلان » إذا نوه به وأعلى قدره

الحيلة فى الانفصال عنها ؛ لعلمه أن سِعايات ابن زَمْرَك وابن الحسن ومَنْ يعضدهما تمكنت فيه عند سلطانه ، خلص منها على الوجه الذى قدّمناه ، وشمر القاضى ابنُ الحسن عن ساعد إذايته ، والتسجيل عليه بما يوجب الزندقة ، كما سبق جميعه مُفَصَّلا ، فحينئذ أطلق لسانُ الدين عنانَ قلمه فى سَبِّ المذكور وثَلْبه[١] ، وأورد فى كتابه «الكتيبة الكامنة ، فى أبناء المائة الثامنة» من مَثَالبه[٢] ما أنسى ما سطره صاحبُ القلائد فى ابن باجة المعروف بابن الصائغ حسبما نقلنا ذلك ، أعنى كلام الفتح ، فى غير هذا الموضع ، ولم يقتنع بذلك حتى ألف الكتاب الذى سماه «بخلع الرَّسَن» كما ألمعنا به فيما سبق ، والله سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنه وكرمه !.

واعلم أن للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية فى المدح والقَدْح ، فتارة على طريق الترسل ، وطَوْرا على غيرها ، وقد أقذع وبالغ رحمه الله تعالى فى هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النبال ، ومنه ما وصف به الوزير ، الذى كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثائر على سلطان ابن الخطيب ، حسبما سبق الإلمام بذلك ، والوزير هو إبراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى ، إذ قال فى المذكور وفى ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح العقرب الردى ، بعد كلام ، ما صورته : وما ظنك برجل مجهول الجد ، موضوم الأبوّة ؟ إلى أن قال : تنور خبز ، وبِرْكة مرقة ، وثعبان حَلْواء ، وفاكهة مغنى ، فى شح النفس ، متهالك فى مسترذل الطبع ، عليه العذيوط[٣] الغبى ابن عمه بسذاجة زعموا ، مع كونه قبيح الشكل ، بشيع الطلعة ، إلى أن قال : وفى العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبض على الوزير المشئوم ، وابن عمه الغوى الغَشُوم ، وولد الغوى مرسل الظفيرة أبعد الناس فى مهوى الاغترار يختال فى السرف والحلية ، سم من سم القوارير ، وابتلاء من الله لذوى الغيرة ، يروح نَشْوَان العشيات ،

(١) ثلبه يثلبه ثلبا — من مثال ضرب — ذمه وعدد نقائصه

(٢) المثالب : جمع مثلبة — بوزن منقصة — وبمعناها

(٣) لعله «العذفوط» وهى دويبة بيضاء ناعمة تشبه بها أصابع الجوارى

يرقص بين يديه ومن خلفه عـدد من الأخلاف ، يعاقرون النبيذ فى السكك الغاصة، وولد العقرب الردى بضده قماءة(١) وتقطبا ، تنبو عنهما العيون ، ويبكى منهما الخز ، كأنهما صمتا عند المحاورة وأظلما عند اللألاء ، من أذلاء بنى النضير ، ومهتضمى خيبر ، فثقفا مليا ، وبودِرَ بهما إلى ساحل المنكب ، قال المخبر : فما رأيت منكوبين أقبح شكلا ، ولا أفقد صبرا ، من ذينك التيسين الجبقين ، صلع الرؤس ، ضخام الـكروش ، مبهورى الأنفاس ، متلجلجى الألسنة ، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية كأنها سَنام الحُوار(٢) ، لا يثيرون دمعا ، ولا يستنزلون رحمة ، ولا يمهدون عذرا ، ولا يتزودون من كتاب الله آية ، قد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم ببغيهم ، وعجل لهم سوء سعيهم ، وللحين أركبوهم وجِراءهم(٣) - يعنى أولادهم - فى جفن غزوى تحف بهم المساعير من الرجال ، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجا إلى الإسكندرية تورية بالقصد ، فلما لججوا قذف بهم فى لجة بعد استخلاص ما ضبثوا به(٤) ، وتلكأ الأصلع الغوى فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط العقرب الردى فنال من جناب الله سخطا وضيقا ، تعالى الله عن نكيره ، فكان فرعون هذا الزمان جبروتا وعتوّا وميتة ، عجل الله لهم العذاب ، وأغرقهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان مَنْ لا تضيع الحقوق مع عَدْله ، ولا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه ، مرغم الأنوف ، وقاطع دابر الـكافرين ، وفى ذلك أقول مستريحا ، وإن لم يكن - علم الله تعالى - شانى ، ولا تكرّر فى ديوانى :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولٰـكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جنونك يعشق

ومن أمثالهم «مَنِ اسْتُغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار» والله سبحانه يقول ومن أصدق من الله قليلاً (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها) والعفو أقرب للتقوى ، والقرب

---

(١) القماءة : قصر القامة (٢) الحوار - بزنة غراب - ولد الناقة

(٣) الجراء : جمع جرو ، وهو الصغير من أولاد الـكلاب (٤) ضبثوا به : تشبثوا

والبعد بيده سبحانه ، وصدرت هذه الكلمة لحين تعرف إجلائهم فى الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد ذلك صح هلاكهم :

كن من صروف الردى على حَذَرِ لا يقبل الدهرُ عُذْرَ مُعْتَذِرِ
ولا تعوّل فيه على دَعَةٍ فأنت فى قُلْعَةٍ وفى سفر
فكل رى يُفْضِى إلى ظمأ وكل أمن يدعو إلى غَرَرِ
كم شامخ الأنف ينثنى فرحا بال عليه زمانه وخَرِى
قل للوزير البليد قد ركضت فى ربعك اليوم غارةُ الغِيَرِ
يا ابن أبى الفتح نسبة عكست فلا بفتح أتت ولا ظفر
وزارة لم يَجِدْ مقلدها عن شؤمها فى الوجود من وَزَرِ(١)
فى طالع النحس حُزْتَ رتبتها وكل شىء فى قبضة القدر
أى اختبار لم نبال نصبته فى جسد للنحوس أو نظر
بات له المشترى على غير وأحرقت فيه قرصة القمر
يا طللاً ما عليه من عمل يا شجرا ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والغباوة لا يُحْسَبُ إلا من جملة البقر
يا دائم الحقد والفظاظة لا يَفْرِقُ ما بين ظالم وبَرِى(٢)
يا كمد اللون ينطفى كمدا من حسد يستطير بالشرر
يا عدل سرج يادن مقتعد مَلْآن من ريبة ومن قذر
يا واصلا للحشاء ناشئة الليل ورَبَّ الضُّراط فى السَّحر
من غير لب ولا مراقبة لله فى مورد ولا صَدَرِ(٣)
يا خاملا جاهه الفروج يرى صهر أولى الجاه فخر مفتخر
كانوا نَبيطاً فى الأصل أو حبشا ما عنده عبرة بمعتبر

(١) الوزر - بفتح الواو والزاى - الملجأ (٢) برى : أصله برىء
(٣) المورد : الورود على الماء ، والصدر : الرجوع عنه

يا ناقص الدين والمروءة والعقـــل ومجرى اللسان بالهذر
يا ولد السحق غير مكتتم حديثه يا ابن فاسد الدبر
يا بغـــل طاحونة يدور بها مجتهدُ السيرِ مغمض البصر
فى أشهـــر عشرة طحنتهمُ فيارَحَى الشؤم والبوادرُ
والله ما كنت يا مشـــوم ولا أنت سوى عرة من العرر
ومن أبو الفتح فى الـكلاب وهل لجاهل فى الأنام من خطر
قد ستر الدهر منك عـــورته وكان لليوم غـــير مستتر
حانوت بزيمشى على فرش وثور عرس يختال فى حِـبَرِ
لا منَّـــــةٌ تُتَّقَى لمعتَرَكٍ ولا لسانٌ يُبينَ عن خَـبَرِ
ولا يد تنتمى إلى كرم ولا صـــفاء يريح من كدر
عهـدى بذاك الجبين قد ملئت غضونه الغـــبر بالدم الهـدر
عهـدى بذاك القفا الغليظ وقد مد لوقع المهنـــد الذكر
أهدتك للبحـــر كف منتقم ألقتك للحوت كف مقتـــدر
يا يُتْمَ أولادك الصغارِ ويا حيرتهم بعـــد ذاك فى الـكبر
يا ثكل تلك الصماء أمهم وظاعن الموت غـــير منتظر
والله لانال من تخلفـــه من أمَلٍ بعدها ولا وَطَـرِ
والله لا مسخقان[1] لا انتقلت رجلُكَ منهـــا إلاَّ إلى سَقَرِ
ألحفك الله بالهوان ولا رعاك فيمن تركت من غُـرَرِ
ما عوقب الليـــل بالصباح وما تقـــدم البرق عارض المطر

وقال موريا بدم الأخوين ، فى شأن سلطان تلك الدولة الذى أضحى أثرا بعد عين :

بإسماعيل ثم أخيـــه قيْسٍ تأذّن ليـــلُ همى بانبلاج
دم الأخوين داوى جُرْحَ قلبى وعالجنى ، وحسبك من علاج

(١) كذا

وهذه تورية بديعة ، لأن الأطباء يقولون : إن من خاصية دم الأخوين النفع من الجراح .

وقال رحمه الله تعالى : قلت فى رأس الغادر بالدولة حين عُرِضَ على :

فى غير حفظ الله من هامة ... هام بها الشيطان فى كل واد

ما تركت حمدا ولا رحمة ... فى فم إنسان ولا فى فؤاد

وقال أيضا فى تلك الدولة بعد كلام ، ما نصه : وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخى الدين ، والفك المنحل العصب والعقيدة ، المعرق فى العمومية ، المشهور بقبول الرشوة ، أبو فلان فلان بن فلان ، الغريب الاسم والولاية ، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة ، والبعد عن التخصص والحشمة ، والمثل فى العماه ، والطرف فى التهالك على الحُطَام ، فلان البناء ، المسخر فى بناء الحفيرة ، المستخدم فى دار ابنه أجيرا ، مختضبا بالطين ، مضايقا فى رمق العيشة ، وحبسك به دليلا على الحياء وفضل البنوّة ، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق ، ديدنهم فى معارضة صلب الملة بالآراء الخبيثة ، يتحكم الوَقَاح منهم فى الحكم الذى نزل به شديد القوى على الذى لا ينطق عن الهوى ، بحسب شهوته ، تحكمه فى غزل أمه إيثارا للعاجل ، واسترابةً بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وحللوا محرم البضع للدائل ، وقد تأذن الله بفسخه ، وأجرى دمه نقدا قبل دفع فقده ، سبحانه حكم الحكام ، وقاهر الظُّلَّام ، وباء مشيخَةُ السوء بلعنة الله وسوء الأحدوثة ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ، انتهى .

ومن كلامه فى « نفاضة الجراب » ، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن على بن مسعود ما ملخصه : وأنه مجنون ، أحول العين ، وَحْش النظرة ، يظن به الغضب فى حال الرضا ، يهيج به المرار [1] فيكمن زمانا خاف كلة مرقده ، يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصحاره إلى فضاء منزله ، وتوحشه من أهله وولده ، إلى أن تضعف

(١) المرار : جمع مرة ـ بكسر الميم ـ وهى خلط من أخلاط البدن وهى الصفراء وهى أقوى الأخلاط

سورة المِرَّة فيخف أمره ، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة ، وتوفر داعية الغبطة ، لحلف جره الوسواس السوداوى ، نستدفع بالله شر بلائه ، فاستعان مستوزره منه برأى الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما ، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه ! انتهى .

ولما دخل لسان الدين رحمه الله تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخر قاضيها الشيخُ الفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن أبى رمانة عن لقائه يوم وصوله ، فكتب إليه بما نصه :

جفا ابن أبى رمّانة وَجْهَ مَقْدَمِى　　ونَكَّبَ على مُعْرِضاً وتحامانى
وحَجَّبَ عنى حبه غير جاهل　　بأنى ضَعيف والمبرة من شانى
ولكن رآنى مغربيا محققا　　وأن طعامى لم يكن حب رمّان

زيارة القاضى أصلحه الله لمثلى ممن لا يخافه ولا يرجوه ، تجب من وجوه : أولها كونى ضيفا ، ممن لا يعد على الاختبار زَيْفاً ، ولا تجر مؤانسته حَيْفا ، فضلا عن أن تشرع[1] رمحا أو تسل سيفا ، وثانيها أنى أمتُّ إليه من الطالب بنسب ، بين موروث ومكتسب ، وقاعدة الفضل قد قررها الحق وأصّلها ، والرحم كما علم تدعو لمن وَصَلها ، وثالثها المبدأ فى هذا الغرض ، ولكن الواو لا ترتب إلا بالعرض ، وهو اقتفاء سنن المولى أيده الله فى تأنيسى ، ووصفه إياى بمقربى وجليسى ، ورابعها ـ وهو عدة كيسى ، وهزبْرُ خيسى[2] ، وقافية تجنيسى ، ومقام تلوينى وتلبيسى ـ مودة رئيس هذا الصنف العلمى ورئيسى ، فليت شعرى ما الذى عارض هذه الأصول الأربعة ورجح مذاهبها المتبعة ، إلا أن يكون عمل أهل المدينة ينافيها ، فهذا بحَسْبِ النفس ويكفيها ، وإن تعذر لقاء أو استدعاء ، وعدم طعام أو وعاء ، ولم يقع نكاح ولا استرعاء ، فلم يتعذر عذر يقتضيه الكرم ، والمنصب المحترم ، فالجِلَّة إلى التماس

(١) تشرع رمحا : ترفعه ، وأراد تسدده فى وجه الخصم
(٢) الهزبر : الأسد ، والخيس ـ بكسر الخاء ـ مسكنه

الحمد ذات استباق ، والعُرْف بين الله والناس باق ، والغَيْرَة على لسان مثله مفروضة ، والأعمال معروضة ، والله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة ، و إن كان لدى القاضى فى ذلك عذر فليُفِدْه ، وأولى الأعذار به أنه لم يقصده ، والسلام ، انتهى

ويعنى بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى ، وبرئيس هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق ، رحم الله الجميع !

رسالة للسان الدين فى خدمة الدولة

ومن كلام لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ! ـ رسالة فى أحوال خَدَمَة الدولة ومصايرهم ، وتنبيههم على النظر فى عواقب الرياسة بعيون بصائرهم ، عبر فيها عن ذَوْق ووجدان ، وليس الخبر كالعيان ، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان ، سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، وكأنه ـ أعنى لسان الدين ـ أشار ببعض فصولها إلى نفسه ، ونطق بالغيب فى نكبته التى قادته إلى رَمْسِه ، وكان ذلك منه عندما أراد التخلى عن خدمة الملوك ، والتحلى بزينة أهل التصوف والسلوك ، فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة ، وأراد سامحه الله وغفر له عَمْراً وأراد الله خارجة[1] ، وصورة ما قال رحمه الله تعالى :

وأحسست منه ـ يعنى ابن مرزوق ـ فى بعض كتبه الواردة إلىّ صاغية[2] إلى الدنيا وحنينا لما بلاه من غرورها ، فحملنى الطور الذى ارتكبته فى هذه الأيام بتوفيق الله على أن أخاطبه بهذه الرسالة ، وحقها أن يجعلها خَدَمَةُ الملوك ممن ينسب إلى نبل ، ويلم بمعرفة ، مُصْحَفا يَدْرُسه ، وشعاراً يلتزمه ، وهى : سيدى الذى يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافآت ، ولم تختلف فى مدحها الأفعال ولا تغايرت الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرُّفات ، أطلقك الله من أسْرِ كل الكون كما أطلقك من أسْرِ بعضه ، وزهَّدك فى سمائه الفانية وفى أرضه ، وحقر الحظ فى عين بصيرتك بما يحملك على رَفْضِه ، اتصل بى الخبرُ السار من تركك لشأنك ، و إجناء الله تعالى

(١) هذا مثل قاله عمرو بن العاص لمن جاء مصر ليقتله فأصاب خارجة وهو يظنه عمرا (٢) صاغية : ميلا ، وهو مصدر على جاء على زنة اسم الفاعل

إياك ثمرةَ إحسانك ، وانجياب ظلام الشدة الحالك ، عن أفق حالك ، فكبرت ، وفى الفرج من بعد الشدة اعتبرت ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيبتدر(١) ، إنما هو فىء(٢) ، وظل ليس له الأمر شىء ، ونسأل الله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا و بنيها ، وأولَ معارج نفسك التى تقربها من الحق وتُدْنيها ، وكأنى والله أحسُّ بثقل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك ، وأنا أنافرك إلى العقل الذى هو قسطاس الله تعالى فى عالم الإنسان ، والآلة لبث العدل والإحسان ، والملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان ، فأقول : ليت شعرى ما الذى غبط سيدى بالدنيا ، وإن بلغ من زبرجدها الرتبة العليا ، ونفرض المثال بحال إقبالها ، ووَصْل حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة سبالها ، ألِتوَقع المكروه صباحا ومساء ، وارتقاب الحوالة التى تديل من النعيم البأساء ، ولزوم المنافسة التى تعادى الأشراف والرؤساء ؟ ألترتب العتب على التقصير فى الكتب ، وضغينة جارِ الجَنْب ، وولوع الصديق بإحصاء الذنب ؟ ألنسبة وقائع الدولة إليك وأنت برى ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرى ؟ ألاستهدافك المضار التى تنتجها غيرة الفروج ، والأحقاد التى تضبطها ركبة السروج ، وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البروج ؟ ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت إليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود ؟ ألقطع الزمان بين سلطان يُعْبَد ، وسهام للغيوب تكبد ، وعجاجة شر تلبد ، وأقبوحة تخلد وتؤبَّد ؟ ألوزير يُصانَع ويُدارَى ، وذى حجة صحيحة يُجادل فى مرضاة السلطان ويُمارَى ، وعورة لا توارى ؟ ألمباكرة كل قرن حاسد(٣) ، وعدو مستاسد ، وسُوق للإنصاف والشفقة كاسد ، وحال فاسد ، ألوفود تتزاحم بسدّتك مكلفة لك غير ما فى طَوْقك ، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

(١) يبتدر : يسرع (٢) فىء : ظل

(٣) فى ب « كل غرن » ولعله محرف عما أثبتناه أو أصله « غر حاسد »

أجلساء ببـابك ، لا يقطعون زمان رجوعك و إيابك ؟ إلا بقبيح اغتيابك ، فالتصرفات تمقت ، والقواطع توقت ، والألاقى(١) تبث ، والسعايات تحث ، والمساجد يشتكى فى حلقها البَثُّ ، يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والأسير المأمور ، ليس له شهوة ولا غضب ، ولا أمل فى الملك ولا أرب ، ولا مَوْجدة لأحد كامنة ، وللشر ضامنة ، وليس فى نفسه عن رأى نفرة ، ولا بإزاء ما لا يقبـله نزوة ولا طفرة ، إنما هو جارحة لصيدك ، وعانٍ فى قيدك ، وآلة لتصرف كيدك ، وأنك علة حيفه ، ومسلط سيفه ، الشِّرَار يَسْمُلون عيون الناس باسمك ، ثم يمزقون بالغيبـة مزق جسمك ، قد تنخلهم الوجود أخبث مافيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ، إذ الخير يستره الله تعالى عن الدول و يخفيه ، و يقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك و يولونك الملامة ، و يفتحون عليك القول و يَسُدُّون طرق السلامة ، وليس لك فى أثناء هـــذه إلا مالا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صُدَاعه ، من غذاء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم ، وخـديم يقعد و يقيم ، وما الفائدة فى فُرُش تحتها جمر الغضى ، ومال من ورائه سُوء القَضَا ، وجاه يحلق عليه سيف مُنْتَضَى ، وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول المسقط الذى تعلم أنها فيه تهلك ، فكيف تنسب إلى نبل ، أو تسير من السعادة فى سُبْل ؟ وإن وجدت فى الجلوس بمجلس التحية ، بعض الأريحية ، فليت شعرى أى شىء زادها ، أو معنى أفادها ؟ إلا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستاسد ، أو شعرت ببعض الإيناس ، فى الركوب بين الناس ، ما أُلتذت إلا بحلم كاذب ، أو جذبها غير الغرور جاذب ، إنما راكبك من يُحدّق إلى الحلية والبِزَّة ، و يستطيل مدة العزة ، و يرتاب إذا حدثت بخبرك ، و يتتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، و يمنعك من مسايرة أنيسك ، و يحتال على فراغ كيسك ، و يضمر الشر لك ولرئيسك ، وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، و يمشى إذا شاء وحده ؟

(١) الألاقى : الشدائد ، واحدها ألقية

ولو صح فى هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيدا ، أو عين الرشد عملا حميدا ، لساغ الصَّاب[١] ، وخفَّت الأوصاب ، وسهُل المُصَاب ، لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية ، أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بحراء الضرائر ولوم ، وأما يومه فتدبير ، وقبيل ودَبير ، وأمور يَعْيابهاثَبير[٢] ،و بلاء مُبير[٣] ، ولغط لايدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خبير ، والله ياسيدى ومَنْ فلق الحْبَّ ، وأخرج الأبَّ[٤] ، وذرأ من مشى ومن دَبَّ ،وسمى نفسه الربَّ ، لو تعلق المالُ الذى يجره هذا القدح ، و يورى سقيطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدر بدره بالمناكب ، لما ورثه عقب ، ولا خلص به محتقب[٥] ، ولافاز به سافر ولامنتقب ، والشاهد الدول ، والمشائم الأول ، فأين الرباع المُقْتَنَاة ؟ وأين الديار المبتناة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلسات ؟ وأين الودائع المؤملة ؟ وأين الأمانات المحملة ؟ تأذن الله بتتبيرها، و إدْنَاء نار التبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم إلا أعراء الظهور ، مترمقين لجريات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يُطْرَدُونَ من الأبواب التى حجب عنها آباؤهم ، وعرف منها إباؤهم ، وشم من مقاصيرها عَنْبَرُهم و كِبَاؤهم ، ولم تسامحهم الأيام إلا فى إرث محرر ، أو حلال مقرر ، وربما مَحَقَه الحرام ، وتَعَذَّرمنه المَرَام ، هذه ـ أعزك الله ! ـ حال قبولها مع الترفيه ، ومالها المرغوب فيه ، وعلى فرض أن يستوفى العمر فى العز مُسْتَوْفيه ، وأما ضدّه من عدوّ يتحكم و ينتقم ، وحوت بَغْى يبتلع و يلتقم ، ومُطْبق يحجب الهواء ، ويطيل فى التراب الثَّوَاء ، وثعبان قيدٍ يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرِّقَاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، و يجرعها

---

(١) الصاب : عصارة شجر مركرية الطعم (٢) ثبير ـ بفتح الثاء ـ اسم جبل بعينه
(٣) مبير : مهلك ، أباره يبيره إبارة أهلكه
(٤) الأب ـ بتشديد الباء ـ المرعى وطعام الحيوان
(٥) محتقب : محتمل ، وأصله الذى يضع فى حقيبته

العدوّ الفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق ، فهل فى شىء من هذا مُغْتَبَطٌ لنفس حرة ، أو مايساوى جرعة حال مرة ؟ واحسرتا للأحلام ضلت ، وللأقدام زلت ، و يالها مصيبة جلت ، ولسيدى أن يقول : حكمت باستثقال الموعظة واستجفائها ، ومُرَاودة الدنيا بين خلانها وأكفائها ، وتناسى عدم وفائها ، فأقول: الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق بسوء الظن مُغْرًى ، وكيف لا وأنا أقف على السحاآت بخط يد سيدى من مَطَارح الاعتقال ، ومثاقف النوب الثقال ، وخطوات الاستعداد ، للقاء الخطوب الشداد ، ونَوْش الأسِنَّة الحِداد ، وحيث يجمل بمثله أن لا يصرف فى غير الخضوع لله تعالى بنانا ، ولا يثنى لمخلوق عنانا ، وأتعرف أنها قد ملأت الجوّ والدوّ ، وقصدت الجماد والبوّ ، تقتحم أكف أولى الشَّمَات ، وحَفَظَة المذمَّات ، وأعوان النُّوَب الملمات ، زيادةً فى الشقاء ، وقصدا بريامن الاختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغربَ من العَنْقاء ، ومن النفاق على أشهر من البلقاء ، فهذا يوصف بالإمامة ، وهذا يُجْعَل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، إلى ما أحْفَظَنى والله من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من العلوم ، هلا كان مَنْ ينظر فى ذلك قد قوطع بتاتا ، وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير والشر ميقاتا ، وأنا لا نملك موتا ولا نشورا ولا حياتا ، وأن اللوح قد حَصَر الأشياء مَحْوًا و إثباتا ، فكيف نرجو لما منع مَنالا أو نستطيع مما قدر إفلاتا؟ أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة فنتحوّل إليه ، و بينوا لنا الحق نُعوّل عليه ، الله الله يا سيدى فى النفس المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشَّحة ، والسلف الشهير الخير ، والعمر المُشْرِف على الرحلة بعد حَثِّ السير ؛ ودَعِ الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم ! وأخَسَّ لحوظهم ! وأقل متاعهم ! وأعجل إسراعهم ! وأكثر عناءهم ! وأقصر آناءهم !

مَاثَمَّ إلا ما رأيتُ ورُبَّما ، تُعْيِي السلامه

والنـــاس إما جائر أو حائر يشكو ظُـــلامه
وإذا أردت العـــزلا ترزأ بنى الدنيـــا قُلامه
والله ما احتقب الحريـــص سوى الذنوب أو الملامه
هل ثم شك فى المعـــا د الحق أو يوم القيامـــه
قولوا لنا ما عنـــدكم أهـــل الخطابة والإمامه

وإن رَمَيْتَ بأحجارى ، وأوجرت المرمن أشجارى ، فوالله ما تلبست اليوم منها بشىء قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطَيِّبٍ فضلا عن خَبيث ، وما أنا إلا عابرُ سبيل ، وهاجر مَرْعًى وَبيل ، ومرتقب وَعْدًا قدر فيه الإنجاز ، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز ، قد فررت من الدنيا كما يُفَرُّ من الأسد ، وحاولت المقاطعة حتى بين روحى والجسد ، وغسل الله قلبى ولله الحمد من الطمع والحسد ، فلم أبق عادة إلا قطعتها ، ولا جُنَّة للصبر إلا ادَّرَعْتُها ، أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فيما بأيدى الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف ، ووالله لو علمت أن حالى هذه تتصل ، وأن عُراها لا تنفصل ، وأن ترتيبى هذا يدوم ، ولا يحيرنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ، لمت أسَفًا ، وحسبى الله وكفى ، ومع هذا يا سيدى فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود ، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود ، ولقد أعملت نظرى فيما يكافئ عنى بَعْضَ يَدِكَ ، أو ينتهى فى الفضل إلى أَمَدِكَ ، فلم أرلك الدنيا كفاء هذا لو كنت صاحب دنيا ، وألفيت بذل النفس قليلا لك من غير شرط ولا ثُنْيا(١) ، فلما ألهمنى الله لمخاطبتك بهذه النصحية المفرغة فى قالب الجفا ، لمن يثبت عين الصفا ، ولا يشيمُ(٢) بارقة الوفا ، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها المنهمكين ، وينظروا عُوَّارها القارحَ بعين اليقين ، ويعلم أنها المومسة التى حُسْنُها

(١) الثنيا ـ بضم الثاء وسكون النون ـ الاستثناء
(٢) يشيم : ينظر ، والبارقة : السحابة ذات البرق

زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور ، تبين لى أننى قد كافأت صنيعتك المتقدمة ، وخرجت عن عهدتك الملتزمة ، وأمحضتُ لك النصح الذى يُعِزُّ بعز الله ذَاتَكَ ، ويطيب حياتك ، ويحيى مَوَاتك ، ويريح جوارحك من الوَصَب ، وقلبك من النَّصَب ، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينك إذا اعْتَبَرْت ، ويلاشى عظائمها لديك إذا اختبرت ، كل من تقع عينك عليه فهو حقير قليل ، وفقير ذليل ، لا يَفْضُلُكَ بشىء إلا باقتفاء رشد أو ترك غى ، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل ، وعُرْوة عزه يقصلها القاصل ، وماله الحاضر الحاصل ، يعبث فيه الحسام الفاصل ، والله ما تعين للخلف إلا ما تعين للسلف ، ولا مصير المجموع إلا إلى التلف ، ولا صح من الهِياط والمِياط ، والصياح والعياط ، وجمع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار بالوزَعة والأشراط ، والخبط والخباط ، والاستكثار والاغتباط ، والغلو والإشطاط ، وبناء الصَّرْح وعمل السَّاباط ، ورفع العُمُد وإدارة الفُسْطاط ، إلا أمل يذهب القوّة ، وينسى الآمالَ المَرْجُوَّة ، ثم نَفَس يصعد ، وسكرات تتردد ، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد ، ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق وتمقل ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه مُعرضون ، ثم القبر وما بعده ، والله مُنجز وعيده ووعده ، فالإضراب الإضراب ، والتراب التراب ، وإن اعتذر سيدى بقلة الجَلَد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق ، وبيده من التسبب ما يتكفل بإمساك الأرماق ، أين النَّسْخُ الذى يتبلغ (١) الإنسان بأجرته ، فى كن حجرته ؟ لا بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرته ، السؤال والله أقوم طريقا ، وأكرم رفيقا ، مِنْ يدٍ تمتدّ إلى حرام ، لا يقوم بمَرَام ، ولا يؤمن من ضِرام ، أحْرِقَتْ فيه الحلل ، وقُلِبَتْ الأديان والملل ، وضُرِبت الأبشار ، ونُحِرَت العِشَار ، ولم يصل منه على يدى واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدّة ففضح ، وبان شؤمه ووَضَح ، اللهم طهر منها أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا

---

(١) النسخ : أراد به كتابة الكتب لمن يشاء ، ويتبلغ : يتوصل

وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترفد إلا خيرك ، يا ألله .

وحقيق على الفضلاء إن جَنَحَ سيدى منها إلى إشارة ، أو أعمل فى اجتلابها إضْبَارَه (١) ، أو لَبِسَ منها شارة ، أو تشوّف لخدمة إمارة ، أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس ، ولا يغتروا بسِمَةٍ ولا خلق ولا لباس ، فما عدا عما بدا ؟ تَقَضَّى العمر فى سجن وقيد ، وعمرو وزيد ، وضر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسُعَيْد ، وعبد وعُبَيْد ، فمتى تظهر الأفكار ، ويقر القرار ، وتلازم الأذكار ، وتشام الأنوار ، وتستجلى الأسرار ؟ ثم يقع الشهود الذى يذهب معه الإخبار ، ثم يحق الوصول الذى إليه من كل ما سواه الفِرار ، وعليه المَدَار ، وحَقِّ الحق الذى ما سواه فباطل ، والفيضِ الرحمانى الذى رَبَابه الأبَدَ هاطل (٢) ، ما شابت مخاطبتى لك شائبة تريب ، ولقد محَضْتُ لك ما يمحضه الحبيب للحبيب ، فتحمل جفائى الذى حَمَلَتْ عليه الغيره ، ولا تظنّ بى غيره ، وإن لم تعذرنى مكاشفة سيادتك بهذا النَّثِّ ، فى الأسلوب الرث ، فالحق أقدم ، و بناؤه لا يُهْدَم ، وشأنى معروف فى مواجهة الجبابرة على حِينِ يَدِى إلى رِفْدِهم ممدودة ، ونفسى فى النفوس المتهافتة عليهم معدودة ، وشبابى فاحم ، وعلى الشهوات مزاحم ، فكيف بى اليوم مع الشيب ، ونُصْح الجَيْب ، واستكشاف العَيْب ، إنما أنا اليوم على كل من عرفنى كَلٌّ ثقيل ، وسيف العدل فى كفى صقيل ، أعذل أهل الهَوَى ، وليست النفوس فى القبول سَوَا ، ولا لكل مَرَض دَوَا ، وقد شَفَيْتُ صدرى ، وإن جهلت قدرى ، فاحملنى — حملك الله تعالى ! — على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الأبوّة الصالحة ، والسلام . انتهت الرسالة البديعة فى بابها ، الآتية من الموعظة بلُبَابها ، ذات النصيحة الصريحة التى يتعين على كل عاقل خصوصا مَنْ يريد خدمة الملوك التمسك بأسبابها .

(١) الإضبارة — بكسر الهمزة — الحزمة من الصحف ومن السهام

(٢) الرباب : السحاب ، وهاطل : منسكب بالمطر ، و « الأبد » منصوب على الظرفية

قلت : وقد رأيت بخط الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أوّل الكلام « وأحسست منه فى بعض كتبه إلى آخره » ما صورته : توهَّم مالايقع ، بل لما تجلت عنى سحب النكبة والامتحان جزمت بالرحلة ، وعزمت على النقلة ، ونفرت عن خدمة السلطان ، وملازمة الأوطان ، قال ابن مرزوق : والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبنى به ـ أبقاه الله تعالى ! ـ تحلّى به أجمع ، وابتلى بمامنه حَذَّر ، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له ، فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص ، انتهى .

وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطه ابنُ لسان الدين عليّ ، ما صورته : صدق والله سيدى أبوعبدالله بن مرزوق ، كان الله تعالى له ! قاله ولده ابن المؤلف .

قلت : وهذا الذى قاله ابن مرزوق كان فى حياة ابن الخطيب ، ولذلك دعا له بالبقاء ، و بحسن الخاتمة والخلاص ، وقد أسفر الغيب عن محنته ، ثم قَتْله على الوجه الذى وصفه أثناء هذه الرسالة ، إذ قال : وأماضده من عدوّ يتحكم و ينتقم ، وحوت بغى يبتلع و يلتقم ، ومُطْبق يحجب الهواء ، و يطيل فى التراب الثواء ، وثعبان قيدٍ يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرقاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، و يُجَرعها العد والفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق ، فإنه رحمه الله تعالى حصل له ما ذكر ، ثم اغتاله ليلا وخنقه فى محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، فالله تعالى يثيبه بهذه الشهادة !.

وقد تذكرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيق ، وهى : مرثية لابن صابر المنجنيق

هل لمن يرْتَجِى البقاء خلود وسوى الله كل شىء يبيد(١)

والذى كان من تراب و إن عا ش طويلا إلى التراب يعود

---

(١) « سوى الله » مستثنى تقدم فى أول الكلام ، والأصل : وكل شىء يبيد سوى الله ، ونظيره قول الشاعر :

خلا الله لا أرجو سواك ، وإنما أعد عيالى شعبة من عيالكا

فمصير الأنام طُرًّا لما صا ... ر إليه آباؤهم والجدود[1]
أين حوّا أم أين آدم إذ فا ... تهما الملك والثّوا والخلود
أين هابيل أين قابيل إذ هـ ... ـذا لهذا معاند وحسود
أين نوح ومن نجا معه بالـ ... ـفلك والعالمون طُرًّا فقيد
أسلمته الأيام كالطفل للمو ... ت ولم يغن عمره الممدود
أين عاد بل أين جنة عاد ... إرَمٌ أين صالح وثمود
أين إبراهيم الذى شاد بيت ... الله فَهْوَ المعظم المقصود
أين إسحاق أين يعقوب أم ... أين بنوه وعَدُّهم والعديد
حسدوا يوسفا أخاهم فكادو ... ه ومات الحساد والمحسود
وسليمان فى النبوّة والملـ ... ـك قضى مثل ما قضى داود
ذهبا بعد ما أطاع لذا الخلـ ... ـقُ وهذا له أَلِينَ الحديدُ
وابن عمران بعد آياته التسـ ... ـع وشَقِّ الخضمِّ فهو صعيد[2]
والمسيح ابن مريم وهو روح الله ... كادت تقضى عليه اليهود
وقضى سيد النبيين والها ... دى إلى الحق أحمد المحمود
وبنوه وآله الطاهرون الزّ ... هْرُ صلى عليهم المعبود
ونجوم السماء منتثرات ... بعد حين وللهواء ركود
ولنار الدنيا التى توقد الصخـ ... ـر خمود وللمياه جمود
وكذا للثرى غداة يقوم النـ ... ـاس منها تزلزل وهمود
هذه الأمهات نار وترب ... وهواء رَطْبٌ وماء بَرودُ
سوف تفنى كما فنينا فلا يبـ ... ـقى من الخلق والد ووليد
لا الشقى الغوى من نوب الأيا ... م ينجو ولا السعيد الرشيد

(١) الثوا : أصله الثواء ـ بالمد ـ فقصره حين اضطر ، ومعناه الإقامة
(٢) ابن عمران : هو موسى كليم الله ، والخضم : البحر ، والصعيد : الأرض اليابسة

ومتى سَلَّتِ المنايا سيوفا فالموالى حَصيدُها والعبيد(١)

وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسى التى رثى بها بنى الأفطس وذكر فيها كثيراً من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم بِرَحاه وصيرهم أثراً بعد عين ففيها ما يوقظ النوّام ، وأولها :

الدهر يَفجَعُ بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصُّوَر ؟

وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبَّارية :

الموت لا يبقى أحد لا والداً ولا ولد

مات لبيد ولُبَدْ وخلد الفرد الصمد

كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، اللهم اختم لنا بالحسنى ، وردنا إليك رداً جميلا .

وتذكرت هنا أيضاً مرثية على روى مرثية المنجنيقى السابقة منها :

من مرثية أخرى

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمود

بينما هم على الأسرة والأنماط أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم يَنْقَضِ الحديثُ ولكن بعدذا الوعْدُ كله والوعيدُ

وأطباء بعدهم لحقوهم ضل عنهم سَعُوطهم واللَّدُودُ(٢)

وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى الموت ممن يعود

للسلطان أبى على المرينى

وما أحكم قول السلطان أبى على ابن السلطان أبى سعيد المَرِينى يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن وقد حصره بِسِجِلْمَاسة حتى أخذه قَسْراً :

فلا يغرنك الدهر الخؤونُ فكم أباد مَنْ كان قبلى يا أبا الحسن

الدهر مذ كان لا يبقى على صفة لابد من فرح فيه ومن حزن

أين الملوك التى كانت تهابهم أسد العرين ثوَوْا فى اللحد والكفن

(١) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا السيد

(٢) السعوط : ما يوجر فى الأنف ، واللدود ـ بفتح أوله ـ مايصب فى أحد شقى الفم من الدواء

بعـد الأسرة والتيجان قد محيت ... رسومها وعفت عن كل ذى حسن[1]
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً ... واستغن بالله فى سر وفى عَلَنِ
واخـتر لنفسك أمراً أنت آمره ... كأننى لم أكن يوما ولم تكن

ودخل السلطان أبو الحسن سِجِلْمَاسَةَ عَنْوَة على أخيه السلطان أبى على عمر سنة ٧٣٤ ، وجاء به فى الـكَبْل[2] لفاس ، ثم قتله بالفصد والخنق فى ربيع الأول من السنة ، وكان القبض عليه فى المحرم ، رحمه الله تعالى !.

ومما وجد مكتوبا على قصر بعض السلاطين :

قد كان صاحب هذا القصر مغتبطا ... فى ظل عيش يخاف الناس من باسه
فبيـنما هو مسرور بلذته ... فى مجلس اللهو مغبوط بجلاسه
إذ جاءهُ بغتـة مالا مرد له ... فخر ميتاً وزال التاج عن راسه

زيارة المؤلف لقبر لسان الدين

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ــ قلت : وقد زرت مراراً رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذى يقال له باب الشريعة ، وهو يسمى الآن باب المحروق ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض ، بل ينزل إليه بانحدار كثير ، ويزعم الجل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمى بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مر ، وليس كذلك ، و إنما سمى باب المحروق من دَوْلة الموحـدين ، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه ، بسبب ثائر ثار على الدولة ، فأمسك وأحرق فى ذلك المحل ، والله غالبٌ على أمره ، وحصل لى من الخشوع والحزن عند زيارة قبره ــ رحمه الله تعالى ! ــ مالا مزيد عليه ، جعل الله له تلك المحن كفارة وطُهْرة ، فإنه كان آية الله علما وجلالة وحكمة وشهرة .

وقد تذكرت عند كتبى هـذا المحل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب فى عزاء

(١) عفت : أصله بمعنى درست وانمحت وضمنه هنا معنى خلت
(٢) الـكبل ــ بفتح الـكاف وسكون الباء ــ القيد

بعض أهل المغرب في العزاء

الوزير الشهير أبي جعفر بن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بنيه ، وهي مما يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى ، وفيها عزاء بمن مضى ، ونصها :

عزاءً يا كواكب الهدى ، في بدركم الذي تحيَّفه الردى (١) ، وفُجِع به الفضل والندى ، فقل للشهب أن تتكدر على فراقه ، وللصبح أن يخبو نور إشراقه ، وللريح أن تمزق صِدارا ، وللأهلَّة أن لا تعرف إبدارا ، ولليل أن يشتمل خميصة الحزن ، وللسماء أن تبكيه بأدمع المزن ، وللرعد أن ينتحب لوفاته ، وللبرق أن يحكى برجفانه أفئدة عُفَاته (٢) ، وللثريا أن ينفصم سوارها ، وللشمس أن تنكسف أنوارها ، وللنثرة أن تنثر كواكبها ، وللجوزاء أن تنفض مناكبها ، وللنيرات أن ترفض مواكبها ، وللرامح أن يبيت أعزلا ، وللبدر أن لا يألف منزلا ، وللمجرَّة أن يفيض دمعاً نهرها ، وللغُمَيْصَاء أن يطَّرد بكاؤها وسهرها ، وللروض أن يفارق إمراعه ، وللأورق أن يهتف بما راعه ، وللغصون أن تنهصر لهتفه ، وتتقصف أسفا على حَتْفه ، ولكن هو الحِمَام يختل ويختر ، ولا يحفل بمن يَتِر ، يعدم ما أوجده الكون ، ويذيل مَنْ أكنفه الصون ، وأين بنا عن مكافح لا نتماتله ، ورام أرواحنا مَقَاتله ، لا يدبه ناصرة ، وعزمته قاصرة للقياصرة ، ويمينه كاسرة للأكاسرة لم يبق من رسم ، لطَسْم ، ولا من إحسان ، لغسان ، ولا من أياد ، لإياد ، ولا من سلطان ، لقحطان ، ولا من نجيب ، لتُجِيب ، ولا شرف ضخم ، للَخْم ، لم يكن له عن اليمنيين إقصار ، ومنهم الأنصار ، وهم أسماع للنبي وأبصار ، وعمد إلى المصابيح من مضر يطفيها ، هذا والوحي يتنزل فيها ، ولم يصخ في الصديق ، إلى التصديق ، وأصمى الفاروق بِرَدَاه ، وحكم فيه أبا لؤلؤ ومُدَاه ، وأمكن صرف الأقدار ، من شهيد الدار ، ولم يُرَعْ من علي بالبسالة ، والذُّبَّلِ العسالة (٣) ، ولا أبقى سبطيه وقد تفقأت عنهما بيضة الرسالة ، وأذهب الزبير حَوَارِيَّ الرسول ، وحنظلة وهو بأيدي الملائكة

(١) تحيفه : تنقصه وأخذ منه ، والردى : الهلاك

(٢) عفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف

(٣) الذبل : جمع ذابل ، وهو الرمح ، والعسالة : الشديدة الاهتزاز

مغسول ، وأفات ابن معاذ [١] ولم يحفل بفوْته ، على أنه اهتز العرش لموته ، وأودى بحمزة ومقعدُه من النبوّة ، مقعد الأبوة ، وشفى من عمّار صدورَ الأسَل ، وأردى مالكا بشربة من عسَل ، ولم يعبأ بمضاء عمرو ، ولا بحلم معاوية ودهاء عمرو ، فياله من خطب ، مُودٍ بكل يابس ورطب ، يشرب ماء الأعمار ، ويجعل الأجداث منازل الأقمار ، ويلوك السوقة والأملاك ، ولا يبالى أيةً لاك ، ولا يقبل شفيعا ، ولا يغادر منحطا ولا رفيعا ، هاهو اعتمد نور عُلاً فكسفه ، وطود حلم فنسفه ، وأعلق الجد فى حبله ، وأقصد الفضل بنباله ، وفجع كنانة ، بسهم لم ينثل مثله من كنانة ، فيا طارق الأعين لقد بؤت بأنفس الأعلاق ، ويا ناعيهُ لقد نعيت باسق الأخلاق ، رُوَيْداً أسائلك ، عمن لم تَضِعْ لديه وسائلك ، أين سماحته وطلاقته ؟ أين كلفه بالحمد وعلاقته ؟ ما الذى ثنى عطفه عن الارتياح ؟ أم أين عافيهِ من ذلك الامتياح ؟ أم من يؤلف أمنيـة كما ألفت السحب أيدى الرياح ؟ فياهبة الحمد اطوى عَرْفك فما تنشق ، ويا ربة المجد أقصرى طرفك فما تعشق ، ويا معشر عُفَاته ، كيف حييتم وقد علمتم بوفاته ؟ ويا زُمَر أمّاله ، صفرت أيديكم من إجماله ، ويا أخاير صِحابه ، أين مواقع سحابه ؟ ويابنى ولائه ، مَنْ يتبوأ مقـام علائه ؟ ويا منافسى شِيَمه ، من يجود بمثل دِيَمه ؟ ويا منازعى كرمه ، من يُطيف المعتفين بمثل حَرَمه ؟ ويا حاسدى هممه ، مَنْ له كحِفاظه وذممه ؟ سيدى لقد أضاءت مساعيك وأشرقت ، وأغصّتِ الحاسدين طراً وأشرقت ، وحسبهم أن لم ينتبهوا إلا إذا نمت ، ولا نطقوا إلا حين مت ، وليَهْنِ مَلاَكَ وصَحْبك ، أن أحييتك صنائعك وقد قضيت نَحْبك ، وإن حُمّ فَناؤك ، فقدأبقى الحياة الخالدة ثناؤك :

ردت صنائعه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور
والناس مأتمهم عليه واحد ... فى كل دار أنة وزفـــير

---

(١) ابن معاذ : هو سعد بن معاذ ، وفى موته يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

وهذا هو الذى يعنيه هنا صاحب هذه الرسالة

سيدى ، أما تجيب صَرْخَه لهفان ، أم عداك عن الجواب أنك فان ، سيدى مَنْ لآملك ، يبسط أناملك ، من لِلمرْمِلات الضَّرائك ، بإرشادك وآرائك ؟ مَنْ لقربائك ، بصلتك وحبائك ؟ من لأخيك ، بمواثق أواخيك ؟ من لأبنائك ، بلطف إحنائك ؟ انفضَّ شملهم [١] وكان جميعاً ، ونادَوْك لونادَوْا منك سميعا ، هذا كبيرهم يدعوك فلا تجيبه ، وقد فتَّ الأضلاعَ وجَيبُه ، يبكى عند تلك الرِّجام ، بأدمع سِجام ، وقد ألهبت الزفرات حَشَاه ، وألح الدمع بجفنه حتى أعشاه ، والأصاغر مالهم بعدك مفزع ، ورضيعهم تسلب به الأنفس رحمة وتنزع ، لايدرى ما جزع عليك فيجزع ، لشدّ ماأذابتهم وَقْدَة الأوار ، حين عدموا منك كرم النجوى والجوار ، أف لدهر رماهم بالأجوار ، وتركهم أنجما مسلوبة الأنوار ، لا جرم أن يحزنوا عليك و يكترثوا [٢] ، فلقد تسلوا عنك ببعض ماورثوا ، وما ورثتهم غير الحزن والبث ، وأمل فى الحياة كالهباء المنبث ، كما تتلى محاسنك فاسمع ، طفقت عليك شئون عينى تدمع ، أيا ضريحه ، كيف وجدت ريحه ؟ لقد أرِجَ بك ذلك المعفر ، حتى ما ينافحه المسك الأذفر ، وكما ظفرت بوجوده ، فجد كل قبر بجوده ، ففيه سماء ثَرَّةٌ وغمام ، ونَوْر انضم عليه منك كمام ، ولو علمتَ بمن بين جنبيك راقد ، لعلوت حتى تلوح فى ذَرَاك الفراقد ، ويا دافنيه كيف هلتم عليه الرغام ؟ أو لم تنكروا على الشمس أن تغام ، هيهات لقد سمحتم بإقبار ، عف الشمائل طيب الأخبار ، و إلحاد ، من لا نِزَاعَ فى فضله ولا إلحاد ، أى نفس تخذتم له التراب مستودعا ، فأضحى عِرْنين المكارم مُجدَّعا ؟ .

فتى مثل نصل السيف من حيث جئته ... لنائبة نابتك فهو مضارب

فتى هَمُّه حمد على النأى رابح ... وإن بات عنه ماله وهو عازب

أما و إن ازدحمت بمهلكه الأوصاب ، وفدح الرزء وجل المصاب ، حتى لا نألف

---

(١) انفض : تفرق ، والشمل : المجتمع

(٢) يكترث ، هنا بمعنى يشق عليهم ، وتقول « كرث فلان الغم » إذا اشتد عليه وبلغ منه المشقة .

الناسا ، فلقد سر الموت من حيث سا ، فلقد خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب ، ولا يبالى من أقصد سهمُه الصائب ، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود وأخلقك ، ويا جَوَاد عمره ما كان أقصر طلقك ، توَى ، حين استوى ، وتوارى ، إذ ملأ الأفق أنوارا ، وكسف حين بلغ الكمال ، فكان كالغصن عندما اعتدل مال ، أو كالشهاب عندما استقام حار ، وكذاك عمر كواكب الأسحار ، هذه الْيَرَاعة التحفت بعده الضنى ، والصحف تطوى على جهالة وتحنى ، وعهدى به إن امتطى راحته اليراع ، راع ، أودبَّجَ الأوراق ، راق ، أو استدر طبعه السلسال ، سال ، وأى روض أراد ، راد ، ومتى أراغ الإنشاء ، أحسن إن شاء ، فحق للفؤاد أن يَسْتَعِرَ بوقده ، وللمدامع أن تسيل دما على فقده ، بَيْد أنه الموت لابد أن نرد مَشْرَعه ، ونسيغ على شَرَق به جُرَعَه ، فإنا زرع يحصده الذى ازدرعه ، وصَبْرًا ياذوى أرحامه و بنيه ، ومن مرفى غُلَوَاء الوجد فالسلوان يثنيه ، وشُحًّا على أجركم لا يذهب به الجزع ويفنيه ، والله يزلف الفقيد من رحمته ويدنيه ، ويقطفه زهر رضوانه ويجنيه ، وييسر لكم العزاء الأجمل برحمته ويُسَنِّيه ، والسلام . انتهت

ويرحم الله القائل :

كل جمع إلى الشتات يصير أى صفو ما شابه تكدير؟(١)
أنت فى اللهو والأمانى مقيم والمنايا فى كل وقت تسير
والذى غره بلوغ الأمانى بسراب وخُلَّب مغرور
ويك يا نفس أخلصى إنَّ ربِّى بالذى أخْفَتِ الصدورُ بصيرُ

ولا خفاء على ذوى الأحلام ، من الأعلام ، أن الدنيا أضغاث أحلام :

يندم المرء على ما فاته من لُبَانات إذا لم يَقْضِها(٢)
وتراه فرحا مستبشرا بالتى أمضى كأن لم يمضها

(١) الشتات ـ بفتح الشين ـ التفرق ، وشابه : خالطه
(٢) اللبانات : جمع لبانة ـ بضم اللام ـ وهى الحاجة

إنها عندى كأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

وقال أبو منصور أسعد النحوى :

يجمع المرء ثم يترك ما يجمع من كسبه لغير شكور

ليس يحظى إلا بذكر جميل أو بعلم من بعده مأثور

وقال الإمام الشهير أبو الفرج بن الجوزى :

يا ساكن الدنيا تأهب وانتظر يوم الفراق

وأعِدَّ زادا للرحيل فسوف يحدى بالرفاق

وابك الذنوب بأدمع تنهل من سحب المآق

يا من أضاع زمانه أرضيتَ ما يفنى بباق

كلمة عن أبى الفرج ابن الجوزى

وكان ابن الجوزى المذكور آية الله فى كثرة التأليف والكتابة والوعظ والحفظ ، وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر عنده مائة ألف وقال فى آخر عمره على المنبر : كتبت بأصبعى هاتين ألفى مجلدة ، وتاب على يدى مائة ألف ، وأسلم على يدى عشرون ألف يهودى ونصرانى ، وأسمع رحمه الله تعالى الناسَ أكثر من أربعين سنة ، وحدث بمصنفاته مرارا .

وقال الحافظ الذهبى فى حقه : الحافظ الكبير ، الواعظ ، المفنن ، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة فى العلوم المتعددة ،وعظ من صغره ، وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح ، وكتب بخطه مالا يوصف ، ورأى من القبول والاحترام مالا مزيد عليه ، وحُزِر(١) مجلسه غير مرة بمائة ألف ، وحضر مجلسه المستضىء مرارا من من وراء الستر ، انتهى .

ومن كلامه فى بعض مجالسه : والله مااجتمع لأحد أمله ، إلا وسعى فى تفريقه أجله ، وعقارب المنايا تلسع الناس ، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس .

---

(١) وحزر مجلسه ـ بالبناء للمجهول ـ قدر عدد من حضره

وقال فى قوله صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتى من الستين إلى السبعين » إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلما شارف الركبُ بلَدَ الإقامة قيل : حثوا المطى.

وقال فى الذين عبدوا العجل : لو أن الله خار لهم ، ما خار لهم[1] .

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس : فهمتم فهمتم[2] .

وقال فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله صلى الله عليه وسلم « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وغيره ، ماصورته : فهذه أحاديث تجرى مجرى النص ، فهمها الخصوص ، غير أن الرافضة فى إخفائها كاللصوص ، فقال السائل : لما قال « أقيلونى » ما سمعنا مثل جواب على رضى الله عنه « والله لا أقلناك » فقال : لما غاب على عن البيعة فى الأول ، أخلف مافات بالمدح فى المستقبل ، ليعلم السامع والرائى أن بيعة أبى بكر و إن كانت من ورائى ، فهى رائى ، ومثل ذلك الصَّدْر لا يرائى .

وقال فى قول فرعون « أليس لى ملك مصر » : يفتخر بما أجراه ، ما أجراه[3] !

وتواجَدَ رجل فى مجلسه فقال : عجبا ! كلنا فى إنشاد الضالة سوَا ، فلم وجدت وَحْدَك ألم الجوَى ، وأنشد :

قد كتمت الحب حتى شفنى وإذا ما كتم الداء قتل
بين عينيك علالات الكرى فدع النوم لربات الحجل

ونظر يوما إلى أقوام يبكون فى مجلسه و يتواجدون فأنشد :

ولو لم يهِجْنِي الظاعنون لهاجنى حمائم ورق فى الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح لم يقطر لهنّ دموع
وكيف أطيق العاذلين وذكرهم يؤرقنى والعاذلون هجوع

وقام رجل وتواجد فأنشد :

---

(١) خار لهم الأولى : اختار ، وخار لهم الثانية : صوت ، خار الثور يخور

(٢) فهمتم الأولى : من الفهم ، فالفاء من أصل الكلمة ، وفهمتم الثانية : من الهيام ، فالفاء عاطفة (٣) ما أجراه الثانية : أصلها ما أجرأه صيغة تعجب من الجراءة

وما زال يشكو الشوق حتى كأنما تنفس من أحشائه وتكلما
ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

وأعجبه يوما كلامه فأنشد :

تزدحم الألفاظ والمعانى على فؤادى وعلى لسانى
تجرى بى الأفكار فى ميدان أزاحم النجم على مكان

ووعظ المستضىء يوما فقال : ياأميرالمؤمنين ، إن تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفى عليك ، على خوفى منك ، لمحبتى لدوام أيامك ، إن قول القائل « اتق الله » خير من قول القائل : أنتم أهل بيت مغفور لكم . وقال الحسن البصرى : لأن تصحب أقواما يخوّفونك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إذا بلغنى عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع فى زمان القحط ؛ لئلا ينسى الجياع ، وكان عمر رضى الله عنه يصر بطنه عام الرَّمادة فيقول : قرقرى إن شئت أولا تقرقرى ، فو الله لا شَبِعْتِ والمسلمون جياع ، فتصدق الخليفَةُ المستضىء بصدقات كثيرة ، وأطلق مَنْ فى السجن .

وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة : اذكر عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرةَ الله عليك ، وإياك أن تشفى غيظك بسَقَم دينك .

وقال : الطاعة تبسط اللسان ، والمعاصى تذل الإنسان .

وقال له قائل : ما نمت البارحة من شوقى إلى المجلس ، فقال : نعم ، لأنك تريد أن تتفرج ، وإنما ينبغى أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه .

وقيل له : إن فلانا أوصى عند الموت ، فقال : طين سطوحه فى كانون .

وقال له قائل : أسبح أم أستغفر ؟ فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور .

وسأله سائل : ما الذى وَقر فى قلب أبى بكر رضى الله عنه ؟ فقال : قوله ليلة المعراج « إن كان قال فلقد صَدَقَ[(١)] » فله السبق .

ولما قال له بعضهم « سيفُ على نزل من السماء فسَعَفة أبى بكر أين؟ » أجابه بقوله : إن سَعَفةً هزت يوم الردة فأثمرت سَبْياً جاء منه مثلُ ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند ، ثم قال : يا عجبا للروافض ، إذا مات لهم ميت تركوا معه سَعَفة مِنْ أين ذا المصطلح ؟.

وسئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » فقال : الميت يقسم ماله ويكفن ، وأبو بكر أخرج ماله كله وتخلل بالعباء .

وقال فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) قال على : إنى والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، ثم قال أبو الفرج : إذا اصطلح أهلُ الحرب فما بال النظارة ؟ .

وقال : قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سلم على عائشة ، ولم يواجهها بالخطاب احتراما لزوجها ، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج ، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز فى حقها الأباطيل ؟

قال أبو شامة : وكان ابن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ! ـ مُبْتَلًى بالكلام فى مثل هذه الأشياء ، لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها ، فكان بصيراً بالخروج منها لحسن إشاراته .

---

(١) لما سمع أهل مكة حديث الرسول عن المعراج ذهبوا إلى أبى بكر فقالوا له : أرأيت إلى مايقول صاحبك ؟ وقصوا عليه حديث المعراج ، يريدون أن يستبعده كما استبعده غيره من ضعاف الإيمان ، فخيب رضى الله عنه ظنونهم وقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق .

وانقطع القراء يوما عن مجلسه فأنشد :

وما الحلْى إلا زينة لنقيصة يُتَمِّمُ من حُسْن إذا الحسن قَصَّرَا
وأما إذا كان الجمال مُوَفَّرًا كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

وقيل له : لم تعلل موسى عليه السلام بسوف ترانى ؟ فأنشد:

إن لم يكن وَصْل لديك لنا يشفى الصبابة فليكن وَعْدَ

ولما ذكر أن بلالا - رضى الله عنه ! - لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد وينظر إليه و يبكى أنشد :

أمر على منازلهم و إنى بمن أضحى بها صَبٌّ مَشُوق
وأُومِى بالتحيَّة من بعيد كما يومى بأصبعه الغريق

ومن شعر أبى الفرج رحمه الله تعالى :

لَعِبْتَ ومثلك لا يلعب وقد ذهب الأطيب الأطيب
وقد كنت فى ظلمات الشباب فلما أضاء انجلى الغيهب
ألا أين أقرانك الراحلون ؟ لقد لاح إذ ذهبوا المذهب (١)

ولنقتصر على هذا المقدار ، ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى وارتحاله ، والاعتبار بحاله ، فنقول :

رجع إلى أخبار لسان الدين

ومما يناسب أن نذكره فى هذا المحل ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا سيدى أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى رحمه الله تعالى عن جدى الإمام قاضى القضاة سيدى أبى عبد الله المَقَّرى التلمسانى رحمه الله تعالى ، وهو أحد أشياخ لسان الدين كما يأتى إن شاء الله ذلك فى محله ، قال : كنت مع ذى الوزارتين أبى عبد الله ابن الخطيب فى جامع البيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار ، فى تلك الآثار ، فأنشد ابن الخطيب ارتجالا :

---

(١) لاح : ظهر ، والمذهب : المكان الذى نذهب إليه

من شعر لسان الدين ابن الخطيب

أقمنا برهـــة ثم ارتحلنا   كذلك الدهر حال بعد حال
وكل بداية فإلى انتهـــاء   وكل إقامة فإلى ارتحـال
ومن سام الزمانَ دَوَامَ حال   فقد وقَفَ الرجاء على المحال

وحكى لسان الدين فى « الإحاطة » عن نفسه أنه خطط هـذه الأبيات فى مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبما يأتى ذلك فى شعره .

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لبسنا فلم نُبْلِ الزمانَ وأبـــلانا   يتـــابع أخْرَانا على الغى أولانا
ونغتر بالآمال والعمر ينقضى   فما كان بالرُّجْعَى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا   فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينـــا صنيع الله شر جزائه   فلم نرع ما مِنْ سابقِ الفضل أولانا
فيارب عاملنا بما أنت أهـــله   من العفو واجبر صَدْعنا أنت مولانا

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى رىء بعد موته فى المنام ، فقال له الرائى : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفرلى ببيتين قلتهما ، وهما :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم   والـكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعـــدما   أثنى على أخلاقك الخلاق[١] ؟

وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى فى قصيدة فى حقه صلى الله عليـه وسلم ، وشرف وكرام ، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ، وهو قوله :

مدحتك آيات الـكتاب فما عسى   يثنى على عليـــك نظم مديحى
وإذا كتاب الله أثنى مُفْصِحاً   كان القصور قصار كل فصيح

وستأتى هذه القصيدة فى نظمه إن شاء الله تعالى .

وقد رأيت بالمغرب تخميسا للبيتــين الأوّلين منسوبا للأديب الشهير الذكر

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى حقه صلوات الله وسلامه عليه : (وإنك لعلى خلق عظيم)

بالمغرب أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي رحمه الله تعالى ، ولا بأس أن نورده هنا ، وهو قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلا لضريح خير العالم ينهى إليه مقام صَبٍّ هائم
بالله ناد وقل مقالة عالم يا مصطفى من قبل نشأة آدم
والكون لم تفتح له أغلاق
بذناكَ قد شهدت ملائكة السما والله قد صلى عليك وسلما
يا مجتبى ومعظما ومكرما أيروم مخلوق ثناءك بعدما
أثنى على أخلاقك الخلاق

وما أحْسَنَ قولَ لسان الدين ـ رحمه الله تعالى! ـ بعد ما عرّف بنفسه وسلفه : وكأن بالحي ممن ذكر قد التحق بالميت ، و بالقبر قد استبدل بالبيت .

وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته : وقلت والبقاء لله وحده ، و به يختم الهَذَر :

عَدِّ عن كيت وكيت ما عليها غير ميت
كيف تُرْجَى حالة البُقْيَا لمصباح وزيت (١)

وسيأتى ذلك .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، ورقى درجته فى الجنة ! .

تحقيق فى شأن بيتين

وأما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق والمغرب وأنهما قيلا فى لسان الدين رحمه الله تعالى ، و بعضهم ينسبهما له نفسه ، فالصحيح خلاف ذلك كما سيأتى ، وهما :

قف كى ترى مغرب شمس الضُّحَى بين صلاة العصر والمغرب
واسترحم الله قتيلاً بها كانَ إمام العصر فى المغرب

---

(١) البقيا ـ بضم الباء وسكون القاف ـ البقاء .

وشرح بعضهم البيتين فقال : إن قوله « قتيلا بها » من باب الاستخدام : أى قتيلا بشمس الضحى التى هى المتغزل فيها .

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوى أنهما لم يعن بهما قائلُهما لسانَ الدين بن الخطيب ، وإنما هما مقولان فى غيره ، ونسبهما ، ونسيت الآن ذلك لطول العهد ، والله أعلم .

ويدل على ذلك أنه ـ رحمه الله تعالى ! ـ لم يقتل بين صلاة العصر والمغرب وإنما قتل فى جوف الليل كما علم فى محله ، على أنه يمكن بتكلف تأويل ذلك بأنه قامت لقائلهما قرينة على أنه بصدد الموت فى ذلك الوقت ، وهذا لو ثبت أنهما قيلا فيه ، وقد علمت أن الأغصاوى نفَى ذلك ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك .

ثم رأيت فى كتاب إسماعيل بن الأحمر فى ترجمة بعض العلماء ما نصه : فمن قوله يرثى الأمراء بالمغرب ، وقد حل رمسه بين صلاة العصر والمغرب :

قف كى ترى مغرب شمس العلا   بين صــلاة العصر والمغرب
واسترحم الله دفينـــا به   كان مليك العصر فى المغرب

وهذا مما يبعد أنهما فى لسان الدين من وجـوه لا تخفى على المتأمل : منها قوله « كان مليك العصر » فإن لسان الدين لم يكن كذلك ، وقد تقـدم آنفا « كان إمام العصر فى المغرب » وهو أحسن ؛ لما فيه من التورية البديعة ، والله أعلم .

عود إلى أخبار لسان الدين

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ـ وقد عرض عدوّه الرئيس ابن زَمْرَك فى بعض قصائده التى مدح بها سلطانه الغنى بالله أبا عبد الله ابن نصر بما تسنَّى له من الظفر بابن الخطيب ، ومن حماه منـــه ، وهو الوزير ابن الـكاسى ، على يد من عينه لملك الغرب ، وأعانه بجنده وعضده ، كما تقدم ، وهو السلطان أحمد المرينى ، فقال من قصيدة عيدية :

يَهْنِي زمانَكَ أعيـادٌ مُجَدَّدةٌ ... من الفتوح مع الأيام تغشاهُ
غضبت للدين والدنيا بحقهما ... يا حبذا غضب فى الله أرضاه
فوّقت للغرب سهماً راشَه قَدَر ... وسدّد الله للأعداء مرماه
سهم أصاب وراميه بذى سلم ... لقد رمى الغرض الأقصى فأصماه
من كان بَنْدُكَ يا مولاى يَقْدُمُهُ ... فليس يخلفه فتح ترجاه(١)
من كان جندك جند الله ينصره ... أناله الله ما يرجو وسنّاه
ملكت غَرْباً به خلدت من ملك ... للشرق والغرب منه ما تمناه
وسام أعداءك الأشقين ما كسبوا ... ومن تردّى رداء الغدر أرداه
قل للذى رمِدَتْ جهلا بصيرتُهُ ... فلم تر الشمس شمس الهدى عيناه
غطَّى الهوى عقله حتى إذا ظهرت ... له المراشد أعشاه وأعماه
هل عنده وذنوب الغدر توبِقُهُ ... أن الذى قد كساه العز أعراه(٢)
لو كان يشكر ما أوليت من نعم ... مازلت ملجأه الأحمى ومنجاه
سل السعود وخَلِّ البيض مغمدة ... فالسيف مهما مضى فالسعد أقصاه
واشرع من البرق نَصْلاً راعَ مصلته ... وارفع من الصبح بَنْدًا راق مجلاه
فالعدوتان لنا قد ضم ملكهما ... أنصار ملكك صان الله عَلْياه
لا أوحش الله قطراً أنت مالكه ... وآنس الله بالألطاف مغناه
لا أظلم الله أفقاً أنت نَيِّره ... لا أمحل الله سَرْحاً أنت ترعاه
واهنأ بشهر صيام جاء زائره ... مستنزلا من إله العرش رحماه
أهلَّ بالسعد فانهلت به مِنَنٌ ... وأوسع الصنع إجمالا ووفَّاهُ
أما ترى بركات الأرض شاملة ... وأنعُمَ الله قد عمت براياه
وعادك العيد تستحلى موارده ... ويجزل الأجر والرحمى مصلاه

(١) البند – بفتح الباء وسكون النون – العلم الكبير ، وأصله فارسى .
(٢) توبقه : تهلكه .

جهزت جيش دعاء فيه ترفعه لذى المعارج والإخلاص رقاهُ
أفَضْتَ فيه من النعماء أجزَلهَا وأشرف البر بالإحسان زكاه
واليت للخلق ما أوليت من نعم والى لك الله ما أولى ووالاه

وأول هذه القصيدة :

هذى العوالم لفظ أنْتَ معْنَاهُ كل يقول إذا استنطقته الله
بحر الوجود وفلك الكون جارية وباسمك الله مُجْرَاه ومُرْسَاه
من نور وجهك ضاء الكون أجمعه حتى تَشَيَّدَ بالأفلاك مبناه
عرش وفرش وأملاك مسخرة وكلها ساجد لله مولاه
سبحان من أوجد الأشياء من عدم وأوسع الكون قبل الكون نعماه
من ينسب النور للأفلاك قلت له من أين أطلعت الأنوارَ لولاه
مولاى مولاى بحر الجود أغرقنى والخلق أجمع فى ذا البحر قد تاهوا
فالفلك تجرى كما الأفلاك جارية بحر السماء وبحر الأرض أشباه[1]
وكلهم نعم للخلق جارية تبارك الله لا تحصى عطاياه
يافاتق الرَّتْقِ من هذا الوجود كما فى سابق العلم قد خطت قضاياه[2]
كن لى كما كنت لى إذ كنتُ لا عمل أرجو ولا ذنب قد أذنبت أخشاه
وأنت فى حضرات القدس تنقلنى حتى استقر بهذا الكون مثواه
ما أقبح العبد أن ينسى وتذكره وأنت باللطف والإحسان ترعاه
غُفْرَانَكَ اللهُ من جهل بليت به فمن أفاد وجودى كيف أنساه
مِنّى علىَّ حجابٌ لست أرفعه إلا بتوفيق هَذى منك ترضاه
فعُدْ علىَّ بما عودت من كرم فأنت أكرم مَنْ أملتُ رحماه
ثم الصلاة صلاة الله دائمة على الذى باسمه فى الذكر سماه

(١) الفلك : السفين ، والأفلاك : جمع فلك ـ بفتح الفاء واللام جميعاً ـ وهو فلك السماء

(٢) أخذ قوله « يافاتق الرتق » من قوله تعالى : (أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما)

المجتبى وزناد النور ما قدحت ولاذ كا من نسيم الروض مَسْراه(١)
والمصطفى وكِمَامُ الكون مافُتقت عن زهر زهر يروق العين مرآه(٢)
ولا تفجر نهر للنهار على دُر الدرارى فغطاه وأخفاه
يا فاتح الرُّسْلِ أو يا خَتْمها شرفا والله قدس فى الحالين معناه
لم أدخر غير حب فيك أرفعه وسيلةً لكريم يوم ألقاه
صلى عليك إله أنت صفوته ما طيبت بلذيذ الذكر أفواه
وعم بالرَّوْح والرَّيحان صحبته وجاءهم من نمير العفو أصفاه
وخص أنصاره الأعْلَيْنَ صفوته وأسكنوا من جوار الله أعلاه
أنصار ملته أعلام بيعته مناقب شرفت أثنى بها الله
وأيد الله من أحيا جهادهم وواصل الفخر أخراه بأولاه
المنتقى من صميم الفخرِ جوهره مابين نصر وأنصار تهاداه
العلم والحلم والإفضال شيمته والبأس والجود بعضٌ من سجاياه

وهى طويلة ، ولنقتصر منها على ما ذكر

وقد صرح ابن زَمْرَك المذكور فى قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغنى بالله ، وهنأه بفتح المغرب على يد السلطان أحمد ، وذكر فيها ظفره بالوزير ابن الكاس ، وهو - أعنى ابن الكاس - كان القائم بنصرة لسان الدين ، والمانع له ، والمجير له منهم حين طلبوه منه ، فلما لم يخفر ذمته تمكنت - كما سبق - أسبابُ العداوة ، وجر ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملك فاس ، واشترطوا عليه كما مر القَبْض على لسان الدين وإرساله إليهم ، وقد نقلت هذه القصيدة من تأليف لحفيد السلطان الغنى بالله ونصُّ محل الحاجة منه : ومن ذلك أيضا قوله - يعنى ابن زَمْرَك - هناءً لمولانا الجد رحمه الله تعالى بالفتح المغربى للسلطان أبى العباس ابن السلطان أبى سالم المَرِينى :

---

(١) ذكا : تضوعت ريحه
(٢) أصل الكمام كام الزهر ، وهو الغلاف الذى ينشق عن الثمر

هى نفحة هَبَّتْ من الأنصار … أهدتك فتح ممالك الأمصار
فى بشرها و بشارة الدنيا بها … مستمتع الأسماع والأبصار
هَبَّتْ على قطر الجياد فروّضت … أرجاءه بالنفحة المِعْطَارِ
وسَرَتْ وأمْر الله طىّ بُرودها … يهدى البرية صنع لطف البارى
مرت بأدواح المنابر فانبرت … خُطَبَاؤها مفتنة الأطيار
حنت معارجها إلى أعشارها … لما سمعن بها حنين عِشارِ
لو أنصفتك لكالمت أدواحها … تلك البشائر يانعَ الأزهار
فتح الفتوح أتاك فى حلل الرضا … بعجائب الأزمان والأعصار
فتح الفتوح جنيت من أفنانه … ما شئت من نصر ومن أنصار
كم آية لك فى السعود جلية … خلدت منها عبرة استبصار
كم حكمة لك فى النفوس خفية … خفيت مداركها عن الأفكار
كم من أمير أمّ بابك فانثنى … يدعى الخليفة دعوة الإكبار
أعطيت أحمد راية منصورة … بركاتها تروى عن الأنصار
أركبته فى المنشآت كأنما … جهزته فى وجهة المزار
من كل خافقة الشِّراع مصفق … منها الجناحُ تطير كل مَطَار
ألقت بأيدى الريح فضل عنانها … فتكاد تسبق لمحة الأبصار
مثل الجياد تدافعت وتسابقت … من طافح الأمواج فى مضمار
لله منها فى المَجَاز سوابح … وقفت عليك الفخر وهى جوارى
لما قصدت بها مراسى سبتة … عطفت على الأسوار عطفَ سِوَار (١)
لما رأت من صبح عزمك غرة … محفوفة بأشعة الأنوار
ورأت جبيناً دونه شمس الضحى … لبتك بالإجلال والإكبار

---

(١) عطفت عطف سوار : يريد أنها حاصرتها وضيقت الخناق عليها .

فأفضت فيها من نداك مواهبا حسنت مواقعها على التكرار
وأريت أهل الغرب عزم مغرّب قدسا عـــدته غرائب الأقدار
وخطبت من فاس الجديد عقيلة لبتك طوع تسرع وبِدَارِ
ما صدّقوا متن الحديث بفتحها حتى رأوه فى متون شِفَارِ(١)
وتسمعوا الأخبـــار باستفتاحها والخبر قد يغنى عن الأخبار
قولوا لقرد فى الوزارة غـــره حلم مننت به على مقـــدار
أسكنته من فاس جنـــة ملكها متنعما منهــــا بدار قَرَار
حتى إذا كفر الصنيعة وازدرى بحقوقها أحقتـــــه بالنار
جرعت نجل الـكاس كأسا مرة دست إليه الحتف فى الإسكار
كفر الذى أوليته من نعمة لا تأنسُ النعماء بالـكفار
فطرحته طَرْحَ النـــواة فلم يفز من عز مغربِهِ بغير فرار
لم يتفق لخليفـــة مثل الذى أعطى الإله خليفـــة الأنصار
لم أدر والأيام ذات عجائب تردادها يحـــلو على التذكار
ألواء صبحٍ فى ثنيـــة مشرق أم راية فى جَحْفل جَـــرَّار
وشهاب أفق أم سنان لامع ينقضُّ نجما فى سماء غبــار
ومناقب المولى الإمام محمـــد قد أشرقت أم هن زُهْرُ دَرَارِى(٢)
فاق الملوك بهمـــة علوية من دونها نجم السماء السارى
لو صافح الـكف الخضيب بكفه فخرت بنهــرٍ للمجرة جارى
والشهبُ تطمع فى مطالع أفقها لو أحرزت منه منيع جِـــوار
سل بالمشارق صبحها عن وجهــه يفتر منـــه عن جبين نهار
سل بالغمائم صَوْبَها عن كفه تنبيك عن بحـــر بها زَخَّار

(١) المتون : جمع متن ، وهو هنا الحد ، والشفار : جمع شفرة ، وأراد بها السيف
(٢) الدرارى ، هنا : النجوم ، وزهر : جمع زهراء ، وأراد بها المضيئة ، والإضافة من إضافة الصفة للموصوف .

سل بالبروق صفاحها عن عزمه ... تخبرك عن أمضى شبًا وغِرار (١)
قد أحرز الشيم الخطيرة عندما ... أمضى العزائم صهوة الأخطار (٢)
إن يلق ذو الإجرام صفحة صفحه ... فسح القبول له خطا الأعمار
يا من إذا هبت نواسم حمده ... أزرت بعَرْفِ الروضة المِعْطار
يا من إذا افترت مباسم بشره ... وهب النفوس وعاث فى الإقتار
يا من إذا طلعت شموس سعوده ... تُعْشِى أشعتُها قوى الأبصار
قسما بوجهك فى الضياء فإنه ... شمس تمدّ الشمس بالأنوار
قسما بعزمك فى المَضَاء فإنه ... سيف تجرده يدُ الأقدار
لَسَمَاح كفك كلما استوهبته ... يُزْرِى بغيث الديمة المدرار (٣)
لله حضرتك العلية لم تزل ... يلقى الغريبُ بها عَصَا التسيار
كم من طريد نازح قذفت به ... أيدى النوى فى القفر رَهْنَ سِفار
بلغته ما شاء من آماله ... فسلا عن الأوطان بالأوطار
صيرت بالإحسان دارك داره ... مُتِّعْتَ بالحسنى وعقبى الدار
والخلق تعلم أنك الغوث الذى ... يضفى عليها وافِىَ الأستار
كم دعوة لك المُحُول مجابة ... أغرت جفون المُزْنِ باستعبار
جادت مجارى الدمع من قطر الندى ... فرعى الربيعُ لها حقوقَ الجار
فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا ... متضاحكا بمباسم النّوّارِ
يا من مآثره وفضل جهاده ... تُحْدَى القِطَارُ بها إلى الأقطار
حُطْتَ البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعدك حاميا لذِمَارِ
فلرب بكر للفتوح خطبتها ... بالمشرفية والقَنَا الخطار
وعقيلة للكفر لما رُعْتَهَا ... أخرست من ناقوسها المهذار

---

(١) الشبا : جمع شباة ، وهى حد السيف ، والغرار ـ بكسر الغين ـ مثله .
(٢) أصل الصهوة : مقعد الفارس من الفرس .
(٣) المدرار : أراد الكثير الهطلان

أذهبت من صفح الوجود كيانها ومحوتها إلا من التـذكار
عمروا بها جنات عَدْنٍ زخرفت ثم انثنــوا عنها ديار بَوَار (١)
صبحت منها روضــة مطلولة فأعـــدتها للحين موقد نار
وأسود وجه الكفر من خزى متى ما أُحمر وجـه الأبيض البتار (٢)
ولرب روض للغنى متأوّد ناب الصهيل به عن الأطيار
مهما حكت زهر الأسنة زهره حكت السيوف معاطف الأنهار
متوقِّد لهب الحديد بجـوّه تصلى به الأعـداء لفح أوار
فبكل ملتفت صقــال مشهر قداح زند للحفيظة وارى
فى كف أروع فوق نَهْدٍ سابح متموج الأعطاف فى الإحضار (٣)
من كل منخفر بلمحة بارق حمل السلاح به على طيـار
من أشهب كالصبح يطلع غرة فى مُسْتَهل العسكر الجـرار
أوأدهم كالليــل إلا أنه لم يرض بالجوزاء حلى عـذار
أو أحمر كالجمر يذكى شـعلة وقد أُرتمى من بأســه بشرار
أو أشقر حَلّى الجمالُ أديمـه وكساه من زهو جلال نُضَار
أو أشعل راق العيون كأنه غلس يخالط سدفة بنهـار
شهب وشقر فى الطِّراد كأنها روض تفتح عن شقيق بَهار
عودتها أن ليس تقرب منهلا حتى يخالط بالدم المـوّار
يا أيها الملك الذى أيامُـه غرر تلوح بأوجـه الأعصار
يَهْنِى لواءك أن جَدّكَ زاحف بلواء خـير الخلق للكفار
لا غـرو أن فقت الملوك سيادة إذ كان جدك سـيد الأنصار
السابقون الأوّلون إلى الهـدى والمصطَفَوْنَ لنصرة المختـار

(١) دار بوار ـ بفتح الباء والواو جميعاً ـ دار هلاك
(٢) الأبيض البتار : السيف ، والبتار : صيغة مبالغة من البتر ، وهو القطع
(٣) الإحضار : السير السريع

متهللون إذا النزيل عراهم سَفَرُوا له عن أوجه الأقمار (١)
من كل وضاح الجبين إذا احتبى تلقاه معصوبا بتاج فخار
قد لاث صُبْحاً فوق بدر بعدما لبس المكارم وارتدى بوقار
فاسأل ببدرٍ عن مواقف بأسهم فهم تلافوا أمره ببدار
لهم العوالى عن معالى فخرها نقل الرواة عوالىَ الأخبار
وإذا كتاب الله يتلو حمدهم أودى القصورُ بمنة الأشعار
يا ابن الذين إذا تُذُوكر فخرهم فخروا بطيب أرومة ونِجارِ (٢)
حقا لقد أوضحت من آثارهم لما أخذت لدينهم بالثار
أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ومشرِّفَ الأعصار والأمصار
يا صادرا فى الفتح عن وِرْدِ المنى رِدْ ناجح الإيراد والإصدار
واهنأ بفتح جاء يشتمل الرضا جَذْلان يرفل فى حلى استبشار
وإليكها ملء العيون وسامة حيتك بالأبكار من أفكارى
تجرى حُدَاة العيس طيبَ حديثها يتعللون به على الأكوار (٣)
إن مسهم لفْحُ الهجير أبلهم منه نسيمُ ثنائك المعْطار
وتميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كؤس عُقَار
قذفت بحور الفكر منها جوهرا لما وصفت أناملا ببحار
لا زلت للإسلام سترا كلما أم الحجيجُ البيتَ ذا الأستار
وبقيت يا بدر الهدى تجرى بما شاءت علاك سوابق الأقدار

ولابن زَمْرَك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين بن الخطيب وخلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته ، وكان سلطان الأندلس مَوْئلا للسلطان أحمد المذكور ، ولذلك امتعض لرده لملكه، فقال

(١) عراهم : نزل بهم ، وسفروا : أصله من السفور وهو إزالة الغطاء عن الوجه
(٢) الأرومة : الأصل ، ومثله النجار بكسر النون بزنة الكتاب
(٣) العيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء ، والأكوار : جمع كور ، وهو الرحل

ابن زَمْرَك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صَدْرَ عام تسعة وثمانين وسبعمائة :

هَبَّ النسيم على الرياض مع السحر ... فاستيقظت في الدَّوْحِ أجفان الزَّهَرْ
ورمى القضيب دراهما من نَوْره ... فاعتاض من طَلِّ الغمام بها درر
نثر الأزاهر بعد ما نظم الندى ... يا حسن ما نظم النسيمُ وما نثر
قم هاتها والجوّ أزهر باسم ... شمساً تحل من الزجاجة فى قمر
إن شَجَّها بالماء كفٌّ مديرها ... ترميه من شهب الحَبْاب بها شرر
نارية نورية من ضوئها ... قدح السراج لنا إذا الليل اعتكر
لم يبق منها الدهر إلا صبغة ... قد أرعشت فى الكأس من ضعف الكبر
من عهد كسرى لم يُفَضَّ ختامها ... إذ كان يدخر كنزها فيما ذخر
كانت مذاب التبر فيما قد مضى ... فأحالها ذوب اللجين لمن نظر
جَدِّدْ بها عرس الصَّبوح فإنها ... بكر تحبها الكرام مع البُكَرْ(١)
وابلل بها رمق الأصيل عشية ... والشمس من وعد الغروب على خطر
محمرة مصفرة قد أظهرت ... خجل المريب يشوبه وجل الحذر
من كَفِّ شفاف تجسد نوره ... من جوهر لألاء بهجته بَهَرْ(٢)
تهوى البدور كماله وتود أن ... لو أوتيت منه المحاسن والغرر
قد خط نورَ عذاره فى خده ... قلمان من آسٍ هناك ومن شَعَرْ
والى عليك بها الكؤس، وربما ... يسقيك من كأس الفتور إذا فتر
سُكْرُ الندامى من يديه ولحظِهِ ... متعاقبٌ مهما سقى وإذا نظر
حيث الهديل مع الهدير تناغيا ... فالطير تشدو فى الغصون بلا وتر
والقُضْبُ مالت للعناق كأنها ... وفد الأحبة قادمين من السفر

(١) البكر : جمع بكرة - بضم الباء فيهما - وهى أول النهار
(٢) بهر : أصاب بالبهر وهو الإعياء والضعف

متلاعبات فى الحلى ينوب فى — وجناتهن الوَرْدُ حسنا عن خَفَرْ(١)
والنرجس المطلول يرنو نحوها — بلواحظ دمع الندى منها انهمر
والنهر مصقول الحسام متى يرد — درع الغدير مصفقا فيه صدر
يجرى على الحصباء وَهْىَ جواهر — متكسراً من فوقها مهما عثر
هل هذه أم روضة البشرى التى — فيها لأرباب البصائر مُعْتبر
لم أدر من شغف بها وبهذه — من منهما فَتَنَ القلوب ومن سحر
جاءت بها الأجفان ملء ضلوعها — ملء الخواطر والمسامع والبصر
ومسافر فى البحر ملء عنانه — وافى مع الفتح المبين على قَدَرْ
قادته نحوك بالخطام كأنه — جمل يُساق إلى القياد وقد نفر
وأراه دين الله عزة أهله — بك يا أعفّ القادرين إذا قدر
يا فخر أندلس وعصمة أهلها — للناس سر فى اختصاصك قد ظهر
كم معضل من دائها عالجته — فشفيت منه بالبِدار وبالبِدَرْ(٢)
ماذا عسى يصف البليغُ خليفةً — والله ما أيامه إلا غرر
وُرِّثتَ هذا الفخر يامك الهدى — من كل من آوى النبىّ ومن نصر
من شاء يعرف فخرهم وكمالهم — فليتلُ وحى الله فيهم والسِّير
أبناؤهم أبناء نصر بعدهم — بسيوفهم دين الإله قد انتصر
مولاى سعدُكَ والصباح تشابها — وكلاهما فى الخافقين قد اشتهر
هذا وزير الغرب عبد آبق — لم يلف غيرك فى الشدائد من وَزَرْ
كفر الذى أوليته من نعمة — والله قد حتم العذاب لمن كفر
إن لم يمت بالسيف مات بغيظه — وصَلَى سعيراً للتأسف والفكر
ركب الفرار مطية ينجو بها — فجرت به حتى استقر على سقر

(١) الخفر ـ بفتح الخاء والفاء ـ الحياء والخجل
(٢) البدر ـ بكسر الباء وفتح الدال ـ جمع بدرة ، بالفتح ، وهى عشرة آلاف درهم

وكذا أبوه وكان منه حمامهُ ... قد حم وهو من الحياة على غَرَرْ
بلغته والله أكبر شاهد ... ماشاء من وطن يعز ومن وطر
حتى إذا جحد الذى أوليته ... لم تبق منه الحادثات ولم تذر
فى حاله واللهِ أعْظَمُ عبرة ... لله عبد فى القضاء قد اعتبر
فاصبر تنل أمثالها فى مثله ... إن العواقب فى الأمور لمن صبر
رِدْ حيث شئت مسوَّغاً ورد المنى ... فالله حسبك فى الورود وفى الصَّدَرْ
لا زلت محروساً بعين كَلاَءة ... مادام عين الشمس تعشى من نظر

ومنها وقد أضاف إليه من التغزل طوع بداره ، وحجة اقتداره ، فقال :

والعود فى كف النديم بِسِرٍّ ما ... تُبْدِى لنا منه الأناملُ قد جهر(١)
غنى عليه الطير وهو بدَوْحه ... والآن غنى فوقه ظبى أغر
عود ثوى حجر القضيب رعى له ... أيام كانا فى الرياض مع الشجر
لا سيما لما رأى من ثغره ... زهراً ، وأين الزهر من تلك الدرر
ويظن أن عِذاره من آسه ... ويظن تفاح الخدود من الثمر
يَسْبى القلوبَ بلفظه وبلحظه ... وافتنتى بين التكلم والنظر
قد قيدَتْهُ لأنسنا أوتاره ... كالظبى قيد فى الكِناس إذا نفر
لم يُبْلَ قلبى قبل سمع غنائه ... بمعذَّر سلب العقول وما اعتذر
جس القلوب بجسه أوتاره ... حتى كأن قلوبنا بين الوتر
نمت لنا ألحانُه بجميع ما ... قد أودعت فيه من القلوب الفكر
يا صامتا والعود تحت بنانه ... يغنيك نطق الخبر فيه عن الخبر
أغنى غناؤك عن مدامك ، يا ترى ... هل من لحاظك أم بنانك ذا السَّكَرْ
باحت أناملك اللدان بكل ما ... كان المتيم فى هواه قد ستر

---

(١) جملة « قد جهر » خبر عن « العود »

ومقاتل ماســـــل غير لحاظه والرمح هز من القوام إذا خطر
دانت له منا القلوب بطاعة والسيف يملك ربه مهما قهر

وسَنُلم إن شاء الله تعالى بترجمة ابن زَمْرَك هذا فى باب التلامذة ، ونشير هناك إلى كثير من أحواله ، وكيفية قتله ، مع أولاده وخدمه بمرأى ومسمع من أهله ، فكان الجزاء من جنس العمل ، وخاب منه الأمل ، إذ لسان الدين قتل غيلةً بليل غاسق ، على يد مختلس فى السجن فاسق ، وأما ابن زَمْرَك فقتل بالسيف جهاراً ، وتناوشَتْه سيوف مخدومهِ بين بناته إبداء للتشفى و إظهاراً ، وقتل معه من وجد من خدمه وأبناه ، وأبعده الدهر وطالما أدناه ، وهكذا الحال فى خُدّام الدول وذوى الملك ، أنهم أقرب شىء من الهُلْك ، ويرحم الله من قال : إياك وخدمة الملوك فإنهم يستقلون فى العقاب ، ضرب الرقاب ، و يستكثرون فى الثواب ، رَدَّ الجواب .

عود الى أخبار لسان الدين

رجع إلى ما كنافيه من أحوال لسان الدين بن الخطيب ــ وكان رحمه الله تعالى قبيل موته لما توفى السلطانُ أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن المَرينى بتلمسان وتغلَّب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازى بن الـكاس مُبَايعاً لابن صغير السن من أولاد السلطان عبد العزيز ــ ألف كتابه المسمى « بإعلام الأعلام ، بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام » ومرادُه بذلك تثبيت دولة الوزير الذى أبى أن يَخفُرَ عهده وذمته ، وامتنع أن يمـكِّن منه أهل الأندلس ، فأكثروا القَالة فى الوزير بسبب مبايعته للصبى ، و بنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع ، وأبدؤا وأعادوا فى ذلك ، وأسروا ما كان من أمرهم (١) حَسْواً فى ارتغاء ، ومن جملة كلام لسان الدين بن الخطيب فى ذلك الـكتاب قوله : فمتى نَبَسَ (٢) أهل الأندلس بإنكار بيعة صبى صغير ، أو نيابة صاحب أو وزير ، فقد عَمُوا وصَمُّوا ، وخطروا بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألموا (٣) ، و بما سنوه لغيرهم ذموا . انتهى

(١) فى ب « وأسروا من كان أمرهم حسوا فى ارتغاء »
(٢) نبس : أراد نطق (٣) ألموا : نزلوا

وكان رحمه الله تعالى ألف للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه « المباخر الطيبية ، فى المياخر الخطيبية » : يذكر فيه نباهة سلفه ، وما لهم من المجد ، وقصده الردُّ على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة ، القادحين فى فخر سلفه ، ثم ألف للسلطان من المذكور كتاب « خلع الرسن ، فى التعريف بأحوال ابن الحسن » لكونه تولَّى كبر الحط منه ، والسعى فى هلاكه كامر ، وقال فى حق هذا الكتاب : إنه لا شىء فوقه فى الظرف والاستطراف ، يُسْلِي الثَّكالى ، ونستغفر الله تعالى ، انتهى.

ومع هذا كلِّه لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه مما كتب تميمة(١)، ونال ما أمله فيه أهل السعاية والنميمة ، وسجلوا عليه المقالات الذميمة ، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيي من العظم رميمه ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويجازى الجاهل والعالم ، ويساوى بين المأمور والآمر ، والشريف والمشروف ، والعزيز والحقير ، والمنكر والمعروف ، وعفوه سبحانه مؤمل بعد ، وهو لا يخلف الوعد ، ومن سبقت له العناية ، لم تضره الجناية ، وقد كان لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى! ـ محبا فى العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول ما معناه : ما ضرهم لو عفوا ، ورأيت له ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله :

سجاياك إن عافيْتَ أَنْدَى وأسْمَحُ ... وعُذْرُكَ إن عاقبت أولى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت من الأدنى إلى الله أجنح(٢)
وماذا عسى الأعداء أن يتزايدوا ... سوى أن ذنبى ثابت ومصحح
وإن رجائى أن عندك غير ما ... يخوض عدوّى اليوم فيه ويمرح
أَقِلْنِي بما بينى وبينك من رضا ... له نحـــو رَوْحِ الله باب مفتح

(١) أخذ هذا من قول الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

(٢) أجنح : أفعل تفضيل من قولهم « جنح إلى كذا » أى مال إليه

ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم فكل إناء بالذى فيه يرشح
وقالوا : سيجزيه فلان بذنبه فقلت : وقد يعفو فلان و يصفح
ألا إن بطشا للمؤيد يرتمى ولكن حلما للمؤيد يرجح
و بين ضلوعى من هواه تميمة ستشفع لو أن الحمام يجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى إلىّ فيدنو أو على فينزح
ويهنيه إن مت السلو فإننى أموت ولى شوق إليه مبرح

ما نصه : ولابن عمار كلمات شهيرة تُعَالَجُ بمراهمها جراحُ القلوب ، وتُعَفِّى على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل المحسوب ، إلى أن قال : وما كان أجمل بالمعتمد أن يُبْقى على جانٍ من عبيده ، قد مكنه الله من عُنُقه ، لا يؤمل الحصول على أمره ، ولا يحذر تعصب قبيله ، ولا يزيده العفو عنه إلا ترفعا وعزة وجلالة وهمة وذكرا جميلا وأجرا جزيلا ، فلا شىء أمحى للسيئة من الحسنة ، ولا أقتل للشر من الخير ، ورحم الله الشاعر إذ يقول :

وطعنتهم بالمكرمات وباللُّهَا في حيث لو طعن القنا لتكسرا(١)

وقد تذكرت هنا قول الأديب أبى عبد الله محمد بن أحمد التجانى رحمه الله تعالى ورضى عنه :

أتعجب أن حطت يد الدهر فاضلا عن الرتبة العليا فأصبح تحتها
أما هذه الأشجار تحمل أكلها وتسقط منه كل ما طاب وانتهى

وحكى غير واحد من مؤرخى الأندلس أن الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر ابن عطية القُضَاعى لما تغير له عبدُ المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة قال : ما كان المعتمد إلا قاسى القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات

---

(١) اللها : العطايا ، ومن كلامهم « اللها تفتح اللها » أى العطايا تنطق الألسنة بالثناء

إلى العفو ، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار ، واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله تعالى ، ولنلم بذلك فنقول :

في نكبة عبد المؤمن بابن عطية

كان أبو جعفر هذا من أهل مراكش ، وأصله القديم من طُرْطُوشة ، ثم بعد من دَانِيَة ، وهو ممن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لَمْتُونة ، وعن ابنيه تاشفين و إسحاق ، ثم استخلصه لنفسه سالبُ ملكهم عبدُ المؤمن بن علي ، وأسند إليه وزارته ، فنهض بأعبائها ، وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان فعمت صنائعه ، وفشا معروفه ، وكان محمودَ السيرة ، مبخت المحاوَلاَت ، ناجح المساعي ، سعيد المآخذ ، مُيَسَّر المآرب ، وكانت وزارته زينا للوقت ، وكمالا للدولة ، وفي أيام توجهه للأندلس وجد حسادُه السبيلَ إلى التدبير عليه ، والسعي به ، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه ، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ، وانبرى لمطالبة ابن عطية ، وجَدَّ في التماس عَوْرَاته ، وتشنيع سَقَطَاته ، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها :

قل للامام أطال الله مُدَّتَه ... قولا تبَينُ لذي لُبٍّ حقائقُه
إن الزراجين قوم قد وترتهمُ ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادِرِ الحزمَ في إطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدوّ ومن والاهُمُ كهم ... فاحذر عدوّك واحذر مَنْ يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم ... والحق أبلج لا تَخْفَى طرائقه

قالوا : ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وَغِر صدره على وزيره أبي جعفر ، وأسرَّ له في نفسه تغيرا ، فكان من أقوى أسباب نكبته .

وقيل : أفضى إليه بسر فأفشاه ، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فَقَلِق وعَجَّلَ الانصراف إلى مراكش ، فحجب عند قدومه ، ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسِرَ العمامة ، واستحضر الناسُ على طبقاتهم ، وقرروا على

(١) البوائق : جمع بائقة ، وهي المهلكة

ما يعلمون من أمره ، وما صار إليه منهم ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه ، وأمر بسجنه ، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجه فى إثر ذلك عبدُ المؤمن إلى زيارة تربة المهدى محمد بن تُوْمَرْتَ ، فاستصحبهما بحال ثِقاف ، وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطائف الأدب نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدى عجائبُ لم تُجْدِ شيئا مع نفوذ قدر الله تعالى فيه ، ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلا إلى مراكش ، فلما حاذى تاقمرت أنفذ الأمر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك ، فمضيا لسبيلهما ، رحمهما الله تعالى!

من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن

ومما خاطب به الخليفةَ عبدَ المؤمن مستعطفا له من رسالةٍ تغالى فيه فغالته المنية ، ولم ينل الأمنية ، وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية ، ولم يحرس لسانَه من الوقوع فيما يخدش فى وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم - قولُه سامحه الله : تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : إن الله تعالى لم يوح ، فى الفلك لنوح ، وبَرَيْتُ لقدارِ ثمودِ نبْلا[1] ، وأبرمت لحطب نار الخليل حَبْلاً، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قَبْضَةً من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريتُ على العَذْرَاء البتول[2] فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار النَّدْوة[3] ، وظاهرت الأحزاب بالقُصْوَى من العُدْوَة ، وذممت كل قرشى ، وأكرمت لأجل وَحْشى[4] كلَّ حبشى ، وقلت : إن بيعة السقيفه ، لا توجب إمامة الخليفة ، وشحذت شَفْرَةَ غلام المغيرة[5] بن شُعْبَة ، واعتلقت من حِصَار الدار وقَتْل أشمطها[6] بشعبة ، وقلت : تقاتلوا رغبة فى الأبيض

(١) قدار ثمود : عاقر ناقة صالح (٢) العذراء البتول: مريم أم عيسى عليه السلام

(٣) صحيفة القطيعة التى كتبتها قريش وعلقتها فى الكعبة لمقاطعة بنى هاشم رهط الرسول

(٤) وحشي : قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد

(٥) غلام المغيرة : قاتل عمر بن الخطاب . (٦) أراد بأشمط الدار عثمان بن عفان ، وأخذ هذا من قول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

والأصفر (١) ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ، وناولت من قرع سنّ الحسين قضيبا (٢) ، ثم أتيت حضرة المعلوم لائذا ، وبقبر الإمام المهدى عائذا ، لقد آن لمقالتى أن تسمع ، وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ، وبالذنب معترف .

فعفوًا أميرَ المؤمنين فمَن لنا ... بردٍّ قلوب هدّها الخفقانُ

وكتب مع ابن له صغير آخرة :

عطفا علينا أمير المؤمنين ، فقد ... بانَ العزاء لفرط البثّ والحزنِ
قد أغرقتنا ذنوبُ كلها لجج ... وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض ... ورحمة منكم أوقى من الجُنَنِ
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحما كم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من دَرَن ... والطِّرْفُ ينهض بعد الركض فى سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون مَنٍّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم ... كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح فى فرْع ولا فَنَنِ
قد أوجدتهم أيادٍ منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) .

ومما كتب به من السجن :

أنوحُ على نفسى أمَ انتظِرُ الصفحا ... فقد آن أن تُنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا فى ليل من السخط حائر ... ولا أهتدى حتى أرى للرضا صبحا

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجْو ابن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا ، أعرض

---

(١) يريد ما كان بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما

(٢) يروى أن يزيد بن معاوية لما وضعت أمامه رأس الحسين أخذ ينكت أسنانه بقضيب (عصا) كان فى يده .

عنهم ، وقال : ذهب ابن عطية ، وذهب الأدب معه .

وكان لأبى جعفر أخ اسمه عطية قتل معه ، ولعطية هذا ابن أديب كاتب ، وهو أبو طالب عقيل بن عطية ، ومن نظمه فى رجل تعشق قَيْنة كانت ورثت من مولاها مالا فكانت تنفق عليه منه ، فلما فرغ المالُ ملها :

لا تَلْحَهُ أن مَلَّ من حبها   فلم يكن ذلك من وُدِّ
لما رآها قد صَفَا مالها   قال : صفا الوجه مع الوجد

وكان أبو جعفر بن عطية من أبلغ أهل زمانه ، وقد حكى أنه مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش ، فأطلت من شباكٍ جاريةٌ بارعة الجمال ، فقال عبد المؤمن :

* قدّت فؤادى من الشباك إذ نظرت *

فقال الوزير ابن عطية مجيزاله :

* حوْراء ترْنو إلى العشاق بالمقل *(١)

فقال عبد المؤمن :

* كأنما لحظها فى قاب عاشقها *

فقال ابن عطية :

* سيف المؤيد عبد المؤمن بن على *

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية .

ومن فصول رسالته التى كتب بها عن أبى حَفْص ، وهى التى أورثته الرتبة العلية السنية ، والوزارة الموحِّدية المؤمنية ، قوله : كتابُنا هذا من وادى ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتحٌ بَهَرَ الأنوار إشراقا ، وأحْدَقَ بنفوس المؤمنين إحداقا ، ونبه

(١) ترنو : تنظر ، والمقل : جمع مقلة ، بضم الميم ــ وهى هنا العين .

للأمانى النائمة جُفُونا وأحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الألسن لكُنْهِ وَصْفِهِ إدراكا ولا لحاقا ، جمع أشتات الطلب والأرَب ، وتقلب فى النعم أكرم مُنْقلب ، وملأ دِلاء الأمل إلى عَقْد الكَرَب .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القُشُبِ

وتقدمت بشارتنا به جمله ، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْله ، كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفر مَعْنًى وَاسْمًا ، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثما ، وكان مُقَدَّمهم الشقى قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حِبَالاته ، فأتَتْه المخاطبات من بعد وكَثَب ، ونسلت إليه الرسلُ من كل حَدَب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم إلى ذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وُصُولُ من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زَعْمه بالقيام والصيام ، آناء الليالى والأيام ، لبسوا الناموس أثوابا ، وتدرَّعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها فى ذكر صاحبهم الماسى المدعى للهداية : فصرع بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرت إليه بوادرُ مَنونه ، وأتته وَافداتُ الخطيات عن يَساره ويمينه ، وقد كان يدعى أنه بُشِّرَ بأن المنية فى هذه الأعوام لا تصيبه ، والنوائب لا تَنُوبه ، ويقول فى سواء قولا كثيرا ، ويختلق على الله تعالى إفكا وزورا ، فلما رأوا هيئة اضطجاعه ، وما خطته الأسنة فى أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى مالم يقدروا على استرجاعه ، هُزِم من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقُطَ الذباب ، وأعطوا عن بكرة أبيهم صَفَحَاتِ الرقاب ، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب[1] ، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وآذنت الآجال بانقراض

(١) هذه كناية عن جبنهم وفرارهم ، وأنه يقتلون فارين مولين ، وأخذ هذا من قول الشاعر :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعناقنا تقطر الدما

آمادهم ، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعا ، وسقى الأرض نجيعا (١) ، ولقى من أمر الهنديات (٢) فظيعا ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامى فى الوادى ممن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعا فى الخروج إلى ما يُنْجِيه ، اختطفته الأسِنَّة اختطافا ، وأذاقته موتا ذُعَافا (٣) ، ومن لج فى الترامى على لُجَجه ، ورام البقاء فى ثَبَجه (٤) ، قضى عليه شَرَقُه ، وألوى بذقنه غَرَقُه ، ودخل الموحِّدون إلى البقية الساكنة فيه يتناولون قتالهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيما وكَرْبا ، حتى انبسطت مراقأة الداء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشَّفَق على زرقة السماء ، وجرت العبرة للمعتبر ، فى جرى ذلك الدم جرى الأبحر .

وبالجملة فالرجل كان نسيجَ وَحْدِهِ رحمه الله تعالى وسامحه ، وقصة لسان الدين تشبه قصته ، وكلاهما قد ذاق من الذل بعد العز غُصَّته ، وبَدَّل الدهرُ نصيبه من الوزارة وحِصَّتَه ، بعد أن اقتعد ذِرْوَةَ الأمر ومِنَصَّته ، رحم الله تعالى الجميع ، إنه مجيب سميع !

---

(١) النجيع : الدم

(٢) الهنديات : السيوف

(٣) سم ذعاف : قاتل لحينه ، وهو بزنة غراب .

(٤) الثبج : أصله معظم موج البحر

الباب الثالث

فى ذكر مشايخه الجلّة ، هُدَاة الناس ونجوم المِلة ، وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العِلّة ، والمواعظ المنجية من الأهواء المُضِلة، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

أقول : لاخفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العُدْوة والأندلس عدة فنون، وحدث عنهم بمايصدق الأقوال و يحقق الظنون.

محمد بن أحمد الحسنى السبتى القاضى

فمن أشياخه رحمه الله تعالى الفقيهُ الجليل الشريف النبيه الشهير ، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس ، قاضى الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسنى السَّبْتى ، رحمه الله تعالى ! كان هذا الشريف آية الله الباهرة فى العربية والبيان والأدب ، و يكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية ، وافترع هضاب[1] مشكلاتها بفهمه ، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها ، و إيضاح رموزها ، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبى الحسن حازم بن محمد القرطاجَنّى الأندلسى التى مَدَحَ بها أميرَ المؤمنين المستنصرَ بالله أبا عبد الله محمدا الحَفْصى ، وسمى هذا الشرح « بفتح الحجب المستورَة ، عن محاسن المقصورَة » وهذاالشرح فى مجلدين كبيرين ، وفيه من الفوائد مالا مزيد عليه ، رأيته بالمغرب ، واستفدت منه كثيرا .

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث فى صفة وُضُوء رسول الله صلى الله عليه وسلم «فأقبل بهما وأدبر» : إن أحسن الوجوه فى تأويله أن يكون قدم الإقبال تفاؤلا ، ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل ، قال : والعرب تقدم فى كلامها ألفاظا على ألفاظ أخرى ، وتلتزمه فى بعض المواضع ،

---

(١) الهضاب : جمع هضبة ، وهى ما ارتفع من الأرض ، وافترعها : علاها وارتفع فوقها ، وفى الكلام مجاز

كقولهم : قام وقعد ، ولا تقول : قعد وقام ، وكذلك أكل وشرب ، ودخل وخرج ، وعلى هذا النمط كلام العرب ، فتكون هذه المسألة من هذا ، قال : ويؤيد ماقلناه ـ وهوموضع النكتة ـ تفسيره لأقبل وأدبر فى باقى الحديث على معنى أدبر ثم أقبل ، ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير ، انتهى .

وحدث رحمه الله تعالى عن جده لأمه قال : كنت بالمشرق ، فدخلت على بعض القرائين ، فألفيت الطلبة يعربون عليه قولَ امرئ القيس :

كأن أبَانًا فى أفانين وَدْقِهِ ... كبير أناس فى بجاد مُزَمَّلِ

فأنشد ولا أدرى هل هى له أو لغيره :

إذا ما الليالى جاوَرَتْك بساقط ... وقَدْرُكَ مرفوع فعنه ترحَّلِ

ألم تر ما لاقاه فى جنب جاره ... (كبيرُ أناس فى بجاد مزمل)(١)

وكان بعض الناس ينشد فى هذا المقصد قول الآخر :

عليك بأرباب الصدور ، فمن غدا ... مضافا لأرباب الصدور تصدَّرا

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط ... فتنحط قدراً من علاك وتحقرا

فرفع أبو من ثم خفض مزمل ... يبين قولى مغريا ومحذرا

وهذا معنى قول الشاعر :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وما أحسن قول أبى بحر صفوان بن إدريس المرسى رحمه الله تعالى :

إنا إلى الله من أناس ... قد خَلَعوا لبسة الوقار

جاورتهم فانخفضت هُونًا ... يا رُبَّ خفضٍ على الجوار

ومن نظم الشريف رحمه الله تعالى :

وأحور زان خديه عذار ... سبى الألباب منظره العجاب

---

(١) « مزمل » فى بيت امرىء مرفوع لأنه من وصف « كبير أناس » الذى هو خبر « كأن » ولكنه جره لمجاورته المجرور وهو « بجاد » فالشاعر ههنا يقول : لا تجاور مخفوض القدر لئلا يصيبك منه .

أقول لهم وقد عابوا غرامى ... به إذ لاح للدمع انسكاب
أبعد كتاب عارضه يُرجَّى ... خلاص لى وقد سبق الكتاب؟

ومن الغريب فى توارد الخواطر ماوجد بخط الأديب البارع المحدث الكاتب أبى عبد الله محمد ابن الشيخ الكبير أبى القاسم بن جُزَى الكلبى رحمهما الله تعالى وسيأتيان ما معناه : قلت هذه القطعة :

ومعسول اللَّمَى عادت عَذَابًا ... على قلبى ثناياه العِذَابُ(١)
وقد كتب العذارُ بوجنتيه ... كتابا حظ قارئه اكتئاب
وقالوا لو سلوت فقلت خيراً ... وأنَّى لِى وقد سبق الكتاب ؟

ثم عرضتها على شيخنا القاضى أبى القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لى: قد نظمت هذه المعنى بالعروض والقافية فى هذه الأيام اليسيرة ، وأنشدنى :

* وأحْور زان خديه عذار * الأبيات السابقة .

وهذا يقع كثيراً ، ومنه ماوقع لابن الرقام حيث قال : من شعر عمى قوله :

جُلْ فى فى البلاد تنل عزا وتكرمة ... فى أى أرض فكن تبلغ مُناك بها(٢)
جـل الفوائد بالأسفار مكتسب ... والله قد قال (فامشوا فى منا كبها)

فقال له الفقيه ابن حذلم : مثل هذا وقع لأبى حيان إذ قال :

يا نفس مالك تهوِيْنَ الإقامة فى ... أرض تعذر كُلٌّ من مُنَاكِ بها
أما تلوت وعَجْزُ المرء منقصة ... فى محكم الوحى (فامشوا فى منا كبها)

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب .

ونقلتُ ممن نقل من خط الفقيه محمد بن على بن الصباغ العقيلى ما صورته : كان الشريف الغرناطى ــ رحمه الله تعالى ! ــ آية زمانه ، وأزِمَّةُ البيان طوع بنانه ، له شرح المقصورة القرطاجنيـة أغرب ما تتحلى به الآذان ، وأبدع ما ينشرح له

(١) اللمي ــ بفتح اللام ــ سمرة فى باطن الشفة ، وأراد هنا الريق ، يريد أن طعم رضابه كطعم العسل
(٢) جل : أمر من الجولان ، وهو التنقل فى البلاد ، والمنى : جمع منية ، وهى ما يتمناه الإنسان

الجنان ، إلى العقل الذى لا يدرك ، والفضل الذى حمد منه المسلك ، حدثنى بنادرة جرت بينه و بين مولاى الوالد مَنْ أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها ، قال : دخل والدك يوما لأداء الشهادة عنده ، فوجد بين يديه جماعة من الغُزَاة يؤدون شهادة ، فسمع القاضى منهم ، وقال لهم : هل ثَمَّ من يعرفكم ؟ فقالوا : نعم ، يعرفنا على الصباغ ، فقال القاضى : أتعرفهم يا أبا الحسن ، فقال له : نعم ياسيدى ، معرفة محمد بن[1] يزيد ، فما أنكر عليه شيئا بل قال لهم : عرف الفقيه أبوالحسن ماعنده ، فانظروا مَنْ يعرف معه رسم حالكم ، فانصرفوا راضين ، ولم يرتهن والدى فى شىء من حالهم ، ولا كشف القاضى لهم ستر القضية .

قال محمد بن على بن الصباغ : أما قول والدى « معرفة محمد بن يزيد » فإشارة إلى قول الشاعر :

أسائل عن ثمالة كل حى ... فكلهم يقول وما ثماله[2]

فقلت محمد بن يزيد منهم ... فقالوا الآن زدت بهم جهاله[3]

فتفطن القاضى رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن فى شىء من معرفتهم ، ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح ، فكنى واكتفى بذكاء القاضى الصحيح ، رحمهما الله تعالى! انتهى .

ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النَّظَّار أبو إسحاق الشاطبى رحمه الله تعالى ! ونصه : قال لى الشيخ القاضى الكبير الشهير أبو القاسم الحسنى يوما وقد جرى ذكر « حتى » التى للابتداء ، وأن معناها التى يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقا بما قبلها لم يتم دونه أولا ، بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال : وقد حدثنى بعض الأصحاب أنه سمع رجلا يصلى أشْفَاع رمضان ، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى (ثم أتبع سببا) فوقف هنالك ، وركع وسجد ، قال :

---

(١) محمد بن يزيد : هو أبو العباس المبرد ، والبيتان الآتيان قيلا فى هجوه

(٢) حفظى فى هذا البيت :

سألنا عن ثمالة كل حى ... فقال القائلون : ومن ثماله ؟

(٣) حفظى فى عجز هذا « البيت فقالوا زدتنا بهم جهاله »

فظننت أنه نسى ما بعد ، ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام ، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله (حتى إذا بلغ) فلما أتم الصلاة قلت له فى ذلك ، فقال : أليست حتى الابتدائية ؟ قال القاضى الشريف المذكور : فيجب أن يفهم أن الاصطلاح فى حتى وفى غيرها من حروف الابتداء ماذكر ، انتهى .

وقال الشاطبى : أنشدنى أبو محمد بن حذلم لنفسه :

شأن المحبين فى أشجانهم عَجَبٌ ... وحالتى بينهم فى الحب أعجبها

قد كنت أبعث من ريح الصبا رُسُلاً ... تأتى فتطفىء أشواقى فتذهبها

والآن أرسل دمعى إثرها دِيَمًا ... فتلتظى نار وجدى حين أسكبها(١)

فأُعجب لنار اشتياق فى الحشا وقفت ... الريح يذهبها والماء يلهبها

ثم قال الشاطبى ما نصه : أخذ هذا المعنى فتممه ، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضى أبو القاسم الشريف رحمة الله تعالى عليه ! أذكر الآن آخر بيت منها وهو:

يامن رأى النار إن تطفأ مخالفة ... فبالرياح ، وإن توقد فبالماء

وأخذ عن الشريف المذكور رحمه الله تعالى جماعة غير لسان الدين ، من أشهرهم العلامة النظار أبو إسحاق الشاطبى ، والوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك قال حفيد السلطان الغنى بالله بن الأحمر رحمه الله تعالى فى حق ابن زمرك : إنه كان يتردد الأعوام العديدة إلى قاضى الجماعة أبى القاسم الشريف ، فأحسن الإصغاء ، وبَذَّ الأئمة البلغاء ، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التى أولها : مرثية ابن زمرك لشيخه القاضي الحسنى

* أغرى سَرَاةَ الحى بالإطراق *

وقال فى موضع آخر : ومما بذبه — يعنى ابن زمرك — سبقا وتبريزا ، وعرضه على نَقَدَة البيان فرأيت منه كل مذهبة خلصت إبريزا ، مرثيته للقاضى المعظم الشريف أبى القاسم الحسنى من شيوخه ، وهى :

أغرى سراة الحى بالإطراق ... نبأ أصم مسامع الآفاق

(١) الديم — بكسر الدال وفتح الياء — جمع ديمة ، وهى المطر الدائم الذى لاينقطع وتلتظى : تحترق

أمسى به ليل الحوادث داجيا | والصبح أصبح كاسف الإشراق
فجع الجميع بواحد جمعت له | شتى العلا ومكارم الأخلاق
هبوا الحكم الرصين فإنه | صرف القضاء فماله من واق
نفس الزمان بصرفه فى صفحة | كل اجتماعٍ مؤذنٌ بفراق
ماذا ترجِّى من زمانك بعد ما | علق الفناء بأنْفَسِ الأعلاق
من تحسد السبعُ الطباقُ علاءَهُ | عالوا عليه من الثرى بطباق
إن المنايا للبرايا غاية | سبق الكرام لخَصْلها بسباق(١)
لما حسبنا أن تحوّل أبؤسا | كشفت عَوانُ حروبها عن ساق
ما كان إلا البدر طال سِراره | حتى رمته يد الردى بمحاق
أنِفَ المقامَ مع الفناء نزاهة | فنوى الرحيل إلى مقام باق
عدم الموافق فى مرافقه الدنا | فنضى الركاب إلى الرفيق الباقى
أسفا على ذاك الجلال تقلصت | أفياؤه وعهدن خير رواق
يا آمرى بالصبر، عيل تصبرى | دعنى عدتك لواعج الأشواق
وذَرِ اليراع تشى بدمع مدادها | وشى القريض يروق فى الأوراق
واحسرتا للعلم أقفر ربعه | والعدل جُرِّدَ أجمل الأطواق
ركدت رياح المعلوات لفقدها | كسدت به الآداب بعد نفاق
كم من غوامض قد صَدَعْتَ بفهمها | خميت مداركها على الحذاق
كم قاعد فى البيد بعد قعوده | قعدت به الآمال دون لحاق
لمن الركائبُ بعد بعدك تُنْتَضَى | ما بين شام ترتمى وعراق
تَفْلِى الفَلاَ بمناسم مفلولة | تَسِمُ الحصى بنجيعها الرقراق(٢)
كانت إذا اشتكت الوجى وتوقفت | يهفو نسيم ثنائك الخفاق

(١) خصل السباق : الخطر الذى يراهن عليه فى النضال ، وهو بفتح الخاء وسكون الصاد .

(٢) الفلا : جمع فلاة وهى الصحراء ، وتفليها : تقطعها .

فإذا تنسمت الثنـــاء أمامها مدت لها الأعناق فى الإعناق
يامُزْجِىَ البُدْنِ القلاص خوافقا رفقــاً بها فالسعى فى إخفاق(١)
مات الذى ورث العلا عن معشر ورثوا تراث المجد باستحقاق
رفعت لهم رايات كل جلالة فتميزوا فى حلبـــة السُّبَّاقِ
عَلَمُ الهداة وقطبُ أعلام النهى حرم العُفَاة المجتنى الأرزاق
رقت سجاياه وراقت مجتلى كالشمس فى بُعْدٍ وفى إشراق
كالزهر فى لألائه ، والبـدر فى عليـائه ، والزهر فى الإيراق
مهما مدحت سواه قَيِّدْ وصفه وصفاتُه حمـدٌ على الإطلاق
يا وارثا نسب النبوة جامعا فى العلم والأخلاق والأعراق
يا ابن الرسول وإنها لوسيلة يَرْقَى بها أوْجَ المصاعد راقى
ورد الكتاب بفضلكم وكمالكم وكفى ثناء الواحـد الخلاق
مولاى إنى فى علاك مقصر قدضاق عن حصر النجوم نطاقى
ومن الذى يُحْصى مناقب مجدكم عَدُّ الحصى والرمل غيرُ مطاق
يهنى قبوراً زرتها فنقـد ثوت منا مصون جوانح وحداق
خط الردى منها سطوراً نصها لابد أنك للفنـــاء مُلاَقِ
ولحقت ترجمة الكتاب وصدره وفوائد المكتوب فى الإلحاق
كم من سراة فى القبور كأنهم فى بطنهـا در ثوى بحقاق
قل للسحاب اسحب ذيولك نحوه والعَبْ بصارم بَرْقِكَ الخفاق
أودى الذى غيثُ العباد بكفه يُزْرِى بوا كف غيثك الغَيْدَاقِ
إن كان صَوْبُكَ بالمياه فدرها در يروض ماحـل الإملاق
بشر كثير قد نعوا لمـانعى قاضى القضاة وغاب فى الأطباق

---

(١) المزجى : السائق ، والبدن : جمع بدنة ، وأرادبها الإبل ، والقلاص ـ بكسر القاف ـ جمع قلوص ، وهو الشابة الفتية من النوق .

ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا — وأرحت من كد ومن إرهاق
يَتَفَيَّؤُنَ ظلال جاهك كلما — لفحت سُمُومُ الخطب بالإحراق[١]
عدموا المرافق فى فراقك وانطوى — عنهم بساط الرفق والإرفاق
رفعوا سريرك خافضين رؤسهم — ما منهم إلاَّ حليف سياق
لكن مصيرك للنعيم مخلداً — كان الذى أبقى على الأرماق[٢]
ومن العجائب أن يُرَى بحر الندى — طود الهدى يَسْرِى على الأعناق
إن يحملوك على الكواهل طالما — قد كنت محمولا على الأحداق
أو يرفعوك على العواتق طالما — رفعت ظهر منابر وعتاق
ولئن رحلت إلى الجنان فإننا — نَصْلَى بنار الوجد والأشواق
لو كنت تشهد حزن من خلفته — لَثَنَى عنانك كثرة الإشفاق
إن جَنَّ ليل جُنَّ من فرط الأسى — وسوى كلامك ماله من راقِ
فابعث خيالك فى الكرى يبعث به — ميت السرور لثاكل مشتاق
أغليت يا رزء التصبُّرَ مثل ما — أرخصت در الدمع فى الآماق
إن يخلف الأرضَ الغمامُ فإننى — أسقى الضريح بدمعىَ المُهْرَاقِ

وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة .

قال ابن الخطيب القسمطينى فى وَفَيَاته : وفى هذه السنة – يعنى سنة ٧٦١ – توفى شيخنا قاضى الجماعة بِغَرْنَاطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى ، وكتب لى بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه ، وله شعر مدوّن سمَّاه « جهد المقل » وله الشرح على الخزرجية فى العروض ، وأقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها ، وكان إماما فى الحديث والفقه والنحو ، وهو على الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه ، ولم يكن أحد بعده مِثْله بالأندلس ، انتهى .

---

(١) يتفيئون : يستظلون ، ولفحت : هبت حارة ، والسموم : أراد بها الرياح الحارة

(٢) الأرماق : جمع رمق ، وهو بقية الروح فى البدن ، يقول : لولا ثقتنا بأنك صائر إلى نعيم الجنان لم نبق على الحياة .

وقال فى « الإحاطة » إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة ، و إن وفاته سنة ستين وسبعمائة ، وفى وفاته مخالفة لما تقدم ، والله أعلم .

وما أحسن قول الشريف أبى القاسم المترجم به :

حدائق أنبتت فيها الغوادى ضروبَ النَّـوْر رائقة البهاء
فما يبـدو بها النعمان إلا نسبنـاه إلى ماء السماء(١)

أبناء القاضى محمد بن أحمد

وكان للشريف أبى القاسم المذكور ابنان نجيبان : أحدهما قاضى الجماعة أبو المعالى، والآخر أبو العباس أحمد ، قال الراعى فى كتابه « الفتح المنير ، فى بعض ما يحتاج إليه الفقير » ما نصه : حكاية تتعلق بالانقطاع ، نسأل الله تعالى العافيـة : وقع للسيد الشريف قاضى الجماعة بغَرْناطة أبى المعالى ابن السيد الشريف أبى القاسم الحسنى شارح الخزرجية ومقصورة حازم نفع الله تعالى بسلفهم الكريم ، وكانت أم السيد أبى المعالى حُسَينية ، فكان شريفا من الجهتين ، أنه كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات ، وتجرد للعبادة ، ولبس المُرَقَّعة ، وسلك طريق القوم ، وكان من الدين والعلم والتعظيم فى قلوب أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع ، وكان أخوه شيخى وأستاذى أبو العباس أحمد قاضيا بشرقى الأندلس فكان أخوه أبو المعالى المذكور لا يأكل فى بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك ، ولعيشه من خدم السلطان ، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو فى بيت أخيه أعطانى درهما من عنده أشترى له به ما يأكل ، وأقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة ، ثم إنه دخل يوما على الفقراء بزاوية المحروق من ظاهر غَرْناطة ، وكان شيخُ الفقراء بها فى ذلك الوقت الشيخَ أبا جعفر أحمد المحدود ، فقال لهم : يا سادتى ، إنه كان معى قنديل أستضىء به ففقدته فى هذه الأيام ، وما بقيت أبصر شيئا ، فقال له شيخهم المذكور : يا شريف أولُ رجل يدخل علينا فى هذا المجلس يجيبك عن

(١) النعمان : أراد الأقاحى ، وهو نبت أحمر ، وورى بالنعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وماء السماء : أراد به المطر ، وهو من تمام التورية ، لأن « ماء السماء » من أسماء آباء النعمان كما سمعت .

مسألتك ، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية ، فسلم وجلس ، فقال له الشيخ : إن الشريف يسأل الجماعة ، فقلت له : أول رجل يدخل علينا يجيبك ، فوفقت أنت ، فأجبه عن مسألته ، فقال له : ما سؤالك يا شريف ؟ فقال : إنه كان لى قنديل أستضىء به ففقدته ، وما بقيت أبصر شيئا ، فقال له الفقير : هذا لا يصدر إلا عن سوء أدب ، أخبرنا بما وقع منك ، فقال له الشريف : ما أعلم أنه وقع منى شىء ، غير أن المباشر فلانا طلبه السلطانُ للمصادرة ، فاستخفى منه ، فمررت ببابه يوما ، فنادانى من شقة الباب ، يا سيدى ، اجعل خاطرك معى لله تعالى ، فقلت له : اذكر الذكر الفلانى ، قلت : وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة فى تفريج الشدائد والكرب ، نص عليه البونى فى منتخبه ، وهو مجرب فى ذلك ، وقد روَاه لى عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه ، فقال له الفقير : هل كان أذن لك فى تلقينه ؟ قال : لا ، قال له الفقير : لا يعود إليك نورك أبدا ؛ لأنك قد أسأت الأدب ، فكان كما قال ، فانقطع وولى بعده قضاء الجماعة ، وعزل عن سخط ، وخَدَمَ الملوك ، وأكل طعامهم ، وحالته أوّلا وآخرا معروفة بغَرْنَاطة ، نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنه وكرمه ! انتهى كلام الراعى رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين ، رحمه الله تعالى ورضى عنه وسامحه ! فنقول :

أبو عبدالله محمد بن جابر الوادى آشى

ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى ، ولد بتونس ، وهو محمد ابن الإمام المحدث مُعِين الدين جابر بن محمد ابن قاسم بن أحمد القَيْسى ، شيخ ممتع نبيل رَحَّال متقن .

قال الخطيب ابن مرزوق : وعاشرته كثيرا سفرا وحضرا ، وسمعت بقراءته ، وسمع بقراءتى ، وقرأت عليه الكثير ، وقيدت من فوائده ، وأنشدنى الكثير ،

فأول ما قرأت عليه بالقاهرة ، وقرأت عليه بمدينة فاس ، و بظاهر قسنطينة ، و بمدينة بجَايَةَ ، و بظاهر المَهْدية ، و بمنزلى من تلمسان ، وقرأت عليه أحاديث عوالى من تخريج الدمياطى ، وفيها الحديث المسلسل بالأوّلية ، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطى بشرطه ، ثم قرأت عليه أكْثَر كتاب « الموطأ » رواية يحيى، وأعجله السفر فأتممته عليه فى غير القاهرة ، وحدّثنى به عن جماعة ، ومُعَوّله على الشيخين قاضى القضاة أبى العباس بن الغماز الخزرجى وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبى محمد بن هرون وهو عبد الله بن محمد القرطبى الطائى الكاتب المعُمَّر الأديب ، بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثانى ، قال الأول : أخبرنا أبوالربيع بن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق وأبى عبد الله بن أبى عبد الله الخوْلانى عن أبى عمرو عثمان بن أحمد المَغَافرى عن أبى عيسى بسنده ، وقال الثانى : أخبرنا أبو القاسم بن بقى بقرطبة ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده .

قال شيخنا : وفى هذا السَّنَد(١) غريبتان : إحداهما أنه ليس فيه إجازة ، والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون .

قال ابن مرزوق : قلت ولا غرابة فى اتصال سماع الموطأ وقراءته ، فقد وقع لى على قلة التحصيل متصلا من طرق ولله الحمد ، وقد رويته عن قرطبى ، وهو أبو العباس بن العشاء ، ثم قرأت عليه كتاب « الشفاء » لعياض ، وحدثنى به عن أبى القاسم عن أبى عبد الله بن أبى القاسم الأنصارى المالقى نزيل سبتة ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبى صالح ، عن أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجى ، عن أبى جعفر أحمد بن حكم ، عن المؤلف ، وحدثنى به أيضا عن قاضى الجماعة ابن أبى الربيع بن سالم عن أبى جعفر بن حكم .

(١) السند — بفتح السين والنون جميعا — هو فى اصطلاح علماء الحديث الطريق الموصل إلى المتن : أى الرجال الذين يروى عنهم المتن .

ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته : ورويت عنه وأنشدنى لأبى محمد ابن هرون :

لا تَطْمعَنْ فى نفع آلك إنه ضرر ، وقلَّ النفع عند الآل(١)
أقصر رُوَيْدكَ إن ما أعلقته بالآل من أهل كمثل الآل(٢)

ولابن هرون المذكور :

أقِلَّ زيارة الأحبا ب تزدد عندهم قربا
فإن المصطفى قد قا ل زر غبا تزد حبا

ولابن هرون أيضا :

رمانى بالنوى زَمَنِى فشَمْلُ الأنس مفترق
وليلى كله فكر فقلبى منه محترق
وللآداب أبناء ببحر الفقر قد غرقوا
وكل منهم وَجِلٌ بما يلقاه أوفرق
يَغَصُّ بريقه منه وفىّ النطق أو شرق
وقد صَفِرَتْ أكفهم فلا ورق ولا ورق
ولطف الله مرتَقَبٌ به العادات تنخرق

قال ابن مرزوق : وشعره الفائق لا يحصر ، وهو عندى فى مجلد كبير ، وولد ابن جابر سنة ٦٧ ، وسمع بمصر على جماعة ، وكتب بخطه كثيراً ، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر ، وله نظم حسن ، وتوفى بتونس سنة ٧٧٩ ، وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره ، وترجمة الحافظ بن جابر رحمه الله تعالى واسعة مشهورة ، وقد ذكرناه فى غير هذا الكتاب بما جمعناه .

---

(١) الآل فى هذا الوضع هم الأهل ، وأصل ألفه الهاء فأبدلت همزة ثم قلبت الهمزة ألفا لسكونها إثر همزة مفتوحة فى صدر الكلمة .

(٢) الآل ، هنا : السراب ، وهو ما تراه فى الصحراء كأنه الماء وليس بماء .

بعض ما أنشده لسان الدين لشيوخه

ومما أنشده لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض المتصوفة من شيوخه ولم يُسَمِّه قوله :

هل تعلمون مصارع العشاق عند الوَدَاعِ بلوعة الأشواق
والبين يكتب من نجيع دمائهم إن الشهيد لِمَنْ تَوَى بفراق(١)
لو كنت شاهِدَ حالهم يوم النوى لرأيتَ ما يلقون غير مطاق
منهم كئيب لا يمل بكاءه قد أحرقته مدامع الآماق(٢)
ومحرق الأحشاء أشعل نارها طولُ الوجيب بقلبه الخفاق
ومُوَلَّه لا يستطيع كلامه مما يقاسي فى الهوى ويلاقى
خرس اللسان فما يطيق عبارة ألم ألمَّ وما له من راق
ما للمحبِّ من المنون وقاية إن لم يَجُدْ محبوبه بتلاق
مولاى عبدك ذاهب بغرامه أدرك بفضلك من ذَمَاه الباقى
إنى إليك بذلتى متوسل فاعطف بلطف منك أو إشفاق

وهذه الأبيات أوردها رحمه الله تعالى فى الروضة فى العشق ، بعد أن حَدَّهُ وتكلم عليه ، ثم أورد عدة مقطوعات ، ثم ذكر بعدها هذه الأبيات كما ذكر .

وأنشد لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض أشياخه ، وسماه ، وأنسيته أنا الآن :

بما بيننا من خلوة معنوية أرق من النجوى وأحلى من السلوى
قفى ساعةً فى ساحة الدار وانظرى إلى عاشق لا يستفيق من البلوى
وكم قد سألت الريح شوقا إليكم فما حَنَّ مسراها على ولا ألْوَى

وقوله :

أنست بوحدتى حتى لو أنى أتانى الأنس لاستوحشت منه

(١) البين — بالفتح — الفراق ، والنجيع : الدم ، وأصل الشهيد الذى يموت فى قتال العدو بقصد إعلاء كلمة الله ، وأراد هنا تشبيه ميت العشق به ، وتوى — بالتاء المثناة — هلك .

(٢) الآماق : العيون هنا ، وواحده «مؤق» فلما أرادوا جمعه قدموا الهمزة على الميم فاجتمع فى الجمع همزتان أولاهما مفتوحة والثانية ساكنة فقلبوا الثانية ألفا .

ولم تدع التجارب لى صديقاً أميل إليـــــه إلا مِلْتُ عنه

وقوله رحمه الله تعالى :

عليك بالعزلة إن الفتى من طاب بالقلة فى العُزْلَةْ

لا يرتجى عزلة والٍ ، ولا يخشى من الذلة فى العَزْلَةْ

ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدى الإمامُ العلامة قاضى القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد الله .

ترجمة المقرى جد المؤلف

قال فى «الإحاطة» محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبى بكر بن على القرشى المَقَّرِى ، يكنى أبا عبد الله ، قاضى الجماعة بفاس ، تلمسانى . أوليته ـ نقلت من خطه قال : وكان الذى اتخذها من سلفنا قراراً[1] ، بعد أن كانت لمن قبله مزاراً ، عبدُ الرحمن بن أبى بكر بن على المقَّرى صاحب الشيخ أبى مدين ، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو أبى الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ، وكان هذا الشيخ عُرْوِى الصلاة ، حتى إنه ربما امتحن بغير شىء فلم يؤنس منه التفات ، ولا استشعر منه شعور ، ويقال : إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين ، انتهى .

وكتب بعضُ المغاربة على هامش هذا المحل من «الإحاطة» ما صورته : القرشى وَهَمٌ ، انتهى .

فكتب تحته الشيخُ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى رحمه الله تعالى ما نصه : بل صحيح ، نطقت به الألسنُ والمكاتبات والإجازات ، وأعربت عنه الخلال الكريمة ، إلا أن البَلَدِية يا سيدى أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى إمام المغرب أبى عبد الله المَقَّرى وَهَماً ، والحمد لله ، انتهى .

قلت : وممن صرح بالقرشية فى حق الجدِّ المذكور ابنُ خلدون فى تاريخه ، وابنُ

(١) قرار ـ بفتح القاف ـ مكان استقرار ، ومزار : أراد موضعا يزورونه ويعودون منه .

الأحمر فى « نثر الجمان » وفى شرح البردة عند قوله .

* لَعَلَّ رحمة ربى حين ينشرها *

والشيخُ ابن غازى ، والولى الصالح سيدى أحمد زروق ، والشيخُ علامة زمانه سيدى أحمد الونشريسى ، وغيرُ واحد ، وكفى بلسان الدين شاهدا مُزَكًّى .

وقد ألف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفا استوفى فيه التعريف بمولاى الجد سماه « النُّور البَدْرى ، فى التعريف بالفقيه المَقْرى » وهذا بناء منه على مذهبه أنه بفتح الميم وسكون القاف ، كما صرح بذلك فى شرح الألفية عند قوله :

* ووضعوا لبعض الأَجناس علم *

وضبطه غيرُه وهم الأكثرون بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عوّل أكثر المتأخرين ، وهما لغتان فى البلدة التى نُسِب إليها ، وهى مَقَرَّة من قرى زاب إفريقية ، وانتقل منها جده إلى تلمسان صحبة شيخه ولى الله سيدى أبى مَدْين رضى الله عنه ! .

رَجْع إلى تكملة كلام مولاى الجد فى حق أوليته :

قال رحمه تعالى بعد الكلام السابق فى حق جده عبد الرحمن ، ما صورته : ثم اشتهرت ذريته على ما ذكَر من طبقاتهم بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طَبْلا للرحيل ، ورايةً تقدم عند المسير ، وكان ولدُ يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسَةَ رجالٍ ، فعقدوا الشركة بينهم فى جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا[1] نسبي من جميع جهات أمى وأبى بتلمسان ، وعبدالرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسِجِلْمَاسة ، وعبد الواحد وعلى وهما شقيقاهم الصغيران بايوالاتن ، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار ، وتزوّجوا النساء ، واستولدوا الإماء ، وكان التلمسانى يبعث إلى الصحراوى

(١) الأرومة — بفتح الهمزة أو ضمها — الأصل ، يريد أن أحدهما كان جده لأبيه والآخر كان جده لأمه . وأصل الأرومة لأصل الشجرة ، ثم استعيرت للنسب ، ومن كلامهم « نفس ذات أكرومة ، من أطيب أرومة » .

بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجار ، وأخبار البلدان ، حتى اتسعت أموالهم ، وارتفعت فى الضخامة أحوالهم ، ولما افتتح التكرور كورة إيوالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها ، بعد أن جمع من كان فيها منهم إلى نفسه الرجال ، ونصب دونها ودون مالهم القتال ، ثم اتصل بملكهم فأكرم مَثْوَاه ، ومكنه من التجارة بجميع بلاده ، وخاطبه بالصديق الأحب ، والخلاصة الأقرب ، ثم صار يكاتب من بتلمسان يستقضى منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندى من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك ، فلما استوثقوا من الملوك ، تذللت لهم الأرض للسلوك ، فخرجت أموالهم عن الحدّ ، وكادت تفوت الحصر والعدّ ، لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر كان يجلب إليها من المغرب مالا بال[1] له من السلع ، فتعاوض عنه بماله بال من الثمن (أى مدبر دنيا ضم جنبا أبى حم وشمل ثوباه كان يقول[2] : لولا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ، ويأتون بالتبر الذى كلُّ أمر الدنيا له تبَع ، ومن سواهم يحمل منها الذهب ، ويأتى إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، ومنه ما يغير من العوائد ، ويجر السفهاء إلى المفاسد) ولما دَرَجَ[3] هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم ، وصادفوا توالى الفتن ، ولم يسلموا من جور السلاطين ، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمن ، فها أنا ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فُصُوله عيشا ، وأصوله حرمة ، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبت أهل البلد لقاء ، وأخذت عن بعضهم

---

(١) شىء غير ذى بال : أى ليس له شأن يجعله مما يهتم له .

(٢) هكذا فى الاصل وفى الإحاطة (١٣٧/٢) ولعله محرف عن «وكان مدبر الدنيا أبو حم يقول : لولا الشناعة — إلخ »   (٣) درجوا : ماتوا .

عَرْضا و إلقاء ، سواء المقيم القاطن ، والوارد والظاعن ، انتهى كلامه فى أوليته ، وقد نقله لسان الدين فى « الإحاطة » .

وقال مولاى الجد رحمه الله تعالى : كان مولدى بتلمسان أيام أبى حم موسى ابن عثمان بن يَغمُرَاسن بن زيان ، وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكنى رأيت الصفح عنه لأن أبا الحسن بن مؤمن سأل أبا طاهر السِّلَفى عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت أبا الفتح بن زيان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت حمزة ابن يوسف السهمى عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقرى عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت أبا إسماعيل الترمذى عن سنه فقال: أقبل على شانك ، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شانك ، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه ، انتهى .

قلت : ولما تذاكرت مع مولاى العم الإمام ، صب الله تعالى على مضجعه من الرحمة الغمام! هذا المعنى الذى ساقه مولاى الجد رحمه الله تعالى أنشدنى لبعضهم :

احْفظْ لسانك لا تَبُحْ بثلاثة سِنٍّ ومال ما استطعت ومذهب
فعَلَى الثلاثة تُبْتَلَى بثلاثة بمكفر وبحاسد ومكذب[1]

قال الوانشريسى فى حق الجد ما نصه : القاضى الشهير الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن محمد المقَّرى ، التلمسانى المولد والمنشأ ، الفاسى المسكن ، كان رحمه الله تعالى عالما عاملا ظريفا نبيها ذكيا نبيلا فهما متيقظا جزلا محصلا ، انتهى .

وقد وقفت له بالمغرب على مؤلف عرّف فيه بمولاى الجد ، وذكر جملة من

(١) فى هذا البيت لف ونشر مشوش ؛ فالمكذب يرجع إلى السن ، والحاسد يرجع إلى المال ، والمكفر يرجع إلى المذهب .

أحواله ، وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره فى تأليف أخبار الجد ، فألف فيه ما ذكر

وقال فى « الإحاطة » فى ترجمة مولاى الجد بعد ذكره أوليته ما صورته :

حال هذا الرجل مشار إليه بالعُدْوة الغربية اجتهادا ودُؤُبا وحفظا وعناية واطلاعا ونقلا ونزاهة ، سليم الصدر ، قريب الغَوْر ، صادق القول ، مسلوب التصنع ، كثير الهَشَّة ، مفرط الخفة ، طاهر السذاجة ، ذاهب أقصى مذاهب التخلق ، محافظ على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضايق فى العقد والتوجه ، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة ، ثم يغافص(١) الوقت فيها و يوقعها دفعه متبعا إياها زَعْقَة التكبير برجفة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها العادة بما هو دليل على حسن المعاملة ، و إرسال السجية ، قديم النعمة ، متصل الخيرية ، مُكِبٌّ على النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصيانة والعدالة ، منصف فى المذاكرة ، حاسر للذراع عند المُباحثة ، راحب عن الصدر فى وطيس المناقشة ، غير مختار للقرن ، ولا ضان بالفائدة ، كثير الالتفات ، متقلب الحدقة ، جهير بالحجة ، بعيد عن المراء والمباهتة ، قائل بفضل أولى الفضل من الطلبة ، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير ، ويحفظ الحديث ، ويتهجر بحفظ التاريخ والأخبار والآداب ، ويشارك مشاركة فاضلة فى الأصلين والجدل والمنطق ، ويكتب ويشعر مصيبا غرَضَ الإجادة ، ويتكلم فى طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتدوين فيها ، شرق وحج ولقى جِلَّةً ، واضطبن(٢) رحلة مفيدة ، ثم عاد إلى بلده فأقرْأَ به ، وانقطع إلى خدمة العلم ، فلما ولى ملك المغرب السلطان محالف الصنع ونشيدة الملك وأثير الله من بين القرابة والأخوة أميرُ المؤمنين أبو عنان اجتذبه ، وخلطه بنفسه ، واشتمل عليه ، وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقل بذلك أعظم الاستقلال ، وأنفذ الحق ، وألان الكلمة ، وآثر التسديد ، وحمل الكلّ ،

---

(١) يغافص الوقت : يفاجئه

(٢) أصل هذه المادة قولهم « اضطبن فلان كذا » إذاجعله فى ضبنه ، وهو — بكسر فسكون — ناحيته وكنفه ، وأراد هنا أنه اعتزمها وفعلها

وخفض الجناح ، فحسنت عنه القالة[١] ، وأحبته الخاصة والعامة ، حضرت بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللَّدَد[٢] وتأنيه للحجج ورفقه بالخصوم ما قضيت منه العجب .

دخوله غرناطة ـ ثم لما أخر عن القضاء استعمل بعد لأى فى الرسالة ، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فلما قضى غرض رسالته ، وأبرم عقد وجهته ، واحتلّ ماقَةَ فى منصرفه ، بداله فى نبْذ الكلفة ، واطراح وظيفة الخدمة ، وحل التقيد ، إلى ملازمه الإمرة ، فتقاعد ، وشهر غرضه وبَتّ فى الانتقال طمَعَ من كان صحبته ، وأقبل على شأنه ، فخلى بينه و بين همه ، وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه ، وطار الخبر إلى مُرْسِله ، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة والعدول عنها بقصد التخلى والعبادة ، وأنكر ماحقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة ، والانقباض قبل الخروج عن العهدة ، فوغر صدرُه على صاحب الأمر ، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة ، وتجهزت جملة من الخدام المجلِّين فى مأزق الشبهة المضطلعين بإقامة الحجة ، مولين خطة الملام ، مخيرين بين سحائب عاد من الإسلام ، مظنة إعلاق النقمة ، وإيقاع العقوبة ، أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة والمنابذة ، وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذمم بمسجدها ، وجار بالانقطاع إلى الله ، وتوعد من يجبره بنكير من يُجِير ولايجار عليه سبحانه ، فأهم أمره ، وشغلت القلوب أبدته ، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضى له فيها رفع التبعة وتركه إلى تلك الوجهة ، ولما تحصل ما تيسر من ذلك انصرف محفوفا بعالمى القطر قاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى المذكور قبله والشيخ الخطيب أبى البركات بن الحاج مسلمين لوروده ، مشافهين بالشفاعة فى غرضه ، فانقشعت الغُمَّة ، وتنفست الكربة ، واستصحبا من المخاطبة السلطانية

(١) حسنت عنه القالة : كان كلام الناس وحديثهم عنه حسنا ، وهى كناية عن حميد سريرته ، فإن من حسنت سريرته حمدت سيرته

(٢) اللدد — بزنة سبب — الخصومة الشديدة

فى أمره من إملائى مايذ كرحسبما ثبت فى الكتاب المسمى « بكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » المجموع بسَلَا ما صورته :

المقامُ الذى يُحبُ الشفاعة ويَرْعَى الوسيلة ، ويُنجز العِدَة ويتمم الفضيلة ، ويُضْفى مجده المِنَنَ الجزيله ، ويعيى حمده المادح العريضة الطويلة ، مقامُ محل والدنا الذى كرم مجده ، ووضح سعده ، وصح فى الله تعالى عقده ، وخلص فى الأعمال الصالحة قَصْدُه ، وأعجز الألسنة حَمْدُه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يَرْعَاها ، وشفاعة يُكْرِمُ مَسْعَاها ، وأخلاق جميلة تجيب دَعْوَةَ الطبع الكريم إذا دعاها ، معظمُ سلطانه الكبير ، وممجد مقامه الشهير ، المتشيع لأبوّته الرفيعة قولا باللسان واعتقادا بالضمير ، المعتمدُ منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولى النصير ، فلان .

سلام كريم ، طيب برّعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوّتكم الفضلى ، ورحمة الله و بركاته .

أما بعدَ حمدِ الله الذى جعل الخلق الحميدة دليلا على عنايته بمن حَلّاه حُلاها ، وميز بها النفوس النفيسة التى اختصها بكرامته وتولاها ، حمداً يكون كفؤا للنعم التى أولاها ، وأعادها ووالاها ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله المترقى من درجات الاختصاص أرفعَهَا وأعلاها ، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها ، مَطْلع آيات السعادة يَرُوق مُجْتَلاَها ، والرضا عن آله وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها ، وعَسَل ذكرهم(١) فى الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها ، والدعاء لمقام أبوّتكم حرس الله تعالى عُلَاها ، بالسعادة التى يقول الفتح أنا طلاع الثنايا وابنُ جَلَاها ، والصنائع التى تخترق المَفَاوِزَ بركائبها المبشرات فتفلى فَلَاها ، فإنا كتبنا إليكم ـ كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء ، وحشد على

---

(١) عسل ذكرهم : وجده الناس طيب المذاق ، واستعذبوا الحديث عنهم

أعلام صنائعكم الكرام جُيُوشَ الثناء ، وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء ! ــ من حمراء غَرْناطة حرسها الله والودُّ باهر السنا ، ظاهر السناء ، مُجَدَّد على الآناء ، والتشيع رَحْبَ الدسيعة والفِناء ، وإلى هذا ــ وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ! ــ فإننا خاطبنا مقامَكم الكريم فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبى عبد الله المَقَّرِى خار الله تعالى لناوله ، وبلغ الجميع من فضله العميم أمله ، جوابا عما صدر عن مَثَابتكم فيه من الإشارة الممتثله ، والمآرب المُعْمَلَه ، والقضايا غير المهمله ، نُصَادركم بالشفاعة التى مِثْلُها بأبوابكم لا يرد ، وظمآها عن مَنْهَل قبولكم لا تجلى (١) ولا تُصَد ، حسبما سنه الأب الكريم والجد ، والقَبيل الذى وضح منه فى المكارم الرسم والحد ، ولم نُصْدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيله ، وتبلج صبح الزهادة والفضيله ، وجود النفس الشحيحة بالعَرَضِ الأدنى البخيله ، وظهر تخليه عن هذه الدار ، واختلاطه باللفيف والغمار ، وإقباله على ما يعنى مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار ، وكنا لما تعرفنا إقامته بمالَقَةَ لهذا الغرض الذى شهرَه ، والفضل الذى أبرزه للعِيَانِ وأظهرَه ، أمرنا أن يعتنى بأحواله ، ويُعَان على فراغ باله ، ويُجْرَى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا أما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله ، ففر من مالَقَةَ على ما تعرفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستور المُنْتَمَى والمُنْتَسَب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب ، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلا من لايؤبه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تصريفه ، ثم تلاحق إرسالكم الجِلَّة فوجبت حينئذ الشفاعة ، وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعه ، وقرنا ما تحققناه من أمره ، وانقباضه عن زَيْدِ الخلق وعَمْرِه ، واستقباله الوجهَةَ التى من ولى وجهه

(١) كذا فى ب ، وأحسبها محرفة عن «لا تحلأ» وتقول «حلأت فلانا عن ورود الماء» إذا منعته وصددته عنه

شَطْرَها فقد آثر أثيرا ، ومَنِ ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلا كبيرا وخيرا كثيرا ، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغَرَضَ الذى رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همه ، فما أخْلَقَ مقامكم أن يفوز منه طالبُ الدنيا بسهمه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقى وقَسْمِهِ ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ، ويعوّل البرىء على فضله ويثق المذنِبُ بحلمه ، فوصل الجوابُ الكريم بمجرد الأمان وهو أرَبٌ من آراب ، وفائدة من جراب ، ووجه من وجوه إعراب ، فرأينا أن المَطْل بعد جفاء ، والإعادة ليس يثقلها خَفَاء ، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء ، وبادرنا الآن إلى العزم عليه فى ارتحاله ، وأن يكون الانتقالُ عن رضاً منه من صفة حاله ، وأن يقتضى له ثمرة المقصد ويبلغ طية الإسعاف فى الطريق إن قصد ، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصلا ، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلا ، وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصلا ، ولما مدت اليدُ فى تسويغ حالة هديكم عليها أبدا يحرض ، وعلمكم يصرح بمزيتها ولا يعرض ، فكملوا أبقاكم الله مالم تسعنا فيه مشاحة الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديثَ هذه الإباحة فهو أصح حديث فى الباب ، ووفوا غرضنا من مجدكم ، وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب ، وقَصْد غافر الذنب وقابل التَّوْب بإخلاص المَتَاب ، والتشمير ليوم العَرْض وموقف الحساب ، وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذى تعلق به أعلق الله به يدكم من جناب ، ومُعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الآراب[1] ، وقد بعثنا مَنْ ينوب عنا فى مشافهتكم بها أَحْمَدَ المَنَاب ، ويقتضى خلاصها بالرغبة لا بالغِلاَب ، وهما فلان وفلان ، ولولا الأعذار لكان فى هذا الغرض إعمالُ الرِّكاب ، يسبق أعلام الكتاب ، وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويُرْبِى[2] على التأميل ، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة

(١) الآراب : جمع أرب ـ بوزن سبب وأسباب ـ وهو المطلب والبغية .

(٢) يربى : يزيد .

التسجيل ، وهو سبحانه يبقيكم لتأييد المجد الأثيل ، و إنالة الرِّفْدِ الجزيل ، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومَثابتكم الفُضْلَى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، فى الحادى والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، انتهى كلام ابن الخطيب فى « الإحاطة » .

وذكر فى الريحانة أنه كتب فى هذا الغرض ما نصه : وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم فى شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبى عبد الله المقرى ، وفقنا الله وإياه لما يُزْلِفُ لديه ، وهدانا لما يقرب إليه ، وما بلغكم بتقاعده بمالَقَةَ ، وما أشرتم به فى أمره ، فاستوفينا جميع ما قررتم ، واستوعبنا ما أجملتم فى ذلك وفسرتم ، واعلموا يا محلَّ والدنا ـ أمتعنا الله ببقائكم الذى فى ضمنه اتصال السعادة ، وتعرف النعم المُعاده ! ـ أننا لما انصرف عن بابنا هو ومن رافقه عن انشراح صدور ، وتكييف جَذَل بما تفضلتم به وسرور ، تعرفنا أنه تقاعد بمالَقَةَ عن صَحْبه ، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربه ، وصرف الوجه إلى التخلى مشفقا من ذنبه ، واحتج بأن قصده ليس له سبب ، ولا تعين له فى الدنيا أرَب ، وأنه عرض عليكم أن تسمحوا له فيما ذهب إليه ، وتُقِرُّوه عليه ، فيعجل البِدار ، ويمهد تحت إيالتكم القَرار ، فلما بلغنا هذا الخبر ، لم يخلق الله عندنا به مبالاة تعتبر ، ولا أعددناه فيما يذكر ، فكيف فيما ينكر ، وقطعنا أن الأمر فيه هَيِّن ، وأن مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عَيْن ، فإن بابكم غنى من طبقات أولى الكمال ، مليٌّ بتسويغ الآمال[1] ، موفور الرجال ، معمور بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام والحلال ، والصلحاء أولى المقامات والأحوال ، والأدباء فُرْسان الرَّوِيَّة[2] والارتجال ، ولم ينقص بفقدان الحصى أعدادُ الرمال ، ولا يستكثر بالقطرة جيشُ العارض[3] المنثال ، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال ، واستمسا ككم بإسعاف غرض من صرَف وَجْهه إلى ذى

(١) ملي : أراد كفيل ضامن ، وتسويغ الآمال : إجازة المطلب وجعله سائغا .

(٢) الروية : التأنى فى الأمر والتمهل ، ويقابلها الارتجال .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والمنثال : أراد الممطر مطراً متتابعا

الجلَال ، ولو علمنا أن شيئاً يهجس فى الخاطر من أمر مقامه ، لقابلناه بعلاج سَقامه ، ثم لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا فى طَوْر التقلل والتخفيف ، خالطا نفسه باللفيف ، قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف ، وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضا عن الناس لا يظهر إلا لصلاة يَشْهَدُ جماعتها ، ودعوة للعباد يخاف إضاعتها ، ثم تلاحق إرسالكم الجِلّة، الذين تحق لمثلهم التَّجِلّة ، فحضروا لدَيْنا ، وأدوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا ، وتكلمنا معهم فى القضية ، وتنحّلنا فى الوجوه المرضية ، فلم نجدوجها أخلص من هذا الغرض ، ولا علاجا يتكفل ببُرْء المرض ، من أن كلفناهم الإقامة التى يتبرك بيُمْن جِوارها ، ويعمل على إيثارها ، بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا الكتاب الذى مضمونُه شفاعةٌ يضمن حباؤكم احتسابَها ، ويَرْعَى انتماءَهَا إلى الخلوص وانتسابَهَا ، ويعيدها قد أعملت الحظوة أثوابها ، ونقصدكم ومثلكم مَنْ يُقْصد فى المُهِمّه ، فأنتم المثل الذائع فى عموم الحلم وعلو الهمه ، فى أن تصدروا له مكتوبا مكمل الفصول ، مقرر الأصول ، يذهب الوَجَل ، ويرفع الخجل ، ويسوّغ من مآربه لديكم الأمل ، ويخلص النية ويرتِّبُ العمل ، حتى يظهر ما للناعندأبوتكم من تكميل المقاصد ، جريا على مابذلتم من جميل العوائد ، وإذا تحصل ذلك كان بفضل الله إيابه ، وأناخت بعَقْوَة وعدكم(١) الوفى ركابه ، ويحصل لمقامكم عزه ومجده وثوابه ، وأنتم ممن يرعى أمور المجد حق الرعاية ، ويجرى فى معاملة الله تعالى على ما أسس من فضله البدايه ، وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حَوْزَة الإسلام والحمايه ، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام ، وأعملنا فيه الأقلام ، بعد أن أجهدنا الاختيار وتنخّلنا الكلام ، وجوابكم بالخير كفيل ، ونَظَرُكم لنا وللمسلمين جميل ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام . انتهى

---

(١) وقع فى ب « بعقرة وعدكم » وأحسبه محرفا عما أثبته ، والعقوة ـ بالفتح ما حول الدار ، وساحتها ، والمحلة ؛ ويقال « ما يطور بعقوة فلان أحد » أى ما يدنو أحد من ساحته .

قلت : وهذه آفة مخالطة الملوك ، فإن مولاى الجد المذكور كان نزل عن القضاء وغيره ، فلما أراد التخلى إلى ربه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت .

وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى فى « الإحاطة » شيوخَ مولانا الجد ، فلنذكرهم من جزء الجد الذى سماه « نظم اللآلى ، فى سلوك الأمالى » ومنه اختصر لسانُ الدين ما فى « الإحاطة » فى ترجمة مشيخته فنقول : قال مولاى الجد رحمه الله تعالى فممن أخذت عنه ، واستفدت منه ، عَلَماها ـ يعنى تلمسان ـ الشامخان (١) ، وعالماها الراسخان : أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام ، وكانا قد رحلا فى شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرنى وتلك الحلْبة ، وأدركا المرجانى وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا فى أوّل المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبى يعقوب وهو محاصر لها ، وفقيهُ حضرته يومئذ أبو الحسن على بن يخلف التنسى ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يَعُدْ ، وارتفع شأنه عند أبى يعقوب ، حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة أحد قبله ، وقام على قبره ، وقال : نعم الصاحب فقدنا اليوم ، حدثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال : كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك ـ وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة ـ ففعلنا ، فلما قتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك ، فأخبرتهما ، فأما أبو زيان ـ وكان السلطان يومئذ ـ فنزل وطأطأ رأسه ودخل ، وأما أبو حمو ـ وكان أميرا ـ فوثب وخلفها ، ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابنى الإمام ، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ، ثم بعده ابنه أبو تاشفين ، ثم زادت حُظْوتهما عند أمير المسلمين

---

(١) أصل العلم الجبل ، والشامخ : الشديد الارتفاع ، ويشبه الرجل بالجبل إما فى كونه ثابتا راسيا لاتزحزحه الأعاصير ، وإما فى كونه مشهوراً طائر الذكر ، وإما فى كونه يهتدى به أو يستعصم بذراه .

أبى الحسن ، إلى أن توفى أبو زيد فى العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر ، فزادت مرتبة أبى موسى عند السلطان ، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان فى أوّل عام تسعة وأربعين ، وكان أبو موسى قد صَدَر عنه قبل الوقعة ، فتوجه صحبةَ ابنه أمير المسلمين أبى عِنان إلى فاس ، ثم رده إلى تِلِمْسَان ، وقد استولى عليها عثمانُ بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زَيَّان ، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام ، قال لى خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبدالله الرندى : لما أزمع الفقيهُ(١) ومَنْ أطاق معه على القُفُول إلى تِلِمْسَان بتُّ على تشييعهم ، فرأيتنى كأنى نظمت هذ البيت فى المنام :

وعند وَدَاع القوم ودَّعْت سَلْوتى وقلت لها بِينِى فأنتِ المودَّعُ

فانتبهتُ وهو فى فِىَّ ، فحاولت قريحتى بالزيادة عليه فلم يتيسر لى مثله ، ولما استحكم ملك أبى تاشفين واستوثق رَحَل الفقيهان إلى المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة فلقيا علاء الدين القونوى ، وكان بحيث إنى لما رحلت فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية قال لى : إن قدرت أن لايفوتك شىء من كلام القونوى حتى تكتب جميعه فافْعَلَ ، فإنه لا نظير له ، ولقيا أيضا جلال الدين القزوينى صاحب البيان ، وسمعا صحيحَ البخارى على الحجار ، وقد سمعته أنا عليهما ، وناظرا تقى الدين ابن تيمية ، وظهرا عليه(٢) ، وكان ذلك من أسباب مِحْنته ، وكانت له مقالات فيمايذكر وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين ، حدثنى شيخى العلامة أبو عبد الله الأبلى أن عبد الله بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه :

مُحَصَّل فى أصول الدين حاصله من بعد تَحْصيلِهِ علم بلا دِينِ
أَصْلُ الضلالة والإفك المُبِينِ ، فما فيه فأ كثره وَحْىُ الشياطينِ

قال : وكان فى يده قضيب ، فقال : والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا ،

---

(١) أزمع الأمر وعليه : عزم عليه ، والقفول : الرجوع والعود (٢) ظهرا عليه : تغلبا

ثم رفعه ووضعه ، و بحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أنى لما حللت بيت المقدس وعرف به مكانى من الطلب ، وذلك أنى قصدت قاضيه شمسَ الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم أستوجب به هنالك حقا ، فلما أطْلَلْتُ عليه عرّفه بى بعضُ مَنْ معه ، فقام إلى حتى جلست ، ثم سألنى بعضُ الطلبة بحضرته فقال لى : إنكم معشر المالكية تبيحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجُحْفَة ، وقد قال رسول صلى الله عليه وسلم بعد أن عين المواقيت لأهل الآفاق « هُنَّ لهن ، ولمن مَرَّ عليهن من غير أهلهن » وهذا قد مر على ذى الحُلَيفة وليس من أهله فيكون له ، فقلت له : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من غيرأهلهن » أى من غيرأهل المواقيت ، وهذا سلبٌ كلى ، و إنه غير صادق على هذا الفرد ، ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئى عليه ، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعا ، فلما لم يتناوله النصُّ رَجَعنا إلى القياس ، ولا شك أنه لا يلزم أحدا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به ، لكن مَنْ ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة ، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها ، بخلاف أهل الجحفة ، فإنها بين أيديهم ، وهم يمرون عليها ، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك ، فلما عرفت أتانى آتٍ من أهل المغرب فقال لى : تعلم أن مكانك فى نفوس أهل هذا البلد مكين ، وقدرك عندهم رفيع ، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام ، فإن سُئلت فانتسب لهما ، فقد سمعتَ منهما ، وأخذت عنهما ، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهمافتَضَعَ من قدرك ، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما وأن لا أحد فوقهما :

* وليس لما تَبْنِي يدُ الله هادمُ *

وشهدت مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن بن أبى حم ذكر فيه أبو زيد بن الإمام أن ابن القاسم مُقَلِّد مقيد النظر بأصول مالك ، ونازعه

أبو موسى عمران بن موسى المشدالى ، وادَّعَى أنه مطلق الاجتهاد ، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة ، قال : فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره ، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمسانى مثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزنى إلى الشافعى ، فقال عمران : هذا مثال ، والمثال لا تلزم صحته ، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبى عبد الله بن أبى عمرو : تكلم ، فقال : لا أعرف ما قال هـذا الفقيه ، الذى أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل ، فقال أبو موسى للسلطان : هـذا كلام أصولى محقق ، فقلت لهما وأنا يومئذ حديث السن : ما أنصفتما الرجل ، فإن المُثُلَ(١) كما تؤخذ على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على جهة التقريب ، ومن ثَمَّ جاء ما قاله هذا الشيخ ، أعنى ابن أبى عمرو ، وكيف لا وهذا سيبويه يقول : وهذا مثال ولا يتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا فلا يلزم صحة المثال ولا فساد الممثل لفساده ، فهذان القولان من أصل واحد .

وشهدت مجلسا آخر عند هـذا السلطان قرىء فيه على أبى زيد بن الإمام حديثُ « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » فى صحيح مسلم ، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى : هذا الملقَّن مُحْتَضَر حقيقة ميت مجازا ، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقْنِعه ، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعضَ التنقيح فقلت : زعم القرافى أن المشتق إنما يكون حقيقة فى الحال ، مجازا فى الاستقبال ، مختلفا فيه فى الماضى ، إذا كان محكوما به ، أما إذا كان متعلَّقَ الحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقا إجماعا ، وعلى هذا التقرير لا مجاز ، فلا سؤال ، لا يقال : إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأنا نقول : إنه نقل

---

(١) المثل ـ بضمتين ـ جمع مثال ، بزنة كتاب وكتب .

الإجماع ، وهو أحد الأربعة التى لا يُطَالب مدعيها بالدليل ، كما ذكر أيضاً ، بل نقول : إنه أساء حيث احتجَّ فى موضع الوفاق ، كما أساء اللخمى وغيره فى الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها(١) ، بل هذا أشنع ، لكونه مما علم من الدين بالضرورة ، ثم إنا لو سلمنا نَفْىَ الإجماع فلنا أن نقول : إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة ، لأن تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين : أى لقنوا مَنْ تحكمون بأنه ميت ، أو نقول : إنما عَدَل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام ، ألا ترى اختلافَهم فيه : هل أخذ من حضور الملائكة ، أو حضور الأجل ، أو حضور الجلاس ، ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج فى نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها ، وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو أيضا مما لا يعرف بنفسه ، بل بالعلامات ، فلما وجب اعتبارُها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها ، والله تعالى أعلم .

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبى زيد « وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف » : إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم مَنْ خلفه ، لئلا يمر بين يَدَىْ أحد ، وقد ارتفع عنه حكمه ، فيكون كالداخل مع المسبوق ، جمعا بين الأدلة ، قلت : وهذا من مُلَح الفقيه .

اعترض عند أبى زيد قول ابن الحاجب « ولبن الآدمى والمباح طاهر » بأنه إنما يقال فى الآدمى لِبَان ، فأجاب بالمنع ، واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم « اللبن للفَحْل » وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه المباح معه فى الحكم ؛ لأن اللبان خاص به ، وليس موضع تغليب ، لأن اللبان ليس بعاقل ، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل .

تكلم أبو زيد يوما فى مجلس تدريسه فى الجلوس على الحرير ، فاحتج

---

(١) إنما يكون الاستدلال على المتفق عليه إساءة أن لو كان الغرض من الاستدلال مقصورا على إقامة الحجة على الخصم ، أما وليس الغرض من الاستدلال قصرا على ذلك بل قد يكون لبيان المستند من كلام صاحب الشريعة وأنه ليس مما ساق الرأى إليه فلا إساءة فيه .

إبراهيم السلوى الممنع بقول أنس : « فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لُبِسَ » فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراشَ فحَسْبُ ، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها ، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير ، فقلت : كلا الأمرين يسمى لباسا ، قال الله عز وجل (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وفيه بحث .

كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها فيقول « والمفارقات » ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه :

وغَرَرْتَنِي وزعمت أنك لابنٌ بالصيف تامر

فقال :

وغررتنى وزعمت أنك لابن بالضيف تامر (١)

فقال : أنت فى تصحيفك أشعر من الحطيئة ، أو كما حكى عمن صلى بالخليفة فى رمضان ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر فى المصحف ، فصحف آيات : صنعة الله ، أصيب بها من أساء ، إنما المشركون نَجْس ، وعدها أَبَاه ، تقية الله خير لكم ، هذا أن دعوا للرحمن ولدا ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يَعْنيه .

سمعت أبا زيد يقول : إن أبا العباس الغمارى التونسى أول من أدخل « معالم » الإمام فخر الدين للمغرب ، وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم ابن زيتون .

وسمعته يقول : إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهى من ستين ديوانا ، وحفظت من وِجادة أنه ذكر عند أبى عبد الله بن قطرال المراكشى أن ابن الحاجب اختصر الجواهر فقال : ذكر هذا لأبى عمرو حين فرغَ منه فقال : بل ابنُ شاس اختصر كتابى ، قال ابن قطرال : وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس ،

---

(١) قد صحف أيضا إلى « أنك لا تنى بالصيف تامر » .

والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا فى الشىء اليسير ، فهما أصلاه ومعتمداه ، ولاشك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه و بُعْد مَدَاه

وكان أبو زيد من العلماء الذين يَخْشون الله ، حدثنى أميرُ المؤمنين المتوكل ابن عِنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن نَدَبَ الناسَ إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد ، فقال له أبو زيد : لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال ، وتصلى ركعتين كما فعل على بن أبى طالب ، وسأله أبو الفضل بن أبى مدين الكاتب ذات يوم عن حاله ، وهو قاعد ينتظر خروج السلطان ، فقال له : أما الآن فأنا مُشْرِك ، فقال : أعيذك من ذلك ، فقال : لم أرد الشرك فى التوحيد ، لكن فى التعظيم والمراقبة ، و إلا فأى شىء جلوسى ههنا ؟

والشىء بالشىء يذكر ، قمتُ ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه ، فقام إلى جانبى شيخ من الطلبة ، وأنشدنى لأبى بكر بن خطاب رحمه الله تعالى :

أبصرت أبواب الملوك تَغَصُّ بالراجين إدراك العلا والجاه
مترقبين لها فمهما فتحت خرّوا لأذقان لهم وجِبَاهِ(١)
فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت نفسى على إنضاء جسمى الواهى(٢)
ورأيت باب الله ليس عليه من متزاحم ، فقصدت باب الله
وجعلته من دونهم لى عُدَّة وأنِفْتُ من غيٍّ وطول سفاهى

يقول جامع هذا المؤلف : رأيت بخط عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحل من كلام مولاى الجدّ مقابل قوله «ورأيت باب الله» ماصورته : قلت ذلك : لسعته أو لقلة أهله .

---

(١) أخذ هذا من قول الله تعالى : (ويخرون للأذقان يبكون) والجباه : جمع جبهة ، بوزن قصعة وقصاع وجفنة وجفان .

(٢) أنضى جسمه : أهزله ، والواهى : الضعيف .

إن الكرام كثير فى البلاد ، و إن قلوا ، كما غيرهم قُلّ و إن كَثُرُوا[١]

(قل لا يستوى الخبيث والطيب ـ الآية) . انتهى

رجع إلى كلام مولاى الجد ـ قال رحمه الله تعالى ورضى عنه : وحدثنى شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبى زيد مرة ، فذكر القيامة وأهوالها ، فبكى ، فقلت : لا بأس علينا وأنتم أمامنا ، فصاح صيحةً ، واسودَّ وجهه ، وكاد يتفجر دما ، فلما سُرِّىَ عنه[٢] رفع يديه وطَرْفه إلى السماء وقال : اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل ، وأخباره كثيرة .

وأما شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم ، واستفدت منه كثيراً ، فمما سألته عنه قول ابن الحاجب فى الاستلحاق « و إذا استلحق مجهول النسب » إلى قوله « أو الشرع بشهرة نسبه » كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب ؟ فقال : يمكن أن يكون مجهول النسب فى حال الاستلحاق ، ثم يشتهر بعد ذلك ، فيبطل الاستلحاق ، فكأنه يقول : ألحقه ابتداء ودواما ، مالم يكذبه أحد ، هذه هى إحدى الحالتين ، إلا أن هذا إنما يتصور فى الدوام فقط ، ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على مايوهم القطع ، وكثيراً ماينكشف الأمر بخلافه ، ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك ، فقال لى : لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يحمل ذكر الظن ولا ما فى معناه احتمال ، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجز أن يحمل على غيره ، فإذا تعذر كما هنا بنى باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة ، وأجرى ظاهره على ما ينافى أصلها ، صيانة لرونقها ، ورعاية لما كان ينبغى أن تكون عليه لولا الضرورة . قلت : ولذلك عقد ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير ، مع أن ذلك

---

(١) قل ـ بضم القاف وتشديد اللام ـ أى قليل .

(٢) سرى عنه ـ بالبناء للمجهول ـ ذهب عنه ما به .

إنما يدرك بما غايته الظن فى الحَزْر[1] والتخمين ، وكانا معاً يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد .

أبو موسى المشدالى

ومن أخذت عنه أيضا حافظُها ومدرسُها ومفتيها أبو موسى عمران بن موسى ابن يوسف المشدالى .

صهر شيخ المدرسين أبى على ناصر الدين على ابنته ، وكان قد فر من حصار بجاية ، فنزل الجزائر ، فبعث فيه أبو تاشفين ، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المَـكِين ، فدرّس بتِلِمْسَان الحديثَ والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض ، وكان كثير الاتساع فى الفقه والجدل ، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر .

سألته عن قول ابن الحاجب فى السهو « فإن أخال الإعراض فمبطل عمده » فقال : معناه فإن أخال غيره أنه معرض ، فحذف المفعول لجوازه ، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه مافى معناه من أنَّ وأنْ ، قال الله العظيم (ألم أحسب الناس أن يتركوا) قلت : وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثانى ، وحذف الثالث اختصارا لدلالة المعنى عليه : أى فإن أخال الإعراض كائناً ، كما قالوا : خلت ذلك ، وقد أعربت الآية بالوجهين ، وهذا عندى أقرب ، ومن هذا الباب مايكتب به القضاة من قولهم « أعلم باستقلاله فلان » أى أعلم فلان مَنْ يقف عليه بأن الرسم مستقل ، فحذفوا الأول ، وصاغوا ما بعده المصدر .

سئل عمران وأنا عنده عما صبغ من الثياب بالدم فكانت حمرته منه ، فقال : يغسل ، فإن لم يخرج شىء من ذلك فى المـاء فهو طاهر ، لأن المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة ، وإذا عسر قَلْعه بالماء فهو عَفْو ، وإلا وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شىء ، قلت : فى البخارى قال معمر : رأيت الزهرى يصلى

---

(١) الحزر — بفتح الحاء وسكون الزاى — مصدر « حزره يحزره » إذاقدره بالظن

فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن ، وتفسيره على ما ذكره عمران ، وكان قد صاهر لقاضى الجماعة أبى عبد الله بن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفى عنها .

أبو إسحاق إبراهيم السلوى

ومنهم مشكاة الأنوار ، الذى يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكم السلوى، رحمه الله تعالى !.

ورد تلمسان بعد العشرين ، ثم لم يزل بها إلى أن قُتِل يوم دخلت على بنى عبد الواد ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة .

قال لى الشيخ ابن مرزوق : ابتدأ أمر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد ، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر ، وختم بقتل أبى الحسن بن عثمان إياهم ، وهو بصفته المذكورة حَذْوَكَ النعل بالنعل ، فسبحان من دَقَّتْ حِكْمَتُهُ فى كل شىء!.

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى ومحمد بن عبد الرحمن ابن الحكيم الرندى فى رحلتهما على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك :

أنظر ففىَّ إليك اليومَ مُعْتَبر ... إن كنت ممن بعين الفكر قد لَحَظَا
بالأمس أدعى سعيداً، والورى خَوَلى ... واليوم يُدْعَى سعيداً مَنْ بىَ اتَّعظَا[1]

قال ابن حكم : كان أول اتصالى بالأستاذ أبى عبد الله بن آجروم أنى دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب « المفصل » فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت :

عَهِدِى به الحىَّ الجميعَ وفيهم ... قبلَ التفرق مَيْسِرٌ ونِدامُ[2]

وقد عُمِّى عليهم خبر « عهدى » فقلت له : قد سدت الحال ــ وهى الجملة بعده ــ

(١) الخول : الخدم ، وزنا ومعنى .

(٢) ندام : جمع نديم ، وهو المشارك لك فى الشراب ، ووزنه وزن كريم وكرام والرواية بنصب «الحى الجميع» على الحالية ، والجملة السادة مسد الخبر هى « وفيهم ميسر »

مسده ، فقال لى بعض الطلبة : وهل يكون هـذا فى الجملة كما كان فى قولك « ضربى زيداً قائماً » ؟ فقلت له : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »(١).

ذكر أبو زيد بن الإمام يومافى مجاسه أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون) فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج لو علم الله فيهم خيراً لتولوا ، وهو محال ، ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكم : قال الخونجى : والإهمال بإطلاق لفظ لو وإنْ فى المتصلة ، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان ، والمهملة فى قوة الجزئية ، ولا قياس عن جزئيتين ، فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين وأخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزمخشرى وغيره ، مما يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط ، قال لى : الجوابان فى المعنى سواء ، لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرور الوسط ، فأخبرت بذلك شيخنا الأبلى ، فقال : إنما يقوم القياس على الوسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ، ولا سالبتين ، إلى سائر ما يشترط ، فقلت : ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين ، قال الأبلى : وقد أجبت بجواب السلوى ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية لأن الشرطية لا تنتج جزئية ، فقلت : هذا فيما يساق منها للحجة ، مثل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أما فى مثل هذا فلا .

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن ابن فرحون نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين :

---

(١) نظيره قول الشاعر :

خير اقترابى من المولى حليف رضا   وشر بعدى عنه وهو غضبان

رأتْ قمرَ السماء فأذكرتنى ... ليالى وصلها بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا ولكن ... رأيت بعينها ورأت بعينى

ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهى تنظر إلى قمر السماء ، فهى تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة ، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة ، وأيضا فهو ينظر إلى قمر مجازا ، وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هو المجاز ، فقد رأت بعينه ، لأنها ناظرة المجاز .

قلت : ومن ههنا تعلم وجه الفاء فى قوله «فأذكرتنِي» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته ، وصار القمر حقيقة إياها ، كان قوله « رأت قمر السماء فأذكرتنى » بمثابة قولك أذكرتنى ، فتأمله فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حَقَّ الفهم ينشده « وأذكرتنى » فالفاء فى البيت الأوّل مَبْنية على معنى البيت الثانى ، لأنها مبنية عليه ، وهذا النحو يسمى الإيذان فى علم البيان .

ولما اجتمعنا بأبى الوليد بن هانىء مَقْدَمه علينا من غَرْناطة سأل ابن حكم عن تكرار مَنْ فى قوله تعالى (سواء مِنكم مَنْ أسر القول ومَنْ جَهَرَ به) دون ما بعدها فقال : لولا تكررها أوّلا لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان ، فارتفع بتكرار الموضوع (١) ، أما الآخر فقد تكرر الزمان ، فارتفع توهم التضاد ، فلم يحتج إلى زائد على ذلك ، فقلت : فهلا اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع ، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين ، وإنما الجواب عندى أنها تكررت أوّلا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه ، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأوّل مَعَ أمْنِ اللبس ، وقد أجاب الزمخشرى بغير هذين فانظره .

سألنى ابنُ حكم المذكور عن نسب المجيب فى هذا البيت :

---

(١) الموضوع : هو المحكوم عليه ، وهو هنا « من » الموصولة .

ومُهَفهف الاعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قَتْلُ المحب حرامُ

ففكرت ثم قلت : أراه تميميا ، لإلغائه « ما » النافية ، فاستحسنه منى لصغر سنى يومئذ .

تذاكرت يوما مع ابن حكم فى تكملة البدر بن محمد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه ، ففضلت عليه كلام أبيه ، ونازعنى الأستاذ ، فقلت :

* عهود من الآبا توارثها الأبنا *

فما رأيت بأسرع من أن قال :

* بنَوْا مَجْدَها لكن بنوهم لها أَبْنَى *

فبهتُّ من العجب .

وتوفى الشيخُ ابنُ مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمى ، فقيل : مات فيها إمام نحو ، وولد فيها إمام نحو .

سألت ابنَ حكم عن قول فخر الدين فى أوّل المحصل « وعندى أن شيئا منها غير مكتسب » بمعنى لا شىء ولا واحد ، هل له أصل فى العربية أو هو كما قيل مِنْ بقايا عجمته ؟ فقال لى : بل له أصل ، وقد حكى ابنُ مالك مثله عن العرب ، فلم يتفق أن أستوقفه عليه ، ثم لم أزل أستكشف عنه كلَّ من أظن أن لديه شيئا منه ، فلم أجد مَنْ عنده أثارة منه (١) ، حتى مر بى فى باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخل عليها « كان » من شرح التسهيل قوله « فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين نحو « علمت زيدا أبو مَنْ هو » اختير نصبه ، لأن الفعل مُسَلط عليه بلا مانع ، ويجوز رفعه ، لأنه والذى بعد الاستفهام شىء واحد فى المعنى فكأنه فى حيز الاستفهام ، والاستفهام مشتمل عليه ، وهو نظير قوله : إن أحد إلا يقول ذلك ، وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفى ، ولكن لما كان هنا والضمير

---

(١) يقال « ما عند فلان أثارة من علم » أى ما عنده بقية منه يرجع إليها .

المرفوع بالقول شيئا واحدا فى المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفى » فعلمت أنه نحا إلى هذا ، لأن شيئا ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفى فى المعنى شىء واحد ، فكان شيئا كأنه وقع بعد غير : أى بعد النفى .

سأل ابن فرحون ابن حكم : هل تجد فى التنزيل ست فاآت مرتبة ترتيبها فى هذا البيت .

رأى فحبَّ فرَام الوَصْل فامتنعت فسام صَبْرًا فأعيا نَيْله فقَضَى

ففكر ثم قال : نعم (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمونَ - إلى آخره) فمنعت له البناء فى (فتنادوا) فقال لابن فرحون : فهل عندك غيره ؟ فقال : نعم (فقال لهم رسول الله - إلى آخر السورة) فمنع له بناء الآخرة لقراءة الواو ، فقلت له : امنع ولا تسند فيقال لك : إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه ، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام : (فعلى الله توكلت - الآية) وكقول امرىء القيس *غشيت ديار الحى بالبكرات* البيتين[1] - لا يقال : فالحب سابع ، لأنا نقول : إنه عطف على «عاقل» المجرد منها ، ولعل حكمة الستة أنها أوّل الأعداد التامة ، كما قيل فى حكمة خلق السموات والأرض فيها ، وشأن اللسان عجيب .

وقوله فى هذا البيت « فحبَّ » لغة قليلة جرى عليها مَحْبُوب كثيرا ، حتى استغنى به عن مُحَبّ ، فلا تكاد تجده إلا فى قول عنترة :

وَلَقَدْ نزلتِ فلا تظنى غَيْرَه منى بمنزلة المحَبِّ المُكْرَم

ونظيره مَحْسُوس من حَسّ والأكثر أحَسَّ ولا تكاد تجد مُحَسًّا ، وهذا التوجيه

---

(١) البيتان هما قوله :

غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فبرقة العيرات

فغول فحليت فأكناف منعج إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

أحسن من قول القرافى فى شرح التنقيح « أجروا محْسُوسات مجرى معلومات »(١) لأن الحسَّ أحدُ طرق العلم .

سمعت ابن حكم يقول : بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له :

ابْعَثْ إلى بشىء مَدَارُ فاسٍ عليه
وليس عندك شىء مما أشير إليه

فبعث إليه ببطة من مرى ، يشير بذلك إلى الرياء .

وحدثت أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم حضر وليمة ، وكان كثير البلغم ، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضاراً من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء .

وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع فى الناس ، فناوله القاضى غضار المقروض ، فاستحسن الحاضرون فطنته .

أبو محمد عبدالله المجاصى

ومنهم عالم الصلحاء ، وصالح العلماء ، وجليس النزيل ، وحليف البكاء والعويل ، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصى .

خطيب جامع القصر الجديد ، وجامع خطتى التحديث والتجويد ، ويسميه أهل مكة البكاء ، ولما قدم أبو الحسن على بن موسى البحيرى سأل عنه ، فقيل له : لو علم بك أتاك ، فقال : أنا آتى من سمعت سيدى أبا زيد الهزميرى يقول له لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك : مرحباً بالفتى الخاشع ، أسمعنا من قراءتك الحسنة .

دخلت عليه بالفقيه أبى عبدالله السطى فى أيام عيد ، فقدم لنا طعاما ، فقلت : لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يرفع من حديثِ « مَنْ أكل مع مغفور له غُفِرَ له »

---

(١) يريد لما تشاركا فى المعنى شركوهما فى الاشتقاق ، ومن سنن العرب أن يحملوا الشىء على نظيره فى المعنى كما أن من سننهم أن يحملوا الشىء على نقيضه .

فتبسم وقال لى : دخلت على سيدى أبى عبد الله الفاسى بالإسكندرية ، فقدم طعاما فسألته عن هذا الحديث ، فقال : وقع فى نفسى منه شىء ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فسألته عنه ، فقال لى : لم أقله ، وأرجو أن يكون كذلك .

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أباسعيد عثمان بن عطية الصعيدى بمصافحته أبا العباس أحمد الملثم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسمعته يحدث عن شيخه أبى محمد الدلاصى أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله بالنداء باسمه ، و إنما كان ينعق بمماليكه : ياساقى ، ياطباخ ، يا مزين ، فنادى به ذات يوم : يا فراش ، فظن ذلك لموجِدَةٍ عليه[1] ، فلما لم ير أثر ذلك ، وتصورت له به خلوة ، سأله عن مخالفته لعادته معه ، فقال : لا عليك ، كنت حينئذ جنباً ، فكرهت ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة .

ومما نقلته من خط المجاصى ثم قرأته عليه فحدثنى به قال : حدثنى القاضى أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور قال : حدثنى جدى يحيى المذكور ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرى بتلمسان ، حدثنا الحافظ أبو محمد يعنى والله أعلم عبد الحق الإشبيلى ، أخبرنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل ، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبى الحسن بن خلف الألمعى ، أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى ، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى ، أخبرنا محمد بن على بن الحسين العلوى ، أخبرنا عبد الله بن إسحاق اللغوى وأنا سألته أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدى ، أخبرنا عبد الله بن نافع بن عيسى

(١) الموجدة - بفتح الميم وكسر الجيم بينهما واو ساكنة - الغضب والغيظ

ابن يونس عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لى جبريل : ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق له البحر ؟ قلت : بلى ، قال قل : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المُسْتَغَاثُ ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن مسعود : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تسلسل الحديث على ذلك ، كل أحد من رجاله يقول: ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان ، لشيخه ، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيراً ، وما تركتهن منذ سمعتهن منه .

وأنشدنى المجاصى قال : أنشدنى نجم الدين الواسطى ، أنشدنى شرف الدين الدمياطى ، أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف الحاصل ، قال : أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه :

نهاية إقدام العُقُول عِقَالُ وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذًى ووَبَالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجال قد رأينا ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا[1]
وكم من جبال قد عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رجالٌ فماتوا والجبال جبال[2]

وتوفى المجاصى فى العشر الأخر من شهر ربيع الأول ، عام أحد وأربعين وستمائة .

أبو على حسن ابن يوسف الحسينى السبتى

ومنهم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر أبو على حسن بن يوسف ابن يحيى الحسينى السبتى :

---

(١) بادوا : هلكوا

(٢) شرفاتها : جمع شرفة ، وهى هنا قلة الجبل

أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع وأبا القاسم الغرفى ، واختص بابن عبيدة وابن الشاط ، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن دقيق العيد وحَلْبَته ، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين ، أو ثلاث وخمسين وسبعمائة ، قرأ علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه : حدثنا الحسن بن على بن عيسى ابن الحسن اللخمى ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا على بن المظفر بن القاسم الدمشقى ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن ابن أبى العز الواسطى ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو العز عبد المغيث ابن زهير ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى ، وهو أول حديث سمعته منه (ح) . قال الحسن بن على : وحدثنا أيضاً عاليا الحسنُ ابن محمد البكرى ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد ابن محمد بن الجنيد الصوفى ، وهوأول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى الفضائل عبد الوهاب بن صالح عُرف بابن المغرم إمام جامع همذان بها ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبومنصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك ، وهو أول حديث سمعته منه ، حفظا ، أخبرنا أبوالطاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنة ، وهو أول حديث سمعته منه ، عن عمرو ابن دينار ، عن أبى قابوس مَوْلًى لعبد الله بن عمرو بن العاص ، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مَنْ فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

(ح) وحدثني الشريف أيضاً كذلك بطريقه عن السِّلفي بأحاديثه المشهورة فيه . وهذا الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، قال لي الشريف : قال لي القاضي أبو العباس الرندي : لما قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية نزل بجاية ، فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض ، وقد حسنت شارته وكملت هيأته ، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لَبِسَ البرنُسَ الفقيهُ فباهى ورأى أنه المليح فتَاهَا[1]
لو زليخا رأته حين تبَدَّى لتمنته أن يكون فتاها[2]

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة ، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يُهِلوه[3] ، وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهَلَّه ، فردهم معه ، فأراهم إياه ، فقال : ما أشبه الليلة بالبارحة .

وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع بن سالم ، فأنشدنا فيه :

توارى هلال الأفق عن أعْيُن الورى وأرخى حجاب الغَيْم دون مُحيَّاه
فلما تصدى لارتقاب شقيقه تَبَدَّى له دون الأنام فحياه

سمعت الشريف يقول : أول زجل عمل في الدنيا :

بالله يا طير مدلل مُرَّبي وسط القفار
إياك تجدد لعاده ترمي حجيرة في داري

أبو عبد الله محمد بن منصور القرشي

ومنهم قاضي جماعتها ، وكاتب خلافتها ، وخطيب جامعها ، أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي .

من ولد عقبة بن نافع الفِهْرِي ، نزلها سلفه قديما ، وخَلَفُه بها إلى الآن ، توفي في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وشهد جنازته سلطانها يومئذ

(١) تاها : فعل ماض من التيه ، والألف للاطلاق

(٢) فتاها : غلامها ، وعبر القرآن عن يوسف بذلك في قوله : (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

(٣) لم يهلوه : لم يروه

أبو تاشفين ، وولى ابنه أبا على منصوراً مكانه يومئذ ، ولما ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له : أُكتب هذيذ البيتين فإنى نظمتهما على هذه الحالة ، فكتب :

إلٰهى مضت للعمر سبعون حجة جنيت بها لما جنيت الدواهيا[١]
وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجدلى برُحْمَى منك، نِعْمَ الدَّوَاهيا[٢]

ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد المَكُودى من المغرب رفع إليه قصيدة أولها :

سَرَتْ والدجى لم يبق إلا يسيرها نسيمُ صَباً يحيى القلوبَ مسيرُها

وفيها الأبيات العجاب التى سارت سير الأمثال ، وهى قوله :

وفى الكِلَّة الحمراء حَمْرَاء لو بدت لثَكْلَى لولَّى ثُكلُها وثُبُورُهَا
فما يستوى مَثْوًى لهامن سوى القنا خيام، ومن بيض الصفاح ستورها
وما بسوى صدق الغرام أرومها ولا بسوى زَوْرِ الخيال أزورها

فأحسن إليه ، وكلم السلطان حتى أرسل جِرَايته عليه ، وقد شهدت المكودى وهذه القصيدة تقرأ عليه .

أبو عبدالله محمد ابن أحمد التميمى

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى .

أدرك ابن زيتون ، وأخذ عن أبى الطاهر بن سرور وحَلبته ، وعنه أخذت شرح المعالم له ، وولى القضاء بتلمسان مرات ، فلم تستفزه الدنيا ، ولا باع الفقر بالغنى .

أبو عبدالله محمد ابن عبد الله ابن عبدالنور

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور .

قاضى الجماعة بعد ابن أبى عمرو ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، لقى بها جلال الدين القزْوينى وحَلبته ، وتوفى بتونس فى الوباء العام فى حدود الخمسين وسبعمائة

(١) الدواهى ، فى هذا البيت : جمع داهية

(٢) الدواهى ، فى هذا البيت : مؤلفة من كلمتين : أولاهما الدوا ، وأصلها الدواء فخذف الهمزة ، والثانية «هى» المخصوص بالمدح ، كأنه قال : نعم الدواء هى

أبو عبدالله محمد ابن الحسين البرونى

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسين البرونى .

قدم علينا من الأندلس ، فأقام إلى أن مات ، سمعته يقول : البقر العدوية(١) كالإبل المهملة فى الصحراء ، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها ، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها .

أبو عمران موسى المصمودى (البخارى)

ومنهم أبو عمران موسى المصمودى ، الشهير بالبخارى .

سمعت البرونى يقول : كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخارى، ورفيق له يدرس صحيح مسلم ، فكانا يعرفان بالبخارى ومسلم ، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران : أتمكنه من الإعذار فى الصحيحين ؟ فضحك القاضى ، وأصلح بين الخصمين .

سألته عما ضرب به ابن هدية عليه من إباحة الاستياك فى رمضان بقشر الجوز ، فقال لى : نعم ، ويبلع ريقه ، تأول رحمه الله تعالى ، أن الخصال المذكورة فى السواك إنما تجتمع فى الجوز ، فكان يحمل كل ماروى فيه عليه ، وهذا غلط فاحش ، لأن العرب لا تكاد تعرفه ، ونظر إلى مافى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم « ولا بأس أن يبتلع ريقه » يعنى الصائم فى الجملة ، فحمله على المستاك بالجوز ، وكان رحمه الله تعالى قليل الإصابة فى الفتيا ، كثير المصائب عليها .

أبو عبدالله محمد ابن يحي بن النجار

ومنهم نادرة الأعصار: أبوعبدالله محمد بن يحي بن على بن النجار .

قال لى العلامة الأبلى : ما قرأ أحد على حتى قلت له : لم أبقِ عندى ماأقول لك غير ابن النجار .

سمعت ابن النجار يقول : مر عمل الموقِّتين على تساوى فضلتى مابين المغرب والعشاء والفجر والشمس ، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة ، و بالفجر

(١) لعله أراد البقر الوحشية ، لأنها غير مقدورة على تسليمها ، كالطير فى الهواء والسمك فى الماء ، كل ذلك لا يجوز بيعه ، إلا أن يصاد ويصير فى يد البائع مقدورا على تسليمه للمشترى .

لبقائها ، والجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة ، وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر ؛ لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع ، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس ، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبى زيد عبد الرحمن ابن سليمان اللجائى ، فصوبه .

وذكرت يوماً حكاية ابن رشد الاتفاقَ فى الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر ، واعترضته بما فى الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر ، فقال لى : لا معتبر بقول ابن وضاح هذا ؛ لأنه يلزم عليه تحريم الخل ؛ لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمراً ، وفيه بحث .

وذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة « وهى أصول وفصول ، وفصول أول أصوله ، وأول فصل من كل أصل و إن علا » فقال : إن تركَّبَ لفظُ التسمية العرفية من الطرفين حلت ، و إلا حرمت ، فتأملته فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة : التركب من الطرفين كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت ، التركب من قبل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت والخالة .

وأنشدت يوماً عنده على زيادة اللام :

* بَا عَدَ أمَّ العَمْرِ و من أسيرها[1] * البيت

فقال لى : وما يدريك أنه أراد العَمْرَ الذى أراده المعرى بقوله :

وعَمْرِ هِنْدٍ كأن الله صوره عمرو بن هند يُعَنِّى الناس تعنيتا

وأضاف اللام إليه كما قالوا : أم الحليس ، قلت : ولا يندفع هذا بثبوت كون

(١) هذا بيت من الرجز المشطور ، وبعده * حراس أبواب على قصورها * والنحاة يقررون أنه إذا حصل اشتراك فى الأعلام أشبهت النكرات فجاز دخول « ال » عليها كما فى هذا البيت ، وجاز أن تضاف كما فى قول الشاعر :

علا زيدنا يوم النقا رأس زيدكم بأبيض ماضى الشفرتين يمان

المغنية تكنى أم عمرو ؛ لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر ، فتكون : أم عمرو ، وأم العمر .

قال ابن النجار : بعثت بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد الله ابن هدية فأخرج لغزها :

إن حروف اسم مَنْ كلفت به خَفَّتْ على كُلِّ ناطق بفَمِ (١)
سائغة سَهْلة مَخَارجها من أجل هذا تَزْدَادُ في الكلم
صَحِّفْهُ ثم أقلبَنْ مُصَحَّفه فعلَ ذكيٍّ مهذب فَهِمِ
واطلبه في الشعر جد مطابه تجده كالصبح لاح في الظُّلَم
فإن تأملت بِتَّ منه على علم ، وإلا فأنت عنه عَمِي

واللغز «سلمان» وموضعه تأملت بت، وتوفي رحمه الله تعالى بتونس أيام الوباء العام

ومنهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سبع ابن مزاحم المكناسي .

أبو الحسن علي بن أبي بكر المكناسي

ورد علينا من المشرق ، فأقام معنا أعواماً ، ثم رحل إلى فاس ، فتوفي بها في الوباء العام ، جمعت عليه السبع ، وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير ذلك، فأما البخاري فحدثني به قراءةً منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين وسبعمائة ، وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة ، وهذا مالا يعرف له نظير في الإسلام ، وقد قال عبد الغني الحافظ : لا نعرف في الإسلام مَنْ وازاه (٢) عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع ، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلثمائة ، قال ابن خلاد : سمعناه يقول : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين ، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده ، قال لي ابن مزاحم : هذا

---

(١) كلفت به : تعشقته .

(٢) وازاه : ساواه ، وأراد أن يكون بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم عدد من الرواة كالعدد الذي بين البغوي وبين الرسول .

طريق كله سماع ، وأما الشاطبيتان فحدثنى بهما قراءةً عليه لجميعهما عن بَدْر الدين ابن جماعة ، بقراءتهما عليه عن أبى الفضل هبة الله بن الأزرق ، بقراءتهما عليه عن المؤلف كذلك ، وحدثنى بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك ، وغير ذلك .

أبو عبد الله محمد بن حسين الزبيدى

وممن ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخى و بركتى وقُدْوَتى أبو عبد الله محمد ابن حسين القرشى الز بيدى التونسى .

حدثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما ومُنَاولة لجميعهما ، عن أبى اليمن بن عساكر لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور ، وحدثنى أيضاً أن أبا منصور العجمى حدثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمه حسن وأثنى عليه ديناً وفضلا أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المُعمَّر أدخله عليه بعض ولد ولده ، فألفاه ملفوفا فى قطن ، وسمع له دويًّا كدوىِّ النحل ، فقيل له : ألقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيته ؟ قال : نعم ، قلت : ليس فى هـذا ما يُسْتَرَاب منه إلا الشيخ المعمر ، فإنا لا نعرف حاله ، فإن صح فحديثنا عنه ثلاثى ، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان معه تسعون حديثاً يزعم أنه سمعها من المعمر وقد أخذت عنـه ، وكتبت منه ، فهذا ثُنَائى ، وأمر المعمر غريب ، والنفس أميل إلى نفيه .

أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى

ومنهم إمام الحديث والعربية ، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية ، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتى .

جمع فأوعى ، واستوهب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن ، سألنى عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس ، فقلت له : زعم الخسروشاهى

---

(١) المناولة : ضرب من ضروب الرواية ، وحاصلها أن يناول الشيخ كتاب سماعه إلى تلميذه ويأذن له بروايته عنه ، ولا يكفى مجرد إعطائه الكتاب ، بل لابد من الإذن .

أنه ليس بالديار المصرية مَنْ يعرفه غيره ، وأنا أقول : ليس فى الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غيره ؛ لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعَدْل عُمَراً ونحوه ، فاستحسن ذلك .

وكان ينكر إضافة الحَوْل إلى الله عز وجل ، فلا يجيز أن يقال « بحول الله وقوته » قال : لأنه لم يَرِدْ إطلاقه[1] ، والمعنى يقتضى امتناعه ؛ لأن الحَوْل كالحيلة أو قريب منها .

وتوفى بتونس أيام الوباء العام .

أبو عبد الله محمد بن سليمان السطى

ومنهم الفقيه المحقق الفَرَضى المدقق أبو عبد الله محمد بن سليمان بن على السطى

قرأت عليه كتاب الحوفى علما وعملا ، قال لى فى قول ابن الحاجب « والثمن والثلث والسدس من أربعة وعشرين » : هذا لا يصح ؛ إذ لا يجتمع الثلث والثمن فى فريضة ، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحبُ المقدمات ، وسألت عنه ابن الأبار فقال لى : إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين ، والإنصاف أنه لا يَحْسُن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره ، فكان الوجه أن يقول : والثلثان ، أو ومقام الثلث ، أو نحو ذلك ، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديراً لا تحقيقاً كما فى الجواهر ، وانظر باب المدبر من كتاب الحوفى ، فإن فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض ، وعليه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب .

جماعة من شيوخ المقرى

ومنهم الأستاذ أبو عبد الله الرندى ، والقاضى أبو عبد الله محمد بن على ابن عبد الرزاق الجزولى ، والقاضى أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى يحيى ، فى كثير من الخلق ، فلنضرب عن هذا .

---

(١) إطلاق الأسماء على الله تعالى مختلف فيه بين العلماء ، فقال قوم : هو توقيفي لا يجوز أن يطلق منها شيء عليه سبحانه إلا إذا أذن فيه الشارع ، وقال آخرون : لا يتوقف على الإذن الخاص ، ولكن إذا دل على كمال محض جاز إطلاقه .

أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم

ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم بن على الخياط .

أدرك أبا إسحاق الطيار ، وقد صافحته وأنا صغير ، لأنه توفى سنة تسع وعشرين ، بمصافحته أباه ، بمصافحته الشيخ أبا تميم ، بمصافحته أبا مدين ، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم ، بمصافحته ابن العربى ، بمصافحته الغزالى ، بمصافحته أبا المعالى ، بمصافحته أبا طالب المكى ، بمصافحته أبا محمد الجريرى ، بمصافحته الجُنَيْد ، بمصافحته سريًّا ، بمصافحته معروفاً ، بمصافحته داود الطائى ، بمصافحته حبيبا العجمى ، بمصافحته الحسن البصرى ، بمصافحته على بن أبى طالب ، بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو عبد الله محمد بن علي ابن الجمال

ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد الله محمد بن على بن الجمال .

أدرك محمد بن رشيد البغدادى صاحب الزهر والوتريات على حروف المعجم المذهبة وغيرها ، حدثنى عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمان سبعون رجلا .

ابنا أبي عبد الله ابن مرزوق

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان أبو عبد الله محمد ، وأبو العباس أحمد ، أبنا ولى الله أبى عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق العجيسى .

كسانى محمد خرقة التصوف بيده ، كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشى خادم الشيخ أبى مدين ، كما كساه أبو مدين ، قال محمد بن مرزوق : وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وخدم أبا مدين نحوا من خمسة عشر عاما ، إلى أن توفى فى عام تسعين وخمسمائة ، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة ، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم ، وليس ابن حرزهم من يد ابن العربى ، واتصل اللباس اتصال المصافحة .

أبو زيد الصنهاجى

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن على الصنهاجى المكتب ، حدثنا عن قاضيها أبى زيد عبد الرحمن بن على الدكالى أنه اختصم عنده رجلان فى شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادعى الآخر أنها ضاعت منه ، فأوجب اليمين على المودع عنده ، أنها ضاعت من غير تضييع ، فقال : كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها ؟ فحكم عليه بالغرم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : تأوّلت قول عمر « ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد الغزمونى .

أبو عبد الله محمد بن محمد الغزمونى

مكتبى الأول ، ووسيلتى إلى الله عز وجل ، قرأ على الشيخين أبى عبد الله القصرى وأبى حريث ، وحج حجات ، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيونا سافر إلى الحج ، وكان بصيراً بتعبير الرؤيا[1] ، فمن عجائب شأنه فيه أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تلمسان أيامَ محاصرته لها ، فرأى أبو جمعة بن على التلائسى الجرائحى منهم كأنه قائم على ساقية دائرة وجميعُ قواديسها يصب فى نقير فى وسطها ، فجاء ليشرب ، فلما اغترف الماء إذا فيه فَرْثٌ ودم فأرسله ، ثم اغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، فعدل عنه ، فرأى حصة ماء وشرب منها ، ثم استيقظ وهو النهار ، فأخبره ، وقال : إن صدقت رؤياك فنحن عما قليل خارجون من هذا المكان ، قال : كيف ؟ قال : الساقية الزمان ، والنقير السلطان ، وأنت جرائحى تدخل يدك فى جوفه فينالها الفرثُ والدم ، وهذا ما لا تحتاج معه ، فلم يكن إلا ضحوة النهار ، وإذا النداء عليه ، فأخرج فوجد السلطان مطعوناً بخنجر ، فأدخل يده فنالها الفرث والدم ، فخاط جراحته ، ثم خرج ، فرأى حصة ماء ، فغسل يديه وشرب ،

---

(١) تعبير الرؤيا : تفسير ما تدل عليه . وفى القرآن الكريم (أنبئونى بتأويله إن كنتم للرؤيا تعبرون)

ثم لم يلبث السلطان أن توفى ، وسُرِّحُوا .

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر ، فلنصفح عنهم (١) ، ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا ، والآخر نادرتها .

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدرى

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدرى الأبلى ، التلمسانى .

سمع جده لأمه أبا الحسين بن غَلْبُون المُرْسى القاضى بتلمسان ، وأخذ عن فُقَهائها أبى الحسين التنسى وابنى الإمام ، ورحل فى آخر المائة السابعة فدخل مصر والشام والحجاز والعراق ، ثم قفل (٢) إلى المغرب فأقام بتلمسان مدة ، ثم فر أيام أبى حم موسى بن عثمان إلى المغرب .

حدثنى أنه لقى أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبى عثمان المتقدم ذكره ، فشكا له ما يتوقعه من شر أبى حم ، فقال له : عليك بالجبل ، فلم يدر ما قال ، حتى تعرض له رجل من غمارة ، فعرض عليه الهروب به ، قال : فخفت أن يكون أبو حم قد دَسَّه على ، فتنكرت له ، فقال لى : إنما أسير بك على الجبل ، فتذكرت قول أبى إسحاق ، فواطأته ، وكان خَلَاصى على يده ، قال : ولقد وجدت العَطَشَ فى بعض مسيرى به ، حتى غلظ لسانى واضطربت ركبتاى ، فقال لى : إن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك ، فكنت أقوّى نفسى ، فمر على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس ، وتوسُّله به ، فوالله ما قلت شيئاً حتى رفع لى غدير ماء ، فأريته إياه ، فشر بنا ونهضنا .

ولما دخل المغرب أدرك أبا العباس بن البناء ، فأخذ عنه ، وشافَهَ كثيراً من علمائه ، قال لى : قلت لأبى الحسن الصغير : ما قولك فى المهدى ؟ فقال : عالم

---

(١) نصفح عنها : نضرب عن ذكرهم

(٢) قفل إلى المغرب : رجع

سلطان ، فقلت له : قد أبنت عن مرادى ، ثم سكن جبال الموحِّدين ، ثم رجع إلى فاس ، فلما افتتحت تِلِمْسَان لقيته بها ، فأخذت عنه ، فقال لى الأبلى : كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى ، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها :

خيراتُ ما تَحْوِيه مبذولة ومطلبى تصحيف مقلوبها

فقال لى : ما مطلبه ؟ فقلت : نارنج .

دخل على الأبلى وأنا عنده بتلمسان الشيخُ أبو عبد الله الدباغ المالقى المتطبب فأخبرنا أن أديباً اسْتَجْدَى وزيراً بهذا الشطر :

* ثم حبيب قلما ينصف *

فأخذته فكتبته ، ثم قلبته وصحفته ، فإذا هو : قصبتا ملف شحمى .

ومر الدباغ علينا يوما بفاس ، فدعاه الشيخ ، فلباه ، فقال : حدثنا بحديث اللطافة ، فقال : نعم ، حدثنى أبو زكريا بن السراج الكاتب بسجلماسة أن أبا إسحاق التلمسانى وصهره مالك بن المرحل ، وكان ابن السراج قد لقيهما ، اصطحبا فى مسير ، فآواهما الليلُ إلى مجشر ، فسألا عن صاحبه ، فدُلاَّ ، فاستضافاه فأضافهما ، فبسط قطيفة بيضاء ، ثم عطف عليهما بخبز ولبن ، وقال لهما : استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما ، وانصرف ، فتحاورا فى اسم اللطافة لأى شىء هو منهما حتى ناما ، فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول : قد وجدت اللطافة ، قال : كيف ؟ قال : أبعدت فى طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوى فضلا عن أن يراه ، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة :

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانه عَنَمٌ يَكَادُ من اللطافة يعقد(١)

(١) مخضب : أراد مخضوبا بالحناء ، والرخص ـ بفتح الراء وسكون الخاء ـ الناعم الطرى ، وبنانه : أراد أطرافه ، والعنم ـ بفتح العين والنون جميعا ـ شجر لين الأغصان تشبه به أصابع الجوارى ، وقيل : نبت

فسنح لبالى أنه وجد اللطافة ، وعليها مكتوب بالخط الرقيق اللَّيِّن ، فجعل إحدى النقطتين للطاء فصارت اللطافةَ اللظافةُ واللين اللبن وإن كان قد صحف غنم بغنم ، وظن أن يعقد جبن ، فقد قوى عنده الوهم ، فقال أبو إسحاق : ما خرجت عن صوبه ، فلما جاء سألاه ، فأخبر أنها اللبن ، واستشهد بالبيت كما قال مالك .

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاساً شَيْخُنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى عرف بابن المسفر ، رسولا عن صاحب بجاية فزارة ، فزاره الطلبة ، فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع فى تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ، ويستشكله الشيخ معهم ، وهذا نصه : ثبت فى بعض العلوم العقلية أن المركب مثلُ البسيط فى الجنس ، والبسيط مثل المركب فى الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل ، فرجعوا به إلى الشيخ الأبلى ، فتأمله ثم قال : هذا كلام مصحف ، وأصله أن المركب قبل البسيط فى الحس ، والبسيط قبل المركب فى العقل ، وأن الحس أقوى من العقل ، فاخبروا ابن مسفر ، فلج ، فقال لهم الشيخ : التمسوا النسخ ، فوجدوه فى بعضها كما قال الشيخ ، والله يؤتى فضله من يشاء .

قال لى الأبلى : لما نزلت تازى بت مع أبى الحسن بن برّى وأبى عبد الله النزجالى ، فاحتجت إلى النوم ، وكرهت قطعهما عن الكلام ، فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعرى :

أقولُ لعبد الله لَمَّا سقاؤُنَا ونحن بوادى عبد شمس وَهَاشِمِ (١)

فجعلا يفكران فيه ، فنمت حتى أصبحا ، ولم يجداه ، فسألانى عنه ، فقلت : معناه أقول لعبد الله لما وَهَى سقاؤُنا ، ونحن بوادى عبد شمس : شم لنا بَرْقاً . قلت : وفى جواز مثل هذا نظر .

---

(١) « وهاشم » مؤلف من فعلين كما سيفسره : الأول « وهى » ومعناه ضعف ورق وتخرق ، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى « سقاؤنا » والثانى « شم » وهو فعل أمر من « شام البرق يشيمه » إذا نظر أين يمطر

سمعت الأبلي يقول : دخل قطبُ الدين الشيرازي والدنيران على أفضل الدين الخونجي ببلده ، وقد تزيّيَا بزي القونوية ، فسأله أحدهما عن مسألة ، فأجابه فتعايا عن الفهم ، وقرب التقرير ، فتعايا ، فقال الخونجي متمثلا :

عَلَيَّ نحتُ المعاني من مَعَادنها وما علي لكم أن تفهَمَ الْبَقَرُ

فقال له : ضم التاء يامولانا ، فعرفهما ، فحملهما إلى بيته .

قلت : سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول : إن شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعمائة ، وله سبع وسبعون سنة ، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي .

سمعت الأبلي يقول : إن الخونجي ولي قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام ، فقدم شاهداً كان عز الدين أخره ، فعذله في ذلك ، فقال : إن مولانا لم يذكر السبب الذي رفع يدَه من أجله ، وهو الآن غير متمكن من ذكره .

سمعت الشيخ الأبلي يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين ، وتملك الططر للعراق ، واستعمال الحشيشة .

سمعت الأبلي يقول : قال أبو المطرف بن عميرة :

فَضَلَ الجمالُ على الكمال بوجهه فالحق لا يخفى على من وسطه
و بطَرْفه سَقَم وسحر قد أتى مستظهرا بهما على ما استنبطه[1]
عجبا له برهانه بشروطه معه فما مقصوده بالسفسطه

قال : فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال :

علم التباين في النفوس وأنها منها مغلطة وغير مغلطه

---

(١) مستظهرا : أراد متقويا ، والأصل في هذه المادة ظهارة الثوب لأنها تكون قوة لبطانته

فئة رأت وجـــه الدليل وفرقة أصغت إلى الشبهات فهى مُوَرَّطه
فأراد جمعهما معـــا فى ملكه هـــذى بمنتجة وذى بمغلطه(١)

يعنى قولهم فى التام : هو ما تحمل فيه البرهان الفصل .

وأخبار الأبلى وأسْمِعَتِى منه تحتمل كتابا ، فلنقف على هذا القدر منها .

أبو عبد الله ابن شاطر الجمحى

وأما النادرة فأبو عبد الله بن أحمد بن شاطر الجمحى المراكشى .

صحب أبازيد الهزميرى كثيرا ، وأباعبدالله بن تيجان ، وأبا العباس بن البناء وأضرابه من المراكشيين ومن جاورهم ، ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول ، فلا تكاد تجد من يستثقله ، وربما سُئل عن نفسه فيقول : ولى مفسود .

قلت له يوما : كيف أنت ؟ فقال : محبوس فى الروح ، وقال : الليل والنهار حرسيان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخذا بمجامع الخلق يجُرَّانهم إلى القيامة ، وإن مَرَدَّنا إلى الله تعالى .

وسمعته يقول : المؤذنون يَدْعُون أولياء الله إلى بيته لعبادته ، فلا يصدهم عن دعائهم ظُلْمة ولا شـــتاء ولا طين ، ويصرفونهم عن الاشتغال بعالم يبين لهم ، فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم .

ووجدته ذات يوم فى المسجد ذاكرا ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال (فهم فى روضة يُحْبَرون) فهممت بالانصراف ، فقال : أين تذهب من روضة من رياض الجنه يقام بها على رأسك بهذا التاج ؟ وأشار إلى المنار مملوأ الله أكبر .

مَرَّ ابن شاطر يوما على أبى العباس أحمد بن شعيب الكاتب وهو جالس فى جامع الجزيرة ، طهره الله تعالى ! وقد ذهبت به الكفرة ، فصاح به ، فلما رفع

---

(١) مغلطة : استعمل فيها المغالطة ، والمغالطة ، قياس فاسد إما من جهة صورته بألا يكون على صورة منتجة كأن يختل شرط من شروط الكمية (الكلية ، أو الجزئية) أو شرط من شروط الكيفية (السلب أو الإيجاب) وإما فاسد من جهة المادة بأن يكون المطلوب وأحد مقدماته شيئا واحدا ، ويسمى الأخير « مصادرة »

رأسه إليه قال له : انظر إلى مَرْكَب عزرائيل ، وأشار إلى نعش هنالك قد رفع شراعه ونودى عليه الطلوع يا غزى .

وأكل يوما مع أبى القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلانا ، فقال له أبو القاسم : إن فى هذ الجلجلان لضربا من طعم اللوز ، فقال ابن شاطر : وهل الجلجلان إلا لوزة دقة .

وسئل عن العلة فى نَضَارة الحَدَاثة ، فقال : قُرْبُ عهدها بالله ، فقيل له : فم تغير الشيوخ ؟ فقال : من بُعْدِ العهد من الله ، وطول الصحبة مع الشياطين ، فقيل له : فبَخَرُ أفواهم ؟ فقال : من كثرة ما تفَلَ الشياطين فيها .

وكان يسمى الصغير : فأر المصطكى ، قال لى ابن شاطر : لقيت عمى ميمونا المعروف بدبير لقرب موته وقد اُصفر وجهه وتغيرت حالته ، فقلت له : ما بالك ؟ وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول ، فقال : انسدَّتِ الزر بطانَةُ فطلع، يعنى العذرة ، يشير إلى الاحتقان للطبيعة .

أنشدنى ابن شاطر قال : أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه :

* قصدت إلى الوَجَازة فى كلامى *[1] الأبيات .

وأخبار ابن شاطر عندى تحتمل كراسة ، فلنقنع منها بهذا القدر .

فصل ـ ولما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها ، فرحلت إلى بجاية ، فقليت بها أعلاما دَرَجوا فأمست بعدهم خلاء بَلْقَعاً[2] ، فمنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى ، عرف بابن المسفر ، باحثته واستفدت منه ، وسألنى عن اسم كتاب الجوهرى فقلت له : من الناس من يقول الصِّحاح بالكسر ومنهم من يفتح ، فقال : إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح ، كما ذكره فى باب صح ، قلت :

---

(١) الوجازة ـ بفتح الواو ـ الاختصار .

(٢) بلقعا ـ بزنة جعفر ـ خالية لا أحد فيها .

ويحتمل أن يكون مصدر صح كحنان .

وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدّره بهذين البيتين :

وصلت صحيفتكم فهزت مِعْطَفِى … فكأنما أهدت كؤسَ القَرْقَفِ [(١)]

وكأنها ليل الأمان لخائف … أو وَصْلُ محبوب لصَبٍّ مُدْنَفِ [(٢)]

ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبى يوسف يعقوب الزواوى .

فقيهٌ ابنُ فقيه ، كان يقول : مَنْ عرف ابن الحاجب اقرأ به المدّونة قال : وأنا أقرأ به المدونة .

ومنهم أبو على حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين .

ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران ، وكان قدورد تلمسان ، وأورد بها على قول ابن الحاجب فى حد العلم «صفة توجب تمييزا لايحتمل النقيض» الخاصة إلا أن يزاد فى الحد « لمن قامت به » لأنها إنما توجب فيه تميزا لا تمييزا ، وهذا حسن .

ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى بن فرحان ، وغيرهم من أهل عصرهم.

ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضى الجماعة وفقيهَهَا أبا عبد الله بن عبدالسلام ، فحضرت تدريسه ، وأكثرت مباحثته ، ولما نزلت بظاهر قسطينة تلقانى رجل من الطلبة ، فسألنى عن هذه الآية (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط : أى وإن لم تبلغ فما بلغت ، وذلك غير مفيد ، فقلت : بل هو مفيد ، أى : وإن لم تبلغ فى المستقبل لم ينفعك تبليغك فى الماضى ، لارتباط أول الرسالة بآخرها ، كالصلاة ونحوها ، بدليل قصة يونس ، فعبر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه ، إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه، كقوله

---

(١) القرقف ـ بفتح القافين بينهما راء ساكنة ـ الخمر .

(٢) الصب ـ بفتح الصاد وتشديد الباء ـ العاشق ، والمدنف : المريض من العشق

عليه الصلاة والسلام « لا صلاة إلا بطَهُور » ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بوقير بتونس ، فسألته عن ذلك ، فلم يزد على أن قال : هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله »(١) وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين فيه . قلت : كلام تقي الدين لا يعطى الجواب عن الآية ، فتأمله .

وقاضي المناكح أبا محمد الأجمي ، وهو حافظ فقهائها في وقته ، والفقيه أبا عبد الله بن هرون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول ، والخطيب أبا عبد الله ابن عبد الستار ، وحضرت تدريسه بمدرسة المعرض ، والعلامة أبا عبد الله ابن الجياب الكاتب ، والفقيه أبا عبد الله بن سلمة ، والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية ، ورأيت الشيخ ابن الشيخ المرجاني ، فحدثني أبو موسى بن الإمام أنه أشبه به من الغراب بالغُرَاب ،وسيدي أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره ، وأوقفني على خطأ في كتاب الصِّحاح ، وذلك أنه زعم أن السالم جلدةٌ ما بين العين والأنف ، قال : وفيه يقول ابن عمر في ابنه سالم :

يُدِيرُونني عن سالم وأديرهم وجِلْدَةُ بين الأنف والعين سالم(٢)

قال : وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج « أنت مني كسالم » وهو خطأ فاحش ، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضاً ، لقوله عليه السلام « عمارة جلدة

---

(١) مما وجه به هذا الحديث أن لكل من الشرط والجزاء متعلقا محذوفا ، وأن متعلق أحدهما يخالف متعلق الآخر ، وأن اختلاف المتعلقين هو الذى يصحح جعل أحدهما سببا والآخر مسببا ، وكأنه قيل : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله عملاونية فهجرته إلى الله ورسوله ثوابا وأجرا .

(٢) يديرونني : أراد أنهم يحاولون أن يلفتوه عن ابنه سالم ويحولوا قلبه عن محبته ، في حين أن سالما مني بمنزلة الجلدة التي بين العين والأنف ، وهذه ــ على ما يقال ــ من أدق أجزاء البدن حساسية .

ما بين عينى وأنفى » وإنما يُرَاد بمثل هذا القرب والتحمد

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم ، ثم قفلت إلى المغرب يُسَايرنى رجل من أهل قسطينة يعرف بمنصور الحلبى ، فما رأيت رجلا أكثر أخباراً ولا أظرف نوادر منه ، فمما حفظته من حديثه أن رجلا من الأدباء مر برجل من الغرباء ، وقد قام بين ستة أطفال ، جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله ، وأخذ ينشد :

ما كنت أحسب أن أبْقَى كذا أبداً   أعيش والدهر فى أطرافه حتف
ساس بستة أطفال توسطهم   شخصى كأحرف ساس وسطها ألف

قال : فتقدمت إليه وقلت : فأين تعريقة السين ، فقال : طالب ورب الكعبة ، ثم قال للآخر من جهة يمينه : قم ، فقام يجر رجله كأنه مبطول ، فقال : هذا تمام تعريقة السين .

ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب ، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم البرناسى ، والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتى ، والشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى ، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله اليالصونى ، وكان حافظ وقته ، والفقيه أبا عبد الله بن عبد الكريم ، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولى ، والأستاذ أبا العباس المكناسى ، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس بن حزب الله ، والأستاذ أبا عبد الله القصار بتلمسان ، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم ، وكنت قد لقيت بتازى الفقيهَ أبا عبد الله بن عطية ، والأستاذ أبا عبد الله المجاصى ، والشيخ أبا الحسين الجيار ، وغيرهم .

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات ، ثم وصلت إلى سبتة ، فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد مَنْ لابُدَّ من لقائه من علمائه وصلحائه ، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله تعالى ، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز ، فلقيت بمصر الأستاذ

أثير الدين أبا حيان الغرناطي (١) ، فرويت عنه ، واستفدت منه ، وشمس الدين الأصبهان الآخر ، وشمس الدين بن عدلان ، وقرأ على بعض شروحه لكتب المزنى ، وناولنى إياه ، وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها ، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها ، وتاج الدين التبريزى الأصم ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم

ثم حججت فلقيت بمكة إمام الوقت أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزرى المعروف بخليل ، وسألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن مُحَسِّرٍ لأحرك فيه على الجمل ، فقال لى : تمالأ الناس على ترك هذه السنة ، حتى نسى بتركها محلها ، والأقرب أنه هذا ، وأشار إلى ما يلى الجابية التى على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يُحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى ، وما رأيت أعلم بالمناسك منه ، والإمام أبا العباس بن رضى الدين الشافعى ، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد

وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى وغيره

ثم أخذت على الشام ، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قَيِّم الجوزية صاحب الفقيه ابن تيمية ، وصدر الدين الغمارى المالكى ، وأبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى ، وغيرهم ، وببيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله بن مثبت ، والقاضى شمس الدين بن سالم ، والفقيه المذكر أبا عبد الله بن عثمان ، وغيرهم

ثم رجعت إلى المغرب ، فدخلت سجلماسة ودرعة ، ثم قطعت إلى الأندلس ، فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومالقة وبلش والحامة ، وانتهت بى الرحلة إلى غرناطة ، وفى علم الله تعالى مالا أعلم ، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، انتهى كلام جدى رحمه الله تعالى فى الجزء الذى ألفه فى مشيخته ، وقد لخصه لسان الدين فى الإحاطة .

---

(١) هو أبو حيان النحوى ، وتقدمت ترجمته ترجمة مستفيضة فى هذا الكتاب (ج ٣ ص ٢٨٩) .

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها ، فنقول : ولما ألم ولى الدين بن خلدون بذكر مولاى الجد فى تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه ، وَصَفه بأنه كبير علماء المغرب ونص محل الحاجة من تاريخه : لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا فى البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مُرْسَى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له ، وأقمت بإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ، ولم يقدر عامئذ ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى أوْجِه ، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل[1] سَيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثَجَّهُ ، ومررت فى سكك المدينة تَغصُّ بزحام المارة وأسواقُها تَزْخَر بالنعم[2] ، ومازلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران ، واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجِّهم وتاجرهم بالحديث عنه ، سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أباعبد الله المقَّرِى فقلت له : كيف هى القاهرة ؟ فقال : مَنْ لم يرها لم يعرف عز الإسلام ، وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك ، فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب ، وحضرت صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان منصرفهُ من السِّفارة عنه إلى ملوك

---

(١) النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى ، وكلاهما بفتح أوله وثانيه

(٢) تزخر بالنعم : يريد أنها مملوءة بالنعم ، ووقع فى ب « تزخرف بالنعم » .

مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذى يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التى تخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى كلام ابن خلدون ، ولا يخلو عن فائدة زائدة .

ولا بأس أن نورد من فوائد مولاى الجد ما حضرنى الآن : فمن ذلك ما حكاه عن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال : سمع يهودى بالحديث المأثور « نعم الإدام الخَلُّ » فأنكر ذلك ، حتى كاد يصرح بالقدح ، فبلغ ذلك بعض العلماء ، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخل وأسبابه سنة ، قال : فما تمت حتى ظهر فيهم الُجْذَام .

ومنها أنه قال : أنشدنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد قال : أنشدنى الشيخ التقى ابن دقيق العبد لنفسه فى معنى لطيف حجازى :

إذا كنتُ فى نجدٍ وطيب نعيمه ... تذكرتُ أهلى باللِّوى فمحسر
وإن كنت فيهم زدت شوقا ولوعة ... إلى ساكنى نجد وعيل تصبرى (١)
فقد طالَ مَابين الفريقين موقفى ... فمن لى بنجد بين أهلى ومعشرى

ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطرال قال : كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضى بفحمة فى يده ، فكتب بها على جدار هناك :

من كان يعلم أن الله خالقه ... فلا يحب أبا بكر ولا عمرا (٢)

وانصرف ، فألقى على من الفطنة وحسن البديهة مالم أعهد مثله من نفسى قبل ،

(١) عيل : ضعف أو نفد ، وتصبرى : تكلفى الصبر .
(٢) هذا كلام الرافضة ، ديدنهم سب الشيخين ، رضى الله تعالى عنهما !

فجعلت مكان يحب « يسب » ورجعت إلى مجلسى ، فجاء فوجده كما أصلحته ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا ، كأنه يطلب مَنْ صنع ذلك ، ولم يتهمنى ، فلما أعياه الأمر انصرف .

ومنها أنه قال : حدثت أن الزاهد أبا عمرة بن غالب المرسى نزيل تلمسان ، وقد لقيت غير واحد من أصحابه ، سأله بعضٌ أن يشهد عقد ابنته ، فتَعَذَّر عليه[1] ، فلم يزل به حق أجاب بعد جُهْد ، فحضر العقد ، وطعم الوليمة ، ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره فى ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان ، فأجابه مسرعا : فقيل له : أين هذا التيسير من ذاك التعسير ؟ فقال : من أكل طعام الناس مشى فى خدمتهم ، أو كما قال .

ومنها أنه قال : حدثت أن الفقيه أبا عبد الله بن العواد العدل بتونس الْتقى يوما مع القاضى أبى على بن قداح ، وكان ابن العواد شيخا ، فقال له أبو على : كبرت يا أباعبدالله فصرت تمشى كل شبر بدينار ، يُوَرِّى بكثرة الفائدة فى مشيه إلى الشهادة ، فقال له : كنت إذ كنت فى سنك أخرج رزقى من الحجر ، يعرض لابن قداح بأنه جَيَّار ، وكذلك كان هو وأبوه ، رحمهم الله تعالى جميعا ! وهذا من مزاج الأشراف ، كما جرى بين معاوية والأحنف ، انظر صدر أدب الكتاب

ومنها أنه قال : قال لى الحاجُّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الرباطى : كنا عند الشيخ تقى الدين بن دقيق العبد ، ففقد أحدنا نعليه : فقال الشيخ : كنا عند العلم التبريزى فدخل عليه رجل يدعى بشيراً فكلمه ثم خرج فلم يجد نعليه ، فرجع إلى العلم وأنشده :

دخلت إليك يا أملى بَشيراً فلما أن خرجت خرجت بِشْرَا

---

(١) تعذر عليه : يريد أنه التمس له الأعذار وتكلفها .

أعديائى التى سَقَطَتْ من اسمى فيائى فى الحساب تعد عشرا

وقال رحمه الله تعالى : لماسعى أولاد الشيخ أبى شعيب بالقاضى أبى الحجاج الطرطوشى إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المتشيعين فيهم من بعده وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال فى ذلك :

حمـــدت الله فى قوم أثاروا شروراً فاستحالت لى سرورا

وقالوا النار قد شبت فلمـــا دنوت لها وجدت النار نورا

ومنها : أنه حكى أن الشيخ أبا القاسم بن محمد اليمنى مدرس دمشق ومفتيهـا حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام : نزل بى مغربى فمرض حتى طال على أمره ، فدعوت الله أن يفرج عنى وعنه بموت أو صحة ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : أطعمه الـكسكسون ، قال : يقوله هكذا بالنون ، فصنعته له ، فكأنما جعلت له فيه الشفاء ، وكان أبو القاسم يقول فيه كذلك ، ويخالف الناس فى حذف النون من هذا الاسم ، ويقول : لا أعدل عن لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قلت : ووجه هذا من الطب أن هذا الطعام مما يعتاده المغاربة ، ويشتهونه ، على كثرة استعمالهم له ، فربما نبه منه شهوة أورده إلى عادة(١) .

وقال الجد رحمه الله تعالى : رأيت بجامع الفُسْطَاط من مصر فقيراً عليه قميص إلى جانبه دفاسة قائمة و بين يديه قلنسوة ، فذكر لى هنالك أنهما محشوّتان بالبرادة ، وأن زنة الدفاسة أربعمائة رطل مصرية ، وهى ثلثمائة وخمسون مغربية ، وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية ، وهى مائة وخمسة وسبعون مغربية ، فعمدت إلى الدفاسة فأخذتها من طوْقها أنا ورجل آخر ، فأملناها بالجهـــد ، ثم أقمناها ،

---

(١) وجهه أن « الـكسكسون » هو طعام المغاربة الذى لا يصبرون عنه ، فإذا طعمه وقد غاب عنه طويلا أثار فى نفسه شهوة كانت قد ماتت ، فبعثت فيه قوة .

ولم نصل بها إلى الأرض ، وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان فى رأسها فلم أطق حملها ، فتركتها ، وكان يوم جمعة ، فلما قضيت الصلاة مررنا فى جملة من أصحابنا بالفقير ، فوجدناه لابسا تلك الدفاسة فى عنقه ، واضعا تلك القلنسوة على رأسه ، فقام إلينا و إلى غيرنا ، ومشى بهما كما يمشى أحدنا بثيابه ، فجعلنا نتعجب ، ويشهد بعضنا بعضا على ما رأى من ذلك ، ولم يكن بالعظيم الخلقة .

وقال رحمه الله تعالى : كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إلى بمحرر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع ، ثم بلغه أن أحمالا من المتاع التونسى قد وصلت إلى البلد ، فكتب إلى : الحمد لله الذى أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة ، وصلواته الطيبة ، و بركاته الصيبة ، على من ختم به شريعته وأكمل دينه ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يتبعونه ، و بعد فما تعلق به الإعلام ، أن تعوّضوا المحرر بإحرام ، لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه ، ومن كلام العرب : كل ثوب ولابسه ، وإن أرْبَى[1] على ثمنِ الأول ثمنُ الثانى ، فلست عن الزيادة والحمد لله بالوانى[2] .

ومن فوائده أنه قال : كتب فى صدر رسالة صاحبنا الشيخ الناسك أبى على منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدالى الشيخُ الخاشع صاحبنا أبو الحسن على بن موسى البحيرى يذكره شوقه إلى لقائه ، لما كان يبلغه عنه ، حتى قدر باجتماعهما بوَهْرَان أيام قضاء البحيرى بها :

أوحشتنى ولو اُطلعت على الذى لك فى فؤادى لم تكن لى موحشاً
يا محرقا بالنار قلب محبـــه أنسيت أنك مستكن فى الحشا

وقال رحمه الله تعالى : أنشدنى محمد البلغيقى قال : أنشدنى ابن رشيد قال : أنشدنى أبو حفص ابن الخِيَمى المصرى لنفسه :

(١) أربى : زاد .

(٢) الوانى : الفاتر العزم ، يريد أنه يبادر إلى دفع الزيادة بينهما

لو رأى وَجْه حبيبي عاذلى لتفاصَلْنا على وجه جميل

وقال رحمه الله تعالى : قال لى محمد بن داود بن المكتب قال لى بلال الحبشى خادم الشيخ أبى مدين : كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا البيت :

الله قُلْ وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بصدق مراد

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولى ، وهو يجود بنفسه ، وكنت قد رأيته قبل ذلك مُعَافًى ، فسألته عن السبب ، فأخبرنى أنه خرج إلى لقاء السلطان ، فسقط عن دابته ، فتداعت أركانه ، فقلت : ما حملك أن تتكلف مثل هذا فى ارتفاع سنك ؟ فقال : حب الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين .

وقال رحمه الله تعالى : قال لى محمد بن مرزوق : قال لى بعض أصحاب أبى إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان : إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلا قاعداً ، فسألت ابن مرزوق : لم لقب بالطيار ؟ فحدثنى عن بعض أصحابه أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه فى الشمس على بعض السطوح ، ثم قعد هنالك ، فمر به رجلٌ فقال له : طر ، فقال : أعن أمرك ؟ قال : نعم ، فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس ، فقال الجد رحمه الله تعالى بعد هذا ما نصه : قلت : إذا ما صار الحق للعبد سمعاً و بصراً فسمع به وأبصر أصاخ إلى الأحوال ، واجتلى المعانى ، فيرى من غير مبصر ، و يسمع من غير ناطق ، كما قال الشيخ أبو عبد الله الشوذى الحلوى دفين تلمسان :

إذا نطق الوجود أصاخ قوم بآذانٍ إلى نطق الوجود (١)
وذاك النطق ليس به انعجام ولكن دق من فهم البليد (٢)

---

(١) أصاخ قوم : أنصتوا

(٢) انعجام : أراد به الإبهام والخفاء ، ودق : أراد به خفى

فكن فَطِناً تُنَادَى من قريب ولا تك من ينادى من بعيد

وقال رحمه الله تعالى : حدثت بمصر أن الشيخ سيدى عمر بن الفارض ولع بجمل، فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به ، فقيل له : لو اشتريته ، فقال : المحبوب لا يُمْلَك ، فسألت : أى حال كان هذا منه ؟ فقيل لى : فى ابتداء أمره ، فقلت : وَجَدَ اعتبار (أفلا ينظرون إلى الإبل) فوقفتْ به رؤية المعنى فيه عليه ، فأحبه مدلا ، وطلبه مجلا .

وقال رضى الله عنه : حفظت من خط أبى زيد والد صاحبنا أبى الحسن : قيل للغزالى : ما تقول فى الحلاج ؟ فقال : وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء ، على بساط الوفاء ، فسكر وعَرْبَدَ ، فاستوجب من الله الحد ، فكان حده شهادته ، ثم قال بعد هذا : قلت عَرْبَدَ الحلاج فى الحضرة لما نسى بسكره أوامره ، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه ، وسدل الباطن على عذره حجاب الغيرة من إفشاء سره :

على سِمَةَ الأسماء تجرى أمورهم وحكمةوصف الذات للحكم أجْرَتِ[1]

وقال رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا ببيت المقدس يقول : تجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالكمال ، قلت : فذلك يوقف النواظر ، وذاك يملأ الخواطر ، وهذا يفتح البصائر[2] .

وقال رحمه الله تعالى : أخبرنى أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عِنان فارس نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمى عن تهادى أهل الحب التفاح دون الخوخ ، وكلاهما حسن المنظر ، طيب المخبر ، شديد شبهه بأخيه ، سديد تشبيه الوجنات به لمتوخِّيه ، فقال : من عند مولانا ، فقال :

---

(١) السمة ـ بكسر السين ـ العلامة ، وأراد بسمة الأسماء معانيها التى تدل هي عليها

(٢) البصائر : جمع بصيرة

أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذى يذكر بالحب والهوى ، والخوخ على النوى الذى يذكر اسمه صُفْرَة الجَوَى .

وقال رحمه الله تعالى : قال لى أبو حيان بالقاهرة : قال لى عمر بن الخيمى : تجاذبت أنا ونجمُ الدين بن إسرائيل هذ البيت :

يابارقا بأعالى الرقمتين بدا لقدحكيت ، ولكن فاتك الشَّنَبُ(1)

فتحاكمنا إلى ابن الفارض ، فأشار بأن ننظم قصيدة نضمنها البيت ، فنظم ونظمت :

يا مَطْلَباً ليس لى فى غيره أرَبُ إليك آل التقضِّى وانتهى الطلب(2)

فقضى به لى .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن أبا يزيد الهزميرى بعث إلى أبى عمران الشولى ، وكان كثير الصلاة ، أنه لم يبق بينك و بين الله حجاب إلا الركيعات ، فرجع إليه ، ما معناه : إن الاتصال كان منها ، فلا كان الانفصال عنها ، يعنى من رزق من بابٍ فيلزمه .

وقال رحمه الله تعالى : كنت بجامع تلمسان ، وإلى جانبى رجل ينتمى إلى طريقة العرفان ، فجعل سائل يشكو الجوع والألم ، فتصدق ذلك الرجل عليه بدرهم ، وقال : إياك أن تشكو الرحمن إلى مَنْ لا يرحم ، فقلت : أمره أن يسأل عزيزاً بمولاه ، ونهاه أن يشكو ذليلا إلى سِوَاه .

وكان الفارابى كثيراً ما يقول : يا رب إليك المشتكى ، حتى إنه يوجد أثناء كلامه فى غير موضعه ، فيعجب منه من لا علم عنده بمنزعه .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن الفخر مر ببعض شيوخ الصوفية فقيل للشيخ : هذا يقيم على الصانع ألف دليل ، فلو قمت إليه ، فقال : وعزته لو عرفه

---

(1) الشنب — بفتح الشين والنون جميعا — رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان ، ومثل هذا قولهم « ليس التكحل فى العينين كالكحل »

(2) الأرب : الغرض ، وزنا ومعنى

ما استدل عليه ، فبلغ ذلك الإمام ، فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب ، وهم ينظرون من غير حجاب .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن رجلا كان يجلس إلى أبى الحسن الحرانى، وكان يشرب الخمر ، فسكر ذات يوم ، فسقط على زجاجة ، فشُجَّ وجهه ، فاختفى إلى أن برىء ، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ ، فلما رآه أنشد :

أجريح كاسات أرقْتَ نجيعَهَا　　طَلَبُ التِّرَات يعز منه خلاص (١)

لا تَسفكن دَمَ الزجاجة بعدها　　إن الجروح كما علمت قِصاصُ

ففهمها الشاب ، فتاب .

وقال رحمه الله تعالى : كثيراً ما كنت أسمع أبا محمد الجاصى ينشد هذا البيت:

همُ الرجال وعيْبٌ أن يقال لمن　　لم يتصف بمعانى وَصْفِهم رَجُلُ

ثم يبكى ، وكان أهل البلد يسمونه « البكاء » و بعضهم « الخاشع » .

ووجدت بخط مولاى الجد على ظهر كتابه « القواعد » مانصه : الحمد لله تعالى جده ، قرأت صدر كتاب زهرة البساتين للقاسم ابن الطيلسان ، ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله ، بل حديثاً وأثراً و إنشاداً مِنْ فى الشيخ الخطيب الصالح أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عياش الأنصارى ، ثم تناولت منه جميع الكتاب المذكور ، وأجازنيه بحق سماعه لبعضه ، وتنَاوله لجميعه من جده محمد المذكور ، بحق أخذه له عن مؤلفه صهره القاسم المذكور ، وذلك بالمسجد الجامع من مالَقَة المحروسة، قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن أحمد المقَّرى فى متم عشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

و بخطه رحمه الله تعالى حيث ذكر مانصه : الحمد لله ، مخالفة القواعد الشرعية،

(١) أرقت : من قولهم « أراق فلان الماء » إذا صبه وأساله ، والنجيع : أصله الدم ، شبه به الخمر فى اللون ، والترات : جمع ترة – بكسر التاء فيهما – وهى الثأر يقول : إنك أرقت دم الزجاجة فأرادت أن تأخذ ثأرها منك فشجت وجهك

للعوائد العرفية ، كإنكار الحشر وفتنة القبر ، ونحوهما من الأمر بالمعروف ، للركون إلى المشهور المألوف ، أو كالتقليد مع الدليل ، الذى ذمه الشرع فى محكم التنزيل .

وبخطه أيضاً : الحمد لله ، قد تتتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختص [1] ، ومن ثم قيل فى قول الله عز وجل (ولا تطع كل حلاف مهين) : إنه الأخنس بن شريق ، وفى قوله تعالى (ويل لكل همزة لمزة) : إنه أمية بن خلف ، وفى قوله تعالى (ذَرْنى ومن خلقت وحيداً) : إنه الوليد ابن المغيرة ، انتهى .

ووجد بخه أيضاً رحمه الله تعالى ما نصه : الحمد لله ، قال لى المتوكل على الله أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن على : كان جدنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق يقول : الولايات ست : ثلاث وقفتها على اختيارى : الحجابة ، والقصبة ، والشرطة ، وثلاث موكولة إليكم : القضاء ، والإمامة ، والحِسْبَةُ . ثم قال رحمه الله تعالى : وهذا تدبير حسن .

ومن فوائده : حدثنى العَدْلُ أبو عبد الله محمد بن أبى زرع عن القاضى أبى عبد الله بن أبى الصبر أنه أمر الوالى بفاس أن يبنى فندق الشماعين ، وكان قد خرب ، فتوقف حتى يأذن السلطان ، فقال له : أسلفنى ما أبنيه به ، فإن أجاز ذلك السلطان ، وإلا رددته عليك ، ففعل ، فلما طولب ذكر ما قال له القاضى ، فغضب السلطان ، وبعث فيه ، فجعل المبعوثون يأتونه واحداً بعد واحد وهو متمهل فى وضوئه وإصلاح بِزّته ومركوبه ، ثم جعل يمشى الهُوَيْنى ، فلقيه ابنه ، فقال له : أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك ، وهو واجِدٌ عليك ، فقال له : مسكين أبو يحيى ، خاف ، وثبت على حاله ، فلما كان فى الطريق لقى بعض

(١) يريد أنه فى أصل وضعه يصح أن يراد منه الكثير ، ولكن الصفة تخصصه فكلما كثرت الصفات وتتابعت عليه خصصته كل واحدة منها نوع تخصيص حتى يصير بعد مجموعها كالاسم العلم الذي وضع للدلالة على واحد بعينه

العلماء ، فتعرض إليه ، فقال : قل يخفى لطفك ، بلطيف صنعك ، بجميل سترك ، دخلت فى كنفك ، تشفعت بنبيك ، فحفظه ، ثم طلبه فلم يجده ، فجعل يقول ذلك ، فلما رآه السلطان سكن ما به ، ثم سأله عن ذلك برفق ، فقال له القاضى : كرهت الخراب بقرب القرويين و بالشماعين الذى هو عين فاس ، فسألت الوالى ذلك على أنى أغرم إن لم تجز ، وقلت له : المرجو من السلطان أن يجعله حَبْساً ، فقال : قد فعلت ، ثم بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع ، وشكر للقاضى صنيعه ، وصرفه مغبوطاً .

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المَرينى ، وتوفى محاصراً لتلمسان فى ذى العقدة من عام ستة وسبعمائة ، وكان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وكان جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر ، انتهى .

ومن فوائد مولاى الجد رحمه الله تعالى ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب « الإنشادات والإفادات » ونصه : إفادة ، حضرت يوما مجلساً فى المسجد الجامع بغَرْناطة مَقْدَمَ الأستاذ القاضى أبى عبد الله المَقّرى ، فى أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وقد جمع ذلك المجلس القاضى أبا عبد الله والقاضى أبا القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أبا سعيد بن لب والأستاذ أبا عبد الله البَلَنْسى وذا الوزارتين أبا عبد الله بن الخطيب وجماعة من الطلبة ، فكان من جملة ماجرى أن قال القاضى أبو عبد الله المقَّرى : سئلت عن مسألة فى الأصول لم أجد لأحد فيها نصاً ، وهى تخصيص العام المؤكد بمنفصل ، فأجبت بالجواز محتجاً بقول الله عز وجل (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) فهذا عام مؤكد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يحل الله من الفواحش إلا مسألة الناسى » انتهى .

ومن الـكتاب المذكور ما نصه : إفادة ، حدثنى الشيخ الفقيه القاضى الجليل الشهير الخطير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقَّرى رحمه الله تعالى ، وأملاه علينا ، عن العالم الـكبير أبى حيان بن يوسف بن حيان أنه قال : ورد كتاب من الأستاذ أبى عبد الله بن مثبت الغرْناطى إلى صاحب له يسمى حمـزة ، وفيه : سئل الشيخ ، قال أبو حيان يعنى وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخط عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش : عَلاَمَ انتصب قوله :

* مَقَالَةَ أن قد قلت سوف أناله *

فقال :

* ولا تصحب الأردى فتردى مع الرَّدِى *

فقال : سألتك عن إعراب كلمة ، فأجبتنى بشطر بيت ، فقال ابن الأبرش : قد أجابك لو كنت تفهم ، قال أبو حيان · فوقعت عليه للحين أن هذا الشطر من قول النابغة :

أتانى أبيتَ اللعنَ أنك لمتنى وتلك التى تصطك منها المسامع

مقالَةَ أن قد قلت سوف أناله وذلك من تلقاء مثلك رائع

يروى « مقالة » بالرفع ، على أنه بدل من « أنك لمتنى » الفاعل ، و بالفتح على ذلك إلا أنه بنَاه لما أضافه إلى مبنى[1] .

ومنه : إفادة ــ حدثنى الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد الله المقَّرى رحمه الله تعالى قال : سئل أبو العباس بن البناء رحمه الله تعالى ، وكان رجلا صالحا ، فى قوله تعالى

---

(١) من قواعد النحاة أن المضاف قد يكتسب من المضاف إليه البناء ، فيبنى وإن كان أصله معربا ، لـكون المضاف إليه مبنيا ، ونظير ذلك ما قالوه في قوله تعالى : (إنه لحق مثل ما أنـكم تنطقون) وقوله سبحانه : (لقد تقطع بينـكم) فيمن قرأ بفتح « مثل » مع أنه صفة لحق المرفوع ، ومن قرأ بفتح « بينـكم » مع أنه فاعل تقطع ، قالوا : كل منهما مبنى علي الفتح لـكونه مضافا إلى مبنى فى محل رفع .

(قالوا إنَّ هذان لساحران) لم لم تعمل « إنَّ » فى « هذا » فقال : لمَّا لم يؤثر القولُ فى المقول لم يؤثِّر العامل فى المعمول ، فقال له : يا سيدى هذا لا ينهض جواباً ، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إنَّ ، فقال له : إن هذا الجواب نوارة لا تحتمل أن تُحَكَّ بين الأكف ، انتهى .

ومنه : إفادة ـ قال لنا الشيخ الأستاذ القاضى أبو عبد الله المقَّرى رحمه الله تعالى : إن أهل المنطق وغيره يزعمون أن الأسماء المعدولة لا تكاد توجد فى كلام العرب ، وهى موجودة فى القرآن ، وذلك قوله (لا فارض ولا بكر عوَان بين ذلك) فإن زعم زاعم أن ذلك على حذف المبتدأ ، ودخلت « لا » على الجملة ، وتقديره لاهى فارض ولاهى بكر ، قيل له : إن كان يسوغ لك ذلك فى هذا الموضع فلا يسوغ فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) فصح أن الاسم المعدول موجود فصيح فى كلام العرب .

ومنه : إفادة ـ حدثنا الأستاذ أبو عبد الله المقَّرى ، قال : سئل عن قوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسجون) لم عاد ضمير مَنْ يعقل إلى مالا يعقل ؟ فقال بعضهم : لما اشترك مع من يعقل فى السباحة وهى العوم عومل لذلك معاملته ، قال : وهذا لا ينهض جوابا ، فإن السباحة لما لا يعقل كالحوت ، وإنما لمن يعقل العوْم ، لا السباحة ، وأيضا فإلحاقُه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له ، قال : وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى بأن الشىء المعظم عند العرب تعامله معامَلَةَ العاقل ، وإن لم يكن عاقلا ، لعظمه عندهم ، وأجبت أنا بأنه لما عوملت فى غير هذا الموضع معاملة مَنْ يعقل فى نحو قوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) لصدور أفعال العقلاء عنها أجْرَى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به فى موضعه .

ومنه : إفادة ـ لقَّمنى الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد الله المقَّرى رحمه الله تعالى لقمة بيده المباركة ، وقال : لقمنى الشيخ أبو عبد الله المسفر قال : لقمنى أبو زكريا

المحيــاوى قال : لقمنى أبو محمد صالح قال : لقمنى الشيخ أبو مدين قال : لقمنى أبو الحسن بن حرزهم قال : لقمنى ابن العربى قال : لقمنى الغزالى قال : لقمنى أبو المعالى قال : لقمنى أبو طالب المكى قال : لقمنى أبو محمد الحريرى قال : لقمنى الجنيد قال : لقمنى السقطى قال : لقمنى معروف الكرخى قال : لقمنى داود الطائى قال : لقمنى حبيب العجمى قال : لقمنى الحسن البصرى قال : لقمنى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال : لقمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وبهـذا السند صافحته أيضا رضى الله تعالى عنه ، انتهى

وللمحدثين فى هذا السند كلام مشهور ، وانتصر بعضهم للسادة الصوفية رضى الله تعالى عنهم ! .

ومنه : إنشادة ـ أنشدنى الشريشى الفقيه أبو عبد الله قل : أنشدنى القاضى المقَّرى قال : أنشدنى الرباطى قال : أنشدنى ابن دقيق العيد لنفسه من صـدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز :

يهيم قلبى طَرَباً عنـدما أستلمح البرق الحجازيا[1]
ويستميل الوجْـدُ قلبى وقد أصبح لى ثوب الحِجَازِ يَاً[2]
يا هَلْ أُقَضِّى مِنْ مِنًى حَاجَتِى فَأَنْحَرَ البُدْنَ المَهَارِيَاً[3]
وأرتوى من زمزم فَهْىَ لى ألذ من ريق المهارِيَاً[4]

ومنه : إفادة ـ حدثنا الأستاذ القاضى أبو عبد الله المقَّرى رحمه الله تعالى قل :

(١) الحجازيا ، هنا : المنسوب إلى الحجاز ، وهو صفة البرق .

(٢) الحجازيا ، هنا : كلمتان ، أولاهما «الحجا» بمعنى العقل ، والثانية «زيا» وهو خبر أصبح .

(٣) المهاريا ، هنا : صفة للبدن أى النوق ، ومعنى المهارى المنسوبة إلى مهرة .

(٤) المهاريا ، هنا : كلمتان ، أولاهما « المها » جمع مهاة ، وهى فى الأصل بقرة الوحش ، ويشبهون بها النسـاء ، والثانية « ريا » وهو ضد العطش مصدر « روى يروى ريا » .

رأيت لبعض مَنْ ألف على كتاب « الكشاف » للزمخشرى فائدة لم أرها لغيره فى قوله تعالى (والراسخون فى العلم) إذ الناسُ يختلفون فى هذا الموضع اختلافا كثيرا ، فقال قوم : الراسخون فى العلم يعلمون تأويله ، والوقوف عند قوله (والراسخون فى العلم) وقال قوم : إن الراسخين لا يعلمون تأويله ، وإنما يوقف عند قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) فقال هذا القائل : إن الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم ، من أنواع البيان ، وذلك لأن قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب) هو جمع ، وقوله (منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات) تفريق ، وقوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ ــ إلى قوله تعالى : وابتغاء تأويله) أحدُ طرفى التقسيم ، وقوله تعالى (والراسخون فى العلم) الطرفُ الثانى ، وتقديره : وأما الراسخون فى العلم فيقولون آمنَّا به ، وجاء قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) اعتراضا بين طرفى التقسيم ، قال : وهذا مثل قوله تعالى (وأنا منا المسلمون ــ الآية) فقوله (وأنَّا) جمع ، وقوله (منا المسلمون ومنا القاسطون) تفريق ، وقوله (فمن أسلم) (وأما القاسطون) تقسيم ، وهو من بديع التفسير ، قلت : ومثله أيضا قوله تعالى (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه ــ الآيات) انتهى .

ومنه : إنشادة ــ أنشدنا الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد الله المقَّرى فى القول بالموجب لبعض العلماء فى وديعة :

إن قال قد ضاعت فصدق أنها ضاعت ، ولكن منه يعنى لو يَعِى
أو قال قد وقعت فصدق أنها وقعت ، ولكن منه أحْسَنَ موقع

ومنه : إنشادة أيضا من القول بالموجب لبعض الحنابلة :

يحجون بالمال الذى يجمعونه حَرَاماً إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كُلٌّ أن تحَطَّ ذنوبُهُمْ تحطُّ ولكن فوقهم فى جهنم

ومنه : إفادة ـ كتب لى بخطه شيخُنا الفقيه القاضى الجليل أبو عبد الله المقّرى رحمه الله تعالى على ظهر « التسهيل » لابن مالك الذى كتبته بخطى بعدما كتب لى بخطه روايته فيه عن أبى الحسن بن مزاحم عن بدر الدين بن جماعة عن المؤلف ، فكتب بعد ذلك ما نصه : قال محمد بن محمد المقرى : بدرالدين ابن جماعة المذكور يدعى بقاضى القضاة ، على ماجرت به عوائد أهل المشرق فى تسمية مثله ، وأنا أكره هذا الاسم محتجا بقول النبى صلى الله عليه وسلم « إن أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك إلا الله » انتهى ما انتقيته من كتاب الإنشادات والإفادات للشاطبى فيما يتعلق بجدى رحمه الله تعالى[(١)].

ومن فوائد مولاى الجد رحمه الله ، مما لم يذكر فيما سبق ، أنه حكى أن ابن أحموط المولَّه ، دخل فى حلقة أبى عبد الله بن رشيد بجامع القرويين ، و بين رجليه قصبة كأنها فرس ، و بيده أخرى كأنها رمح ، فانتهره رجل ، فضربه برمحه على رأسه ، وقال له : اسكت ياميت ، فأبهت الناس لكلامه ، فقال له الشيخ : يافقير أنت فى حال ونحن فى مقال ، وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال فنظر إليه المولَّه وانصرف ، ثم لم ينشب المنتهر أن توفى بعد ذلك بأيام قلائل .

ومنها: قلت لابن شاطر يوما : كيف حالك ؟ فقال : محبوس فى الروح ، وصدق لأن الدنيا سجن المؤمن ، ولا مخلص له من حبسه إلا بمفارقة نفسه

وقال : سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض :

فلم أَلْهُ باللَّاهوت عن حكم مَظْهَرى ولم أنس بالناسوت موضع حكمتى

---

(١) كره كثير من علماء الشافعية أن يتسمى الرجل « أقضي القضاة » ومن علمائهم المبرزين الماوردى وكان يلقب « أقضى القضاة » وهذا يدل على أن المسألة مختلف فيها في المشرق أيضا .

فقال : يقول ما أنا بالحلاج ولا ببلعــام ، ثم قال مولاى الجد بعد هذا الـكلام ما صورته : قلت : وهـذا هو الإنسان على الـكمال والتمام ، ولقد سمعته يقول فى الحلاج : نصف إنسان ، يشير إلى البيت .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمع ابن شـاطر إنسانا يقول : الجنة رخيصة ، فقـال : كيف تكون رخيصة والله عز وجل يقول (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) انتهى . ثم قال مولاى الجد بأثر هذا الـكلام : قلت : ما الأنفس والأموال فى جنب ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضاء

وقال أيضاً : قيل لابن شاطر :صف لنا الدنيا ، فقال : (كسراب بِقِيعَةٍ)(١) الآيتين ، فبلغ ذلك أبا زيد بن الإمام ، فأنكر عائباً لاستحسان سامعه ، تالياً (يحرفون الـكلم عن مواضعه) ولقـد أصيب المتعسف بأدهى منها وأمر ، فإنه أفحم يوما ببعض أهل النظر فتلاَ عليه (فبهت الدى كفر) على أن له أن يقول : لم أخرج الآية عن مرادها ، فالبهت من انقطاع المعاند ، والـكفر من جحد الجاحد ، ولنا أن نقول : التحريف المذموم هو التحويل للإبطال ، وليس هـذا من قصد الممثل الأول بالمثال ، انتهى .

وهذا كله على مذهب جمهور المالـكية فى منع الاقتباس ، وللـكلام على ذلك موضع غيرهذا ، فليراجع فى كتب البيان وغيرها .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن المتوكل على الله أبا عنان رحمه الله تعـالى أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحج بها ، فمر بها إلى تلمسان ، فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرجين بغدير الوريط شرقى عباد تلمسان العلوى ، إلى أن نفدت ، فلما ورد

---

(١) القيعة ـ بكسر القاف ـ أحد جموع القاع ، وهو الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على أقوع وأقواع وقيع وقيعان

السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشر الجلد، فقال له : ياسيدى أبا عبد الله حج مبرور، فقال له : إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه، و يأبى الله إلا أن ينفق الخبيث فى مثله، فضحك السلطان وانصرف، انتهى .

وكان لابن شاطر هذا عجائب ، ولم يكن مخلا بشىء من الحقوق الشرعية ، وكان مُعْتَقَداً عند أهل وقته ، وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظمه و يصله ويسلم له ، و بات عنده ليلة بقصره، وكان يدخل القصر، ولا تحتجب منه الجوارى فاحتاج إلى البول ، فبال فى قبة فى القصر عظيمة ، فانتهرته إحدى الجوارى ، وقالت له : أتبول فى قبة مولانا ؟ فقال لها : إن قبة مولانا الخضراء أعظم من هذه ، وأنا أفعل تحتها ما هو أفظع من البول ، وما انتهرنى قط ، فذكرت ذلك الجارية للسلطان ، فضحك وعلم أنه يريد السماء ، وكان يكتب القرآن والعمدة ولا يغلق حرفا مجوفا فإذا غُلب على ذلك أصلحه ، حتى حكى أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهواً من نسخة كان باعها ، ولم يتذكر ذلك حتى سافر مشتريها ، فما رجع حتى جَدَّده .

وحكى الشيخ أبو القاسم بن داود الفخار السلوى أن الشيخ أبا عبد الله الشريف التلمسانى صاحب « المفتاح » فى أصول الفقه وشارح « الجمل » الخونجية المتوفى عام اثنين وسبعين وسبعمائة المدفون بالمدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصه : اللهم احْمَدْ نفسك عمن أمرته أن يتخذك وكيلا ، حمداً عائداً منك إليك ، متحداً بك ، دائما بدوام ملكك ، لامنقطعاً ولا مفصولا ، قال : فقال لى أبو عبد الله بن شاطر : ما هو انفصال عالم الملك ؟ فقلت له : بالضرورة الوقيتة فقال لى : ما أجهلك ! وأجهل سيدك أبا عبد الله ! وأجهل ابن سودكين الذى أخذ من كتابه هذا الحمد ! إذ قال « لا منقطعاً ولا مفصولا » بعد قوله

« بدوام ملكك » وهو بالضرورة الوقتية ، وهى منقطعة ، فهلا قال « دائما بدوام قيوميتك ، وعظيم قدرك ، ومجدكِ الأعلى ، وسُبُحَات وجهك الأكرم ، لامنقطعا ولا مفصولا » فبلغ ذلك أبا عبد الله الشريف ، فبدله ، انتهى ،

وأخبار ابن شاطر كثيرة ، وقد مر ذكره فى كلام مولاى الجد رحمه الله تعالى وسيأتى ما ذكره لسان الدين به فى « الإحاطة » .

ومن فوائد مولاى الجد رحمه الله تعالى ما قاله إثْرَ قولِ الرازى فى التفسير « الحس أقوى من العقل » ونصه : هذا على ما حكاه فى المحصل من أن المعقولات فرع المحسوسات، قال : ولذلك مَنْ فقد حسا فقدْ فقد علما كالأكمه والعِنِّين ، ومذهب جمهور الفلاسفة أن اليقينيات هى المعقولات لا المحسوسات ، انظر المحصل ، انتهى .

ومن فوائده رحمه الله تعالى أنه قال : أنشدت يوما الأبلى قول ابن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه ... وبكحله الأحياء والبُصَرَاء

فإذا مررتَ رأيت من عميانه ... أممــا على أمواته قُرَّاء[1]

فاستعادنى حتى عجبت منه ، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر ، وانفعاله ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذى لا أعرف له ثانيا فيه ، فقال : أظننت أنى استحسنت الشعر ؟ فقلت : مثلك يستحسن مثل هذا الشعر ، فقال : إنما تعرفت منه كون العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرؤن على المقابر ، فإننى كنت أرى ذلك حديثَ العهد ، فاستفدت التاريخ

وقال مولاى الجد رحمه الله تعالى : حدثنى الأبلى أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن أبى العيش الخزرجى الخطيب بتلمسان كان يقول فى خطبته : من يطع الله

---

(١) يكثر هذا المعنى فى كلام ابن الرومي ، ومنه قوله :

والناس يلحون الطبيب ، وإنما ... غلط الطبيب إصابة الأقدار

ورسوله فقد رَشِدَ بالكسر ، وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك ، فلما ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى سمعه يقول ذلك ، فأنكر عليه فى جملتهم ، و بلغ الخطيب ذلك ، فلم يرجع ، فلما قفل ابنُ رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبى الحسن بن أبى الربيع بسبتة ، فهنأه بالقدوم ، وقال له فيما قال : رَشِدْتَ - يا ابن رشيد - ورَشَدْت لغتان صحيحتان ، حكاهما يعقوب فى الإصلاح ، ثم قال مولاى الجد : قلت : هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة .

وقال رحمه الله تعالى : قال طالب لشيخنا الأبلى يوماً : مفهوم اللقب صحيح ؟ فقال له الشيخ : قل زيد موجود ، فقال : زيد موجود ، فقال له الشيخ : أما أنا فلا أقول شيئاً ، فعرف الطالب ما وقع فيه ، فخجل .

وهذا الأبلى تقدم فى كلام مولاى الجد رحمه الله تعالى أنه عالم الدنيا ، وهو تلمسانى كما تقدم ، قال تلميذه أبو القاسم السلوى الفخار : دخل على شيخنا الأبلى يوماً ، وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لى : ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة تردُ عليها ؟ فقلت : أن تدفع عن نفسها ماهو من غير جنسها من حجر أو زبل أوغيره ، فأدركه وَجْدٌ عظيم ، حتى إنه صاح وقام وقعد ، و بقى هُنَيَّة(١) مطرقا برأسه مفكراً ، ثم قال : هكذا هى النفوس البشرية .

قال : وقال لى يوماً ، وقدوجد الصبيان يصوّتون بقُضُبٍ رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه : الغلط الداخل عليه من أى أنواع المغلطات هو ؟ فقلت له : من إيهام العكس ، لما كان كل ذباب مصوّتاً ظن أن كل مصوّت ذباب ، فاستحسن ذلك .

قلت : وحدثنى مولاى العم الإمام شيخ الإسلام سيدى سعيد بن أحمد المقَّرى رحمه الله تعالى ، عن شيخه بن جلال مفتى حضرتى فاس وتلمسان ، أنه

---

(١) يقال « هنية » بضم الهاء وفتح النون بعدها ياء مشددة مفتوحة - وأصلها تصغير هنة التى أصلها هنوة - ويراد بها الشىء اليسير ، ثم يراد به الزمن اليسير ، ويقال أيضا «هنيهة» بقلب الياء الثانية هاء

كان يحكى أن الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى فى الشكل الأوّل ، لأنه ركبه هكذا : هذا مصوّت ، وكل مصوّت ذباب ، وقد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية ، و إذا كانت جزئية بطل الإنتاج ، لأن ذلك من الضروب العقيمة ، انتهى .

ومن فوائد مولاى الجد رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت شيخنا الأبلى يقول : ما فى الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا الأبلى يقول : إنما أفسد العلم كثرة التواليف ، و إنما أذهبه بُنْيان المدارس ، وكان ينتصف له من المؤلفين والبانين ، وإنه لكما قال ، غير أن فى شرح ذلك طولا ، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة(١) التى هى أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير ، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزْر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته فى طلبه ، ثم صار يشترى أكبر ديوان بأبخس ثمن ، فلا يقع منه أكبر من موقع ما عوّض عنه ، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسى الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر ، وأما البناء فلأنه يجذبُ الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات ، فيقبل بها على من يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول فى حكمهم ، ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يُدْعَوْن إلى ذلك ، و إن دُعُوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم ، ثم قال مولاى الجدّ رحمه الله تعالى : ولقد استباح الناسُ النقلَ من المختصرات الغريبة أربابها ، ونسبوا ظواهر ما فيها إلى أمهاتها ، وقد نبه عبدُ الحق فى تعقيب التهذيب على ما يمنع من ذلك لو كان مَنْ يسمع ، وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع ، ثم تركوا الرواية فكثر

(١) كان الأصل أن طالب العلم يرحل من بلده إلى بلد أخرى أو بلاد كثيرة يأخذ بالرواية عن علمائها ، ويسند ما أخذه عن كل واحد إليه ، فكانت المشقة فى تحصيل العلم تدعو إل احترام العلماء ، لقلتهم ، فلما صار العلم على طرف الثمام هان العلماء على الناس

التصحيف ، وانقطعت سلسلة الاتصال ، فصارت الفتاوى تُنْقَل من كتب مَنْ لا يدرى ما زيد فيها مما نقص منها ، لعدم تصحيحها ، وقلة الكشف عنها ، ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوّغون الفتوى من تَبْصِرة الشيخ أبى الحسن اللخمى لكونه لم يُصَحَّح على مؤلفه ولم يؤخذ عنه ، وأكثر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النَّمَط(١) ، ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين ، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين ، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين ، ولم يكن هذا فيمن قبلنا ، فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها ، ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير التهذيب الذى هو المدوّنة اليوم لشهرة مسائله وموافقته فى أكثر ما خالف فيه المدونة لأبى محمد ، ثم كَلَّ أهلُ هذه المائة عن حال مَنْ قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ، ونَزَر حَظُّه ، وأفنوا أعمارهم فى فهم رموزه ، وحل لغوزه ، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح ، بل هو حَلُّ مُقْفَل ، وفهم أمر مجمل ، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس ، فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ أتيحت لنا تقييدات للجهلة ، بل مسودات المسوخ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم ، وتريك ما غفل الناس عنه ، انتهى .

ولنصلها بخاتمة تشير إلى حال العلماء أيضا – اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين ، وللعلماء معهم أحوال ؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم ، وهم يطلبونهم ، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفراغا ليقتنصوا بذلك غيره ، ثم جاء أهل

---

(١) أصل النمط – بفتح النون والميم جميعا – ضرب من البسط ، أو وعاء كالسفط ثم قالوا « ليس هذا من هذا النمط » يريدون أنه ليس من صنفه ولا نوعه ، ولا هو على طريقته ومذهبه

العصر الثانى ، فطمحت أنفسهم إلى دنيا مَنْ حصل لهم ، ومنعهم قربُ العهد بالخير عن إتيانهم ، فكانوا لا يأتونهم ، فإن دَعَوْهم أجابوهم إلا القليل ، فانتقصوا مما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة ، وأكثرهم إن دُعِيَ أجاب ، فانتقصوا بقدر ذلك أيضاً ، ثم تطارح جمهورُ مَنْ بعدهم عليهم ، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم ، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم ، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير ، وصرفوهم فى أنواع السخر والخدم إلا القليل ، وهم ينتظرون صرفهم ، والتصريح بالاستغناء عنهم ، وعدم الحاجة إليهم ، ولا تستعظم هذا ، فاعله سبب إعادة الحال جَذَعَة ، عجب الله من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل ، وهذا كله ليظهر لك سر قول النبى صلى الله عليه وسلم « لتتبعُنّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكم ، شبرا بشبرا ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه خلفهم[1] » قيل : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا ، سمعت العلامة الأبلى يقول : لولا انقطاع الوحى لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم ، لأنا أتينا أكثر مما أتوا ، يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترقت عليه بنو إسرائيل ، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة ، حتى ضَعُفوا بذلك عن عدوّهم ، وتعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم ، حتى غلبوا بذلك على الخلافة ، فنزعت من أيديهم ، وساروا فى الملك بسير من قبلهم ، مع غَلَبة الهوى واندراس معالم التقوى ، لكنا آخر الأمم ، أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما سترمنا ، وهو المرجوّ أن يتم نعمته علينا ، ولا يرفع ستره الجميل عنا ، فمن أشدّ ذلك إتلافاً لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيح أن ذلك لم يكن

---

(١) قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تحذيرا من أن نأخذ مأخذ الأمم السالفة ، فنبتلى بما ابتلوا به ، ولكن ما شاء الله كان ، والأمر له وحده .

بتبديل اللفظ ، إذ لا يمكن ذلك فى المشهورات من كتب العلماء المستعملة ، فكيف فى الكتب الإلهية ، وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابنُ عباس وغيره ، وأنت تبصر ما اشتملت عليه كتبُ التفسير من الخلاف ، وما حُمِّلت الآى والأخبار من التأويلات الضعاف ، قيل لمالك : لماذا اختلف الناس فى تفسير القرآن ؟ فقال : قالوا بآرائهم فاختلفوا ، أين هذه من قول الصدّيق « أىُّ سماء تُظِلُّنى ؟ وأى أرض تُقِلُّنِي ؟ إذاقلت فى كتاب الله عزوجل برأيى »(١) كيف و بعض ذلك قد انحرف عن سبيل العدل إلى بعض الميل ، وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما ، وآخرون لم يعلموا ذلك على التعيين ، فلما طال بحثهم وظنوا عجزهم أردوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فَهْمها فى الجملة ، ليخرجوا عن حدّ الإبهام المطلق ، فذكروا ماذكروه على جهة التمثيل ، لا على سبيل القطع بالتعيين ، بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموما ولا خصوصا ، لكنه يجوز أن يكون المراد ، فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه ، ومنه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية ، مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية ، ثم اختلط الأمران ، والحق أن تفسير القرآن من أصعب الأمور ، فالإقدام عليه جراءة ، وقد قال الحسن لابن سيرين : تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب ! فقال له : تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل ! وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة ، وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم ، وتكلم أهل النقل فى صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك ، ولا رخصة فى تعيين الأسباب والناسخ والمنسوخ إلا بنقل صحيح أو برهان صريح ، وإنما الرخصة فى تفهيم ما تفهمه

---

(١) سئل أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن « الكلالة » التى وردت فى سورة النساء ، ولم يكن عنده خبر عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أى سماء تظلنى – إلخ » يستعظم أن يتهجم على القول فى معانى ألفاظ القرآن من عند نفسه

العرب بطباعها من لغة و إعراب و بلاغة لبيان إعجاز ونحوها ، انتهى .

ترجمات قصار للمقرى جد المؤلف

ولنرجع إلى بقية أنباء مولاى الجد رحمه الله — فنقول : قال صاحب « نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج » ما صورته : محمد بن محمد بن أحمد القرشى التلمسانى الشهير بالمَقَّرى — بفتح الميم ، وتشديد القاف المفتوحة — كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبى فى كتابه « العلوم الفاخرة » وضبطه ابنُ الأحمر فى فهرسته وسيدى أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف ، الإمام ، العلامة ، النظار ، المحقق ، القدوة الحجة ، الجليل ، الرحلة ، أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات ، قاضى الجماعة بفاس ، ذكره ابن فَرْحُون فى الأصل ، يعنى الديباج ، وأثنى عليه ، انتهى .

وقال الخطيب ابن مرزوق : كان صاحبنا المقرى معلوم القدر ، مشهور الذكر بالخير ، تبعه بعد موته من حسن الثناء ، وصالح الدعاء ، ما يُرْجَى له النفع به يوم اللقاء ، وعوارفه معلومة عند الفقهاء ، ومشهورة بين الرعاء ، انتهى

وقال أبو العباس الونشريسى فى بعض فوائده : ومَقَّرة — بفتح الميم ، بعدها قاف مفتوحة مشددة — قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال أفريقة ، سكنها سَلَفُه ، ثم تحوّلوا إلى تِلمِسّان ، وبها وُلد الفقيه المذكور ، وبها نشأ ، وقرأ وأقرأ ، إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلى العنانى أمير المؤمنين فارس عام تسعة وأربعين وسبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة ، فولاه القضاء ، فنهض بأعبائه علما وعملا ، وحمدت سيرته ، ولم تأخذه فى الله لومة لائم ، إلى أن توفى بها إثر قدومه من بلاد الأندلس فى غرض الرسالة لأبى عنان عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، ثم نقل إلى مسقط رأسه تلمسان .

وقال فى موضع آخر : إنه توفى رحمه الله تعالى يوم الأربعاء التاسع والعشرين

من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، بمدينة فاس المحروسة ، ثم نقل إلى تلمسان محل ولادته ومقر أسلافه ، ودفن بها فى البستان الملاصق لقبلى داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور ، وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبى يحيى الشريف ، انتهى .

ومن أخبار مولاى الجد رحمه الله تعالى ، أنه قال : شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وكانت جمعة ، وقام الخطيب فى سابع ذى الحجة فى الناس بالمسجد الحرام ، وقال : إن جمعة وقفتكم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التى وقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع آخر عشر من الهجرة ، وشاع ذلك فى الناس وذاع(١) ، وكان علم ذلك مما تواتر عندهم ، والله أعلم ، وهم يزعمون أن الجمعة تدور على خمس سنين ، وهذا مناف لذلك ، ولكن كثير منهم ينكر اطراد هذا ويقول : إنها قد تكون على خلاف ذلك ، فلا أدرى .

ومنها أنه قال : شهدت شمس الدين بن قيم الجوزية مقيم الحنابلة بدمشق ، وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام « من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار » كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة ؟ فقال : موت الولد حجاب ، والكبيرة خرق لذلك الحجاب ، وإنما يكون الحجاب حجابا مالم يخرق ، فإذا خرق فقد زال عن أن يكون حجابا ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الصوم جُنَّة »(٢) مالم يخرقها ، ثم قال : وهذا الرجل أكبر أصحاب تقى الدين ابن تيمية .

ومن أخبار مولاى الجد الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه : أنه كان يحضر مجلس السلطان أبى عنان لبث العلم ، وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا

---

(١) ذاع : انتشر خبره حتى علمه كل أحد

(٢) الجنة ـ بضم الجيم وتشديد النون ـ الوقاية

دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميعُ مَنْ فى المجلس إجلالا له ، إلا الشيخ المقرى ، فإنه كان لا يقوم فى جملتهم ، فأحس النقيب من ذلك ، وشكاه إلى السلطان ، فقال له السلطان : هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله ، إلى أن ينصرف ، فدخل النقيب فى بعض الأيام على عادته ، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس ، فنظر إلى المقرى ، وقال له : أيها الفقيه ، مالك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهلُ مجلسه إكراما لجدى ولشرفى ؟ ومن أنت حتى لا تقوم لى ؟ فنظر إليه المقرى وقال له : أما شرفى فمحقق بالعلم الذى أنا أبثه ، ولا يرتاب فيه أحد ، وأما شرفك فمظنون ، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة ، ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا ، وأشار إلى السلطان أبى عنان ، وأجلسناك مجلسه ، فسكت ، انتهى .

قال ابن الأزرق : وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون ، فمن معنى ذلك أيضاً ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدى السلطان أبى عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم ، فلما وصل إلى أحاديث « الأئمة من قريش » قال الناس : إن قال الشيخ « الأئمة من قريش » وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان ، وإن وَرَّى وقع فى محظور ، فجعلوا يتوقعون له ذلك ، فلما وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان : والجمهور أن الأئمة من قريش ، ثلاثا ، ويقول بعد كل كلمة : وغيرهم مُتَغَلِّبٌ (١) ، ثم نظر إلى السلطان وقال له : لا عليك ، فإن القرشى اليوم مظنون ، أنت أهل للخلافة ، إذ بعض الشروط قد توفرت فيك والحمد لله ، فلما انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار ، انتهى .

قال أبو عبد الله بن الأزرق: قلت : ويلزم أيضاً من اعتذاره أن قيام السلطان لذى الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة على تعظيم حرمات الله ، وقد روى عن

---

(١) ومع كونه متغلبا فالأمة مأمورة أن تسمع له وتطيع ، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

بعض الأمراء أنه تكبر على ذلك ، واستخف بمنزلة من عظم به غيره ، فسلبه الله ملكه وملك بنيه من بعده ، انتهى .

ومن أجوبة مولاى الجد رحمه الله تعالى قوله : سألنى السلطان عمن ألزمته يميناً على نفى العلم فحلف جهلا على البت ، هل يعيد أم لا ؟ فأجبته بإعادتها ، وقد كان مَنْ حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد ، لأنه أتى بأ كثر مما أمر به على وجه يتضمنه ، فقلت له : اليمين على وجه الشك غَمُوس ، قال ابن يونس : والغموس : الحلف على تعمد الكذب ، أو على غير يقين ، ولاشك أن الغموس محرمة منهى عنها ، والنهى يدل على الفساد ، ومعناه فى العقود عدم ترتب أثره ؛ فلا أثر لهذه اليمين ، ويجب أن تعاد ، وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن أذْنُهَا السكوت ، فتكلمت هل يجتزى بذلك ؟ والإجزاء هنا أقرب ، لأنه الأصل ، والصمات رخصة لغلبة الحياء ، فإن قلت : البت أصل ، ونَفْيُ العلم إنما يعتبر عند تعذره ، قلت : ليس رخصة كالصِّمات .

ومنها أنه قال : سألنى بعضُ الفقهاء عن السبب فى سوء بخت المسلمين فى ملوكهم ، إذ لم يَلِ أمْرَهم من يسلك بهم الجادة[1] ويحملهم على الواضحة[2] ، بل من يغتر فى مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، ولا يراعى عهداً ولا حرمة ، فأجبته بأن ذاك لأن المُلْكَ ليس فى شريعتنا ، وذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعا ، قال الله تعالى ممتنا على بنى إسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك فى هذه الأمة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ـ الآية) وقال تعالى (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال سليمان (رب اغفر لى وهب لى

---

(١) الجادة ـ بتشديد الدال ـ أصلها الأرض الموطأة الممهدة ، ويراد بها الطريقة المعروفة التى كان يسير عليها سلف هذه الأمة .

(٢) الواضحة : البينة المعالم التى لا التباس فيها .

ملـكا) فجعلهم الله تعالى ملوكا ، ولم يجعل فى شرعنا إلا الخلفاء ، فكان أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إن لم يستخلفه نصاً ، لـكن فهم الناس ذلك فهماً ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عُمَرَ ، فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد ، إلى سبيل الخـلافة الذى هو النظر والاختيار ، ونَصَّ فى ذلك على عهده ، ثم اتَّـفق أهل الشُّورَى على عثمان (١) ، فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليـــل على أنها ليست ملـكا ، ثم تعين على بعـــد ذلك ، إذ لم يبق مثلُه ، فبايعه مَنْ آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول مَنْ حوَّل الخلافة ملـكا ، والخشونة لينا ، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثا ، فلما خرج بها عن وَضْعها لم يستقم ملك فيها ، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان خليفة لا ملـكا ، لأن سليمان رحمه الله تعالى رغب عن بنى أبيه إيثارًا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يَسْلك طريق الاستقامة بالناس قَطُّ إلا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل ، وغالبُ أفعاله غير مرضية ، انتهى .

وفوائد مولاى الجد وتُحَفُه وطُرَفه ولطائفه ودقائقه يستدعى استقصاؤهـا مجلداتٍ ، فلنكتف بما قدّمناه .

* وفى الإشارة ما يغنى عن الـكلم *

مؤلفات المقرى الـكبير

وأما تآليفه فكثيرة : منها كتاب «القواعد» اشتمل على ألف قاعدة ومائتى قاعدة ، قال العلامة الوانشريسى فى حقه : إنه كتاب غزير العلم ، كثير الفوائد ، لم يسبق إلى مثله ، بَيْدَ أنه يفتقر إلى عالم فتاح ، انتهى .

---

(١) أهل الشورى : الستة الذين عينهم عمر رضى الله عنه ليختاروا منهم واحدا يكون خليفة المسلمين ، وهم : علي ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، رضى الله عنهم !

وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة ، وهو قليل بهذه الديار المشرقية ، ولم أر منه بمصر إلا نسخة عند بعض الأصحاب ، وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور ، وأما قول لسان الدين فى «الإحاطة» عند تعرضه لذكر تآليف مولاى الجد ما صورته «ألف كتابا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمنها كل أصل من الرأى والمباحثة» فهو غير القواعد بلا مِرْيَة .

ومنها كتاب «الطرف والتحف» غاية فى الحسن والظرف ، قاله الونشريسى ، وقد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجاب .

ومنها «اختصار المحصل» ولم يكمله ، وشرحه لجمل الخونجى ، كذلك ، ومنها كتاب «عمل من طَبَّ لمن حَبَّ» وهو بديع فى بابه، مشتمل على أنواع : الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث الشهاب وسراج المهتدين لابن العربى ، والنوع الثانى منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه فى غاية الإفادة ، والثالث فى قواعد وأصول ، والرابع فى اصطلاحات وألفاظ ، قال الونشريسى : وقد أطلعنى الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب ، فتلطفت فى استنساخها ، فلم يسمح به ، انتهى

قلت : وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف ، وفيه يقول مولاى الجدّ رحمه الله تعالى :

هذا كتاب بديع فى محاسنه ضمنته كل شىء خِلْتُهُ حسنا
فكل ما فيه إن مَرَّ اللبيبُ به ولم يشمّ عبيرا شَامَ منه سَنَا(١)
فخذه واشدد به كف الضنين وذُدْ ، حتى تحصله ، عن جفنك الوَسَنَا(٢)

وهذه الأبيات كافية فى وصف هذا الكتاب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذى فيه

(١) العبير — بفتح العين — طيب الرائحة ، وشام : نظر ، وأصله فى نظر البرق ليعرف أين يقع مطره ، والسنا — بالقصر — الضوء .

(٢) ذد : الأمر من «ذاد الشىء يذوده» طرده . والوسن : النوم، وهو مفعول ذد

ومنها كتاب « المحاضرات » وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير ، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين ، فلنذكر منه بعض الفوائد ، فنقول :

قال رحمه الله تعالى : قيل لصوفى : لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال نَفْيُ العيب حيث يستحيل العيب عيب ، وهذا إن لم يكن فى هذه الكلمة لأنها أفضلُ ما قالته الأنبياء فهو فى كثير من التنزيه الذى يطلقه المتكلمون وغيرهم ، حتى قال الشاشى عنهم : إنهم يتمندلون بأسماء الله عز وجل ، ما عَرَفَه من كَيَّفه ، ولا وَحَّده من مَثَّله ، ولا عَبَده من شبهه ، المشبِّه أعشى ، والمعطِّل أعمى ، المشبه متلوث بفرث التجسيم ، والمعطِّل نجس بدم الجحود ، ونصيبُ المحق ابن خالص وهو التنزيه ، انزل من علو التشبيه ، ولا تَعْلُ قُلَلَ أباطيل التعطيل ، فالوادى المقدس بين الجبلين .

أبو المعالى : من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مُشَبِّه ، ومن سكن إلى النفى المحض فهو مُعَطل ، ومن قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد ، جل رب الأعراض والأجسام ، عن صفات الأعراض والأجسام ، جل ربى عن كل ما اكتنفته لحظاتُ الأفكار والأوهام ، برئ الله من هشام وممن قال فى الله مثل قول هشام(١) .

الدقاق : المريد صاحب وَلَه ، لأن المراد بلا شَبَه ، وقيل : مثله الأعلى (ليس كمثله شىء) .

الجنيد : أشرفُ كلمة فى التوحيد قول الصديق : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

القُشَيْرى : يعنى أن العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه .

---

(١) هشام : أراد به هشام بن عمرو الفوطى ، وهو قدرى ، وله نحلة وفرقة تنسب إليه ، وكل مقالته جحد وإنكار لما أثبته القرآن الكريم ، لا جرم كان حقيقا بما دعا به عليه ، برىء الله منه وممن قال مثل مقالته !

غيره : ما عرف الله سوى الله ، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

كل ما ترتقى إليه بوهم من جلال وقدرة وثناء
فالذى أبدع البرية أعلى منه ، سبحان مبدع الأشياء !

سئل المريسى الشافعى عن التوحيد بحضرة الرشيد ، فقال : أن لا تتوهمه ولا تتهمه ، فأبهت .

الشبلى : من توهم أنه واصل ، فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، ومن أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، وما تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

ما ينتهى نظرى منهم إلى رتب فى الحسن إلا ولاحت فوقها رُتَبُ(١)

الجريرى : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

الحسن : العجز عن درك الإدراك إدراك

تبارك الله وارت غَيْبَهُ حُجُبٌ فليس يعرف إلا اللهُ ما اللهُ(٢)

دعانى إلى الله عز وجل بحقيقة التوحيد ، فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد ، فعجب من ذلك ، فأوحى الله عز وجل إليه : تريد أن تستجيب لك العقول ؟ قال : نعم ، قال : احْجُبْنِى عنها ، قال : كيف أحجبك وأنا أدعو إليك ؟ قال : تكلم فى الأسباب ، وفى أسباب الأسباب ، فدعا الخلق من هذا الطريق ، فاستجاب له الجم الغفير .

---

(١) لاحت : ظهرت وبدت .

(٢) وارت غيبه : حجبته .

ومنه : سمع أعرابى اختلافَ المتكلمين بمسجد البصرة فى الإنسان وانتزاع كل واحد منهم الحجة على رأيه ، فخرج وهو يقول :

إن كنت أدرى فعلىّ بَدَنَهْ مِنْ كثرة التخليط فىّ مَنْ أَنَهْ[1]

ومَنْ عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه، فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه ؟ من عرف نفسه عرف ربه .

ومنه : دع مايسبق إلى القلوب إنكارُهْ ، وإن كان عندك اعتذارُهْ[2] .

لما احتُضِرَ الوليد بن أبان ، قال لبنيه : هل تعلمون أحدا هو أعلم بالكلام منى ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أوصيكم بما عليه أهل الحديث ، فإنى رأيت الحق معهم . وعن أبى المعالى نحوه .

ومنه : هجر أحمدُ المحاسبىَّ لما صنف فى علم الكلام ، فقال : إنما قصدت إلى نصر السنة ، فقال : ألست تذكر البدعة والشبهة ؟ قلت : من تحقق كلام فخر الدين الرازى وجده فى تقرير الشبهة أشد منه فى الانفصال عنها ، وفى هذا مالا يخفى .

ومنه : مَنْ آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خُوَار العجل ، ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلهية لمنتهى وسع القوة البشرية لم يكترث بوعيد الدنيا ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى .

ومنه : على بن الحسين : مَنْ عرف الله بالأخبار ، دون شواهد الاستبصار والاعتبار ، اعتمد على ما تلحقه التهم .

ومنه : قيل لطبيب : بم عرفت ربك ؟ قال : بالإهليلج ، يجفف الحلق ، ويلين البطن ، وقيل لأديب : بم عرفت ربك ؟ قال : بنحلة فى أحد طرفيها عسل ، وفى الآخر لسع ، والعسل مقلوب اللسع ، وسأل الدهرية الشافعى عن دليل الصانع ،

(١) هذا البيت من شواهد النحاة على لحاق هاء السكت للضمير فى قوله «أنه»
(٢) نظير هذا قولهم : من وقف في مواقف التهم فلا يلومن إلا نفسه

فقال : وَرَقَة الفرصاد(١) تأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم ، والنحل فيكون منها العسل ، والظِّباء فينعقد فى نوافجها المسك ، والشاء فيكون منها البعر ، فآمنوا كلهم ، وكانوا سبعة عشر .

قيل لأعرابى : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والروث يدل على الحمير ، وآثار الأقدام تدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، و بحار ذات أمواج ، أما يدل ذلك على العليم القدير :

قد يستدل بظاهر عن باطن حيث الدخان يكون مَوْقِدُ نارِ

قيل لأعرابى : بم عرفت الله ؟ قال : بنقض عزائم الصدور ، وسوق الاختيار إلى حبائل المقدور .

ومنه : الدقاق : لو كان إبليس بالحق عارفا ، ما كان لنفسه بالإضلال والإغواء واصفاً .

ومنه : التوحيد محو آثار البشرية ، وتجديد صفات الألوهية ، الحق واحد فى ذاته لاينقسم ، واحد فى صفاته لا يُماثَل ، واحد فى أفعاله لايشارك ، لو كان موجوداً عن عدم ، ما كان موصوفا بالقدم ، الحياة شرط القدرة ، دلت على ذلك الفطرة ، لولم يكن الصانع حياً ، لاستحال أن يوجد شيئاً ، لولم يكن باقياً ، لكان للألوهية منافياً ، لو كان البارى جسما ، ما استحق الإلهية أسماً ، لو كان البارى جوهراً ، لكان للحيز مفتقراً ، العَرَضُ لا يبقى ، والقديم لا يتغير ولا يفنى ، لولم يكن بصفة القدرة موصوفا ، لكان بِسمة العجز(٢) معروفا ، لولم يكن عالما قادراً ، لاستحال كونه خالقاً فاطراً ، دلت الفطرة والعبرة ، أن الحوادث لا تحصل إلا من ذى قُدْرَة ، لولم يكن بالإرادة قاصداً ، ما كان العقل بذلك شاهداً ، مَنْ تنوع إيجاده ، دل ذلك على

(١) الفرصاد ــ بزنة القرطاس ــ التوت

(٢) السمة : العلامة

أن الفعل مُرَاده ، لولم يكن بالسمع والبصر موصوفا ، لكان لضديهما مألوفا ، لو جاز سامع لا سَمْعَ له ، لجاز صانع لا صنع له ، لو كان سمعه بأذن ، لافتقرت ذاته إلى ركن ، مَنْ صدرت عنه الشرائع والأحكام ، كان موصوفا بالكلام ، ليس فى الصفات السبع ما لا يتعلق إلا الحياة ، ولا ما يؤثِّر إلا القدرة والإرادة ، كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يحب ، لا يُسْأل عما يفعل ، الواحد كاف ، ومازاد عليه متكاف ، ليس مع الله تعالى موجودات لأن الموجودات كلها كالظل ، من نور القدرة له نور التبعية ، لا رتبة المعية .

إن من أشرك بالله جَهُولٌ بالمعانى
أحول العقل ؛ لهذا ظن للواحد ثانى (١)

قال جعفر بن محمد : لو كان على شئ لكان محمولا ، ولو كان فى شىء لكان محصوراً ، ولو كان من شىء لكان مُحْدَثا .

قيل لثمامة بن الأشرس : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ فقيل : فلم كفر الكافر ؟ فقال : الجواب عليه .

قال خادم أبى عثمان : قال لى مولاى : يامحمد ، لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب ؟ قال : أقول بحيث لم يزل ، قال : فإن قيل لك فأين كان فى الأزل ؟ فقال : أقول بحيث هو الآن ، فنزع قميصه وأعطانيه .

قيل لصوفى : أين هو ؟ فقال : محقك الله ! أيطلب مع العين أين ؟ .

ومنه ، سمعت شيخنا يقول : نقصُنا صفة كمال له فينا ، يعنى إذا وجب له كل الكمال وجب لنا كل النقص ، وهذا على أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وفيه كلام .

---

(١) أحول العين يرى الواحد اثنين ، فاستعار هـذا الحول للعقل ، يريد أن المشرك منتكس الطبيعة غير جار مع الفطرة المستقيمة

ومنه : بلغ أحمدَ أن أبا ثور قال فى الحديث « خلق الله آدم على صورته » إن الضمير لآدم[1]، فهجره ، فأتاه أبو ثور ، فقال أحمد : أى صورة كانت لآدم يخلقه عليها ؟ كيف تصنع بقوله « خلق الله آدم على صورة الرحمن » فاعتذر إليه ، وتاب بين يديه .

ومنه : أتى يهودى المسجد فقال : أيكم وَصِىُّ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأشاروا إلى الصديق ، فقال : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى أو وصى نبى ، قال : سل ، قال : فأخبرنى عما ليس لله ، وعما ليس عند الله ، وعما لا يعلمه الله ، فقال : هذه مسائل الزنادقة ، وهَمَّ بقتله ، فقال ابن عباس : ما أنصفتموه ، إما أن تجيبوه و إما أن تصرفوه إلى مَنْ يجيبه ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى « اللهم اهْدِ قلبه ، وثبت لسانه » فقال أبو بكر : قم معه إلى على ، فقال له : أما مالا يعلمه الله فقولكم فى عُزَير إنه ابن الله ، والله عز وجل لا يعلم له ولداً ، قال فى التنزيل (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ الآية) وأما ماليس عند الله فالظلم ، وأما ما ليس له فالشريك ، فأسلم اليهودى ، فقبَّلَ أبو بكر رأسَ على ، وقال له : يامفرج الكربات ، ووردت مثل هذه المسائل عن الصحابة ، فالله تعالى أعلم .

وقال العتابى لأبى قرة النصرانى عند المأمون : ما تقول فى المسيح ؟ قال : من الله ، قال : البعض من الكل على سبيل التَّجَزِّى ، والولد من الوالد على طريق التناسل ، والخل من الخمر على وجه الاستحالة ، والخلق من الخالق على جهة الصنعة ، فهل من معنى خامس ؟ قال : لا ، ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول ؟

---

(١) على هذا يكون المعنى أن الله تعالى خلق آدم على الصورة التى اقتضى علمه الأزلى أن يكون آدم عليها ، وهو معنى ليس فيه إلا الابتعاد عن التشبيه

قال : البارى لا يتجزأ ، ولو جاز عليه ولد لجاز له ثان وثالث وهلم جرا ، ولو استحال فسد ، والرابع مذهبنا ، وهو الحق

ومنه : أول ما تكلم به عيسى فى المهد أن قال : (إنى عبد الله) وهو حجة على الغالينَ فيه [1] ، يقال لهم : إن صدق فقد كذبتم ، و إلا فمن عبدتم ؟ ولمن ادعيتم ؟

قال القاضى ابن الطيب للقسيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم : لم اتحد اللاهوت بالناسوت ؟ فقال : أراد أن يُنْجِيَ الناس من الهلاك ، قال: فهل درَى أنه يقتل و يصلب أولا ؟ فإن لم يدر لم يجز أن يكون إلٰها ولا ابنا ، و إن درى فالحكمة تمنع من التعرض لمثل ما قلتم إنه جرى .

سأل القاضى هذا البطرك عن أهله وولده ، فأنكر ذلك النصارى [2] ، فقال : تُبَرِّئون هذا مما تثبتونه لربكم ؟ سوأةً لهذا الرأى ، فانكسروا .

ابن العربى : سمعت الفقراء ببغداد يقولون : إن عيسى عليه السلام كان إذا خلَقَ من الطين كهيئة الطير طار شيئا ثم سقط ميتا لأنه كان يخلق ولا يرزق ، ولو رزق لم يبق أحدٌ إلا قال « هو الله » إلا من أوتى هداه .

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال : مع الأنبياء بالنظر والكلاءة (إننى معكما) ومع العامة بالعلم والإحاطة (إلا وهو معهم) فقال : مثلُكَ يصلح دليلا على الله .

ومنه : سأل قدرى عليا رضى الله عنه عن القدرة ، فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : أخَلَقَكَ كيف شئت ، أو كيف شاء ؟ فأمسك ، فقال : أترونه يقول كيف شئت ؟ إذن والله أقتله ، فقال : كيف شاء ، قال : أيحييك كيف تشاء أو كيف يشاء ؟ قال:

---

(١) الغالين فيه : من الغلو ، وهم الذين قالوا بألوهيته أو بكونه ابن الله

(٢) ذلك لأن رجال الدين الكثالكة من النصارى لا يتزوجون ولا يتناسلون وفى غير هذا المذهب يباح لرجال الدين أن يتزوجوا لكن لا يبلغ من تزوج منهم أن يكون مطرانا أو بطركا

كيف يشاء ، قال : فيدخلك حيث تشاء أوحيث يشاء ؟ قال : حيث يشاء ، قال : اذهب فليس لك من الأمر شيء .

أبوسليمان : أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، جل حكم الأزل ، أن يضاف إلى العلل ، سبق قضاؤه فعله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وأوقفت مشيئته أمره (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) .

قال الشاذلى : أهْبَطَ آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه ، لأنه قال (فى الأرض) ولم يقل فى السماء ولا فى الجنة .

الأوزاعى : قضى بما نهى ، وحال دون ما أمر ، واضطر إلى ما حرم .

ألْقَاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء[1]

قال الأوزاعى لغَيْلاَن : مشيئتك مع مشيئة الله عزوجل أودونها ؟ فلم يجب ، فقال هشام بن عبد الملك : فلواختار واحدة ، فقال : إن قال معها فقد زعم أنه شريك ، و إن قال وحدها فقد تفرد بالربوبية ، قال: لله درك أبا عمرو .

من بيان عظمته (رفيع الدرجات) من آثار قدرته (رفيع السموات) توقيع أمره (يأمر بالعدل والإحسان) واقع زجره (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) تنفيذ حكمه (فعال لما يريد) دستور ملكه (لا يسأل عما يفعل) .

إياس بن معاوية : ما خاصمت أحداً بعقلى كله إلا القدرية ، قلت لقدرى : ما الظلم ؟ فقال : أخذ ماليس لك ، قلت : فإن الله له كل شيء .

الواسطى : ادعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على الستر ، تقول ماشئت فعلت .

ومنه : من أقصته السوابق لم تُدْنِه الوسائل ، إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل

(١) هذا كلام المجبرة الذين يقولون : ليس للعبد شيء أصلا لا إيجاد لفعله ولا كسب ، والمعتزلة يرون أن العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية ، ومذهب أهل السنة وسط بين المذهبين ، فلا يقولون : العبد خالق ، ولايقولون : مجبر ، وإنمايقولون : الخلق لله ، والعبد كاسب

إذا كان الله عز وجل عدلا فى قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم .

ما عذر معتزلىّ موسرٍ منعت كفاه معتزليا معسراً صَفَدَا[(١)]

أيزعُمُ القدرَ المحتوم ثبَّطه إن قال ذاك فقد حلَّ الذى عَقَدَا

ومنه : دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال : ما تقول فى القـدر ؟ قال : تفكر فى جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلا عن القدر .

وكل من أغرق فى نَعْتِهِ أصبح منسوباً إلى العِيِّ[(٢)]

المقادير ، تبطل التقدير ، وتنقض التدبير .

قال معتزلى لسنى : لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) فقال السنى : لو لم يكن الإيمان من فعله لم يقل (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) .

قال نقفور طاغية النصارى لأبى الحسن الشلبانى : أنت تقول إن الخير والشر من الله ؟ وذلك لأن النصارى كلهم على مذهب القدرية فى الاستطاعة ، قال : نعم ، قال : كيف يعذب عليه ؟ هل كان حقاً عليه أن يخلق ؟ فقال : لم يضطره إلى ما خلق مضطر .

قيل : نزلت (وما أضلّنا إلا المجرمون) فى القدرية ، لأنهم أضافوا الحول والقوة فى الشر إلى البشر فأشركوهم فى الخلق ، أما ترى قوله تعالى : (إن المجرمين فى ضلال وسُعُر) إلى قوله تعالى : (إنا كل شىء خلقناه بقدر) .

كنت دهراً أقول بالاستطاعه وأرى الجـبر ضَلَّةً وشناعه[(٣)]

ففقدت استطاعتى فى هوى ظَبْـيٍ ، فسمعًا لمن أحب وطاعـه

غيره :

---

(١) الصفد ـ بفتح الصاد والفاء جميعا ـ العطاء

(٢) أغرق : بالغ وغالى ، لأن ذات الله لا تدرك حقيقتها ، وصفاته لا تدرك حقائقها ، وكل ما ندركه إنما هو آثارها (٣) فى ب « وأرى الخير ضلة »

مالا يكون فلا يكون بحيلة أبدا ، وما هو كائن سيكون

غيره :

تريد النفس أن تُعْطَى مناها ويأبى الله إلا ما يشاء

شفاء الصدور ، فى التسليم للمقدور .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأْىَ للمضطر إلا ارتكابها[1]

غيره :

أى يَوْمَىَّ من الموت أفر يوم لا يُقْدَر[2] أم يوم قدر

إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء .

قال الحائط للوتد : لم تَشُقُّنِى ؟ قال : سل من يَدُقُّنِى .

الناس يَلْحَوْنَ الطبيب ، وإنما غَلَطُ الطبيب إصابة المقدور[3]

قيل لحكيم : أخرج الهم من قلبك ، فقال : ليس بإذنى دخل .

نفسى تنازعنى فقلت لها قرى موت يريحك أو صعود المنبر

ما قد قضى سيكون فاصطبرى له ولك الأمان من الذى لم يُقْدَرِ

ولْتَعْلَمِى أن المقدَّر كائن لابد منه صبرت أو لم تصبرى

ومنه : الهارب من المقدور كالمتقلب فى كف الطالب . من كان السلطان يطلبه ، ضاق عليه مذهبه (وما أنتم بمعجزين) . أسلى آية فى التنزيل (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم ، إلى قوله تعالى : بما آتاكم) .

ومنه : أخلَّ رجل بخدمه صاحب الإسكندرية ، فتغيب ، ثم ظفر به عرفاؤه ، فقادوه ، فانساب منهم ، ورمى بنفسه فى بئر ، وتحت الإسكندرية أسرابٌ يسير فيها القائم من أول البلد إلى آخره ، فلم يزل يمشى حتى وجد بئراً صاعدة ، فتعلق

---

(١) حفظى فى عجز هذا البيت * فلا يسع المضطر إلا ركوبها *

(٢) ينسب هذا البيت إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه !

(٣) البيت لابن الرومى ، وصواب عجزه « إصابة الأقدار »

بها ، فإذا هى فى دار السلطان ، فأخذه فأدبه ؛ فانظر كيف فرَّ من قَوَدَة السلطان مكرها ، وأتاه برجله طائعاً .

* ذهب القضاء بحيلة العقلاء *

ومنه : قال يزيد بن المهلب لموسى بن نُصَير : أنت أدهى الناس وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان ؟ فقال : إن الهُدْهُد يهتدى للماء فى الأرض الفيْفَاء ، وينصب له الصبىُّ الفخَّ بالدودة أو الحبة فيقع فيه .

ولو جرَت الأمور على قياسٍ لوُقِّىَ شرَّهَا الفطِنُ اللبيبُ

الواسطى : اختيار ما جرى لك فى الأزل ، خير من معارضة الوقت .

ابن معاذ : عجبت من ثلاثة : رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله غدُه ، وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

ومنه : شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذى أهل زمانها ، فأوحى الله إليه : أن فر من قدامها حتى تنقضى أيامها .

ومنه : ابن المعتز : كَرَمُ الله عز وجل لاينقض حكمته ، ولذلك لا تقع الإجابة فى كل دعوة (ولو اتبع الحق أهواءهم) .

أريد فلا أُعْطَى ، وأُعطَى ولم أُرِدْ وقصَّرَ علمى أن أنالَ المغيَّبا

ومنه : كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم :

أيها المعتدى ليطلب علما كُلُّ علم عَبْدٌ لعلم الكلام
تطلب الفقه كى تُصَحِّح حكما ثم أغفلت مُنْزِلَ الأحكام (١)

ومنه : قال الأحدب البغدادى للقاضى الباقلانى : هل لله عز وجل أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ؟ فقال : إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد ،

---

(١) ذلك لأن علم الكلام هو العلم الباحث عن ما يجب لله تعالى ، ومايستحيل عليه ، وما يجوز ، وعما يجب أن يتصف به الأنبياء ، وما يستحيل أن يتصفوا به ، وما يجوز فى حقهم ، فمن لم يتعلق بسبب منه فإنه يكون قد أغفل من ينزل الأحكام

(قُلْ كونوا حجارة) (أنبؤنى بأسماء هؤلاء) (ويُدْعَوْنَ إلى السجود فلايستطيعون) وإن أردتم به ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض ، وهذا هو الذى نعرفه ، لأن التكليف اقتضاء فعل مافيه مشقة ، ومالا يُطَاق لايفعل البتة [1] ، فقال : سئلت عن كلام مفهوم فطرحته فى الاحتمالات ، فقال : إنى بينت الوجوه المحتملة ، فإن كان معك شيء فهاته ، فقال عضد الدولة : قد صدق ، وما جمعتكم إلا للفائدة ، لا للمُهَاترة ، ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلى : تكلم ، فقال : مالا يطاق على ضربين : أحدهما مالا يطاق للاشتغال بضده ، وهذا سبيل الكافر ، لا يطيق الإيمان للاشتغال بالكفر ، وأما العاجز فما ورد فى الشريعة تكليفه ، ولو ورد لكان جائزاً ، وقد أثنى الله عز وجل على مَنْ سأله أن لا يكلفه مالا يطيقه فقال (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) لأن الله له أن يفعل فى ملكه مايريد .

ومنه : خرج عمر بن عبد العزيز فى سفر ليلا ، فقال له رجل : أُنظر إلى القمر ما أحسنه ، فنظر فقال : قد علمت أنك أردت نزوله بالدَّبَرَانِ ، ونحن لا نتطير بذلك ولا نعتقده .

إذا عقد القضاء عليك أمراً — فليس يحله إلا القضاء
يدبر بالنجوم وليس يدرى — ورب النجم يفعلُ ما يشاء

وقال :

ليس للنجم إلى ضر ولا نفع سبيل
إنما النجم على الأو — قات والسَّمْتِ دليلُ

وقال :

من كان يخشى زُحَلا — أو كان يرجو المشترى

(١) المحال علي ضربين : محال لذاته ، ومحال لغيره ، والتكليف بالمحال جائز عقلا عند أهل السنة ؛ لأنه لا يلزم من التكليف به أن يكون الغرض أن يفعله المكلف ومع قولهم بتجويز ذلك عقلا فإنهم يقولون : إنه لم يقع فى الشريعة التكليف بالمستحيل لذاته ، فاعرف ذلك

فإننى منــــه ـ وإن كان أخى الأدنى ـ بَرِى[1]

لما وَجَّه عضد الدولة القاضى ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير : أخذت الطالع لخروجك ؟ فسأله القاضى عن ذلك ، ففسره له ، فقال : السعد والنحس بيد الله ، ليس للكواكب فيه تأثير ، وإنما وضعت كتب النجوم ليتمعش بها العامة ، ولا حقيقة لها ، فاستحضر الوزير ابن الصوفى ودعاه إلى مناظرة القاضى ، فقال : لا أقدم على المناظرة ، وإنما أقول : إذا كان من النجوم كذا كان كذا ، وأما التعليل فمن علم المنطق ، والذى يتولى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقى ، فأحضر وأمر ، فقال هذا القاضى يقول : إذا ركب عشرة أنفس فى ذلك المركب الذى فى دجلة فالله تعالى قادر على أن يزيد فيهم آخَرَ فى ذلك الوقت ، فإن قلت له لا يقدر قطعتم لسانى ، فأى معنى لمناظرتى ؟ فقال القاضى للوزير : ليس كلامنا فى القدرة ، لكن فى تأثير الكواكب ، فانتقل هذا إلى ما ترى لعجزه ، وأنا إن قلت إن الله تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العادة الآن ، ولا يجوز عندنا ذلك ، فهو فرار من الزحف ، فقال المنطقى : المناظرة دُرْبة ، وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مواضعاتنا ، فقال الوزير : قد قبلنا اعتذارك ، والحق أبلج .

رأس الدين ، صحةُ اليقين . مَنْ سابَقَ القدر ، عَثَر .

وإذا خشيت من الأمور مُقَدَّرا وفررت منـــه فَنَحْوَه تتوجه

قيل : لما وقع الوباء بالكوفة فر ابنُ أبى ليلى على حمار ، فسمع منشدا ينشده :

لن يُسْبَقَ الله على حمار ولا على ذى منسر طيار

أو يأتى الحتف على مقدار قد يُصْبِحُ اللهُ أمام السارى

فقال : إذا كان الله أمام السارى فلا مهرب ، ورجع .

---

(١) برى — بفتح الباء وكسر الراء ـ فعيل من البراءة ، وأصله « برىء » فلما خفف الهمز بقلبها ياء حذفها

ومنه : شكا بعض الصالحين إلى الخليفة ضرر الأتراك ، فقال : أنتم تعتقدون أن هذا من قضاء الله وقدره ، فكيف أرده ؟ فقال : إن صاحب القضاء قال : (ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرض) فردهم عنهم .

القدر والطلب كالعِدْلَين على ظهر الدابة كُلٌّ واحد منهما معين لصاحبه ، فالقدر بالطلب ، والطلب بالقدر .

قيل لعارف : إن كنت متوكلا فألق بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك ، فقال : إنما خلق الله الخلق ليجربهم ، لا ليجربوه .

الجوهرى : كف الله النار عن يد موسى لئلا تقول النار : طبعى ، واحترق لسانه لئلا يقول الكليم : مكانى[1] ، وقال غيره : لو لم يقل لنار إبراهيم «سلاما» لَهَلَكَ من برد النار .

قيل للجنيد : أنطلب الرزق ؟ قال : إن علمتم أين هو فاطلبوه ، قيل : فنسأل الله ؟ قال : إن خشيتم أن ينساكم فذكروه ، قيل : فلنلزم البيوت ؟ قال : التجربة منك شك ، قيل : فما الحيلة ؟ قال : تركُ الحيلة . يقول : ليكن تصرفك بإذنه ، لا بشهوتك ، فقد قيل : تركُ الطلب يضعف الهمة ، ويذل النفس ، ويورث سوء الظن .

الطرطوشى : القدر والطلب كأعمى ومُقْعَد فى قرية ، يحمل الأعمى المقعد ، ويَدُلُّ المقعدُ الأعمى .

قال رجل لبشر : إنى أريد السفر إلى الشام ، وليس عندى زاد ، فقال : أُخرج لما قصدت إليه ، فإنه إن لم يعطك ماليس لك ، لم يمنعك مالك .

الناس فى هذا الباب ثلاثة : فرقة عاملت الله عز وجل على مقتضى شمول قدرته للشر والخير ، وأعرضوا عن الأسباب ، فأدركوا التوكل ، وفاتهم الأدب ،

---

(١) يروى أن موسى صلى الله عليه وسلم كان أمسك النار بيده ووضعها فى فمه ، فلم تحرق يده وأحرقت لسانه ، وأنه أصيب من ذلك بلثغة بقيت معه ، فلم تؤثر النار فى يده كما أثرت فى لسانه لئلا يقال : إن ذلك من طبع النار ، ولم يمنعها الله عن لسانه كما منعها عن يده لئلا يدل بمكانته ، هذا تفسير كلامه .

وهم بعض الصوفية ، وقد قيل : اجعل أدبك دقيقا ، وعلمك ملحا ، وهذا إبليس لم تنفعه كثرة علمه لما دفعته قلة أدبه . وفرقة عاملته على ذلك مع الْجَرَيان على عوائد مملكته ، والتصرف بإذنه على مقتضى حكمته ، وهم الأنبياء وخواص العلماء ، فأصابوا الأدب ، وما أخطؤا التوكل . والفرقة الثالثة ـ وهم الجمهور ـ أقبلوا على الأسباب ، ونَسُوا المسبب ، ففاتهم الأمران ، فهلكوا .

ومنه : جل الواحد المعروف ، قبل الحدود والحروف .

لقد ظَهَرْتَ فما تخفى على أحد إلا على أَكْمَهٍ لا يعرف القَمَرَا(١)

كما بَطَنْتَ بما أبْدَيْتَ من حُجُب وكيف يُبْصَرُ من بالعزة استترا

سئل النصيبى عن الرؤية بمجلس عضد الدولة ، فأنكرها محتجا بأن كل شىء يُرَى بالعين فهو فى مقابلتها ، فقال له القاضى ابنُ الطيب : لا يرى بالعين ، قال له الملك : فبماذا يرى ؟ قال : بالإدراك الذى يُحْدِثه الله فى العين وهو البصر ، ولو أدرك المرئى بالعين لوجب أن يدرك بكل عين قائمة ، وهذا الأجهر عينه قائمة ولا يرى بها شيئاً .

ومنه : ابن العربى : للصوفية فى إطلاق لفظ العشق على الحق تجاوز عظيم ، واعتداء كبير ، ولولا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها ، فكيف أن نتعداها ؟ .

الدقاق : العشق مجاوزة الحد فى الحب ، ولما كان الحق لا يوصف بالحد لم يوصف بالمحدود ، إذ لو جمع محابّ الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقه قَدْرُ الحق من الحب .

خمسة أبهمت ، فلم تعين لعظم أمرها : الاسم الأعظم ، وساعة الجمعة ، وليلة القدر ، والصلاة الوسطى ، والكبائر : لأن اجتنابها يكفر غيرها ، يعنى على أحد الأقوال فى المسألة .

---

(١) الأكمه : الأعمى

ومنه : قيل فى التسعة والتسعين اسما : إنها تابعة لاسم الله ، وهو تمام المائة ، فهى عهد دَرَج الجنة ، لما فى الصحيح من أن دَرَجَها مائة ، بين كل درجتين مسيرة مائة عام ، ولذلك قيل : مَنْ أحصاها دخل الجنة ، وهـذه الأسماء مفضلة على غيرها مما لا يحصى ، ألا ترى قوله عليه السلام فى الصحيح بأسمائه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ؟ .

ذكر القرآن فى أربعة وخمسين موضعا منه ، فلم يشر فى شىء منها إلى خَلْقِه[1] ، وذكر الإنسان فى ثمانية عشر موضعا ثلث ذلك العدد فصرح فى جميعها بخلقه ، قال ابن عطية : وهذا يدل على أنه غير مخلوق .

أبو على بن أبى اللحم : بتُّ ليلةَ جمعةٍ بمصر فى أيام أبى حريش ، وكان يقول بخلق القرآن ، وأبى خلف المعافرى ، وكان يقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، أفكر عن أيهما آخذ ، فلما نمت أتانى آت فقال لى : قم ، فقمت ، قال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ فقال :

لا والذى رَفَعَ السما ء بلا عِمَـادٍ للنظر
فتزينت بالساطعا ت اللامعات و بالْقَمَرْ
والمالئ السَّبْعِ الطِّبا ق بكل مختلف الصور
ما قول خلق فى القُرَا نِ بخَلْقِـهِ إلا كَفَرْ
لـكن كلامٌ مُنْزَل من عند خَلَّاق البشر

ثم قال : أُكتبها ، فأخذت كتابا من كتبى وكتبتها فيه ، فلما أصبحت وجدت

---

(١) القول بخلق القرآن هو قول المعتزلة ، بدأوا به أيام المأمون العباسى ، وكان المأمون ينتصر لهم ، وعذب فيها قوم من رجالات أهل السنة أشهرهم الإمام الورع ناصر السنة أحمد بن حنبل الشيبانى رضى الله تعالى عنه وأرضاه وجزاه عن دين الله وسنة رسوله خير الجزاء (انظر كتابنا : النظم الفريد ، بتحقيق جوهرة التوحيد)

ذلك بخطى على كتاب من كتبى ، فجلست فى البيت إلى الزوال ، ثم خرجت ، فسألنى إنسان عما رأيت البارحة ، فقلت : ما أخبرت أحدا ، فقال : قد شاعت رؤياك فى الناس .

الخواصُّ : انتهيت إلى رجع مصروع ، فجعلت أؤذن فى أذنه ، فنادانى الشيطان من جوفه : دعنى أقتله ، فإنه يقول بخلق القرآن .

عمرو بن دينار : أدركت سبعة من الصحابة يقولون : مَنْ قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قلت : قال مالك : يستتاب .

ومنه : كان عضد الدولة يحب العلم والعلماء ، فكان مجلسه يحتوى على عدد منهم أكثرهم الفقهاء والمتكلمون ، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة ، فقال لقاضيه بشر بن الحسن : إن مجلسنا خالٍ عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبه ، فقال : إنما هم عامة يرون الخير وضده ، و يعتقدونهما جميعاً ، و إنما أراد ذمَّ القوم ، ثم أقبل يمدح المعتزلة ، فقال عضد الدولة : مُحَالٌ أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر فانظر ، قال : بلغنى أن بالبصرة شيخاً يعرف بأبى الحسن الباهلى ، وفى رواية بأبى بكر بن مجاهد ، وشابا بابن الباقلاَّنى ، فكتب إليهما ، فلما وصل الكتاب قال الشيخ : قوم كفرة ، لأن الديلم كانوا رَوَافض ، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، فقال الشاب : كذا قال ابن كلاب والمحاسبى ومَنْ فى عصرهم : إن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه ، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس ، وجرى عليه ما عُرف ، ولو ناظروه لكفُّوه عن هذا الأمر ، وتبين له ما هم عليه بالحجة ، وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد ، و يقولون بخلق القرآن ونفى الرؤية ، وها أنا خارج إن لم تخرج ، قال الشيخ : إن شرح الله صدرك لهذا فاخرج ، فرد الله به الكرة .

حفظ من كلام النبى صلى الله عليه وسلم المنتقى والمرسل أمثال أمثال المنزل ، ثم انتقى من ذلك صحة وفصاحةً ما يبلغ حجم المصحف أو يُرْبِى عليه ، فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه ، أشهد أنه من عند الله ، تنزيل من لدنه .

أول إعجاز القرآن الجهلُ بنوعه من جنس الكلام (١) ، فإنه لا يدخل فى مضمار الشعر ، ولا ينخرط فى سلك الخُطَب ، ولا المواعظ والمقامات والكتب ، ولا فى شىء مما يؤلف التخاطب به ، وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه ، فإن لم يتبين ما رسمت لك فاعرض كلامك فى كل صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالةَ القصور أو المماثلة أو الزيادة ، ولا تجد لكلامك نسبةً إلى القرآن ، بل لا تدرى ما تقول إن طلب منك البيان ، إلا أن تسلب العقل ، كمسيلمة وأمثاله ممن ابتلى بالهذيان ، وقد تفطن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة ، اُنظر السيرة .

الزمخشرى : ما أعجب شأن الضلال ، لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضوا للإلهية بحجر .

سأل القاضى أبا بكرملكُ الروم — حين وجَّهه عضدُ الدولة إليه — عن انشقاق القمر ، كيف لم يره جميعُ الناس ؟ فقال : لأنهم لم يكونوا على أُهْبة ووعد ، قال : فما النسبة التى بينكم و بين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم؟ قال : النسبة التى بينكم وبين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود والمجوس ، فدعا القسيس ، فأقر للقاضى ، فقال له القاضى : أتقول إن الكسوف يراه جميعُ أهل الأرض أم أهل الإقليم الذى فى محاذاته ؟ قال : لا يراه إلا مَنْ فى محاذاته ، قال : فما تنكر مَنْ لا يرى انشقاق القمر إلا فى تلك

(١) يريد أن القرآن جنس متمايز تمام التمايز عن أجناس الكلام ، فلا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو من جنس الخطب ، ولا من جنس الكتب ، ولا من غير هذه من الأجناس المتعارفة ، وقد عرف له ذلك أهل اللسان ، حتى الذين لم يؤمنوا ، وأدركوا أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة ولا غيرهن ، ولكن من لم يؤمن بمن أنزل عليه القرآن كان جاحدا معاندا .

الناحية ممن تأهَّبَ لذلك[١] ؟ قال : هذا صحيح ، إلا أن الشأن فى مثله أن لا ينقل آحاداً ، لكن تواترا ، بحيث يصل العلم الضرورى به إلينا و إلى غيرنا ، وانتفاء ذلك يدل على افتعال الخبر ، فقال الملك للقاضى : الجواب ، فقال : يلزمه فى نزول المائدة ما لزمنا فى انشقاق القمر ، فبُهتَ الذى كفر

قال ملك الروم للقاضى ابن الطيب فى هذه الرسالة : ماتقول فى المسيح ؟ قال : روح الله وكلمته وعبده ، قال: تقولون المسيح عبد ؟ قال : بذلك نَدِينُ ، قال : ولا تقولون إنه ابنُ الله ، قال : ما اتخذ الله من ولد ، قال : العبد يخلق ويحيي و يبرىء ؟ قال : مافعل المسيح ذلك قط ، قال : هذا مشهور فى الخلق ، قال : لا ، قال : ماقال أحد من أهل المعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات ، لكن الله تعالى يفعلها على أيديهم تصديقاً لهم ، قال : إن ذلك فى كتابكم ، قال : فى كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى ، ولو جاز أن يكون ذلك فعلَ المسيح لجاز أن يقال إن موسى قلَبَ العصا ، وأخرج يده بيضاء ، وفلق البحر ، قال : إن الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل مايطلبون ، قال : أفى لسان اليهود عَظْمٌ لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرع لموسى ، وكذلك أمة كل نبى ، لا فرق بين الموضعين فى الدعوى .

الجوزى فى قوله عليه السلام « يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم و إمامكم منكم » إنما كان الإمام منا لئلا يتدنس بغُبَار الشبهة وَجْهُ « لا نَبِيَّ بعدى »[٢] .

كان بالبصرة يهودى يقرر المتكلمين على نبوّة موسى ، فإذا أقروا جحد نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : نحن على ما اتفقنا عليه ، إلى أن نتفق على غيره ، فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال : إن كان موسى هـذا الذى أخبر بمحمد

---

(١) تأهب لذلك : استعد له

(٢) ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا نبى بعدى » وورد أنه قال لعلى بن أبى طالب « أماترضى أن تكون منى بمثابة هارون من موسى غير أنه لانبى بعدى »

صلى الله عليه وسلم وأقر بشرفه وأمر باتباعه فأنا أقر بنبوّته ، وإن كان غيره فأنا لا أعرفه ، فتحير اليهودى ، ثم سأله عن التوراة ، فقال : إن كانت التى نزلت على موسى المذكور فهى حق ، وإلا فهى عندى باطل .

ومنه : قيل للحسن : الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقال : أين أنت من هذه الآية (ولا أقول إنى ملك) ؟ .

ومنه : وعن عُمَر وعلى — رضى الله عنهما ! — أن الخضر لقيهما وعلمهما هذا الدعاء ، وذكر فيه خيراً كثيراً لمن قاله فى أثر كل صلاة : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ومن لا يتبرم(1) على إلحاح الملحِّينَ ، أذقنى بَرْدَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

ومنه : سمع إياس يهودياً يقول : ما أحمق المسلمين ! يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يَتَغَوَّطون ، فقال : أوكل ما تأكله تحدثه ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى يجعل أكثرهُ غذاء ، قال : فما تنكر أن يجعل جميع ما يأكل أهلُ الجنة غذاءً ؟ .

الرزية كل الرزية ، تضييع أمر المرأة الرندية ، وذلك أنه وردت على تلمسان فى العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رُنْدَةُ لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوّط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى بن الإمام ، وتلا (كانا يأكلان الطعام) فأخذ الناسُ يبثُّونَ ثقات نسائهم ودهاتهن إليها ، فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن ، فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت : هل تشتهين الطعام ؟ فقالت : هل تشتهون التبن بين يدى الدوابِّ ؟ وسُئِلت : هل يأتيها شىء ؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش ، فنامت فأتاها

---

(١) يتبرم : يظهر السأم والملالة ، هذا أصله ، وهو هنا لا يقصد به هذا المعنى ، بل هو فى جانب الله تعالى يراد به معنى يليق بجلاله و «ليس كمثله شىء» .

آتٍ فى النوم بطعام وشراب ، فأكلت وشربت ، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت ، فهى على تلك الحال ، تُؤْتَى فى المنام بالطعام والشراب إلى الآن ، ولقد جعلها السلطان فى موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى يجىء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوما ، فلم يوقف لها على أمر ، بيد أنى أردت أن يزاد فى عدد العدول ، ويجمع إليهم الأطباء ، ومن يخوض فى المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ، ويوكل من نساء الفرق مَنْ يبالغ فى كشف من يدخل إليها ، ولا يترك أحد يخلو بها ، وبالجملة يبالغ فى ذلك ، ويستدام رعيها عليه سنة ، لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغنى فى فصل دون فصل ، ثم يكتب هـذا فى العقود ، ويُشَاع أمره فى العالم ، وذلك لأنه يهدم حـكم الطبيعة الذى هو أضر الأحكام على الشريعة ، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة ، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ، ويبطل التأثير والتولد ، ويوجب أن الاقترانات بالعادات ، لا باللزوم ، وعند الأسباب[1] ، لا بها ، إلى غير ذلك ، إلا أنى لما أشرت بهذا انقسم مَنْ أشرت عليه بتبليغه إلى مَنْ لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسا لإيثار الدنيا على الدين ، فإنا لله و إنا إليه راجعون .

وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة ، وحدثنى غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنهـا كانت كذلك ، وأن عائشة بنت أبى يحيى اختبرتها أربعين يوما أيضاً ، وكم من آية أضيعت ، وحجة نسيت ، هذا مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة ، وكذلك الوباء العام القريب فروطه ، يوشك أن يطول أمره ، فينسى ذكره ، ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره ، وكم فيـه أيضاً من أدلة ، على أصول الملة .

---

(١) مذهب أهل السنة أن الله تعالى يخلق المسبب عند وجود السبب ، ومذهب المعتزلة أن المسببات توجد بوجود أسبابها لـكن بخلق الله تعالى ، وفرق بين المذهبين .

ومنه ـ قال شيخ من صالحي الفقهاء في عصرنا بفاس : أبو زرهون عبد العزيز ابن محمد القيرواني رحمه الله تعالى : مات فقير عندنا بالمئذنة ، فوجدوا عنده ربطة من دراهم ، فوضعوها عند المؤذن ، فلما نزل ليلحده سقطت من جيبه في القبر ، ولم يشعر حتى واراه ، فكشف عنه ، فإذا الدراهم قد لصقت ببدنه درهما إلى درهم كالنجوم ، فحاول قَلْعَ واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه ، وتبعها من ذلك المحل ريح منتنة ، قال الشيخ : فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردوا الترب عليه وانصرفوا.

قال عبد الله بن إدريس لغيلان الممرور : متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، غير أنه مَنْ مات فقد قامت قيامته ، قال : فالمصلوب يعذب عذاب القبر ؟ قال : إن حقت عليه الكلمة ، وماتدري لعل جسده في عذاب لاتدركه أبصارنا ولا أسماعنا ، فإن الله لطفاً لا يدرك ، وانظر الحديث « فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم ما أَسْمَعُ من عذاب القبر » .

ومنه ـ المازري : مسألة التكفير بالمال مشكلة ، وقد اضطرب فيها قولُ مالك وهو إمام الفقهاء ، والقاضي أبي بكر ، وهو إمام المتكلمين .

الغزالي : لايقطع بتكفير الفلاسفة إلا في ثلاث مسائل : قدم العالم ، ونفي العلم بالجزئيات ، وإنكار المعاد البدني وتوابعه القطعية

أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات ، والمعتزلة اعتقاد المشهورات قطعيات ، ومن ثم قيل لهم : مخنثة الفلاسفة .

لا يكفي التقليد ، في عقائد التوحيد ، لافرق بين إنسان ينقاد ، وبهيمة تقاد .

ومنه ـ كان أبوهاشم من أفسق الناس ، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء (١) وكان في المجلس مرجيء ، فأنشد :

يَعِيبُ القول بالإرجاء حتى يرى بعض الرجاء من الجرائر

---

(١) الإرجاء في اللغة : التأخير ، وهو مقالة جماعة من المتكلمين ، وحاصلها أنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

وأعظم من ذوى الإرجاء ذنباً وَعِيـدِىٌّ يُصِرُّ على الـكبائر

كان مالك ينشد كثيراً :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشَرُّ الأمور المحدَثاتُ البدائعُ(١)

ابن عقيل : يشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقاً ، فإن صلاح العالم فى إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء ، فلما لم يمكن هذا المائن جَحْدُ الصانع لمخالفة العقل ، أسقط فائدة الإثبات ، وهى الخشية والمراقبة ، وهدم سياسة الشريعة ، فهم شر طائفة على الإسلام .

سئل مالك عن أشر الطوائف ، فقال : الروافض .

بينا ابنُ المعلم شيخُ الرافضة فى بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن الطيب فقال : جاءكم الشيطان ، فسمعه على بعد ، فلما جلس إليهم تلا عليهم (ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الـكافرين تؤزهم أزا)

مالك : أهل السنة مَنْ لا لقب له : لا خارجى ، ولا قدرى ، ولا رافضى .

البديع :

يقولون لى : ما تحب الوصى فقلت : الثَّرَى بفم الـكاذب
أحب النبى وآل النبى وأختص آل أبى طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء وأجْرِى على السَّنَنِ الواجب
فإن كان نَصْباً ولاء الجميع فإنى كما زعموا ناصبى(٢)
وإن كان رَفْضاً ولاء الجميع فلا برح الرفض من جانبى(٣)

---

(١) أخذ هذا البيت من قوله صلى الله عليه وسلم « شر الأمور محدثاتها » .

(٢) النصب : قول جماعة يسمون النواصب ، يزعمون موالاتهم للشيخين ليتذرعوا بهذا لأن يسبوا عليا وآله ، ولا وربك لا يؤمنون حتى يكونوا مع سنة رسول الله

(٣) الرفض : مقالة قوم يدعون موالاة على رضى الله عنه ويسبون الشـيخين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وهم شرار الخلق .

أحب النبى وأصحـــابه فما المرء إلا مع الصاحب
أيرجو الشفاعة مَنْ سَبَّهم بل المثل السوء للضارب
يُوَقَّى المكاره قلب الجبان وفى الشبهات يد الحاطب

أخذ البيت الخامس من قول الشافعى :

إن كان رَفْضًا حبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ومنه ـ أبوحنيفة : لقيت عطاء فقال لى : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة فقـال : من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، قلت : نعم ، قال : فمن أنت منهم ؟ فقلت : ممن يؤمن بالقدر ، ولا يسب السلف ، ولا يكفر بالذنب ، قال : عرفت ، فالزم .

ومنه ـ الإرادة تطلق على المحبة ، وعلى قصد أحد الجائزين بالتخصيص ، وكل واحد من المعنيين يوجد بدون الآخر ، أما الأول فكقوله :

* تريد النفس أن تُعْطَى مُنَاها *

وهو ظاهر ، وأما الثانى فكقصد المتوعد بالإهلاك إلى أمر عبده الذى أمره بأمر لينظر امتثاله ، ولدقة الفرق بينهما ضل المعتزلة فى أمرهما فقالوا : إن الله عز وجل لا يريد المعاصى ، لأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، قال عمار بن ياسر يوم صفين :

صدق الله وهو للصِّدْقِ أهْلٌ وتعالى رَبِّى وكان جليـــلا
ربِّ عَجِّلْ شهادة لى بقتل فى الذى قد أحب قتلا جميلا

ومنه ـ العبدرى : قَتْلُ الحسين دعا إلى حرب ، وأخذ بثاره كذابُ ثقيف ، ونوه باسمه أعداء ملة جده بنو عُبَيْدٍ[١] ليقتص من قضية بمثلها ، فيقرأ الفهم سورة تلك الصورة ، ويتهجى اللبيب حروف تلك الحروب ، فيعلم أن الكل آلات مستعملات حسبما اقتضاه العلم القديم .

(١) أراد العبيديين (الفاطميين) الذين ملكوا المغرب ، ثم ملكوا مصر

ومنه ـ أبو العباس الأبيانى : ثلاث لو كتبت على ظفر لوسعهن ، وفيهن خير الدنيا والآخرة : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، اترع لا تتسع .

ومنه ـ كانت سكينة بنى إسرائيل فى التابوت ، فغلبوا عليها ، وسكينة هذه الأمة فى القلوب ، فغلبوا بها ، استحفظوا كتابهم فحرفوا من أحكامه ووصفه ، وحفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومنه ـ فى الصحيح : كان أبو ذر يُقْسِم قسما أن (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة ، وعتبة وشيبة والوليد[1] ، قلت : ففى الآية شهادة من الله تعالى لعلى بالجنة والشهادة ، أما الجنة فبنصها ، وأما الشهادة فلأنه وصاحبيه استشهدوا ، وخصمهم قتلوا ، فهى رادَّةٌ على الخوارج قطعاً

ومنه ـ جاز أبو بكر بن نافع بالكَرْخ أيام الديلم وقوة الرفض ، فقالت له امرأة : سيدى أبو بكر ، فقال : لبيك يا عائشة ، فقالت له : متى كان اسمى عائشة ؟ فقال : أيقتلوننى وتخلصين ؟

وفى آخر هذا الكتاب ما صورته : فهذه جملة تراجم ، وفيها مَقْنَع لمن أراد المحاضرة ، أو تنميق مجالس المناظرة ، وكان الفراغ من جمعها فى آخر يوم من شعبان المكرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاى الجد رحمه الله تعالى فى كتابه المحاضرات .

رجع إلى ذكر تأليف المقرى الكبير

ولنرجع إلى سَرْد بقية توالفيه رحمه الله تعالى فنقول : ومنها شرح لغة قصائد المغربى الخطيب ، ومقالة فى الطلعة المملكة ، وشرح التسهيل ، والنظائر ، وكتاب المحرك لدعاوى الشر من أبى عنان ، و إقامة المريد ، ورحلة المتبتل ، وحاشية بديعة جداً على مختصر ابن الحاجب الفقهى ، فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد فى غيرها ،

---

(١) كان حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث فى جيش التوحيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة فى جيش الكفر ، وقتلهم الله على الكفر بيد الثلاثة الأولين .

وقد وقفت عليها بالمغرب ، ومن أشهر كتبه فى التصوف كتاب الحقائق والرقائق ، وهو من الحسن بمكان لا يُلْحَق ، وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ شيوخنا سيدى أحمد زروق رضى الله عنه ونفعنا به !

فوائد من كتاب الحقائق والرقائق للمقرى

وسنح لى أن أسرد هنا شيئاً من هذا الكتاب الفذ فى بابه فنقول :

قال فيه مولاى الجد رحمه الله تعالى: هذا كتاب شفعت[1] فيه الحقائق بالرقائق، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ،وصفوة العلم ، ونقاوة العمل ، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل ، وعلى الله قصد السبيل

حقيقة ــ عمل قوم على السوابق ، وقوم على اللواحق، والصوفى مَنْ لا ماضى له ولا مستقبل ، فإن كان زجاجياً[2] فبخ بخ .

رقيقة ــ من لم يجد ألم البعد ، لم يجد لذة القرب، فإن اللذة هى التخلص من الألم

حقيقة ــ لما انطبعت الصور فى مرآة الخيال قال العقل : أنا الملك المكوكب، فقالت الرياضة : الزمنى وتعرف قدرك ، فإذا العقل عِقال .

رقيقة ــ من ضحك فى نوم الغفلة بكى عند الانتباه ، فإن الأضغاث أضداد .

حقيقة ــ أثر الزهد عَقَل دنَّ سقراط على سراج غوطة أبى نصر ، فقيل : فأين اعتبار (أفلا ينظرون) ؟ فقال : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

رقيقة ــ طالبُ الدنيا يخاف الفَوْت ، وصاحبها يترقب الزوال ولو بالموت ، فإذا حمى الوطيس ، وحج الرئيس ، أنشأ الزاهد بينهما ينشد :

عزيز النفس لا ولد يموت ولا أنس يحاذره يفوت

حقيقة ــ العابد طالبُ رياسةٍ وحرمه ، والزاهد صاحب نَفَاسة وهمه ، والمعنى للعارف يعادى فى الله تعالى و يوالى ، و يرضى الله ولا يبالى .

---

(١) شفعت : أراد ألحقت هذه بتلك ، وجعلت تلك ثانية لهذه

(٢) زجاجيا : لعله يريد أن باطنه كظاهره ، فهو كالزجاج لا يحجب ما وراءه .

رقيقة ـ مَنْ سابق سبق ، ومن رافق ارتفق ، ومن لاحق الْتَحَقَ ، والعجز والكسل مقدمتا الخيبة .

* وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم * (١)

حقيقة ـ العمل دواء القلب ، وإذا كان الدواء لا يصلح إلا إذا كان على حمية البدن ، فكذلك العمل لا ينجح إلا بعد صوم النفس ، فارق نفسك وتعال

رقيقة ـ مثل دواعى الخير والشر فى الإنسان كمثل الخلط الفاعل والقوة الدافعة فى العليل ، تغلب القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة ، وعن قليل يتحرك فيجد الألم

حقيقة ـ العمل على السلامة مسالمة ، وعلى الغنيمة تجارة ، وعلى الأمر قرض ، فيضاعف له أضعافاً كثيرة .

رقيقة ـ تطهر من أدناس هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقم لمسجد انقطاعك على قدم شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نَجْواك ، تجد الحق عندك وليس بسواك .

حقيقة ـ وجد العارف فجاد بنفسه ، فوجد الله عنده ، وتواجد المريد فحاكى ، ومن لم يَبْك تبا كى .

رقيقة ـ زكِّ نفسك لقلبك ، تَزْكُ عند ربك ، بِعْها منه رخيصة ، فهى على ثمنها لديه حريصة ، إن الله اشترى .

حقيقة ـ الزوال وقتُ المناجاة ، فطهر قلبك قبله من الحاجات ، وإياك والحظ ، فذهاب نقطته أسرع من اللحظ .

رقيقة ـ الزاد لك وهو مكتوب ، والزائد عليك وهو مسلوب ، فأجمل فى طلب المضمون ، ولا تلزم نفسك صَفْقَه المغبون .

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة لأبى الطيب المتنبي ، وعجزه قوله :

* وتأتى على قدر الكرام المكارم *

حقيقة ــ أمر بالتوكل لتقصر الطرف عليه ، وأذن فى التسبب لتنصرف منه إليه ، فذاك مخبر بحقيقة التفرد ، وهذا مظهر لحكمة التعبد .

رقيقة ــ الملك أبو الدنيا ، وهو مع ذلك محبوس فيها ، تبهم عليه الأبواب ، ويستدعى الحراس والحجاب ، فإذا خرج حَدَّقَتْ إليه الألحاظ ، وأحدقت بجهاته الحفاظ ، أى حَظٍ حَظٌّ من فقد نعمة (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

حقيقة ــ قال صاحب الزهر الأنيق : علامات المحبة أربع : الإفلاس ، والاستئناس ، والأنفاس ، والوسواس . قلت : الإفلاس التجرد إلا عنه كالخليل ، والاستئناس التوحش إلا منه كالكليم ، والأنفاس والوسواس صلة الاسم وعائده .

رقيقة ــ ذكر مذكر بمالقة ، فقام الخطيب الشيخ الولى أبو عبد الله الساحلى بهذا البيت :

ليت شعرى أفى زمام رضاكم كُتِبَ اُسمى أم فى زمام الْهَوَانِ

وكنت يوما مع السلطان والجند يعرضون عليه ، وكان يسقط ويثبت ، وأنا أتفكر فى البيت ، حتى خلت أن أفتضح ، فقلت : واهاه من هذا الإبهام ، ثم كدت أخْلِدُ بقبح العمل إلى الأرض فينشلنى حسن الظن بالله عز وجل فأنهض :

إن المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالقادر

حقيقة ــ إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فانجذب ، فإذا اتصل عشق فانقطع ، فإذا انجذَّفنى فبقى ، حاشا الصوفى أن يموت .

رقيقة ــ افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر [1] ، فقيل : حتى تغسل بول الشيطان من أذنك ، فطرب الديك فرحا بالفوز ، وندب العصفور ترحا على الفوت .

---

(١) تضرب العرب المثل بالغراب ، فيقولون « فلان أبكر فى حاجته من الغراب »

حقيقة ـ الخلوة بيت الاعتبار ، وفى بيته يُؤْتَى الحكم[١] ، وباب هذا البيت العلم (وائتوا البيوت من أبوابها) .

رقيقة ـ واقع فقير هَنَاة ، ثم دخل خلوته ، فبدت له نفسه بوجه مُومِسة ، فقال : ما أنت ؟ قالت : أم الحياة ، فقال : ما أجمل أن تبدل هاؤك همزة ، فقالت : إذن لم تصنع ما شئت ، فانتبه لقَرْعِ العتاب ، فتاب .

حقيقة ـ القلب إيوانُ الملك ويَسَعُنِى ، وعز الملك يأنف عن ذل المزاحمة ، أنا أغنى الشركاء عن الشرك[٢] .

رقيقة ـ لما وضع البسطامى أوزار حُوبه ، فكَّ طابعَ الصحيفة عن قلبه ، فلم يجد بها غير الطفرى ، فصاح بنفسه لك البشرى ، أُنزل طيفور عما تريد ، ليس فى الدار أبو يزيد ؟

حقيقة ـ قال شيخنا أبو هادى يوما لأصحابه : بماذا يرتقى العبد عن مقامه إلى مقام أعلى منه ؟ قالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، قالوا : من عند الشيخ ؟ قال : يخلق الله له همة فيرتقى بها إلى رتبة أسْمى من رتبته .

ومن هذا الكتاب :

حقيقة ـ التفت إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون ، فأما العلماء وكل من يعطى بحق فإنما يعطون بقصد (ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) واصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم .

رقيقه ـ قلت لقلبي : كيف تجدك ؟ فقال : أمامِنْ أمَّارتك[٣] فى عناء الجهاد ،

---

(١) هذا مثل من أمثالهم

(٢) هذا حديث قدسى ، يحكيه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه

(٣) أخذوا تسمية النفس بالأمارة من قوله تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء)

وأما مِن لوَّامتك[١] فعلى جمر الصبر ، قلت : فمتى الراحة ؟ قال : إذا اطمأنت النفس ، فاضمحل الوهم وغاب الحس .

حقيقة — قَطْعُ السِّوَى طهارةُ المنيب[٢] ، ولا يقبل الله صلاة بغير طَهور ، وكتابه النحيب ، والمكاتب عبدٌ ما بقى عليه ، وبابه الدخول على الحبيب .

نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت : يا هذا غض بصرك عما ليس لك ، تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك .

رقيقة — لما حنكت الطينة بتمر الجنة ، وغذيت بلبانها ، فطرت على محبتها ، انظروا إلى حب الأنصار التمر ، فلم تطق الفطام عنها .

* وتأبى الطباع على الناقل *[٣]

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق ، والأنين على الفراق ، والشغف بمدح العابر ، وذم الغابر ، وفى ذلك :

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذم هـذا الزمان

وإن لم تعرف عصراً خاليا ، ولا خلا نائيا ، لم يمر عليك مما تشتهيه ، أطيبُ مما أنت فيه :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينهُ أبدا لأول منزل

ومنه : حقيقة — قيل : عرّض الكليم بطلب القوت فى رحلة الهجرة (إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) فحمل على كاهل (إن أبى يَدْعُوكَ) وصرح فى سفر التأديب (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) فحمل على كاهل (هذا فراق بينى و بينك) قلت : لما تمحض الطلب له اكتفى ، فلما تعلق حق الغير به وفى ، ولذلك قضى أبا المرأتين ، الأجلين .

---

(١) أخذوا تسمية النفس باللوامة من قوله عز وجل : (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة)

(٢) المنيب : الراجع إلى الله ، أناب ينيب إنابة : أى رجع

(٣) عجز بيت للمتنبى ، وصدره قوله * يراد من القلب نسيانكم *

رقيقة ـ كان خرق السفينة إراءة لكرامة (فاقذفيه فى اليم) فى مرآة (وكان وراءهم ملك) :

* وربما صحت الأجسام بالعلل *

وقتلُ الغلام إشارة إلى اشتمال قتله (فقضى عليه) على رحمة (فنجيناك من الغم) برمز (فخشينا أن يرهقهما) والمحن الصم حبائل المنح ، وإقامة الجدار إثارة لفتوّة (فسقى لهما) ليخفض له جناح (إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) فيستظل من حر (لو شئت لاتخذت عليه) فى نية (هذا فراق بينى و بينك) .

حقيقة ـ قيل لمحمد بن الحسن الزبيدى التونسى وأنا عنده بها : كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة (ستجدنى إن شاء الله صابراً) ، وقد جاء فى الصحيح فى قصة سليمان عليه السلام « لو قال إن شاء الله لكان كما قال » والمقام الموسوى أجل (واصطنعتك لنفسى) وطلابه أفضل ؟ ما جميع أعمال الصبر والجهاد فى طلب العلم إلا كبصقة فى بحر ، فقال : كان موسى على علم من علم الله ، وهو علم المعاملة ، لا يعلمه الخضر ، وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى ، فلم يظن أن مالم يحط به خبراً يأباه حكم الظاهر ، وإلا كيف يلتزم البر عليه ، وقد أمر بصرف الإنكار إليه ؟ (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا) بل لم يعتد مثله من ملاقاة المشاق ، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق ، وركوب الطباق ، فما علقه بقوله ، فقد صدقه بفعله ، ومالم يستطع عليه صبرا ، فلم يدخل فى التزامه اعتقادا ولا ذكرا .

رقيقة ـ قال لى عبد الرحمن بن يعقوب المكتب : كان عندنا بالساحل سائح هِجِّيرَاه[1] : إلهى بسطت لى أملى ، وأحصيت على عملى ، وغيبت عنى أجلى ، ولا أدرى إلى أى الدارين يذهب بى ، لقد أوقفتنى موقف المحزونين ما أبقيتنى .

---

(١) يقال «جعل فلان الأمر الفلانى هجيراه » بكسر الهاء وتشديد الجيم مكسورة أيضا ــ أى جعله ديدنه ولم يفارقه

حقيقة ـ تَنَازَع القلبُ والنفسُ الخُلقَ ، فقسمها بينهما قاضى العقل ، فمن باع منهما حظه فلا شُفْعَة لصاحبه عليه .

ومنه : حقيقة ـ الحجب ثلاثة : فحجاب الغيرة منع ، وحجاب الحيرة دفع ، وحجاب الغفلة قطع (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

رقيقة ـ اللحم أيام التشريق مكروه ، وكل لذة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى ، فلا تريتك الغفلة عن سرك زيادة النعمة عندك .

حقيقة ـ الفقر إلى الله الاستغناء به عما سواه ، وهوية[1] الرضا بالله أن لا يخطر بالبال إلاّه .

ومنه : حقيقة ـ التلوّن مجون ، تارة طربا وطورا شجون ، والتمكن معرفة ، وأين الحال من الصفة ؟

رقيقة ـ قال لى محمد بن عبد الواحد الرباطى : قال لى محمد بن عبد السيد الطرابلسى : دخلت على أبى الحسن الحرانى فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشد :

أصبحت ألطف من مرّ النسيم سَرَى ... على الرياض يكاد الوهم يؤلمنى
من كل مَعْنًى لطيف أحتسى قَدَحاً ... وكل ناطقة فى الكون تطربنى

حقيقة ـ قال الطالب : الوقت سيف ، وقال الواصل : بل مقت ، فتلا العارف (قل الله ، ثم ذَرْهُم فى خوضهم يلعبون) .

رقيقة ـ لصاحب الوقت يومان :

يوم بأرواح يُبَاع ويُشْتَرى ... وأخوه ليس يُسَام فيه بدرهم

وفصل الفضل بينهما :

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ... ولكنّ أيام الملاح ملاح

(١) الهوية : من مصطلحات الفلاسفة ، وهى منسوبة إلى « هو » وهى عندهم عبارة عن حقيقة الشىء وماهيته مع جميع مشخصاته .

ومنه : حقيقة _ قال لى الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسى بعباد تلمسان : قال لى أبو عبد الله بن حيون : إنه وجد على ظهر كتاب بخط عتيق : قال أبو يزيد البسطامى : يظهر فى آخر الزمان رجل يسمى شعيبا ، لا تدرك له نهاية ، قالا : وهو أبو مَدْيَن ، قلت : وقف بظاهره مع الشريعة ، وذهب بباطنه مع الحقيقة ، فما انقطع لصحة البداية ، ولا رجع لعدم الغاية .

رقيقة _ قمت ببعض الأسحار ، على قدم الاستغفار ، وقد استشعرت الصبابة ، واستدثرت الكآبة ، فأملى الجنان على اللسان ، بما نفث فى روعه روح الإحسان :

منكسر القلب بالْجَنَايَا يدعوك يا مانح العطايا(١)
أقْعَدَهُ الذنب عن رفيق حَثُّوا لرضوانك المطايا

ومنه : أثر حقيقة فى شأن الحلاج ما نصه ، ثم قلت :

ولرب داع للجمال أطعته وأبى الجلال على أن أتقدما
فأطعت بالعصيان أمرهما معاً وجنحت للتسليم كيما أسلما

ومنه : حقيقة _ قلت للسر : مالك تحس من خلف الموانع ؟ فقال : خرق شعاعى سور العوائق ، ثم انعكس إلى بصور الحقائق ، فأصبحت كما قيل :

كأن مرآة عين الدهر فى يده يرى بها غائب الأشيا فلم يغب

رقيقة _ الليل رداء الرهبة ، تهاب الجبان أسد الأبطال ، وتتقى الحواس دونه الخيال (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) .

حقيقة _ النهار معاش النفس، فهو استعداد (إن لك فى النهار سبحاً طويلا) والليل رياش الأنس ، فهو معاد (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) فهذا جمع وذاك فرق ، والحال أسرع ذهاباً من البرق .

---

(١) الجنايا : جمع جنية — بوزن عطية وعطايا ، ومطية ومطايا — والجنية : الذنب ، ووقع فى قول زياد العبسى « جنية حرب جناها » بمعنى خصلة

ومنه : حقيقة ـ إنْ أكبرت النفس حالها ، فذكرها أصلها ومآلها[1] ، فإنها تصغر عند ذلك ، وتستقيم بك على أرض المسالك «أحثوا التراب في وجوه المدّاحين» (منها خلقناكم وفيها نُعيدكم) .

رقيقة ـ إنما يتعاظم من يجد الحقارة من نفسه ، و يتوهم المهانة عند أبناء جنسه ، فلذلك تراه مغمزاً للعيون ، مهمزاً للظنون ، من أسر سريرة حسنة كساه الله رداءها .

رقيقة ـ رأيت الملوك لا يشتمون ، ولا يُدْعَى لهم إلا بما يتعلق بأغراض الدنيا ، وأكثر ذلك مما تحيل عقوده العوائد ، فعلمت أن الدنيا ضد الآخرة .

حقيقة ـ من لم يفر خور وذلك الجبن ، من خاف أدلج ورجا ، من لم يكر تمن وتلك الزمانة (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما) .

رقيقة ـ سمعت أبا محمد المجاصي يقول : رويت بالسند الصحيح أن عابداً رابَطَ ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئاً :

لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم غضباً فإنكم قوم سوء لا تبالونا

حقيقة ـ ما حمد الله حق حمده ، إلا من عرفه حق معرفته ، وذلك مما لا ينبغي لغيره « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ».

رقيقة ـ قلت :

أشيم البرق من بين الثنايا وأشْتَمُّ العبير من الثناء
فأبدو تارة وأغيب أخرى مثار الشوق مثنى الحشاء

حقيقة ـ تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسه في بحار العظمة ، وتعلق

---

(١) لعله أخذ هذا مما ينسب إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وكرم وجهه ! ـ وهو « ما بال الإنسان يتكبر وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما يحمل العذرة ؟ » أو ما هو بمعنى ذلك .

الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة، فهذا تاجر (لئن شكرتم لأزيدنكم) وذاك ذاكر (وما بكم من) .

ومنه : حقيقة ـ الصبر مطية المريد ، والرضا سجية المراد ، فهذا يقوم للأمر ، وذاك يسعى للأجر .

رقيقة ـ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والصبر بغير حساب ، والرضا بالرضا ، وذلك سِدْرَةُ المنتهى .

حقيقة ـ النفس الأمّارة آبدة[1] لا تملك إلا بلطائف الحيل ، والمطمئنة ذلول لا تنفلت إلا ممن غفل (وأخاف أن يأكله الذئب) .

رقيقة ـ الدنيا معشوق الطالب ، عاشق الهارب ، هـذا يستخدمها ، وذاك يخدمها ، يبنى الخادم المسجد ليقال ، ويعمره المخدوم لينال ، فعل الخادم السعى من غير جَدْوَى :

* وليس لرحل حطّه الله حامل *

وللمخدوم الجَدْوى بغير سعى

* وليس لما تَبْنِي يدُ الله هادمُ *

إن السعادة أصلها التخصيص .

حقيقة ـ الجمال رياش ، والحسن صورة ، والملاحة روح ، فذلك ستره عليك ، وهذا سره فيك (فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى) .

رقيقة ـ أعطى يوسف شطر الحسن ، يعنى حسن آدم ، لأنه إن لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان فقد خلقه الحق بيده فى أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من روحه لتتم علة الأمر بسجود التحية والتكريم ، فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان

---

(١) آبدة : نافرة ، وأصله اسم الفاعل من قولهم « أبدت الدابة » ـ من بابى ضرب ونصر ـ أبودا ، وذلك إذا توحشت ، ويقال فيه أيضا : أبدت تأبد ـ من باب فرح ـ فهى أبدة كفرحة

« خلق الله آدم على صورة الرحمن » فآدم إذا كمال الحسن ، و إلا فهو المراد ، لأن الشطر ، يقتضى الحصر ، والنصف ، ينزع عن الوصف ، وأعطى محمد صلى الله عليه وسلم كمال الجمال ، فما أبصره أحد إلا هابه ، وتمام الملاحه فما عرفه شخص إلا أحبه ، مع أنباء نوره فى الآباء ، بأن أبوّة المعنى لسيد نجباء الأبناء ، كما قال العارف عمر :

وإنى وإن كنتُ ابنَ آدمَ صورةً ... فلى فيـــه مَعْنًى شاهدٌ بأبوتى

حقيقة ـ لا يثنينك الخوف عن قَرْعِ الباب فتيأس[1] ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يدنينك الرجاء من الفترة فتأمن ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل ، فلا تمل كل الميل مع النفس ، إن النفس لأمارة بالسوء .

رقيقة ـ ارفع قصتك فى رقعة الإقبال على كف الرجاء ، خافضا من طرف الحياء ، وصوت الإدلال ، عاكفا فى زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف ، يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع (فاستجبنا له) .

ومنه : حقيقة ـ صدْقُ مجاهدةِ الفاروق أيقظ الوسنان ، وَطَرَدَ الشيطان ، وأرضى الرحمن ، ففاز بسلامة « ما سلكت فجًّا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك » وحقق مشاهدة الصدّيق أسْمَعَ من ناجى ، فحاز غنيمة « لو كشف الغطاء ما ازداد يقينا » .

رقيقة ـ ذهب أبو بكر فى السابقين ، ولحق عمر بأهل اليقين ، فما أدرك الصديق أداء التصلية ، حتى استدرك الفاروق قضاء التقفية :

ولو كنت فى أهل اليمين مُنَعَّماً ... بكيتُ على ما فات من زَمَن الصبا

---

(١) قرع فلان الباب ـ من باب قطع ـ إذا طرق عليه ليفتحه ، وقد قال الشاعر :
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

حقيقة ـ النص سلاح ، والنظر مطية ، والاتباع جُنَّة ، والوَرَع نجـاة ، والخلاف فتنة ، والبدع مهالك ، وخير الأمور أوساطها .

ومنه : حقيقة ـ تخير المساعد ، واختبر المصاعد ، وليكن همك فى سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك ، فلن يحقق صفة الربوبية ، مَنْ لم يحقق نعت العبودية .

رقيقة ـ حدثت أن سيدى أبا الحسن الشاذلى لما أزمع على التحوّل من طَيْبَة على مَنْ بها الصلاةُ والسلام ، أوقف فعله على إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فرآه فى منامه فقال : توحشنا يا على؟ فأخذ يعتل ، فأذن له ، وقال : إذا جئت مصر فاقرأ عزالدين بن عبد السلام منى السلام ، قال : فلما التقينا بلغته المألُـكَة[1] سرا ، فلم تظهر نفسه لذلك ، فلما قام المزمزم قال :

صَدَقَ المحدِّثُ والحديث كما جرى وحديث أهل الحب مالا يفترى

فاستغفر الشيخ ، ثم كذب نفسه ، ثم حط للتسليم رأسه .

حقيقة ـ الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات لمراقبة (قل هو القادر) فمن ثم كان أشد تقلبا من المِرْجَل على النار ، فاذا ذكر الله سكن (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

رقيقة ـ فرق القلب من ذكر الله خوف (وجِلَتْ قلوبهم) ثم سكن لذكره رجاء (وتطمئن قلوبهم) فعاد داء تقشعر منه دواء (ثم تلين) فنعق بلائمة :

* دع عنك لومى فإن اللوم إغراء *

ثم هتف بمنادمة :

* وداونى بالتى كانت هى الداء *

---

(١) المألُـكة ، والمألك ـ بفتح الميم وسكون الهمزة وضم اللام فيهما ـ الرسالة ، وقال عدى بن زيد العبادى :

أبلـغ النعمان عنى مألـكا أنه قد طال حبسى وانتظارى

حقيقة ـ العبودية صفة نفسك ، لأنها حال أحد العبيد ، والعبودة صفة قلبك ، لأنها ملكة واحد العباد ، والعبادة قصد وجهك ، لأنها نعت الفردوس من العباد .

ومنه : حقيقة ـ إنما تزيد فى الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة ، فإن تشييد الجدار على قدر انتقاص الجبل .

رقيقة ـ من جر لنفسه جار على قلبه ، فلا تجوز شهادته عند ربه ، لأن العدل تَرْكُ العدول والميل .

رقيقة ـ لا تقدمن إلا بدليل و إذن ، واحذر مالا ينفع ما استطعت فقدتم ، انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه ، وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم .

رقيقة ـ إذا اهتز العرش بالسَّحَر لدعاء أهل (تتجافى جنوبهم) انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة (أَمَنَةً منه) وأهب المستغفر من نومه لإدراك فضل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

حقيقة ـ دع الغريب وما يريب ، واركب الجادة ، ولا تسلك بُنَيَّات الطريق[1] (فتفرق بكم عن سبيله) .

ومنه : حقيقة ـ سفر المريد تجارة ، وسفر العارف عمارة ، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة ، وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة .

رقيقة ـ إياك أيها المصلى لنا ، أن تلتفت إلى غيرنا ، وأقبل علينا بصدق نيتك وناجنا بخلوص سريرتك ، فقد قمنا بينك و بين قبلتك ، وناجيناك بلسان تلاوتك فإن غبت عنا ، فلست منا .

---

(١) بنيات الطريق ـ بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء ـ الطرق الصغار تتشعب وتتفرع من الجادة ، وقالوا فى مثل « دع بنيات الطريق » يريدون عليك بمعظم الأمر واترك الروغات .

حقيقة ـ الشطح كناية ، والكرامة عناية ، والاعتراض جناية ، فإياك ولم ؟ فإن عرفت فاتبع ، و إن جهلت فسلم .

رقيقة ـ الليل معاد الأنس (إن ناشئة الليل هى أشدّ وَطْأ وأقوم قيلا) والنهار معاش النفس (إن لك فى النهار سَبْحًا طويلا) فهذا نشاط رغبة يتسع فى مناكبه المجال ، وتعتور على مراكبه الأحوال ، وذلك حجاب رهبة تهوى إليه الأوجال ، وتجتمع فيه هموم الرجال ، ألا ترى كيف تهاب الجبان دونه الأبطال ، وتتقى الحواس خلفه الخيال ؟ كما قال :

نهارى نهار الناس حتى إذا دجا لى الليل هزتنى إليك المضاجع (١)

أُقَضِّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمَّ بالليل جامعُ

حقيقة ـ حجب الطالب أربعه : فحجاب الغيرة قاذع ، قيل لبعضهم : أتحب أن تراه ؟ فقال : لا ، قيل : ولم ؟ قال : أجل ذلك عن نظرمثلى ، وحجاب التيه قامع ، نزل فقير على ابن عجوز ، فبينما هى تصلح له الطعام غشى على الفتى ، فسألها الفقير فقالت له : إنه يهْوَى ابنة عم له بتلك الخيمة ، فخطرت ، فاشتم غبار ذيلها ، فذهب الفقير ليخطبها عليه ، فقالت: إذا لم يُطِقْ غبار ذيلى فكيف يستطيع أن يشاهدنى؟ وحجاب الحيرة دافع ، ومن ثم حلا لأرباب الغيبة ، قال بعضهم : يادليل الحائرين ، زدنى تحيرا ، ومر على أصحاب الرغبة والرهبة كما قال :

قد تحيرت فيك خذ بيدى يا دليلا لمن تحير فيكا

وحجاب الغفْلة قاطع ، كان بعضهم يقول : إن عذبتنى بشىء فلا تعذبنى بذل الحجاب ، ونظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سَهْم فعوره (٢) وعليه مكتوب : نظرت بعين العوْرَة فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة .

---

(١) حفظي فى صدر هذا البيت * نهارى نهار الناس حتى إذا بدا *

(٢) أصل هذا قولهم « سهم عائر » إذا كان لا يدرى راميه .

رقيقة ـ حدّثت أن ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به التفكر فيماله عند الله عز وجل ، فكاشفَه بأن أنشده من قصيدة له :

لك البشارة فاخْلَعْ ما عليك فقد ذكرت ثم عَلَى ما فيك من عِوَج

فبدرته البشاشه ، وأظن أن قد خلع قُماشه .

حقيقة ـ وقفت ذات يوم بالجبانة ، واستفهمت اسمى هل عرف منها مكانه ، فأملى بعد هنيأة من نظمه ، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه :

كل ميت رأته عَيْنِي فإنى ذلك الميت إن نظرت بقلبى

وجميع القبـــور قبرىَ لولا جهل نفسى بمالها عند ربى

رقيقة ـ أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف فى تقلبه ، فذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، تزوّج فقير فلبس ثياب العرس ، فطلب قلبه فلم يجده ، فصاح : خُلْقَانى ، فأعطوه ، فأخذها وخرج .

حقيقة ـ حُجُبُ المطلوب ثلاثة : فحجاب التيه جمال ، كما قال العارف عمر :

ته دلالا فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد وَلاَّ كَا

وحجاب العزة جلال :

همت بإتياننا حتى إذا نظـرت إلى المِرَاةِ نهاها وجهُها الحسن[(١)]

وحجاب الـكبرياء كمال ، أنشدت لرابعة :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهلٌ لذا كا

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سوا كا

وأما الذى أنت أهل له فأن ترفع الحُجْبَ حتى أرا كا

وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولـكن لك الحمدفى ذاوذا كا

---

(١) المراة : أصلها المرآة — بسكون الراء بعدها همزة مفتوحة فألف ـ فنقل حركة الهمزة إلى الراء وقلب الهمزة ألفا ، فالتقى ألفان ، فحذف إحداهما ، وليس ذلك مقيسا فى هذه الصيغة .

وهذا معنى ما فى الصحيح « وما بين أهل الجنة و بين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »

ومنه : حقيقة ـ الآثار منصة التجلى ، فمن لم يزر مهلب ، و يتفكرون زار عمير يمرون ، و بطل رصد الحجاج .

رقيقة ـ من تفكر تذكر ، ومن تذكر تبصر ، فإن أكمل وقف ، و إن قصر انصرف (إنا هديناه السبيل) .

حقيقة ـ الوحدة فهم ، والتوحيد علم ، والاتحاد حكم ، والاثنينية وهم .

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل * (١)

ومنه : حقيقة ـ أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف فى تقلبه ، فإن ذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، رؤى فقير ينادى فى السوق : ارحموا صوفيا ذهب رأس ماله ، فقيل له : وهل للصوفى رأس مال ؟ فقال : نعم ، كان لى قلب ففقدته .

ومنه : حقيقة ـ تنازع القلب والنفس الخلق ، فترافعا إلى العقل ، فقسمه بينهما ، فانفردت النفس بالهوى ، والقلب بالتقوى ، فصُرِفت طرقهما إلى الجهتين ، وقطعت الشفعة فيهما بين المثتين .

ومنه ، عند ختم الكتاب ما نصه : حقيقة ـ لا يودع السر إلا عند أهله ، ولا يذيعه إلا من ضاق ذَرْعًا بحمله ، فإن عَدَا مودعه الرمز فقد زل ، و إن تعدى مذيعه الغمز فقد ضل .

رقيقة ـ الحسن خلق ، والجمال خلق ، وحسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن ، وحيث هو الجمال هو الجميل .

---

(١) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة العامرى ، وعجزه قوله :

* وكل نعيم لا محالة زائل *

وهذا البيت هو الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «أصدق كلمة قالها شاعر»

حقيقة ـ تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا (والله خلقكم وما تعملون) لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به ، فتصرفوا بدلالة الإذن فى مذهبه ، فاستقاموا على طريقة الأدب ، ولم يفتهم فضل التوكل ، ولم تتسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبب بكيفية الانصراف إلى السبب منه ، لدقة الفرق بينه و بين الانصراف عنه ، فوقفوا مع التوكل للعذر ، ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر ، وعكف الغافلون على ظاهر السبب ، ففاتهم التوكل والأدب (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

رقيقة ـ ألفيت لعبد الحق الإشبيلى بيتا هو عندى أفضل من قصيدة ، وهو:

قد يُساق المراد وَهْوَ بعيد ويريد المريد وهو قريب

ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فليتلُ (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) .

حقيقة ـ أشرف أسمائك ما أضافك إليه ، وأكرم صفاتك مادل فيك عليه:

لا تَدْعُنِى إلا بيا عَبْدَهَا فإنه أشرف أسمائى

ولا تصفنى بالهوى عندها فعندها تحقيق أنبائى

رقيقة :

أعزز بمن سَوْدَاء قلبى مَغْرِبٌ لخياله ، وَسَوَاد عينى مشرق

إن غاب عن سِرِّى فعنه لم يغب أو عن عِيانى فهو فيه محقق

والعين تعجز أن ترى إنسانها والقلب بالروح اللطيف مصدق

صُنْ عينك عن قلبك لربك ، وقلبك عن نفسك لحبك[1] ، ونفسك عن طبعك لوليك ، وطبعك عن هواك لعدوك ، وهواك عمن سواك ، وقد كنت من نسل الجنة ، وكان بينك و بين البلاء أوقى جُنَّة[2] ، لطف الله تعالى بى و بكم فى مجارى

(١) فى ب « وقلبك عن نفسك لحبسك »

(٢) الجنة ـ بضم الجيم ـ الوقاية

أحكامه، ويَسَّرَنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما كثيراً إلى يوم لقائه، انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب « الحقائق والرقائق » لمولاى الجد الإمام، سقى الله عهده صَوْبَ الغَمام! وما ذكرته من كلامه غَيْض من فيض، وقُلٌّ من كُثر، ويكفى من الحلى ما قل وستر العنق.

ولنذكر بعض نظمه رحمه الله تعالى، وقد تقدم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضى الله عنه، فراجعه إن شئت.

من نظم المقرى الكبير

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى مافى الإحاطة ونصه: نقلت من ذلك قوله: « هذه لمحة العارض، لتكملة ألفية ابن الفارض، سلب الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على ردها بحول الله المعين ».

من فصل الإقبال:

رفضت السِّوَى وهوالطَّهارة عندما تَلَفَّعْتُ فى مِرْطِ الهوى وهْوَ زينتى
وجئت الحمى وهو المصلَّى ميمماً بوجهة قلبى وجهها وهو قبلتى
وقمت وما استفتحت إلا بذكرها وأحرمت إحراماً لغير تحلة
فديني إن لاحت ركوع، وإن دنت سجود، وإن لاهت قيام بحسرة
على أننا فى القرب والبعد واحد تؤلفنا بالوصل عين التشتت
وكم من هَجيرٍ خضت ظمآن طاويا إليها وديجورٍ طويت برحلة[1]
وفيها لقيت الموت أحمر والعدا بزرقة أسنان الرماح وحِدَّةِ
وبينى و بين العذل فيها منازل تنسيك أيام الفِجَار ومُؤْتة
ولما اقتسمنا خطتينا فحامل فَجَارِ بلا أجر وحامل بَرَّةِ

(١) الهجير — بفتح الهاء، بزنة الأمير — شدة الحر، وطاويا: من الطوى وهو الجوع، والديجور: الظلام الشديد، وطويت: قطعت واجتزت، وقالوا « خضت إليك ديجورا، كأنى خضت بحرا مسجورا »

خلا مسمعى من ذكرها فاستعدته فعاد ختام الأمر أصل القضية
وكم لى على حكم الهوى من تجلد دليل على أن الهوى من سجيتى
يقول سميرى والأسى سالم الأسى ولا تُوضَعُ الأوزار إلا لمحنة
لو أن مجوساً بت مُوقِدَ نارها لما ظل إلا منهلا ذا شريعة
ولو كنت بحرا لم يكن فيه نضحة لعين إذا نار الغرام استْحَرَّتِ
فلا ردم من نقب المعاول آمن ولا هدم إلا منك شِيدَ بقوة
فم تقول الأسطقسات منك أو علام مزاج ركبت أو طبيعة
فإن قام لم يثبت له منك قاعد وإلا فأنت الدَّهْرَ صاحبُ قعدة
فما أنت يا هذا الهوى ماء أوْ هوا أم النار أم دساس عرق الأمومة
وإنى على صبرى كما أنا واصف وحالىَ أقوى القائمين بحجة
أقل الضنى أن عج من جسمى الضنى وما شاكه معشار بعض شكيتى
وأيسرُ شوقى أننى ما ذكرتها ولم أنسها إلا احترقت بلوعة
وأخفى الجوى قرع الصواعق منك فى جواى وأخفى الوجد صبر المودة
وأسهل ما ألقى من العذل أننى أحب أفلى ذكرها وفضيحتى
وأوج حظوظى اليوم منها حضيضها بالأمس وَسَلْ حر الجفون الغزيرة
وأوجز أمرى أن دهرىَ كله كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة
أروح وما يلقى التأسف راحتى وأغدو وما يعدو التفجع خطتى
وكالبيض بيض الدهر والسمر سوده مساءتها فى طى طيب المسرة
وشأن الهوى ماقد عرفت ولا تَسَلْ وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتى
سقام بلا برء ، ضلال بلا هدى أوام بلارى ، دم لا بقيمة

---

(١) الأسطقسات : لفظ يونانى بمعنى الأصل ، وتسمى العناصر الأربعة — التى هى الماء والتراب والهواء والنار — أسطقسات ؛ لأنها أصل المركبات التى هي الحيوانات والنباتات والجمادات ، ووقع في « الأسقطسات » محرفا .

ولا عتب فالأيام ليس لها رِضًا … وإن تَرض منها الصبر فهو تعنتى
ألا أيها اللوام عنى قَوِّضُوا … ركاب ملامى فهو أول محنتى
ولا تعذلونى فى البكاء ولا البكى … وخلوا سبيلى ما استطعتم ولو عتى
فما سلسلت بالدمع عينىَ إن جنيت … ولكن رأت ذاك الجمال فجُنَّتِ
تجلى وأرجاء الرجاء جوالك … ورشدىَ غاوٍ والعمايات عمت
فلم يستبن حتى كأنىَ كاسف … وراجعت أبصارى له و بصيرتى

ومن فصل الاتصال :

وكم موقف لى فى الهوى خُضْتُ دونه … عُبَاب الردى بين الظُّبَا والأسنة(١)
فجاوزت فى حدى مجاهدتى له … مشاهدتى لما سَمَتْ بىَ همتى
وحل جمالى فى الجلال ، فلا أرى … سوى صورة التنزيه فى كل صورة
وغبت عن الأغيار فى تيه حالتى … فلم أنتبه حتى امتحى اُسمى وكنيتى
وكاتبت ناسوتى بأمّارة الهوى … وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
وعلم يقينى صار عينا حقيقة … ولم يبق دونى حاجبٌ غير هيبتى
وبدلت بالتلوين تمكين عزة … ومن كل أحوالى مقامات رفعة
وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفى … مع المحو والإثبات عند تثبتى
وكم جُلْتُ فى سم الخياط وضاق بى … لبسطى وقبضى بسطُ وجه البسيطة
وما اخترت إلا دن بقراط زاهداً … وفى ملكوت النفس أكبر عبرة
وفقرى مع الصبر اصطفيت على الغنى … مع الشكر إذ لم يحظ فيه مَثُوبتى
وأكتم حبى ما كنى عنه أهلُه … وأكنى إذا هم صرحوا بالخَبِيَّةِ
وإنى فى جنسى ومنه لواحد … كنوع ففصل النوع علة حصتى

---

(١) أصل العباب — بضم العين ، بزنة الغراب — الموج أو معظمه ، والظبا — بضم الظاء — جمع ظبة ، وهى حد السيف ، والأسنة : جمع سنان

تسببت فى دعوى التوكل ذاهباً … إلى أن أجْدَى حيلتى تركُ حيلتى
وآخر حرف صار منىَ أولا … مريدا وحرف فى مقام العبودة
تعرفت يوم الوقف منزل قومها … فبت بجمع سد خرق التشتت
فأصبحت أقضى النفس منها منى الهوى … وأقضى على قلبى برعى الرعية
فبايعتها بالنفس داراً سكنتها … وبالقلب منه منزلا فيه حلَّتِ
فخلص الاستحقاق نفسى من الهوى … وأوجب الاسترقاق تسليم شفعة
فيانفس لا ترجع تقطع بيننا … وياقلب لا تجزع ظفرتَ بوَحْدَةِ

ومن فصل الإدلال :

تبدَّتْ لعينى من جمالك لمحة … أبادت فؤادى من سنَاها بلَفْحة(١)
ومرت بسمعى من حديثك ملحة … تبدت لها فيك القران وقرت
ملامى أبِنْ عذرى استبن وجدىَ استعن … سماعى أعن حالى أبن قائلى اصمت
فمن شاهدى سخط ، ومن قائلى رضا … وتلوين أحوالى وتمكين رتبتى
مرامى إشارات ، مراعى تفكر … مراقى نهايات ، مراسى تثبت
وفى موقفى والدار أقوَتْ رسومُهَا … تقرب أشواقى تبعد حسرتى
معانى إمارات ، مغانى تذكر … مبانى بدايات ، مثانى تلفت
وبث غرام والحبيب بحضرة … وورد سلام والرقيب بغفلة
ومطلع بدر فى قضيب على نقًا … فويق محل عاطل دون دُجْيَةِ
ومكمن سحر بابلىٍّ له بما … حوت أضلعى فعل القنا السَّمْهرية
ومنبت مسك من شقيق ابن منذر … على سَوْسَن غض بجنة وجنة
ورصف اللآلى فى اليواقيت كلما … تعل بصرف الراح فى كل سُحْرَةِ

---

(١) أبادت : أهلكت ، والسنا — بفتح السين مقصورا — الضوء ، واللفحة — بفتح اللام وسكون الفاء — الهبة من هبات الريح بلسان النار

سل السلسبيل العَذْبَ عن طعم ريقه ... ونكهته يخبرك عن علم خِبْرة (١)
ورمان كافور عليـــه طوابع ... من النــدِّ لم تحمل به بنت مُزْنة
ولطف هواء بين خَفْق وبانة ... ورقة ماء فى قواوير فضــة
لقد عز عنك الصبر حتى كأنه ... سراقة لحظ منــك للمتلفت
وأنت وإن لم تُبق منى صبابة ... مُنَى النفس لم تقصد سواك بوجهة
وكل فصيح منك يَسْرِى لمسمعى ... وكل مليح منك يبدو لمقلتى
تهون علىَّ النفسُ فيك ، وإنها ... لتكرم أن تغشى سواك بنظرة
فإن تنظرينى بالرضا تُشْفَ علتى ... وإن تظفرينى باللقا تطف غلتى
وإن تذكرينى والحياة بقَيْدها ... عــدلت لأمنى مُنْيتى بمنيتى (٢)
وإن تذكرينى بعد ماأسكن الثرى ... تجلت دجاه عنــد ذاك وولت
صِلينى وإلا جدّدى الوعد تدركى ... صــبابة نفس أيقنت بتفلت
فما أمُّ بوّ هالك بتَنُوفـــة ... أُقِيمَ لهـــا خلف الحلاب فدرت (٣)
فلما رأته لا ينــازع خلفها ... إذا هى لم ترسل عليـــه وضَنَّتِ
بكت كلما راحت عليـه وإنها ... إذا ذكرته آخر الليــــل حنت
بأكثر منى لوعةً غــير أننى ... رأيت وقار الصبر أحسن حليــة
فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتها ... أطامن أحشائى على ما أجَنَّتِ
أهوّن ما ألقاه إلا من القلى ... هوى ونوى نيل الرضا منك بغيتى
أخوض الصلى أطفى العلا والعلوّلا ... أصل السلا أرعى الخلى بين عبرتى
ألا قاتل الله الحمامةَ غُــدوةً ... لقــد أصلت الأحشاء نيران لوعة
وقاتل مغناها وموقف شجوها ... على الغصن ماذا هَيَّجَتْ حين غنت

---

(١) النهكة ـ بفتح النون وسكون الكاف ـ ريح الفم ، وعلم الخبرة : العلم الناشىء عن الاختبار والتجربة

(٢) المنية ـ بضم الميم وسكون النون ـ ما يتمناه الإنسان ، والمنية ـ بفتح الميم وياؤه مشددة ـ الموت

(٣) أم بو : أراد ناقة مات ولدها

فغنت غنـــاء أعجميا فهيجت غرامىَ من ذِكْرَى عهود تولت
فأرسلت الأجفان سُحْبًا وأوقدت جواى الذى كانت ضلوعى أكنت (١)
نظرت بصحراء البريقين نظرة وصلت بها قلبى فصــل وصلت
فيالهما قلبا شجيــــا ونظرة حجازية لو جنّ طرف لجنت
وواعجبا للقلب كيف اعترافه وكيف بدت أسراره خلف سترة
وللعين لما سوئلت كيف أخبرت وللنفس لما وطنت كيف دلت
وكنا سلكنا فى صعود من الهوى يُسَامى بأعلام العلا كل رتبة
إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى فلما توافينـــا ثبتُّ وزلَّتِ
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا على نحر قربان لدى قبر شَيْبة
مؤكدة بالنــذر أيام عهده فلمـــا تواثقنا اشتددتُ وحلت

ومن فصل الاحتفال :

أزور اعمارا أرضَها بتنســك وأقصد حَجًّا بيتهـــا بتحلة
وفى نشأتى الأخرى ظهرتُ بماعَلَتْ له نشأتى الأولى على كل فطرة
ولولا خفاء الرمز من لا ولن ولم تجدها لشملى مسلكا بتشتت
ولولم يجدد عهدنا عقـــد خلة قضيت ولم يقض المنى صدق توبة
بعثت إلى قلبى بشيراً بما رأت على قدم عيناى منـــه فكفت
فلم يَعْدُ أن شام البشارة شام ما جفا الشام من نور الصفات الكريمة
فيالك من نور لوأن التفـــاتة تعارض منه بالنفوس النفيسة
تحدث أنفاس الصبا أن طيبهـــا بما حملتــه من حرافة حرقة
وتنبىء آصال الربيع عن الربا وأشجاره أن قد تجلت فجلت

(١) أوقدت : أشعلت ، والجوى — بفتح الجيم مقصورا — حرقة الباطن من عشق ونحوه ، وأكنت : سترت

وتخبر أصوات البلابل أنهـــا تغنت بترجيعى على كل أيكة[1]
فهذا جمالى منك فى بعد حسرتى فكيف به إن قربتنى بخلة
تبدَّى وما زال الحجاب ولادَنَا وغاب ولم يفقده شاهد حضرتى
له كل غير فى تجلّيـــه مظهر ولا غير إلا ما محت كف غيرة
تجلّى دليـــلٍ واحتجاب تنزه وإثبـــات عرفان ومحو تثبت
فما شئت من شىء وآليت أنه هو الشىء لم تحمد فجار أليتى
وفى كل خلق منه كل عجيبة وفى كل خلق منه كل لطيفة
وفى كل خاف منه مكمن حكمة وفى كل باد منه مظهر جَـلْوة
أراه بقلب القلب واللغز كامنا وفى الزجر والفال الصحيح الأدلة
وفى طى أوفاق الحساب وسر ما يتم من الأعداد فابدأ بســتة
وفى نَفَثَات السحر فى العُقَد التى تَطُوعُ لها كل الطباع الأبيــة
يصور شكلا مثل شكل ويعتلى عليه بأوهام النفوس الخبيثـــة
وفى كل تصحيف وعضو بذاته اختلاج وفى التقويم مجلًى لرؤية
وفى خضرة الكمون تزجى شرابه مواعيد عرقوب على إثر صفرة
وفى شَجَر قد خوّفت قطع أصلها فبان بهـــا حمل لأقرب مدة
وفى النخل فى تلقيحه واعتبر بما أتى فيه عن خير البرية واسكت
وفى الطابع السبتى فى الأحرف التى يبين منهـا النظم كل خفية
وفى صنعة الطِّلّسم والكيمياء والـــكنوز وتغوير الميـــاه المعينة
وفى حرز أقسام المؤدب محرز وحزب أصيل الشاذلى وبكرة
وفى سيمياء الحاتمى ومذهب ابن سبعين إذ يعزى إلى شر بدعة

---

(١) الترجيع أصله ترديد الصوت ، وأراد به الغناء ، والأيكة ــ بالفتح ــ الشجر الكثير الملتف ، وقيل : الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ، وقالوا « فلان فرع من أيكة المجد » على التشبيه

وفى المُثُل الأولى وفى النِّحَلِ الألى بها أوهموا لما تساموا بسنة
وفى كل ما فى الكون من عجب وما حوى الكون إلا ناطقا بعجيبة
فلا سر إلا وهو فيه سريرة ولا جهر إلا وهو فيه كحلية
سل الذكر عن إنصاف أصناف ما ابتنى عليه الكلام من حروف سليمة
وعن وضعها فى بعضها و بلوغ ما أتت فيه أمضى عدها وتثبت
فلابد من رمز الكنوز لذى الحجا ولا ظلم إلا ظلم صاحب حكمة
ولولا سلام ساق للأمن خيفتى لعاجل مس البرد خوفى لميتتى
ولو لم تداركنى ولكن بعطفها درجت رجائى أن نعتنى خيبتى
ولو لم تؤانسنى عنا قبل لم ولم قضى العتب منى بغية بعد وحشتى
ونعم أقامت أمر ملكى بشكرها كما هونت بالصبر كل بلية

ومن فصل الاعتقال :

سرت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى وسارت ولم تثن العنان بعطفة(١)
وذلك لما أطلع الشمس فى الدجى مُحَيًّا ابنة الحيين فى خير ليلة
يمانية لو أنجدت حين أنجدت لما أبصرت عيناك حيا كميت(٢)
لأصْحَمَة فى نصحها قدم بنى لكل نجاشىٍّ بها حِصْنَ ذمة
ألمت فحطت رحلها ثم لم يكن سوى وقفة التوديع حتى استقلت
فلو سَمَحَتْ لى بالتفات وحل من مهاوى الهوى والهون جد تَفَلُّتى
ولكنها همت بنا فتذكَّرَتْ قضاء قضاة الحسن قدما فصدَّتِ
أجلت خيالا إننى لا أجله ولم أنتسب منه لغير تعلة
على أننى كلى و بعضى حقيقة وباطل أوصافى وحق حقيقتى

---

(١) ثنى يثنى ـ مثل رمى يرمى ـ عطف ومال ، والعنان ـ بكسر العين بزنة الكتاب ـ ما تقاد به الدابة ، والعطفة ـ بالفتح ـ المرة من العطف .

(٢) أنجدت الأولى : من النجدة ، ومعناه أسعفت ، وأنجدت الثانية : دخلت نجدا

وجنسى وفَصْلى والعوارض كلها ونوعى وشخصى والهواء وصورتى[(١)]
وجسمى ونفسى والحَشَا وغرامه وعقلى وروحانيتى القُدُسية
وفى كل لفظ عنه ميل لمسمعى وفى كل معنى منه معنى للوعتى
ودهرى به عيد ليوم عَرُوبة وأمرىَ أمرى والورى تحت قبضتى
ووقتى شهود فى فناء شهدته ولا وقت لى إلا مشاهد غيبة
أراه معى حسًّا ووهما وأنه مَنَاطُ الثريا من مدارك رؤيتى
وأسمعه من غير نطق كأنه يُلَقن سمعى ما توسوس مهجتى
ملأت بأنوار المحبة باطنى كأنك نور فى سرار سريرتى
وجَلَّيت بالإجلال أرجاء ظاهرى كأنك فى أفقى كواكب زينة[(٢)]
فأنت الذى أخفيه عند تَسَتُّرِى وأنت الذى أبديه فى حين شهرتى
فته أحتمل واقطع أصل واعل أُستفل ومر أمتثل وأملل أمل وارم أثبت
فقلبىَ إن عاتبته فيك لم أجد لعتبىَ فيه الدهرَ موقعَ نكتة
ونفسىَ تنبو عن سواك نفاسةً فلا تنتمى إلا إليك بمنة
تعلقتِ الآمال منك بفوق ما أرى دونه ما لا ينال بحيلة
وحامت حواليها وما وافقت حمى سحائب يأس أمطرت ماء عبرتى
فلو فاتنى منك الرضا ولحقتنى بعفو بكيت الدهرَ فوت فضيلة
ولو كنت فى أهل اليمين منعما بكيت على ما كان من سبقية
وكم من مقام قمت عنك مسائلا أرى كل حى كل حى وميت
أتيت بفاراب أبا نصرها فلم أجد عنده علماً يبرد غُلَّتى
ولم يدر ما قولى ابنُ سيناء سائلا فقل كيف أرجو عنده برء علتى

(١) أصل ألفاظ هذا البيت كلها من مصطلح علم المنطق
(٢) الأرجاء : جمع رجا ـ بزنة الفتى مقصورا ـ وهو الناحية

فهل فى ابن رُشْد بعد هذين مرتَجًى وفى ابن طُفَيل لاحتثاث مطيتى
لقد ضاع ـ لولا أن تداركنى حمى من الله ـ سعى بينهم طول مدتى
فقيض لى نهجاً إلى الحق سالكا وأيقظنى من نوم جهلى وغفلتى
فخصنت أنظار الجنيد جنيدها بترك فلى من رغبة ريح رهبة
وكسرت عن رجل ابن أدْهَمَ أدهما وأنقذته من أسر حب الأسرة
وعدت على حَلاَّج سكرى بصلبه وألقيت بلعام التفاتِى بهوّة
فقولىَ مشكور ورأيىَ ناجح وفعلىَ محمود بكل محـلة
رضيت بعرفانى فأعليت للعلا وأجلسنى بعد الرضا فيه جلتى
فعشت ولا ضيراً أخاف ولا قِلًى وصرت حبيباً فى ديار أحبتى
فها أناذا أمسى وأصبح بينهم مُبَلِّغَ نفسى منهم ما تمنَّتِ

ومن نظمه أيضاً ما حكى عنه فى « الإحاطة » إذ قال : وأنشدنى قوله فى حال قبض ، وقيدتها عنه :

إليك بسطت الكف أستنزل الفضلا ومنك قبضت الطرف أستشعر الذلا
وها أنا ذا قد قمت يقدمنى الرجا ويحجم بى الخوف الذى خامر العقلا(١)
أقدم رجلا إن يُضِىء برقُ مطمع وتظلم أرجائى فلا أنقل الرجلا
ولى عثَرات لست آمل إن هوت بنفسىَ أن لا أستقيل وأن أصْلَى
فإن تدركنِّى رحمةٌ أنتعش بها وإن تكن الأخرى فأولى بىَ الأولى

وقوله رحمه الله تعالى :

وجد تُسَعِّره الضلو ع وما تبرده المدامع(٢)
هم تحركه الصَّبا بة والمهابة لا تطاوع

---

(١) يحجم بي : يؤخرنى ، وخامر العقل : خالطه
(٢) تسعره : توقده وتلهبه

أمل إذا وصل الرجا أسبابه فالموت قاطع
بالله يا هـذا الهوى ما أنت بالعُشّاقِ صانع

وقال رحمه الله تعالى كما فى « الإحاطة » : ومما كتبت به لمن بلغنى عنه بعضُ الشىء :

نحن ، إن تسأل بِنَا ، معشرٌ أهل ماء فجرته الهممُ
عَرَب من بِيضِهِم أرزاقُهم ومن السمر الطوال الخيم (١)
عَرَّضت أحسابهم أرواحهم دون نيل العرض وهى الكرم
أورثونا المجد حتى إننا نرتضى الموت ولا نزدحم
مالنا فى الناس من ذنب سوى أننا نلوى إذا ما اقتحموا

وقال : مما قلته مذيلا به قول القاضى أبى بكر بن العربى :

أما والمسجد الأقصى وما يتلى به نَصًّا
لقد رقصت بنات الشو ق بين جوانحى رقصا

قولى :

فأقلع بى إليه هوى جناحا عزمه قصا
أقَلَّ القلبَ واستعدى على الجثمان فاستعصى
فقمت أجول بينهما فلا أدنى ولا أقصى

قال رحمه الله تعالى : ومما قلته فى التورية بشأن راوى المدونة :

لا تعجبن لظبى قد دَهَا أسداً فقد دها أسداً من قبل سحنونُ

ومن نظم مولاى الجد مما لم يذكره فى « الإحاطة » قوله حسبما أُلفِيَ بخطه على ظهر نسخة من تأليفه القواعد :

ناديت والقلب بالأشواق محترق والنفس من حيرة الأبعاد فى دَهَشِ
يامعطشى من وصال كنت آمله هل فيك لى فرج إن صحت واعَطَشِى

---

(١) بيضهم : سيوفهم ، واحدها أبيض ، يريد أنهم لا يحصلون على رزقهم إلا بسيوفهم ، والسمر : الرماح

ومن نظمه ما أسنده الونشريسى إليه :

خَالِفْ هَوَاكَ وكن لعقلك طائعا فخذ الحقيقة عند طرف الناظر

ومنه مما نسبه له المذكور، ورأيت من ينسبهما لغيره :

لما رأيناك بعد الشيب يارَجُلُ لا تستقيم وأمرَ النفس تمتثل
زدنا يقينا بما كنا نصدقه بعد المشيب يشبُّ الحرص والأمل

وفى «الإحاطة» فى ترجمة شعره ماصورته قال : ومماقلته من الشعر، وبه نختم الكلام :

أنبتَّ عودا لنعماء بدأتَ بها فضلا وألبسته بعد اللحى الورقا
فظل مستشعراً مستدثراً أرِجاً ريان ذا بهجة يستوقف الحدقا(١)
فلا تشنه بمكروه الْجَنَى فلكم عَوَّدته من جميل من لدن خلقا
وأنف القذى عنه وأُثر الدهر منبته وغَذِّهِ برجاء واسْقِهِ غَدَقَا
واحفظه من حادثات الدهر أجمعها ماجاء منها على ضوء وما طرقا

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاى الجد على ما اقتضاه الوقت ، ولو أرسلت عِنان القلم فى شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك ، و يرحم الله شيخ شيوخ شيوخنا عالم المغرب سيدى أبا العباس الونشريسى ثم التلمسانى نزيل فاس صاحب «المعيار» وغيره إذ قال فى تأليفه الذى عَرَّفَ فيه بمولاى الجد لما سأله بعضهم فى ذلك ، وذكر ماحضره ، مانصه : ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبوعبدالله بن مرزوق الحفيد ترجمة المقرى فى كتاب سماه «النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى» وقد تقدمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبنى على أن المقرى بفتح الميم وسكون القاف ، وقد علمت مافى ذلك مما مضى .

قلت : وقد ملكت بفاس مجلداً ضخماً بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة

---

(١) الشعار ـ بالكسر ، بزنة الكتاب ـ اللباس الذى يلامس البدن ، والدثار ـ بالكسر أيضا ـ اللباس الذى يتدثر به (يستدفأ) ومستشعر ومستدثر : أي لابس الشعار والدثار ، هذا أصلهما ، واستعمالهما هنا مجاز

فاس ، ألفه برسم مولاى الجد ، وسماه « بالزهر الباسم » وأطال فيه فى مدح مولاى الجد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرنى الآن لكونى تركته مع جملة كتبى بالمغرب ، وقد تعلق بحفظى ما قاله فى أوله من جملة أبيات :

إذا ذُكِرَتْ مفاخر أهل فاس ذكرنا مَنْ أتى من تلمسان
وقلنا هل رأيتم فى قُضَاةٍ شبيها للفقيه العدل ثانى

إلى أن قال :

ونفس العلم إن شانت لشخص فما للمقَّرِى فى العلم شانى(١)

وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون ، منهم لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين ، والوزير أبو عبد الله بن زَمْرَك ، والأستاذ العلامة أبو عبد الله القيجاطى الآية فى علم القراآت ، والشيخ الفقيه القاضى الرَّحال الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجى الزمورى الدار المعروف بنقشابو ، والولى ابن خلدون صاحب التاريخ ، وفى بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا ، وفى بعضها بشيخنا ، والنظار أبو إسحاق الشاطبي ، والعلامة أبو محمد عبد الله بن جُزَى ، والحافظ ابن علان ، وغيرهم ممن يطول تعداده ، ولا كالشيخ الولى الشهير الكبير العارف بالله سيدى محمد بن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء الله فإنه ممن يفتخر مولاى الجد رحمه الله تعالى بكون مثله تلميذا له ، ولا بأس أن نورد ترجمته تبركا به فى هذا الكتاب ، ولو لم تقتضه المناسبة التى راعيناها فى هذا التأليف ، فكيف وقد اقتضته ؟ فنقول :

ترجمة ابن عباد الرندى

قال فى حقه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج ، ما صورته : هو شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشى ، الإمام العالم المصنف السالك العارف المحقق الربانى

(١) شانى : أصله شانىء ـ بالهمز ـ اسم فاعل من قولهم « شنئته أشنأه » بوزن علم يعلم ـ إذا أبغضته وكرهته ، ثم سهلت الهمزة من « شانىء » بقلبها ياء

ذو العلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، سليلُ الخطباء ، ونتيجة العلماء ، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلَم الحظى الوجيه الحسيب الأصيل أبى إسحاق إبراهيم بن أبى بكر بن عباد ، كان حسن السَّمْت ، طويل الصمت ، كثير الوقار والحياء ، جميل اللقاء ، حسن الخَلْق والخُلُق ، عالى الهمة ، متواضعا ، معظما عند الخاصة والعامة ، نشأ ببلده رُنْدَة على أكمل طهارة ، وعفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ابنَ سبع سنين ، ثم تشاغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية ، حتى رأس فيها ، وحصل معانيها ، ثم أخذ فى طريق الصوفية ، والمباحثة على الأسرار الإلهية ، حتى أشير إليه ، وتكلم فى علوم الأحوال والمقامات ، والعلل والآفات ، وألف فيه تواليف عجيبة ، وتصانيف بديعة غريبة ، وله أجوبة كثيرة فى مسائل العلوم نحو مجلدين ، ودرس كتبا وحفظها أوجُلَّها كشهاب القضاعى والرسالة ومختصرى ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريرى وفصيح ثعلب وغيرها ، وقوت القلوب[1] ، أخذ ببلده رُنْدَة عن أبيه القرآن وغيره ، وعن خاله الشيخ الفقيه القاضى عبد الله الفريسى العربية وغيرها ، وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبى الحسن على بن أبى الحسن الرُّنْدِى حرف نافع[2] ، وعرض عليه الرسالة ، وبتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبى عبد الله التلمسانى الحسنى جُمَلَ الخونجى تفهما وغيره ، وعن الشيخ الفقيه القاضى العالم أبى عبد المقرَّى كثيرا من المختصر الفرعى لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلها تفقها ، وعن الشيخ الفقيه العالم أبى محمد عبد النور العمرانى الموطأ والعربية ، وعن الإمام العالم أبى عبد الله الأبلى « الإرشاد » لأبى المعالى وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلى وعقيدة ابن الحاجب تفقها ، وعن الشيخ

---

(١) قوت القلوب : كتاب لأبى طالب المكى ، يعتبر أصلا لكتاب « إحياء علوم الدين » لحجة الإسلام الغزالى

(٢) حرف نافع : أى القراءة المنسوبة إليه

الفقيه الحافظ أبى الحسن الصرصرى بعض « التهذيب » تفقها ، وعن الشيخ الأستاذ المقرى الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصى شهر بالمكناسى كثيرا من جُمَل الزجاج وتسهيل ابن مالك ، وعن الشيخ الفقيه الصالح أبى مهدى عيسى المصمودى جميع كتاب ابن الحاجب والحاجبية له أيضا تفقها ، وتفقه على الفقيه العالم أبى محمد الواتعيلى فى كتاب ابن الحاجب الفقهى ، وأخذ عنه حرف نافع ، وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبى محمد عبد الله القشتالى كثيرا من « التهذيب » وعن قاضى الجماعة وخطيب الحضرة أبى عبد الله محمد بن أحمد القشتالى كثيرا من « التهذيب » تفقها ، وكذا عن غيرهم ، ولقى بسَلاَ الشيخ الحاج الصالح السنى الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة ، قال : قصدتهم لوُجْدَان السلامة معهم ، ثم رحل لطَنْجَة فلقى بها الشيخ الصوفى أبا مروان عبد الملك ، لازمته كثيرا ، وقرأت عليه ، وسمعت منه ، وأنشدنى من شعره وشعر غيره ، وترددت بينى و بينه مسائل فى إقامته بسَلاَ ، وانتفعت به عظيما فى التصوّف وغيره ، وأجازنى إجازة عامة ، مولده برُنْدَة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، وتوفى بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمائة ، وحضر جنازته الأمير فمن بعْدَه ، وهمّت العامّة بكسر نعشه تبركا به ، ولم أر جنازة أحفل ولا أكثر خلقا منها ، ورثاه الناس بقصائد كثيرة ، انتهى كلام السراج .

وقال غيره فى حقه : محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد ابن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد ، النفزى (١) نسبا ، الرُّنْدِى بلدا ، الشهير بابن عباد ، الفقيه الصوفى الزاهد الولى العارف بالله تعالى .

وقال فى حقه الشيخ ابن الخطيب القسمطينى فى كتابه « أنس الفقير ، وعز

---

(١) وقع فى ب « التعزى نسبا » وما أثبتناه موافق لما كتب بطرة شرح الحكم . ونفزة — بفتح النون ، وقيل بكسرها ، مع سكون الفاء — قبيلة معروفة من قبائل البربر ، وسمى بها بلدة من بلاد المغرب ، وصرح تاج العروس بنسبة ابن عباد إليها .

الحقير » : هو الخطيب الشهير، الصالح الكبير ،وكان والده من الخطباء،الفصحاء النجباء ، ولأبى عبد الله هذا عقل وسكون ، وزهد بالصلاح مقرون ، وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبى عمران العبدوسى رحمه الله تعالى ، وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر ، ومن خيار تلامذته ، وأخذ عنه ، وله كلام عجيب فى التصوّف ، وصنف فيه ، كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير ، وله فى ذلك قلم انفرد به ، وسلم له فيه بسببه ، ومن تصانيفه شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله فى سفر ، رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لا يبلغ المرء فى أوطانه شَرَفاً حتى يَكِيلَ تراب الأرض بالقدم[1]

ومن كلامه فيه : الاستئناس بالناس ، من علامات الإفلاس ، وفتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . ومن كلامه فيه : من لازم السكون و بقى معه وقصر همته عليه ولم تنفتح له طريقُ الغيوب الملكوتية ، ولا خلص له بسره إلى فضاء شهادة الوحدانية ، فهو مسجون بمحطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته . إلى غير ذلك من كلامه . وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان ، وهو لا يريد ذلك ، وما رأيته قط فى غير مجلس جالسا مع أحد ، و إنما حظ من يراه الوقوف معه خاصا ، وكنت إذا طلبته فى الدعاء أحمر وجهه واستحيا كثيراً ، ثم يدعو لى ، وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير ، ويتولى أمر خدمته بنفسه ، ولم يتزوّج ، ولم يملك أمة ، ولباسُه فى داره مُرَقَّعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض ، وله تلامذة كلهم أخيار مبارَكُون ، و بلغنى عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبا ، وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه ، وأكثر قراءته فى صلاة الجمعة « إذا جاء نصر الله » وأكثر

(١) يكيل تراب الأرض بالقدم : كناية عن جده ودأبه فى السير وكثرة رحلته

خطبته وعظ ، ومثله من يَعِظُ الناس ، لأنه اتعظ فى نفسه ، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : يا عيسى ، عِظْ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاسْتَحْيِ منى ، ذكره الغزالى ، وعهدى به أنه على صفة البُدَلاء ، الصادقين النبلاء ، كثر الله مثله فى الإسلام ، انتهى .

قلت : وقد زرت قبره مراراً بفاس ، ودعوت الله تعالى عنده ، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعى عند أهل مصر ، ومن منن الله سبحانه على أنى سكنت محله لما توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مُضَافين إلى الفتوى ، والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تعرف بدار الشيخ ابن عباد ، وأقمت على ذلك خمس سنين وأشهراً ، ثم قوّضت الرحال[1] للمشرق ، وها أنا إلى الآن فيها ، والله ييسر الخير حيث كان .

وقال الشيخ سيدى أحمد زروق فى شأن الشيخ ابن عباد : إنه ولد برُنْدَة ، وبها نشأ فى عَفَاف وصَوْن ، ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية ، ثم عاد فصحب بمدينة سَلاَ أفضلَ أهل زمانه علما وعملا سيدى أحمد ابن عاشر ، نفعنا الله به ! فأظهر الله تعالى عليه من بركاته ما لا يخفى على متأمل ، ثم نقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيباً بجامع القرويين من مدينة فاس ، وبقى بها خمس عشرة سنة خطيباً ، فتوفاه الله تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح ، وكان رضى الله عنه ذا صمت وسمت ، وتحمل وزهد ، معظماً عند الكافة ، مُعَوَّلا فى حل المشكلات على فتح الفتاح العليم :

ومن علمه أن ليس يُدْعَى بعالم ... ومن فقره أن لا يُرَى يشتكى الفقرا

---

(١) أصل التقويض الهدم ، والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على الناقة للركوب عليه ، والجارى فى الاستعمال أن يقال «شددت الرحال إلى المكان الفلانى» يراد به أنه أخذ أهبته للسفر ، وهو فى هذه العبارة يعكس هذا اللفظ ، والمراد مفهوم

ومن حاله أن غاب شاهد حاله فلا يَدَّعِى وصلا ولا يشتكى هجرا

كذا رأيت بخط مَنْ أثق به فى تعريفه مختصراً مع زيادة ما تحققت ، وكتبُه شاهدة بكماله علماً وعملا ، فهى كافية فى تعريفه ، وكان الذى طلبه فى وضع الشرح على الحكم سيدى أبو زكريا السراج الذى أكثر رسائله له وسيدى أبو الربيع سليمان بن عمر ، انتهى .

وقال فى موضع آخر : سيدنا العارف المحقق الخطيب البليغ نسيجُ وَحْدِه (١) ، ومقدم من أتى من بعده ، أبو عبد الله ، قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول والفقه ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقهى والأصلى وتسهيل ابن مالك وتوفى بفاس ، وقبره بها مشهور ، ومزيته معروفة شرقا وغربا ، وقد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدى يحيى السراج ، وله كتب الشرح مع سيدى سليمان ابن عمر الذى قال فى حقه : إنه ولى بلا شك ، بطلبهما لذلك ، ورأيت كتابا فى الإمامة وسماه « تحقيق العلامة ، فى أحكام الإمامة » فذكرته لشيخنا القورى رحمه الله تعالى ، وكان معتنيا بكتبه معوّلا عليها فى حاله ، فقال : أظنه لوالده سيدى إبراهيم ، وقد كان خطيبا بالقصبة إذ كانت عامرة ، وله خطب عظيمة الفصاحة ، حسنة الموقع ، انتهى .

وقال الشيخ أبو يحيى بن السكاك : أما شيخى وبركتى أبو عبد الله بن عبّاد رضى الله عنه فإنه شرح الحكم وعقد درر منثورها فى نظم بديع ، وجمعت من إنشائه مسائل مدارُها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوّة ، فيها نبذ كأنفاس الأكابر ، مع حُسْن التصرف فى طريق الشاذلى ، وجَوْدَة تنزيل على الصور الجزئية ، وبسط التعبير ، مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته ، والتفنن فى تقريب الغامض

---

(١) يقال « فلان نسيج وحده » يراد به أنه لا نظير له ، وأصله الثوب ينسج على منوال فلا ينسج على هذا المنوال غيره .

إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية ، فقرب بها حقائق الشاذلية تقريبا لم يُسْبَق إليه ، كما قرب الإمام ابنُ رُشْد مذهبَ مالك تقريبا لم يسبق إليه ، وكان مع ذلك آية فى التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوّة وعدم المبالاة بالمدح والذم ، بل له مقاصد نفيسة فى الإعراض عن الخلق ، وعدم المبالاة بهم ، وأعظم أخلاقه التى لا يصبر عنها و يضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحق ، لا سيما إن كان نسيان الحق بالنسبة إليه ، فهو الذى يُقْلِقه ، و يضيق صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك ، ولقد ذكر بعض من كان من أخص الناس به ومنقطعاً إليه أحوالَ رجال الرسالة القُشَيْرية والحِلْيَة وما منحوا من المواهب ، قال : فلما مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدل على القطع بصديقيته لاح لى أن تلك الصفات التى يذكر مشخصة فيه ، نشاهدها عيانا ، ولو لم أر الشيخ لقلت : إننى لم أر كمالا ، وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب ، ذكر لى عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الأبلى أنه كان يشير إليه فى حال قراءته عليه ، أعنى الشيخ ابن عباد ، و يقول : إن هناك علما جما لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت ، إلا أنه كان لا يتكلم رضى الله عنه ، وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدم ، وأقروا له بالشيخوخة ، وتبركوا به ، كسيدى سليمان البازغى وسيدى محمد المصمودى وسيدى سليمان بن يوسف بن عمر الأنفاسي وأمثالهم ، وكان شيخه الحجة الورع أحمد بن عاشر يُشِيدُ بذكره ، و يقدمه على سائر أصحابه ، و يأمرهم بالأخذ عنه ، والانتفاع به ، والتسليم له ، و يقول : ابن عباد أمة وحده[1] ، ولاشك أنه كذلك ، كان أعنى غريبا فإن العارف غريب الهمة بعيد القصد ، لا يجد مساعداً على قصده ، وكان الغالب عليه الحياء من الله تعالى ، والتنزل بين يدى عظمته ، وتنزيله نفسه منزلة

---

(١) فلان أمة وحده : كناية عن كونه جامعا للصفات الكمالية التى توجد فى أمة ، وفى القرآن الكريم : (إن إبراهيم كان أمة) .

أقل الحشرات ، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق ، لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنة ، نظاراً إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة ، مع توفية المراتب حقها ، والوقوف مع الحدود الشرعية ، واعتبارهم من حيث مُرَاد الله تعالى بهم ، هذا دأبه مع الطائع والعاصى مالم يظهر له من أحد مَخَايِل(١) حب التعظيم والمدح والتجبر على المساكين ورؤية الحق إذ هي دعوى لا تليق بالعبد ، ومن كانت هـذه صفته فقد وصل حد الخذلان ، بل هى علامة تقارب القطع ، على أنه شقى مُسْلَم إلى غضب الله تعالى ومقته ، أعاذنا الله تعالى منه ، وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار ، فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لآبائهم وأمهاتهم ، فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير ، يأتون من كل أوْب ومن المكاتب البعيدة ، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده ، وكذا كان ملوك زمانه يزدحمون عليه ، ويتذللون بين يديه ، فلا يَحفِل بذلك ، وذكر لى بعض تلامذته أن أقواله تشبه أفعاله ، لما منحه الله تعـالى من فنون الاستقامة ، مع ما فى كلامه من النور والحلاوة التى استفزت ألباب المشارقة ، بحيث صار لهم بحث عريض على تواليفه ، انتهى كلام ابن السكاك .

وله من التواليف : الرسائل الكبرى ، والصغرى ، وشرح الحكم ، ونظمها فى ثمانمائة بيت من الرجز .

وحدث الشيخ أبو مسعود الهراس قال : كنت أقرأ فى صحن جامع القرويين والمؤذنون يؤذنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله بن عَبَّاد قد خرج من باب داره ، وجاء يطير فى الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل فى البلاط الذى حول الصَّوْمعة ، ثم مشيت فوجدته يصلى حول المحراب ، وسأله السراج عن أبى حامد الغزالى ،

(١) المخايل : جمع مخيلة ، وأصل معناها الحرفى : موضع الظن ، ويقال «ظهرت على فلان مخايل النجابة» أى أماراتها ، ولا شك أنهـا تبعث على ظن حدوث النجابة فيه .

فقال : هو فوق الفقهاء ، وأقل من الصوفية ، ومما نقل من خطه رحمه الله تعالى ولا يدرى هل هى له أم لا :

الحزم قبل العزم فاحزم واعزم ... وإذا استبان لك الصواب فصمم
واستعمل الرفق الذى هو مكسب ... ذكر القلوب وجُدْ وأجمل واحلم
واحرس وسر وأشجع وصُلْ وامنن وصِلْ ... واعدل وأنصف وارع واحفظ وارحم (1)
وإذا وعدت فعد بما تقوى على ... إنجازه وإذا اصطنعت فتمم

وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضى الحاج أبو سعيد بن أبى سعيد السلوى أنه رأى فى حائط جامع القرويين أبياتاً مكتوبة بفحم بخط الشيخ أبى عبد الله بن عباد وهى :

أيتها النفس إليه اذهبى ... فحبه المشهور من مذهبى
مفضض الثغر له نقطة ... من عنبرى خده المذهب
أيأسنى التوبة من حبه ... طلوعه شمساً من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد : فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل ، وذكر الخال والخد والثغر ، ومقام الشيخ ابن عباد يجل عن الاشتغال بمثل هذا ، فلقيت يوما أبا القاسم الصيرفى ، فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها ، فقال لى : مقامك عندى أعلى من أن تستشكل مثل هذا ، هذه أوصاف ولى الله القائم بأمر الله المهدى ، فشكرته على ذلك ، انتهى

قلت : رأيت بخط الونشريسى إثر هذه الحكاية ما نصه : قلت فى صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر ، لما احتوت عليه من تعبير الحسن ، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا ، فهذان إشكالان ، والله أعلم .

وحكى أن الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى لما احتضر جعل رأسه فى حجر

---

(1) صل الأولى — بضم الصاد — أمر من قولهم « صال يصول صولا ومصالا وصولة » إذا أقدم ، وصل الثانية — بكسر الصاد — أمر من قوله « وصل فلان فلانا يصله وصلا » إذا أعطاه صلة وأسدى إليه يدا .

أبى القاسم هذا ، وأخذ فى قراءة آية الكرسى إلى قوله « الحى القيوم » ثم يقول : يا ألله ياحى ياقيوم ، فيلقنه من حضر « لاتأخذه سنة ولا نوم » فيمتنع الشيخ من قراءتها و يقول : يا ألله ياحى ياقيوم ، فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلم به :

ما عودونى أحبائى مقاطعة بل عودونى إذا قاطعتهم وصلوا(١)

ولما توفى الشيخ ابن عبّاد رضى الله عنه فى التاريخ المتقدم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد ابن السلطان أبى سالم وأهل البلدتين - يعنى فاسا الجديد التى هى مسكن السلطان وخواص أتباعه ، وفاسا العتيق التى هى محل الأعلام والخاص والعام من الناس فى ذلك القطر ، إذ هى إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام فى المغرب - وتقدم بعده للامامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهونى حسبما قاله الجاديرى رحمه الله تعالى !.

وحكى الوانشريسى رحمه الله تعالى أن الشيخ ابن عبّاد كلم ابن دريدة الوالى فى مَظْلَمة ، فلم يقبل ، فلما كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين وراء الشيخ ابن عباد ، قال الشيخ فى خطبته : من الأمور المستحسنة ، أن لا يبقى الوالى سنة ، انتهى .

وللشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدى الناس ، ويقرؤن منها ما يتعلق بالمولد النبوى الشريف بين يدى السلطان تبركا بها ، وكذا يقرؤنها فى المجتمعات فى المواسم ، كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما ، كرمضان ، وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة كراسة الشيخ

---

(١) « عودونى أحبائى » جار على لغة مهجورة فى لسان العرب يسميها النحاة لغة « أكلونى البراغيث » وخلاصتها إلحاق علامة التثنية والجمع بالفعل المسند إلى مثنى أو مجموع .

فى المولد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام بين يدى مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسنى رحمه الله تعالى ، وقد احتفل لذلك المولد بأمور يستغرب وقوعها ، جازاه الله تعالى عن نيته خيرا ، وقد أشرت إلى ذلك فى كتابى الموسوم « بروضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس » وسردت جملة من القصائد والموشحات فى وصف ذلك الصنيع ، ورحمة الله وراء الجميع .

ولنرجع إلى مشايخ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى فنقول :

أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد

ومنهم : الشيخ الفقيه القاضى بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد ابن محمد ، ذكره فى « نفاضة الجراب » وقال : إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة ، وكان من أهل المعرفة والحَصَافة[1] ، قائما على كتاب أبى عمرو بن الحاجب فى مذهب مالك ، وكان ممتازا به فيما دون تلمسان ، قرأه على الشيخين عَلَمى الأفق المغربى أبى موسى وأبى زيد ابنى الإمام عالمى تلمسان والمغرب جميعا ، قال لسان الدين فى « النفاضة » : وتصدر المذكور لإقرائه الآن ، فماشئت من اضطلاع[2] ، ومعرفة وأطلاع ، وقيد جزأ نبيلا على فتوى الإمام القاضى أبى بكر ابن العربى المسماة بالحاكمة ، وسماه « بالجازمة ، على الرسالة الحاكمة » أجاد فيه وأحسن ، وقرأت عليه بعضه وأذن لى فى تحمله ، انتهى .

يونس بن عطية الواشريسى

ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الوانشريسى ، له عناية بفروع الفقه ، وولى القضاء بقصر كتامة .

ابن أبى عفيف

ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى عفيف ، المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوى ، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير

---

(١) الحصافة : مصدر « حصف فلان » — بضم الصاد — إذا استحكم عقله ورجح

(٢) تقول « اضطلع فلان بالأمر » إذا قام عليه فأحسن القيام .

من نظرائه قراءة منه إياها على أبى عبد الله محمد بن أبى الفضل الصباغ ، وشاركه فى قراءتها على الإمام أبى عبد الله الأبلى .

عمر بن سليمان الوانشريسى

ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ فى فن العربية : أبو على عمر بن عثمان الوانشريسى، قال لسان الدين : حضرت مذاكرته فى مسألة أعوزت عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهى قول الشاعر :

الناس أكْيَسُ من أن يمدحوا رجلا ... مالم يَرَوْ عنده آثار إحسان[1]

وصورة السؤال : كيف وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما فى الوصف ؛ إذ أوقع الشاعر «أكيس» بين الناس و بين أن يمدحوا ، وهو مؤوّل بالمصدر وهو المدح ، ولا يوصف بذلك ، انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد أشار إليه أبو حَيَّان فى «الارتشاف» وجماعة آخرون فى قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص «أكثر من أن تُحْصَى» ولولا السآمة لذكرت ما قيل فى ذلك ، وخلاصة ما قالوه أن فى الكلام تقديراً ، والله أعلم .

أبو جعفر الجنان

وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخبارى الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى الجنَّان[2] ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، وهو كاتب عاقد للشروط ، ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم ، مؤلف ، وقد ذكرنا فى غيرهذا المحل مادار بينه و بين لسان الدين من المحاورة والمراجعة ، فليراجع ، قال لسان الدين رحمه الله تعالى : ناولنى المذكور تأليفه الحسن الذى سماه « المنهل المورود ، فى شرح المقصد المحمود» شرح فيه وَثائق الجزرى

(١) أكيس : أفعل تفضيل من الكيس — بالفتح — وهو العقل .

(٢) الجنان — بفتح الجيم وتشديد النون — بمعنى البستانى ، والروضة يقال لها « جنة » ومن هذا اشتقوا الجنان كما أخذوا التمار واللبان والنجار والغزال .

فأربى بيانا[١] وإفادة وإجادة ، وأذن لى فى حمله عنه ، وهو فى ثلاث مجلدات ، وأنشدنى كثيراً من شعره .

أبو عبد الله ابن أبى رمانة

ومنهم القاضى بها أبو عبدالله بن أبى رمانة ، قال لسان الدين : لقيته بمكناسة ، وكان من أهل الحياء والحشمة ، وذوى السذاجة والعفة ، ثم ذكر ما داعَبَه به حين تأخر عن لقائه ، وقد ذكرنا ذلك فى غير هذا الموضع .

أبو على الحسن ابن عثمان الوانشريسى

وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوانشريسى ، قال : وكان فقيها عَدْلاً من أهل الحساب ، والقيام على الفرائض ، والعناية بفروع الفقه ، ومن ذوى السذاجة والفضل ، ويقرض الشعر ، وله أرجوزة فى الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى ، انتهى .

وقال ابن الأحمر فى حقه : هو شيخنا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى[٢] الأديب ، الحاج أبو على ابن الفقيه الصالح أبى سعيد عثمان التجانى المنعوت بالوانشريسى ، أجازنى عامة ، أخذ عن الفقيه المفتى الأديب الخطيب المعمر القاضى المحدث الراوية خاتمة المحدثين بالمغرب أبى البركات ابن الحاج البلفيقى ، انتهى .

ومولده فى حدود أربع وعشرين وسبعمائة .

وذكر صاحب « المعيار المعرب ، والجامع المغرب ، عن فتاوى أفريقية والأندلس والمغرب » جملةً من فتاويه وقال فى وثائقه ، وقد أجرى ذكره ماصورته : إن بلديَّنَا الشيخ القاضى العلامة أباعلى الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة ، وذلك أن السلطان أباعنان فارسا كان أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسمَ الشيخ أبى على هذا فى العشرة ، فشق ذلك على بعض شيوخ العدول

---

(١) أربى : زاد

(٢) الفرضى : العالم بأحكام المواريث ، لأن المواريث تسمى الفرائض ، والفرائض جمع فريضة ، والنسبة إلى المفرد ، وقد يقولون « فرائضى » نسبة إلى الجمع أو لأنه لما سمى به صار كالمفرد .

المؤخَّرين لحداثة سن أبي علي ، فلما علم تشغيبهم صنع رجزاً ورفعه إلى مقام المتوكل على الله أبي عنان نَصُّه :

نبـدأ أولا بحمد الله ونستعيـنه على الدواهي
ثم نُوالي بالصلاة والسلام على نبي دونه كل الأنام (١)
و بعد ذا نسأل رب العالمين أن يَهَبَ النصر أمير المؤمنين
خليفة الله أبا عنان لا زال في خير وفي أمان
مَلَّكه الله من البلاد من سوس الأقصى إلى بغداد
ويسر الحجاز والجهادا وجعل الكل له مهادا
يا أيها الخليفة المُظَفَّر دونك أمري إنه مفسر
عبدكم نجل عطية الحسن قد قيل لا يشهد إلا إن أسَنّْ (٢)
وهو في أمركم المعهود من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعيينا وسنه قارب أربعينا
مع الذي ينتسب العبد إليه من طلب العلم و بحثه عليه
على الفرائض له أرجوزه أبرز في نظامها إبريزه
ومجلس له على الرسالة فكيف يرجو حاسدٌ زوالَهْ
حاشا أمير المؤمنين ذاكا وعد له قد بلغ السِّماكا
وعلمه قد طبق الآفاقا وحلمه قد جاوز العراقا
وجوده مشتهر في كل حي قصر عن إدراكه حاتم طي

وحكى بعضُ الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطانَ أمر بإقراره على ذلك ،

---

(١) توالي : تتابع
(٢) أسن : كبر سنه

وقد وقفتُ على رَجَزه المذكور ، وله شرح عليه لم أره ، والظاهر أنه ممن تدنج[١] معه لسان الدين ، رحم الله الجميع ! وهو معدود فى جملة من لقيه .

أبو العباس أحمد بن عاشر

ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات الكبيرة ، سيدى الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر الصالح المشهور ، كان لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ! ـ حريصاً على لقائه بسَلاَ أيام كان بها ، وقد لقيه ، ولم يتملَّ منه[٢] لشدة نفوره من الناس ، خصوصاً أصحابَ الرياسة ، ولذا قال لسان الدين ، لما ذكر أنه لقيه فى « نُفَاضة الجراب » ماصورته : يَسَّرَ الله لقاءه على تعسره ، انتهى .

وسنترجم الولى المذكور فى نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله :

* بولى الله فابدأ وابتدر *

وقبره الآن بسَلاَ محطُّ رجاء الطالبين ، وكعبة قصد الراغبين ، تلوح عليه أنوار العناية ، وتستمد منه أنواء الهداية ، وهو على ساحل البحر المحيط بخارج مدينة سَلاَ المحروسة ، وقد زرته ولله الحمد عند توجهى إلى حضرة مراكش سنة ألف وتسعة ، والناسُ يشدون الرحال إليه من أقطار المغرب ، نفعنا الله تعالى به ، وأعاد علينا من بركاته ! بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

أبو عبد الله محمد ابن على الفخار

ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوى الشهير أبو عبد الله محمد بن على الفخار البيرى ، رحمه الله تعالى !

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع ، وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبى أبى إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زَمْرَك وغيرهما ، وقد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبى ، وقال لسان الدين فى « الإحاطة » فى ترجمة مشيخته

---

(١) تدنج : كذا هى بالجيم فى الأصول ، ويظهر لى أن الكلمة محرفة عن « تدنخ » بالخاء المعجمة — ومعناها أخش معه فى الكلام

(٢) لم يتمل منه : لم يتمتع بطول عشرته

ما صورته : ولازمتُ قراءةَ العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن الفخار البيرى ، الإمام المجمع على إمامته فى فن العربية ، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظاً واُطلاعا واضطلاعا ونقلا وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ، انتهى .

ولنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول :

ومن فوائد ابن الفخار المذكور التى حكاها عنه الشاطبى قوله : حدثنى أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وَزْنُه وما تَصْرِيفه ؟ ثم قال الشاطبى : ولما حدثنا بذلك سألناه عنها فأملى علينا ما نصه : وزن إجازة فى الأصل إفعالة ، وأصلها إجوازة فأُعلَّتْ بنقل حركة الواو إلى الجيم حملا على الفعل الماضى استثقالا ، فتحركت الواو فى الأصل وانفتح ما قبلها فى اللفظ ، فانقلبت ألفاً ، فصارت إجاازة ـ بألفين ـ فحذفت الألف الثانية عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلى (١) ، وحذفت الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد ، وقول سيبويه أولى ، لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف فى نحو « زنادقة » والتاء زائدة ، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلى ، للتناسب ، ووزنُها فى اللفظ عند سيبويه إفَعَلَة وعند الأخفش إفَالَة لأن العين عنده محذوفة ، انتهى .

وقال الشاطبى رحمه الله تعالى : لما توفى شيخنا الأستاذ الكبير ، العلم الخطير ، أبو عبد الله بن الفخار سألت الله عز وجل أن يرينيه فى المنام فيوصينى بوصية أنتفع بها فى الحالة التى أنا عليها من طلب العلم ، فلما نمت فى تلك الليلة رأيت كأنى أدخل عليه فى داره التى كان يَسْكن بها ، فقلت له : ياسيدى أوْصِنِى

(١) قلت : لا ، ليس الزائد بأولى بالحذف من الأصلى ، لأن الزائد مأتى به لغرض فى الكلمة ، وهى تصييرها على زنة خاصة للدلالة على معنى خاص ، فكأن الحرف الزائد فى هذه الزنة هو الدال على المعنى المقصود بها ، فإذا حذف فاتت هذه الدلالة

فقال لى : لاتعترض على أحد ، ثم سألنى بعد ذلك فى مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لى ، فأجبته عنها ، ولا أذكرها الآن ، انتهى .

وقال الشاطبى أيضاً ما صورته : حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا ـ رحمه الله تعالى ! ـ قال : حدثنى بِسَبْتَةَ بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عُيُونُ طلبتها ، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال ، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندى كرجل واحد ، يعنى أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد ، وهو ابن أبى الربيع ، فكأنه إنما يخاطب رجلا واحداً ازدراء بهم[1] ، فاستقبله أصغر القوم سناً وعلماً بأن قال له : إن كنت بالمكان الذى تزعم فأجبنى عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التى أذكرها لك ، فإن أجبت فيها بالصواب لم تَحْظَ بذلك فى نفوسنا[2] اصغرها بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل ، وإن أخطأت فيها لم يَسَعْك هذا البلد ، وهى عشرة : الأولى : أنتم يا زيدون تغزُونَ ، والثانية أنتن يا هندات تَغْزُونَ ، والثالثة أنتم يا زيدون ويا هندات تَغزُونَ ، والرابعة أنتن ياهندات تَخْشَيْنَ ، والخامسة أنْتِ ياهند تَخْشَيْنَ ، والسادسة أنت ياهند تَرْمِين ، والسابعة أنتن ياهندات تَرْمِين ، والثامنة أنتن ياهندات تَمْحُونَ أو تمحين ، كيف تقول ؟ والتاسعة أنت ياهند تَمْحِينَ أو تمحون ، كيف تقول ؟ والعاشرة أنتما تَمْحُوَان أو تمحيان ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبنى و بعضها معرب ؟ وهل هى كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة ؟ علينا السؤال وعليك التمييز لنعلم الجواب ، فبُهِتَ الشيخ ، وشغل المحل بأن قال : إنما يُسْأَل عن هذا صغار الولدان ، قال له الفتى : فأنت دونهم

(١) ازدراء بهم : احتقارا لهم واستهانة بشأنهم

(٢) لم تحظ : لم تكن ذا حظوة ومنزلة فى نفوسنا

إن لم تجب ، فانزعج الشيخ ، وقال : هذا سوء أدب ، ونهض منصرفاً ، ولم يصبح إلا بمالَقَة متوجهاً إلى غَرْنَاطة حرسها الله تعالى! ولم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه ! انتهى .

ثم قال الشاطبي : والجواب عن هذه المسائل ما يذكر (١) : أما الجواب عن « تغزون » الأولى فإنه معرب ، ووزنه أصلا تَفْعُلُونَ ، ولفظا تَفْعُونَ ، وعن الثانية فمبنى للَحَاق نون الإناث ووزنه تفعُلْنَ ، وعن الثالثة على التغليب فعلى ردِّه للأول يلحق بالأول ، وللثاني كالثاني ، وأما « تَخْشَيْنَ » من الرابعة فمبنى للنون ووزنه تَفْعَلْنَ ، وعن الخامسة فمعرب،ووزنه أصلا تَفْعَلِينَ ولفظا تَفْعَيْنَ ،وأما « تَرْمِينَ » من السادسة فمعرب ، ووزنه أصلا تَفْعِلِينَ ، ولفظا تَفْعِينَ ، ومن السابعة مبنى للنون ، ووزنه تفعِلْنَ ، وأما « تمحون وتمحين » من الثامنة فهما لغتان ، وهمامبنيان للنون ، والتاسعة لا يقال إلا « تمحين » بالياء خاصة لتتفق اللغتان ، ووزنها تفعين كتخشين ، وأما تمحيان من العاشرة فعلى لغة الياء لا إشكال وعلى الواو فيظهر من كلام النحويين أنه لا يجوز إلا بالواو ، انتهى

وقد أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدى أبو عبد الله محمد بن مرزوق - رحمه الله تعالى ! - فى شرحه الواسع العجيب المسمى « بتمهيد المسالك ، إلى شرح ألفية ابن مالك » ونص محل الحاجة منه : وقد حكى أن بعض طلبة سبْتَة أورد على أبى عبد الله بن خميس عشر مسائل من هذا النوع ، وهى : أنتم يازيدون تغزُونَ ، وأنتن ياهندات تغزُونَ ، وأنتم يازيدون و ياهندات تغزُونَ ، وأنتن ياهندات تَخْشَيْنَ ، وأنت يا هند تَخْشَيْنَ ، وأنت يا هند تَرْمِينَ ، وأنتن يا هندات تَرْمِينَ ، وأنتن يا هندات تمْحُونَ أو تَمْحِينَ كيف تقول ؟ وأنت يا هند تَمْحُونَ أو تَمْحِينَ ، كيف تقول؟

---

(١) الحق أنه ليس فى هذه الكلمات معاياة ، ولا هى مما يجهله الصغار الشادون ، فكيف بالعلماء الفحول ؟

وأنتما تمحوان أو تمحيان ، على لغة من قال مَحَوْتُ ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة أو مختلفة ؟ وهل وزنها واحد أو مختلف ؟ قالوا : ولم يُجِبْ بشىء ، قلت : فلعله استسهل أمْرَهَا ، فأما المثالُ الأول فمعرب ، ووزنه تَفْعُلُونَ كتَنْظُرُونَ ، إذا أصله تغْزُوُونَ ، فاستثقلت ضمة الواو التى هى لام فحذفت ، ثم حذفت الواو أيضا لالتقائها ساكنة مع واو الضمير ، وكانت أولى بالحذف لأن واو الضمير فاعل ، ولغير ذلك مما تقدم بعضُه ، وأما الثانى فمبنى ووزنه تفعُلْنَ كتخْرُجْنَ ، وأما الثالث فكالأول إعرابا ووزنا لأن فيه تغليب المذكر على المؤنث ، وأما الرابع فمبنى ووزنه تَفْعَلْنَ مثل تفْرَحْنَ لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة رُدَّت الياء إلى أصلها لأنها إنما قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون ، وأما الخامس فمعرب ووزنه تَفْعَلِينَ كتَفْرَحِينَ ، وأصله تَخْشَيِينَ ، فقبلت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير ، وترك فتحة الشين دالة على الألف ، وأما السادس فمعرب ووزنه تَفْعِلِينَ كتَضْرِبِينَ ، وأصله تَرْمِيينَ ، حذفت كسرة الياء لاستثقالها ، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير ، وأما السابع فمبنى ووزنه تَفْعِلْنَ كتَضْرِبْنَ ، وأما الثامن والتاسع فمضارع مَحَى ورد بالأوزان الثلاثة ، فمن يَمْحُو قال فى المضارع من جماعة النسوة تَمْحُونَ مثله من غزابناء ووزنا ، ومن قال يَمْحِي قال فيه تَمْحِينَ كتَرْمِينَ بناء ووزنا ، ومن قال يَمْحَى قال فيه تَمْحَيْنَ كتَخْشَيْنَ بناء ووزنا ، ويقال فى المضارع للواحدة على اللغة الأولى تَمْحِينَ كتَدْعِينَ إعرابا ووزنا وتصريفا ، وقد تقدم فى كلام المصنف ، وعلى الثانية كما يقال لها من رَمَى إعرابا ووزنا وتصريفا ، وعلى الثالثة كما يقال لها من

تَخْشَى أيضا ، وقد تقدما ، وليس ماوقع فى السؤال كما نقل من خط بعض الشارحين أنه يقال فيها تَمْحَوْن كَتَفرَحْنَ بشىء ، وأمر التثنية ظاهر ، انتهى بحروفه .

وما قاله رحمه الله تعالى فى الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه ، فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر ، وقد مدحه ابن خطاب بقوله :

رَقَّتْ حواشى طبعك ابنَ خميس ... فهفا قريضُك لى وهاج رسيسى (١)
ولمثـله يصبو الحليم ويَمْتَرِى ... ماء الشؤون به وسير العيسِ
لك فى البلاغة ، والبلاغَةُ بعضُ ما ... تحويه من أثر ، مَحَل رئيسِ
نظم ونثر لا تُبارَى فيهما ... عززت ذاك وذا بعلم الطوسى

يعنى أبا حامد الغزالى .

ترجمة أبى عبد الله ابن خميس التلمسانى

وقال لسان الدين بن الخطيب فى « عائد الصلة » فى حق أبى عبد الله محمد ابن خميس التلمسانى المذكور ما صورته : كان رحمه الله تعالى نسيجَ وَحْدِهِ زهدا وانقباضا وأدبا وهمة ، حَسَنَ الشيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيدا عن الرياء ، عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعا بتفاريق النحل ، قائما على العربية والأصلين ، طبقة الوقت فى الشعر ، وفحل الأوان فى المطول ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب ، ثم ذكر من أحواله جملة ، إلى أن قال : وبلغ الوزير أبا عبد الله بن الحكيم أنه يروم السفر ، فشق ذلك عليه ، وكلفه تحريك الحديث بحضرته ، وجرى ذلك ، فقال الشيخ : أنا كالدم أتحرك فى كل ربيع ، انتهى .

وقال ابن خاتمة فى « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الأندلسية » : إنه نظم فى الوزير ابن الحكيم القصائد التى حليت بها لَبّات الآفاق ، وتنفست عنها

(١) رسيس الهوى ، مثلا : أصله
(٢) تقول « مرى فلان ضرع الناقة » إذا مسحه بيده ليحلب

صدور الرفاق ، وكان من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء ، يرتكب مُسْتَصْعبات القَوَافى ، ويطير فى القريض مَطَارِدَى القوادم الباسقة والخَوَافى ، حافظا لأشعار العرب وأخبارها، وله مشاركة فى العقليات ، واستشراف على الطالب ، وقعد لإقراء العربية بحضرة غَرْنَاطة ، ومال بأخرَة إلى التصوّف والتجوال ، والتحلى بحسن السَّمْت وعدم الاسترسال ، بعد طَىِّ بساط ما فرط له فى بلده من الأحوال ، وكان صَنَعَ اليدين ، حدثنى بعضُ من لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون فى شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته ، وكتب بدائر شفتيه:

وما كنت إلا زهرة فى حديقة   تَبَسَّمُ عَنِّى ضاحكات الكمائم
فقبلت من طور لطور فها أنا   أقبل أفواه الملوك الأعاظم

وأهداه خدمةً للوزير أبى عبد بن الحكيم .

وأنشدنا شيخُنَا القاضى أبو البركات بن الحاج وحكى لنا قال : أنشدنى أبو عبدالله بن خميس ، وحكى لى ، قال : لما وقفت على الجزء الذى ألفه ابن سبعين وسماه « بالفقيرية » كتب على ظهره :

الفقر عندىَ لفظ دَقَّ معناه   مَنْ رامه من ذوى الغايات عَنَّاه(١)
كم من غبى بعيد عن تصوّره   أراد كشف مُعَماه فعماه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن لبون غير مرة قال : سمعت أبا عبد الله ابن خميس ينشد ، وكان يُحْسَب أنهما له ، ويقال : إنهما لابن الرومى :

رب قوم فى منازلهم   عُرَرٌ صاروا بها غُرَرَا(٢)
ستر الإحسان ما بهمُ   سترى لو زال ما سترا

(١) عناه ــ بتشديد النون ــ أورثه العناء، وهو الجهد والتعب والمشقة .

(٢) العرر ــ بضم العين وفتح الراء ــ جمع عرة ، وأصلها الجرب ، وأراد به ذوى الفسالة ، على التشبيه ، والغرر ــ بالغين المعجمة ــ جمع غرة ، وأصلها البياض فى جبهة الفرس ، ويراد بها المشهور ، على التشبيه أيضا .

ثم قال ابنُ خاتمة : وقد جمع شعره ودوّنه صاحبُنَا القاضى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمى فى جزء سماه « الدر النفيس ، فى شعر ابن خميس » وعرّف به صدره ، وقَدِم ابنُ خميس المرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها فى كنف القائد أبى الحسن بن كماشة من خدّام الوزير ابن الحكيم ، فوسّع له فى الإيثار والمبرة ، و بَسَط له وَجْهَ الكرامة طلق الأسِرَّة ، وبها قال فى مدح الوزير المذكور قصيدته التى أولها :

العشْى تعيا والنوابغ ... عن شكر أنعمك السوابغ(١)

ووجه بها إليه ، وهى طويلة ، ومنها :

ورسائغ ابن كماشة ... مع كل بازغة وبازغ

تأتى بما تهوى النغا ... نغ من شهيات اللغالغ

ومنها :

ما ذاق طَعْمَ بلاغة ... من ليس للحُوشِىِّ ماضغ

ويقال : إن الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها ، وهو قوله :

لمن المنازل لا يجيب صَدَاهَا ... مُحِيَتْ مَعَالِمُها وصَمَّ صَدَاهَا(٢)

وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة ، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفى رحمه الله تعالى ، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى معناه ، وآذن أولاه بحضور أخراه ، وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضَحْوَةَ يوم الفطر مُسْتَهَلَّ شوّال سنة ثمان وسبعمائة ، وهو ابن نيف وستين سنة ، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم ، أصابه قاتله بحقده على مخدومه ، وكان آخر ما سمع

---

(١) فى هامش ب ما نصه « العشى تعمى هكذا فى الأصل بالشين المعجمة ، ولعله بالثاء المثلثة ، جمع أعثى بمعنى أحمق ، تأمل

(٢) فى نسخة عند ب « وصم صفاها »

منه (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه ، فكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يطلبنى ، ابن خميس يضر بنى ، ابن خميس يقتلنى ، وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نَحْبه على تلك الحال ، نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات ، انتهى ملخصاً .

وحكى غيره أن بعضهم كتب بعد قوله « لمن المنازل لا يجيب صداها » ما نصه : لابن الحكيم ، ومن بديع نظم ابن خميس قولُه :

تراجع من دنياك ما أنت تارك ... وتسألها العُتْبَى وها هى فارك[1]
تؤمل بعد التَّرْك رَجْعَ ودادها ... وشر وداد ما تود الترائك
حلالك منها ما حلالك فى الصبا ... فأنت على حَلْوائه متهالك
تظاهر بالسلوان عنها تجملا ... فقلبك محزون وثغرك ضاحك
تنزهت عنها نخوة لا زَهَادةً ... وشعر عذارى أسود اللون حالك

وهى طويلة طنانة ، وفى آخرها يقول :

فلا تدعون غيرى لدفع مُلمة ... إذا مادهى من حادث الدهر داعك
فما إنْ لذاك الصوت غيرى سامع ... وما إنْ لبيت المجد بعدىَ سامك
يغص ويشجى نهشل ومجاشع ... بما أورثتنى حمير والسكاسك[2]
تفارقنى الروح التى لست غيرها ... وطيب ثنائى لاصق بىَ صائك
وماذا عسى ترجو لِدَاتى وأرتجى ... وقد شمطت منى اللحى والأفائك
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى ... إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومما اشتهر من نظمه قوله :

---

(١) الفارك : المرأة التى تبغض زوجها وتكرهه ، هذا أصله ، والعتبى : هى لاسترضاء ، يقول : أنت تريدها عن أن تسترضيك وهى تبغضك

(٢) نهشل ومجاشع وحمير والسكاسك : قبائل من العرب

أرّقَ عينى بارق من أثال كأنه فى جنح ليلى ذبال
أثار شوقا فى ضمير الحشا وعَبْرتى فى صحن خدى أَسَالْ
حكى فؤادى قلقاً واشتعال وجَفْنَ عينى أرَقًا وانهمال
جوانح تلفح نيرانهـــــا وأدمع تنهلُّ مثـل العَزال(١)
قولوا وُشَاةَ الحب ما شئتم ما لذة الحب سوى أن يقال
عذرا للوّامى ولا عذر لى فزلة العالم ما إن تُقَال
قم نَطْرد الهم بمشـــمولة تقصر الليل إذا الليل طال
وعاطِهَـــا صفراء ذمية تمنعها الذمة من أن تُنَالْ
كالمسك ريحاً واللَّمَى مطعما والتِّبْرِ لونا والهوى فى اعتدال
عتقها فى الدن خمارها والبكر لا تعرف غير الحجال
لا تثقب المصباح لا واسقنى على سَنَا البرق وضوء الهلال
فالعيش نوم والردى يقظة والمرء ما بينهما كالخيال
خذها على تنغيم مسطارها بين خوابيها و بين الدّوال
فى روضـــة با كَرَ وَسْمِيُّها أخمل دَارِينَ وأنسى أوال
كأن فأر المســك مفتوتةً فيها إذا هبت صَباً أو شمال
مَنْ كف ساجى الطرف ألحاظُه مفوّقات أبدا للنضـــال
من عاذرى والـكل لى عاذر من حَسَنِ الوجه قبيح الفعال
من خُلَّبِيِّ الوعد كذابه ليَّان لا يعرف غير المِطال
كأنه الدهر وأى امرىء يبقى على الدهر إذا الدهر حال
أما ترانى آخـــذا ناقضاً عليـــه ما سوفنى من محال

(١) العزال : أراد العزالى ، وهي جمع عزلاء ، بوزن صحراء وصحارى ، وهو مصب الماء من الراوية (القربة) ونحوها

ولم أكن قط له عائبـــا ... كمثل ما عابتـه قبلى رجال
يأبى ثراء المال علمى وهل ... يجتمع الضدان علم ومال
وتأنف الأرض مقامى بها ... حتى تهادانى ظهور الرحال
لولا بنو زيّان مالذ لى العيش ولا هانت على الليـالى
هم خوفوا الدهر وهم خففوا ... على بنى الدنيا خطاه الثقال
لقيت من عامرهم سيداً ... غَمْرَ رداء الحمد جم النوال
وكعبـة للجود منصوبة ... يسعى إليها الناس من كل بال
خُذْها أبا زيان من شاعر ... مستملح النزعة عذب المقال
يلتفظ الألفاظ لفظ النوى ... وينظم الآلاء نظم اللآل
مجاريا مهيار فى قوله ... (ما كنت لولا طمعى فى الخيال)

وقصيدة مهيار مطلعها :

ما كنت لولا طمعى فى الخيال ... أنشد ليلى بين طول الليال

ومن نظم ابن خميس قوله :

نَظَرَتْ إليك بمثل عينى جؤذر ... وتبسمت عن مثل سِمْطَىْ جوهر (١)
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو ... كالطلع أو كالأقحوان مؤشر
تجرى عليـه من لماها نطفة ... بل خمرة لكنهـا لم تُعْصَر
لولم يكن خمرا سُلافاً ريقها ... تُزْرِى وتلعب بالنهى لم تخطر
وكذاك ساجى جفنها لو لم يكن ... فيـه مُهَنّد لحظها لم يُحْذَرِ
لو عُجْتَ طرفك فى حديقة خدها ... وأمنت سطوة صُدْغها المتنمر
لرتَعْتَ من ذاك الحمى فى جنة ... وكرعت عن ذاك اللَّمَى فى كوثر

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، تشبه به الحسان فى سعة العيون ، وجمعه جآذر ، والسمط ـ بالكسر ـ العقد ، شبه أسنانها بعقد الجوهر ، وعينها بعين جؤذر

طرقتك وَهْنًا والنجوم كأنها حصباء در فى بساط أخضر
والركب بين مصعد ومصوب والنوم بين مسكن ومنفر
بيضا إذا اعتكرت ذوائب شعرها سفرت فأزرت بالصباح المسفر
سرحت غلائلها فقلت سبيكة من فضة أو دُمْية من مرمر (٢)
منحتك مامنعتك يقظانا فلم تخلف مواعدها ولم تتغير
وكأنما خافت بغاة وشاتها فأتتك من أردافها فى عسكر
وبجزع ذاك المنحنى أدمانة تعطو فتسطو بالهزير القسور
وتحيةٌ جاءتك فى طى الصبا أذكى وأعطر من شميم العنبر
جَرَّتْ على واديك فضل ردائها فعرفت فيها عَرْفَ ذاك الإِذْخِرِ
هاجت بلابل نازح عن إلفه متشوق ذاكى الحشا متسعر
وإذا نسيت ليالىَ العهد التى سلفت لنا فتذكريها تذكرى
رحنا تغنينا ونرشف ثغرها والشمس تنظر مثل عين الأخزر
والروض بين مفضض ومعسجد والجو بين ممسك ومعصفر

وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المرينى - رحمه الله تعالى! - كثير العناية بنظم ابن خميس وروايته ، قال رحمه الله تعالى : أنشدنا القاضى خطيب حضرتنا العلية أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بقصر المصارة يمنه الله قال : أنشدنا بلفظه شيخُ الأدباء ، فحل الشعراء ، أبو عبد الله بن خميس لنفسه :

أنَبْتُ ولكن بعد طول عتاب وفرط لجاج ضاع فيه شبابى
ومازلت والعلياء تعنى غريمها أعلل نفسى دائما بمتاب
وهيهات من بعد الشباب وشَرْخِهِ يلذ طعامى أو يَسُوغ شرابى

---

(١) وهنا - بفتح الواو وسكون الهاء - أى بعد هزيع من الليل
(٢) الدمية - بضم الدال وسكون الميم - الصورة من عاج ونحوه ، تشبه بها المرأة فى البياض والرونق

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى بلمع سراب
تقول هو الشهد المَشُور جهالة وما هو إلا السم شِيبَ بِصَابِ
وما صحب الدنيا كَبَكْرٍ وتغلب ولا كَكُلَيب ربِّ فحلَ ضراب
إذا كَعَّتِ الأبطال عنها تقدموا أعاريب غراً فى متون عراب (١)
و إن ناب خطب أو تفاقم مُعْضِل تلقاه منهم كل أصيد ناب (٢)
تراءت لجساس مخيلة فرصة تأتت له فى جيأة وذهاب
فجاء بها شوهاء تنذر قومها بتشييد أرجام وهدم قباب
وكان رغاء الْصقب فى قوم صالح حديثاً فأنساه رغاء سراب
فما تسمع الآذان فى عرصاتهم سوى نوح ثَكْلَى أو نعيب غراب
وسل عُرْوة الرحَّال عن صدق بأسه وعن بيته فى جعفر بن كلاب
وكانت على الأملاك منه وفادةٌ إذا آب منها آب خير مآب
يجير على الحيين قيس وخندف بفضل يسار أو بفصل خطاب
زعامة مرجو النوال مؤمل وعزمة مسموع الدعاء مجاب
فمر يُزَجِّيها حواسر ظلعها بما حملوها من مُنًى ورِغاب
إلى فَدَك والموت أغرب غاية وهذا المنى يأتى بكل عجاب
تبرض صفو العيش حتى استشفه فَدَافَ له البرّاضُ قشف حباب
فأصبح فى تلك المعاطف نُهْزة لنهب ضباع أو لنهش ذئاب
وما سهْمه عند النضال بأهزع ولا سيفه عند الصراع بنابى
ولكنها الدنيا تكر على الفتى وإن كان منها فى أعز نصاب
وعادتها أن لا توسط عندها فإما سماء أو تخوم تراب

(١) كع فلان : أحجم ونكص عن لقاء قرنه ، والأعاريب : جمع أعراب الذى هو جمع عرب ، وأراد رجالا أعرابا ، والعراب : الخيل الأصيلة ، ومتونها : ظهورها وهى مقعد الفرسان . (٢) تفاقم : عظم وصعب ، والأصيد : الوصف من الصيد - بفتح الصاد والياء جميعاً - وهو ميل العنق زهوا وكبرا

فلا ترج من دنياك ودا وإن يكن فما هو إلا مثل ظل سحاب[١]
وما الحزم كل الحزم إلا اجتنابها فأشقى الورى مَنْ تصطفى وتحابى
أبيت لها مادام شخصىَ أن ترى تمر ببابى أو تطور جنابى[٢]
فكم عطلت من أربع وملاعب وكم فرقت من أسرة وصحاب
وكم عَفَّرت من حاسر ومدجج وكم أثكلت من مُعْصِر وكِعاب[٣]
إليكم بنى الدنيا نصيحة مشفق عليكم بصير بالأمور نقاب
طويل مِراسِ الدهر جذل مماحك عريض مجال الهم حِلْسُ ركاب
تأتت له الأهوال أدهم سابقا وغصت به الأيام أشهب كابى
ولا تحسبوا أنى على الدهر عاتب فأعظم مابى منه أيسر مابى
وما أسفى إلا شباب خلعته وشَيْب أ. ' إلا نصول خضاب
وعمر مضى لم أخْلَ منه بطائل سوى ما خلا من لوعة وتصابى
ليالى شيطانى على الغى قادر وأعذب ما عندى أليم عذاب
عكسنا قضايانا على حكم عادنا وما عكسها عند النهى بصواب
على المصطفى المختار أزكى تحية فتلك التى أعتدُّ يوم حساب
فتلك عَتَادى أو ثناء أصوغه كدَرِّ سحاب أو كدُرِّ سخاب

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله :

عجبا لها أيذوق طعم وصالها مَنْ ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تَعِلة ساعة منها ، وتمنعنى زكاة جمالها
كم ذاو عن عينى الكرى متأنف يبدو ويخفى فى خفى مِطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

---

(١) شبهه بظل السحاب فى سرعة الزوال والانتقال

(٢) تقول « أنا لا أطور بفلان » تريد لا أحوم حوله ولا أدنو منه ، وجناب الرجل : ناحيته وجانبه (٣) المعصر : الفتاة إذا بلغت وقت شبابها والكعاب : جمع الكاعب ، وهى الشابة التى كعب نهدها ونتأ .

وابنُ السبيل يجىء يقبس نارها ليــلا فتمنحه عقيلة مالها
يعتادنى فى النوم طيفُ خيالها فتصيبنى ألحاظها بنبــالها
كم ليــلة جادت به فكأنما زُفَّتْ على ذُكَاءَ وقت زوالها[١]
أسرى فعطلها وعطل شهبهــا بأبى شَذَا المعطار من معطالهـا
وسواد طرته كجنح ظلامهــا وبيــاض غرته كضوء هلالها
دَعْنى أَشِمْ بالوهم أدنى لمعــة من ثغرها وأشم مسكة خالهـا
ما رَادَ طرفى فى حديقة خدها إلا لفتنته بحسن دلالهـــــا
أنسيبُ شعرى رق مثل نسيمها فشمول راحك مثل ريح شمالها
وانقل أحاديثِ الهوى واشرح غريب لغاتها واذكر ثقات رجالهـــا
وإذا مررت برامة فتوقَّ من أطلائها وتمشَّ فى أطلالهــــا[٢]
وانصب لمغزلها حِبَــالَةَ قانص ودع الـكرى شَرَكاً لصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعهـا وانضح جوانحها بفضـل سجالها
أنا من بقيــة معشر عركتهُمُ هذى النوى عَرْكَ الرحى بثفالها
أكْرِمْ بها فئــة أريق نجيعها بغيا فراق العين حسن مآلهـا
حلت مدامة وصلها وحَلَتْ لهم فإنِ انتشوا فبحلوها وحـلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالهـا أحد وناء لها لبعــــد منالها
وعَدَتْ على سقراط سَوْرة كأسها فهريق مافى الدن من جِرْيالهـا
وسرت إلى فاراب منهـا نفحة قدســية جاءت بنخبة آلها
ليصوغ من ألحانه فى حانهـــا ما سوغ القسيس من أرمالهـا
وتغلغلت فى سُهْرُوَرْدَ فأسهرت عينا يؤرقها طروق خيــالها

---

(١) ذكاء : اسم من أسماء الشمس
(٢) الأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد الظبية ، وتوق منها : احذرها ولا تتعرض لها لئلا تسلب لبك

فخبا شهاب الدين لما أشرقت وخوَى فلم يثبت لنور جلالها[١]

ماجن مثل جنونه أحد ، ولا سمحت يد بيضا بمثل نوالها

وبدت على الشوذى منها نشوة ما لاح منها غير لمعة آلها[٢]

بطلت حقيقته وحالت حاله فيما يعبر عن حقيقة حالها

هذى صُبَابتهم ترق صَبَابة فيروق شار بها صفاء زلالها[٣]

وهى طويلة .

قال السلطان أبو عنان رحمه الله تعالى : أخبرنى شيخنا الإمام العالم العلامة وحيدُ زمانه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلى رحمه الله تعالى ، قال : لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنيسى من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هنالك بقاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ، ويُطْنب فى ذكر فضله ، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجباً ، وقال : من يكون هذا الذى حَلَّيتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلده ؟ فقال له هو القائل :

* عجباً لها أيذوق طعم وصالها *

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التى وصفتم ، إنما هو عندنا شاعر فقط ، فقال له : إنكم لم تنصفوه ، وإنه لحقيق بما وصفناه به .

قال السلطان : وأخبرنا شيخنا الأبلى المذكور أن قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلو موضع جلوسه للمطالعة ، وكان يخرجها من تلك الخزانة ، ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقى الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالا لها .

---

(١) خبا : خمدت جذوة ناره ، وخوى سقط وهوى

(٢) الآل : السراب .

(٣) الصبابة ـ بالضم ـ البقية ، والصبابة ـ بالفتح ـ الصبوة والميل إلى الهوى

وكان ابن خميس رحمه الله تعالى ــ بعد مفارقة بلده تلمسان ، سقى الله أرجاءها أنواء نيسان! ــ كثيراً ما يتشوق لمشاهدها ، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها ، وينشد القصائد الطنانة فى ذلك ، سالكا من الحنين إليها المسالك ، فمن ذلك قوله :

تِلِمْسَانُ لو أن الزمان بها يَسْخُو ... مُنَى النفس لادارُ السلام ولا الكَرْخ(١)
ودارى بها الأولى التى حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحنقَ اللبخُ(٢)
وعهدى بهـا والعمر فى عنفوانه ... وماء شبابى لا أَجِينٌ ولا مطخ(٣)
قرارة تهيـام ومغنى صبابة ... ومعهـد أنس لا يلذ به لطخ
إذ الدهر مثنى العنان مُنَهْنَهٌ ... ولا رَدْعَ يثنى من عنانى ولاردخ
ليالى لا أصغى إلى عذل عاذل ... كأن وقوع العذل فى أذنى صمخ
معاهد أنس عُطِّلت فكأنها ... ظواهر ألفاظ تعمـدها النسخ
وأربُعُ آلافٍ عفا بعضُ آيهـا ... كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ
فمن يك سكرانا من الوجد مرةً ... فإنى َمنـه طولَ دهرى لمتِخٌّ
ومن يقتدح زندا لموقد جَذْوة ... فزند اشتياقى لا عفَار ولا مَرْخُ
أأنسى وقوفى لاهيـا فى عِراصها ... ولا شـاغل إلا التودع والسبخ
وإلا اختيالى ماشـياً فى سماطها ... رخياً كما يمشى بطرته الرخ
وإلا فعدوى مثل ما ينفر الطَّلاَ ... وليداً وحجلى مثل ماينهض الفرخ
كأنىَ فيهـا أردشير بن بابك ... ولا ملك لى إلا الشبيبة والشرخ
وإخوان صدق من لِداتى كأنهم ... جآذر رمـل لا عجاف ولا بُزْخُ
وُعاة لما يلقى إليهم من الهدى ... وعن كل فحشاء ومنكرة صُلْخُ
هم القوم كل القوم سيان فى العلا ... شبابهم الفرغان والشيخة السلخ

---

(١) دار السلام : هى بغداد ، والـكرخ ــ بالفتح ــ محلة بها .

(٢) اللبخ : الاحتيال

(٣) الأجين : المتغير طعمه ، والمطخ : الغرين يبقى فى الحوض ولا يقدر على شربه

مَضَوْا ومضى ذاك الزمان وأنسه ومر الصبا والمال والأهل والبذخ
كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها صرير، ولم يسمع لأكعبهم جبخ (١)
ولم يك فى أرواحها من ثنائهم شميم ولا فى القضب من لينهم مَلْخ
ولا فى محيا الشمس من هديهم سَناً ولا فى جبين البدر من طيبهم ضمخ
سعيتم بنى عمور فى شتِّ شملنا فما تجْرُ كم ربح ولا عيشنا رخ
دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فردَّكم عنه التعجرف والجمخ
تعاليتمو عجباً فطمَّ عليكم عُباب له فى رأس عليائكم جلخ
وأوغلتمو فى العجب حتى هلكتم جماح غواة ما ينهنهم قمخ
كفاكم بها سجناً طويلا وإن يكن هلاك لكم فيها فهى لكم فخ
فكم فتنة منا ظفرتم بنيلها بأبشارها من حُجْنِ أظفاركم برخ
كأنكمو من خلفها وأمامها أسود غياض وهى ما بينكم أرخ
فللسُّوق منها القيد إن هى أغربت وللهام إن لم تعطِ ما رعت النقخ
كأنْ تحتها من شدة القلق القطا ومن فوقها من شدة الحذر الفتخ
وأقرب ماتهذى به الهلك والتوى وأيسر ما تشكو به الذل والفنخ
فماذا عسى نرجوه من لَمِّ شعْثها وقد حز منها الفرع واقتلع الشَّلْخ (٢)
وما يطمع الراجون من حفظ آيها وقد عصفت فيها رياحهم الثبخ
زعانف أنكادٌ لئام عَنا كل متى قبضوا كفا على إثره طخوا
ولما استقلُّوا من مهاوى ضلالهم وأومَوْا إلى أعلام رشدهم زخوا
دعاهم أبو يعقوب للشرف الذى يذل له رضوى ويعنو له دمخ
فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهم وما لامرئ عن أمر خالقه نخ

---

(١) الأكعب : جمع كعب ، وهو قدح الميسر ، وجبخها : إجالتها وتحريكها

(٢) الشلخ — بالفتح — الأصل والعرق

وما زلت أدعو للخروج عليهم — وقد يسمع الصم الدعاء إذا أصخوا(١)
وأبذُلُ فى استئصالهم جهد طاقتى — وما لظنابيب ابن سابحة قفخ
تركت لمينا سبتة كل نجعة — كما تركت للمعز أهضامها شمخ
وآليت أن لا أرتوى غير مائها — ولو حل لى فى غيره المن والمذخ
وأن لا أحط الدهر إلا بعقرها — ولو بوّأتنى دار إمرتها بَلْخُ
فكم نقعت من غلة تلكم الإضَىٰ — وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ
وحسبى منها عدلها واعتدالها — وأبحرها العظمى وأريافها النفخ
وأملاكها الصِّيدُ المَقاولة الألى — لعزهم تعنو الطراخمة البلخ
كواكب هَدْى فى سماء رياسة — تضىء فما يدجو ضلال ولا يَطْخُو
ثواقب أنوار ترى كل غامض — إذا الناس فى طخياءِ غيهم التخوا
وروضات آداب إذا ما تأرجت — تضاءل فى أفياء أفنانها الرمخ
مجامر ندّ فى حدائق نرجس — تنم ولا لفح يصيب ولا دخ
وأبحر علم لا حياض رواية — فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ
بنو الغرفيين الألى من صدورهم — وأيديهمُ تُمْلَا القراطيس والطرخ
إذا ما فتًى منهم تصدى لغاية — تأخر من ينحو وأقصر من ينخو
رياسة أخيار وملك أفاضل — كرام لهم فى كل صالحة رَضْخُ
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا — علينا، وإن حلت بنا شدّة رخوا
نَزُورهم حذا نحافا فننثنى — وأجمالنا دُلح وأبدادنا دُلْخُ
يربوننا بالعلم والحلم والنهى — فما خرجُنَا بز ولا حدنا برخ
وما الزهد فى أملاك لخم ولا التقى — ببدع ، وللدنيا لزوق بمن يرخو

---

(١) أصل الماضى أصاخ ، فقلبه بتقديم اللام على العين فصار أصخى ، ومعناه استمع ، بقى أنه كان يجب فتح ما قبل واو الجماعة ، وفى الشعر كثير من التكلف والتقعر المرذول

وإلا ففى رب الخَوَرْنَقِ غنية ... فما يومه سر ولا صيته رضخ (١)
تطلع يوما والسريرُ أمامه ... وقد نال منه العُجْبُ ماشاء والجفخ (٢)
وعَنَّ له من شيعة الحق قائم ... بحجة صدق لا عَبام ولا وشخ (٣)
فأصبح يجتاب المسوح زهادة ... وقد كان يؤذى بطن أخمصه النخ (٤)
وفى واحد الدنيا أبى حاتم لنا ... دواء ، ولكن ما لأدوائنا ننخ (٥)
تخلَّى عن الدنيا تخلىَ عارف ... يرى أنها فى ثوب نخوته لتخ
وأعرض عنها مستهيناً لقدرها ... فلم يَثْنه عنها اجتذابٌ ولا مَصْخُ
فكان له من قلبها الحب والهوى ... وكان لها من كفه الطرح والطخ
وما معرض عنها وهى فى طلابه ... كمن فى يديه من معاناتها نبخ
ولا مدرك ما شاء من شهواتها ... كمن حظه منها التمجع والنجخ
ولكننا نعمى مراراً عن الهدى ... ونصلج حتى ما لآذاننا صمخ
وما لامرئ عما قضى الله مزحل ... ولا لقضاء الله نقض ولا فسخ
أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد ... يساد بها إلا وأنت لها سِنْخُ
تسوغت أبناء الزمان أياديا ... لدرتها فى كل سامعة شخ
وأجريتها فيهم عوائد سؤدد ... فما لهمُ كسب سواها ولا نخ
غذَتْهُمْ غواديها فهى فى عروقهم ... دماء ، وفى أعماق أعظمهم مخ
وعمتهمُ حَزْناً وسهلا فأصبحوا ... ومرعاهم ورخ ومرعيهم وخ
بنى الغرفيين أبلغوا ما أردتم ... فما دون ما تبغون وحل ولا زخ
ولا تقعدوا عمن أراد سِجالكم ... فما غر بكم جف ولا غر فكم وضخ
وخلوا وراءً كلَّ طالب غاية ... وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا

(١) الرضخ : خبر تسمعه ولا تستيقنه . (٢) الجفخ : الفخر
(٣) العبام : الثقيل الغبي الأحمق ، والوشخ : الضعيف والردىء
(٤) النخ : السير (٥) أصل الننخ : حب الكمون ، معرب ، وأراد به الدواء

ولا تَذرُوا الجوزاء تعلو عليكم فنى رأسها من وطء أسلافكم شدخ
لأفواه أعدائى وأعين حسدى إذا جليت خائيتى الغض والفضخ
دَعُوها تَهادى فى ملاءة حسنها فنى نفسها من مدح أملاككها مدخ
يمـانية زارت يمـانين فانثنت وقد جَدَّفيها الزهو واستحكم الزمخ

وقد بسط فى « الإحاطة » ترجمةَ ابن خميس المذكور ، ومما أنشد له قولُه :

سل الريح إن لم تسعد السفنْ أنواء فعند صَبَاها من تلمسان أنبـاء
وفى خفقان البرق منهـا إشارة إليك بما تنمى إليها و إيمـاء
تمر الليــــالى ليلةٌ بعد ليلة وللأذن إصغــاء وللعين إكلاء
و إنى لأصبو للصَّبا كلما سرت وللنجم مهما كان للنجم إصبـاء
وأهدى إليها كل يوم تحيـــة وفى رد إهداء التحية إهـــداء
وأستجلب النوم الغرار ومضجعى قَتَاد كما شاءت نواها وسـلاء(١)
لعل خيــالا من لدنْهَا يمر بى ففى مره بى من جوى الشوق إبراء
وكيف خلوص الطيف منها ودونها عيون لها فى كل طالعـة رَاء
و إنى لمشــتاق إليها ومُنْبِئٌ ببعض اشتياقى لو تمكن إنبـاء
وكم قائل تَفْنَى غراما بحبهـــا وقد أخلقت منها ملاء وأملاء(٢)
لعشرة أعـــوام عليها تجرَّمَتْ إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء
يطنب فيها عائثون وحزب ويرحل عنها قاطنون وأحياء
كأن رماح الناهبين لملكها قداح ، وأموال المنــازل أبداء
فلا تبغين فيها مناخا لراكب فقد قلصت منها ظلالٌ وأفيـاء
ومن عجب أن طال سقمى ونزعها وقسم إضناء علينا و إطفـاء

---

(١) القتاد : الشوك ، والسلاء — بضم السين وتشديد اللام — نصل كشوك النخل ، أو هو شوك النخل خاصة .

(٢) أخلقت : بليت ورثت ، والملاء : جمع ملاءة ، والأملاء : جمع ملا — بزنة فتى — وهو الأرض الواسعة ، ولعله أراد الديار .

وكم أرْجَفُوا غيظا بها ثم أرجؤا فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء
يرددها عُيَّابُها الدهرَ مثل ما يردد حرف الفاء فى النطق فأفاء
فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ترى هل لعُمْرِ الأنس بعدك إنساء (١)
وهل لِلَظَى الحرب التى فيك تلتظى إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لى زمان أرتجى فيه عودة إليك ووجه البشر أزهر وضاء

ومنها :

أحن لها ما أطَّتِ النيب حولها وما عاقها عن مورد الماء أظماء (٢)
فما فاتها منى نزاع على النوى ولا فاتنى منها على القرب إجشاء (٣)
كذلك جدى فى صحابى وأسرتى ومن لى به فى أهل ودى إن فاؤا (٤)
ولولا جوار ابن الحكيم محمد لما فات نفسى من بنى الدهر إقماء
حمانى فلم تنتَبْ محلِّى نوائب بسوء ولم ترزأ فؤادى أرزاء
وأكفاء بيتى فى كفالة جاهه فصاروا عبيداً لى وهم لىَ أكفاء
يؤمُّون قصدى طاعة ومحبة فما عفته عافوا وماشئته شاؤا
دعانى إلى المجد الذى كنت آملا فلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء
وبوّأنى من هضبة العز تَلْعَةً يناجى السها منها صعود وطأطاء
يشيعنى منها إذا سِرْتُ حافظ ويكلؤنى منها إذا نمت كَلَّاء
ولامثل نومى فى كفالة غيره وللذئب إلمام وللصِّل إلماء
بغَيْضَةِ ليث أو بمرقب خالب تبز كسا فيه وتقطع أكساء
إذا كان لى من نائب الملك كافل ففى حيثما هوّمت كِنٌّ وإدفاء
واخوان صدق من صنائع جاهه يبادرنى منهم قيام وإيلاء

(١) الإنساء : التأخير . (٢) أطت : صوتت ، والنيب : الإبل ، واحدها ناب ، والأظماء : جمع ظمء ، وهو المدة التى تنقطع فيها عن ورود الماء .
(٣) أصل الاستعمال أن يقال «جشأت نفس فلان» إذا نهضت وثارت ، فاستعمله بالهمز الزائدة هنا . (٤) فاءوا : رجعوا وعادوا .

سراع لما يرجى من الخير عندهم ومن كل ما يخشى من الشر أبراء(١)
إليـك أبا عبد الإله صنعتها لزومية فيها لوجـدى إفشاء
مبرأة ممـا يعيب لزومها إذا عاب إكفاء سواها وإيطاء(٢)
أذعْتُ بها السر الذى كان قبلها عليه لأحنـاء الجوانح إضناء
وإن لم يكن كل الذى كنت آملا وأعـوز إكلاء فما عاز إكماء
ومن يتكلَّفْ مفحما شكر منةٍ فمالى إلى ذاك التكلف إلجاء
إذا منشد لم يَـكُنِ عنك ومُنْشِئٌ فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده .

قال الشاطبى : حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله بن الفخار قال : جلس بعضُ الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين ، فأتى المقرىء بمسألة الزوائد الأربع فى أوّل الفعل المضارع ، وقال : يجمعها قولك « نأيت » فقال له ذلك الطالب : لو جمعتها بقولك « أنيت » لكان أملح ، ليكون كل حرف تضعيف ما قبله ، فالهمزة لواحد وهو المتكلم ، والنون لاثنين وهما : الواحد ومعه غيره ، والواحد المعظم نفسه ، والياء لأربعة : للواحد الغائب ، وللغائبين ، وللغائبين ، وللغائبات ، والتاء لثمانية : للمخاطب ، وللمخاطَبَين ، وللمخاطبين ، والمخاطبة ، والمخاطبتين ، والمخاطبات ، وللغائبة ، وللغائبتين ، فاستحسن الشيخُ ذلك منه .

وحكى الشاطبى أيضا أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالا ، وهو : كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختيارا و بين قوله :

* جرى الدَّمَيَانِ بالخبر اليقين *

فلم ينقدح لنا شىء ، فقال : الجواب أن الأوّل ممنوع عند الفقهاء شرعا ، ورد

---

(١) الأبراء : جمع برىء ، بوزن شريف وأشراف ، وهو الخلى من الذنب .
(٢) الإكفاء والإيطاء : عيبان من عيوب القافية .

اللام فى دم فى التثنية ممنوع عند النحاة قياسا ، وكلاهما فى حكم المعدوم حسا ، وإذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة مَنْ صلى بادىَ العورة اختيارا ، فتلزمه الإعادة ، وكان الثانى بمنزلة ما باشرَ فيه عين دم علم التثنية ، فتلزمه الفتحة ، وإن كان أصلها السكون ، قال : وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جنى فى الخصائص ، قال : ألقيتُ يوما على بعض من كان يعتادنى مسألة فقلت له : كيف تجمع بين قوله :

لَدْن بهزِّ الكف يَعْسِلُ مَتْنُه فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعْلَبُ(١)

و بين قوله « اختصم زيدٌ وعمرو » فلم ينقدح له فيها شىء ، وعاد مستفهما ، فقال له: اجتماعُهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة مطلقا ، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له .

قال الشاطبى : وحدثنى أيضا قال : كان لقاضى القضاة علمًا وجزالة أبى جعفر ولد يقرأ علىّ بمالقة ، وكان ابنانبيها فهما ونبلا ، فسأل منى يوما مسألة يذكرها لأقرانه ، وكان معجبا بالغرائب ، فجرى على لسانى أن قلت له : بِينَ عَلَى زَيْدٍ فعلُ أمر وفاعل ، والأصل اُبْأَيَنَّ على زيد ، ثم سهل بالنقل والحذف ، على قياس التسهيل ، فصار بِينَّ كما ترى ، فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه ، وكان أنحى نحاة أهل عصره ، فأعجب مما يرى من ابنه من النبل والتحصيل ، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر بن الفخار رحمه الله تعالى ، فاعتنى بها ، وحاول فى استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم ، فوجد فى مختصر العين أن الكلمة من ذوات الواو ، ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك ، ولم يكن رحمه الله تعالى رأى قول أبى الحسن اللحيانى فى نوادره : إنه مما يتعاقب على لامه الواو والياء فيقال : بَأَى يَبْأَى بأوًا وبَأْيًا ، كما يقال شأى يشأى شأوًا

---

(١) ينشد النحاة هذا البيت شاهدا لحذف حرف الجر ونصب ما كان مجروراً به على التوسع ، والأصل كما عسل فى الطريق ، فلما حذف « فى » نصب الطريق ، ولدن : وصف من اللدونة ، ويعسل : يتحرك ويضطرب ، والشاعر يصف سيفا بأنه يتحرك فى كف صاحبه بسهوله كما يتحرك الثعلب فى الطريق .

وشأيا[١] ، فلم يقدم شيئا على أن اجتمع بالقاضى المذكور فقال له : ألم تسمع ما قال فلان بِينَّ على زيد وإنما هو بوَنَّ على زيدٍ ؛ لأنه من ذوات الواو ، ونص على ذلك صاحبُ المختصر ، وحمله على أن يرسل إلى ويردنى عن ذلك الذى قلته فى المسألة ، واجتمعت أنا معه ، وحدثنى بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار ، فذكرتُ له ما حكاه أبو الحسن اللَّحْيانى فى نوادره ، وما قاله ابن جنى فى سر الصناعة ، فسُرَّ بذلك ، وأرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار ، وذكر له نص اللحيانى وقول ابن جنى وجمع القاضى بيننا ، وعقد فى قلو بنا مودة ، فكان الأستاذ ابنُ الفخار يومئذ يقصدنى فى منزلى ، وفى المواسم ، ويستشيرنى فى أموره على سبيل التأنيس ، رحمة الله عليه ، فأوّاه على فقد أمثاله !

وقال الشاطبى أيضاً : أنشدنى الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد الله بن الفخار رحمه الله تعالى ، وقال : ألقى فى سرى بيت لم أسمعه قط فى السادس عشر من شهر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة :

لتكن راجيا كما أنت ترجو ... ولأَرْبىٰ من الذى أنت راجى

قال الشاطبى : وقرر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوما توجيه قول أبى الحسن الأخفش فى كسرة الذال من نحو يومئذٍ إنها إعرابية لا بنائية ، إذ لم يذكر أحد وَجْهَ هذا المذهب قبل ، قال ابن جنى : إن الفارسى اعتذر له بما يكاد يكون عذرا ، فلما تم التوجيه قلت له وأنا حينئذ صغير السن : هب أن الأمر على ما قاله الأخفش من أن الكسرة إعرابية ، فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى «إذ» فى أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المعرب تقتضى الإعراب دون البناء ؟ فتعجب من صدور هذا السؤال منى لصغر سنى ، وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه ، كما قاله

---

(١) بأى : أى افتخر ، وشآه : أى فاقه وزاد عليه

ابن جنى فى اسم الإشارة فى ترجمة سيبويه « هذا عِلْمُ ما الكلم من العربية » على أن يكون سيبويه وضعه غير مشير به وتركه مبنيا ، وأزال سبب البناء ، ونَظَّرَ ذلك بباب التسوية على ما هو مقرر فى موضعه ، قال : ونظير ذلك ما قرره من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشرى ، وذلك قوله :

* أما ترى حيثُ سهيلٍ طالعا *

وقوله أنشدنا ابن الأعرابى لبعض المحدثين :

ونحن سَعَيْنَا بالبلايا لمعقل   وقد كان منكم حيث لَىّ العمائم(١)

وقد كان حقها أن تعرب لزوال سبب البناء ، وهو الإضافة إلى جملة ، وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد ، ولكنه لم يعتبر النادر ، وأبقى الحكم الشائع .

وقال الشاطبى أيضاً : كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقف على قوله تعالى فى سورة البقرة (قالوا الآن) ونبتدئ (جئت بالحق) وكان يفسر لنا معنى ذلك قولهم الآن أى فهمنا وحصل البيان ، ثم قيل : جئت بالحق ، يعنى فى كل مرة ، وعلى كل حال ، وكان ـ رحمه الله تعالى ! ـ يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة ، أى : بالحق البين ، وكان يحافظ عليه .

وقال الشاطبى : أنشدنى صاحبنا الفقيه الأجل الأديب البارع أبو محمد ابن حذلم لنفسه أبياتا ، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبى عبد الله بن الفخار يرثيه بها :

أيا جَدَثاً قد أحرز الشرف المحضا   بأن صار مثوى السيد العالم الأرضَى
عجبت لما أحرزته من معارف   وشتى معال لم تزل تعمر الأرضا

(١) ينشد النحاة صدر هذا البيت * ونحن سقينا الموت بالسيف معقلا * والنحاة يختلفون فى « حيث » إذا أضيفت إلى المفرد ، فحكى ابن جنى أن من أضافها إليه أعربها ، ومعنى ذلك أنه ينصبها على الظرفية ، وذهب الكثيرون إلى أنه لا يلزم إعرابها حينئذ ، بل يجوز بقاؤها على البناء كما يجوز نصبها على الظرفية ، ولبنائها حينئذ نظائر كثيرة فى العربية

طويت عليـــه وهو عين زمانه فياجفن عين الدهر كم تؤثر الغمضا
فحياك من صَوْب الحيا كلُّ ديمة تديم له فى الجنة الرفع والخفضا(١)
فها نحن فى عيد الأسى حول قبره وقوفا لنقضى من عيادته الفرضا
كمثل الذى كنا وقوفاً ببابه بعيـد الأمانى زائرين له أيضا
ومنا ســلامٌ لا يزال يخصه يذكره من بعض أشواقنا البعضا

ابن حذلم ونموذج من شعره

قلت : وابن حذلم المذكور له باع مديد فى العلم والأدب ، وهو أبو محمد عبد الله ابن عبد الله بن حذلم ، ومن نظمه قوله :

أبت المعارف أن تنال براحة إلا براحة ســاعد الجدّ
فإذا ظفرت بها فلست بمدرك أربا بغير مساعد الجـــدّ

وقوله رحمه الله :

كم من صديق حَالَ فى وده ولم أزل أرويه عن محضه(٢)
حضــوره عين على وده وغيبه عــين على بغضه
ولم أكن أجهل هـذا ولا عجزت أن أجرى على قرضه
لـكنّ من قد سرنى بعضه أحبّ أن أصفح عن بعضه

وقوله رحمه الله يوم عيد ، وهو مما ألهج به أنا كثيرا :

يقولونَ لى خَلِّ عنك الأسى ولذ بالسرور فذا يوم عيد
فقلت لهم والأسى غالب ووجدىَ يحيى وشوقى يزيد
توعدنى مالـكى بالفراق فـكيف أسر وعيدى وعيد

وقوله رحمه الله :

حبيب زارنى فى الليل سراً فأحيا نفس مشتاق إليـــه

(١) الحيا : المطر ، وصوبه : الذى يصوب منه أى يتتابع ، والديمة : السحابة التى يدوم مطرها

(٢) حال : تحول وتغير

وعللنى بنشر المسك منـــه وحيانى بصفحة وَجْنتيه
وعانقنى عناق الود صفحا وفارقنى فيالهفى عليـــه

وفاة ابن الفخار

رجع - وتوفى الأستاذ سيبويه زمانه أبو عبد الله محمد بن على بن الفخار أستاذ الجماعة بغرناطة ليلة الاثنين ثانى عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة رحمه الله تعالى !.

أبو عبد الله ابن العواد

رجع - إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

ومنهم الأستاذ ابن العوّاد - قال فى « الإحاطة » : قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وَحْدِهِ ، فى تحمل المنزل حق حمله ، تقوى وصلاحا وخصوصية وإتقانا ونغمة وعناية وحفظا وتبحرا فى هـذا الفن ، واضطلاعا بغرائبه ، واستيعابا لسقطات الأعلام ، الأستاذ الصالح أبى عبد الله ابن عبد الولى العوّاد تكتيبا ثم حفظا ، ثم تجويدا ، على مَقْرَأ أبى عَمْرو ، ثم نقلنى إلى أستاذ الجماعة ، ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة ، الشيخ الخطيب المتفنن أبى الحسن على القيجاطى ، فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أوّل من انتفعت به ، انتهى .

أبو عبد الله ابن بيبش

ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله بن بيبش ، وله رحمه الله تعالى نظم جيد ، فمنه قوله ملغزا فى مسطرة الكتابة :

ومقصورة خلف الحجاب وسرها مضاع ، فما يلقاك من دونها ستر
لهـــا جثة بيضاء أسبل فوقها ذوائب زانتها ، وليس لها شَعْرُ
إذا ألبست مثل الصباح و برقعت رأيت سواد الليل لم يَمْحُه الفجر
عقيلة صَوْنٍ لا يفرق شملها سوى من أهمته الخطابة والشِّعْرُ

وقوله فى ترتيب حروف الصحاح :

أســـاجعة بالواديين تبوئى — ثماراً جنتها حاليات خواضب
دعى ذكر روض زاره سقى شربه — صباح ضحى طيرٌ ظماءٌ عواصبُ
غرام فؤادى قاذف كل ليلة — متى ما نأى وهنا هداهُ يراقب

وله جواب عن البيتين المشهورين :

يا ساكناً قلبىَ المعنىَّ — وليس فيــه سواكَ ثانى
لأى مَعْنًى كَسَرْتَ قلبى — وما التقى فيه ساكنان ؟

فقال :

نَحلتنى طائعــاً فؤادا — فصار إذ حُزْتُه مــكانى[1]
لا غرو إذ كان لى مضافا — أبى على الـكسر فيه بانى

وقد ذكرت ذلك فى غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين ، فليراجع فى الباب الخامس من هذا الـكتاب .

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى قاضى الجماعة الصدر المتفنن أبو عبد الله ابن [أبى][2] بكر ، قال فى « الإحاطة » وقرأت على قاضى الجماعة أبى عبد الله بن [أبى][2] بكر رحمه الله تعالى انتهى. أبو عبد الله محمد بن يحيي بن أبى بكر الأشعرى

وقاضى الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضى القضاة عند المشارقة ، فليعلم ذلك .

وابن [أبى][2] بكر المذكور هو محمد بن يحيي بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن سعيد الأشعرى المالقى ، من ذرية أبى موسى الأشعرى ، كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سَذَاجة ونزاهة ومعرفة وتفننا ، فسيح الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءة ، مبرزاً فى الحديث تاريخاً

---

(١) نحلتنى : أعطيتنى ، وحزته : تملـكته وصار فى حوزى

(٢) فى هــذه المواضع سقطت كلمة « أبى » من ب ، وهى مذكورة فى اسم جده الثالث فيها وفى غيرها من الأصول

و إسناداً وتعديلا وجَرْحاً ، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى ، قائماً على العربية ، مشاركا فى الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب ، مخفوض الجناح(١) ، حسن الخلق ، عَطُوفا على الطلبة ، مُحِبًّا فى العلم والعلماء ، مُطَّرِحا للتصنع ، عديم المُبَالاة بالملبس ، باديَ الظاهر ، عزيز النفس ، نافذ الحكم ، تقدم ببلده مالَقَةَ ، ناظراً فى أمور العقد والحل ومصالح الكافة ، ثم ولى القضاء بها ، فأعز الخطة ، وترك الشوائب ، وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً للأوقات ، حريصاً على الإفادة ، ثم ولى القضاء بغَرْناطة المحروسة ، سنة ٧٣٧ ، فقام بالوظائف وصدع بالحق(٢) ، و بَهْرَج الشهود(٣) ، فزيف منهم ما ينيف على سبعين ، واستهدف بذلك إلى مُعاداة ومناضلة خاض ثَبَجَها ، وصادم تيارها ، غيرَ مُبَالٍ بالمغبة ، ولا حافل بالتبعة ، فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله ، حتى كان لا يمشى إلى الصلاة ليلا ، ولا يطمئن على حالة ، وجرت له فى ذلك حكايات ، إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من أخره ، فلم يجد فى قَنَاته مَغْمَزا ، ولا فى عُودِه مَعْجَما ، وتصدر لبثِّ العلم بالحضرة ، يقرئ فنوناً جمة ، فنفع ، وخرّج ، وأقرأ القرآن ، ودرس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحا وسماعا على انشراح صدر ، وحفظ تحمل ، وخفض جناح ، قال القاضى ابن الحسن : إنه كان صاحب عزم ومضاء ، وحكم صادع ، وقضاء أحرق قلوب الحسدة ، وأعز الخطة بإزالة الشوائب ، وذَهَّب وفَضَّض الحق بمعارفه ، ونفذ فى المشكلات ، وثبت فى المعضلات ، واحتج و بكت ، وتفقه ونكت .

وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقورى قال : كنت جالساً بمجلس حكمه ، فرفعت إليه امرأة رقعة مضمنها أنها محبة فى مطلقها ، وتبتغى الشفاعة لها فى ردها ، فتناول

(١) مخفوض الجناح : كناية عن لين الجانب وسهولة الخلق ، وفى القرآن الكريم : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)

(٢) تقول « صدع فلان بالحق » أى جهر به ، وفى التنزيل (فاصدع بما تؤمر)

(٣) بهرج الشهود : زيفهم وأظهر سوء دخيلتهم

الرقعة ، ووقع على ظهرها بلا مُهْلة : الحمد لله ، من وقف على ما بالقلوب فليُصِخ لسماعه إصاخة مغيث ، وليشفع المرأة عند زوجها تأسِّيا بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لبَرِيرة فى مُغِيث (١) ، والله يسلم لنا العقل والدين ، ويسلك بنا سبيل المهتدين ، والسلام من كاتبه .

قال الشقورى : قال لى بعض الأصحاب : هلا كان هو الشفيع لها ، فقلت : الصحيح أن الحاكم لا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص .

قرأ ابن [أبى] بكر المذكور على الأستاذ ابن أبى السداد الباهلى القرآن جمعاً و إفرادا والعربية والحديث ، ولازمه ، وتأدب به ، وعلى الشيخ الصالح أبى عبد الله بن عياش كثيراً من كتب الحديث ، وسمع عليه جميع صحيح مسلم إلا دولة واحدة ، وأخذ عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير والخطيب ابن رشيد والولى الصالح أبى الحسين بن فضيلة والأستاذ أبى عبد الله بن الكماد ، وأجازه العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز ابن الهوّارى وأبو إسحاق التلمسانى .

ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد بن هرون ومحمد بن سيد الناس .

ومن أهل مصر الشرف الدمياطى ، وجماعة من أهل الشام والحجاز ، فقُقِدَ رحمه الله تعالى فى المصافٍّ يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب ، فلم يقدر ، وقال له : انصرف ، هذا يوم الفرح ، إشارة لقوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وذلك ضحى يوم الإثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى ! .

(١) بريرة : كانت جارية لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وكانت زوجا لمغيث وهو رقيق ، فأعتقت عائشة بريرة ، فلما صارت حرة وزوجها باق على الرق خيرها رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فاختارت نفسها ، وعلم بذلك مغيث فجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يبكى ، ويسأله في أن يشفع له عند بريرة لتبقى على زواجه .

أبو إسحاق ابن أبي يحيي

ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيي الشهير الذكر في المغرب ، وقد عرف به في «الإحاطة» في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصه : إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي ، من أهل تازى ، يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبي يحيي .

حاله من الكتاب المؤتمن - كان هذا الرجل قيِّماً على التهذيب ورسالة ابن أبي زيد ، حسن الإقراء لهما ، وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير ، حضرت مجالسه بمدرسة عُدْوَة الأندلس من فاس ، ولم أر في متصدِّرى بلده أحسن تدريساً منه ، كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات ، وكان مجلسه وقفاً على التهذيب والرسالة ، وكان - مع ذلك - سَمْحاً فاضلا ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره ، امتحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله في الرسائل ، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا ولا في نَصَب آخرة ، ثم قال : وهذه سنة الله فيمن خدم الملوك ، ملتفتا إلى ما يعطونه ، لا إلى ما يأخذون من عمره ، وراحته أن يبوء[1] بالصَّفْقَة الخاسرة ، لطف الله بمن ابتلى بذلك وخلصنا خلاصاً جميلا !

ومن كتاب «عائد الصلة» : الشيخ الفقيه الحافظ القاضي ، من صدور العلم ، له مشاركة في العلم ، وتبحر في الفقه ، كان وَجِيهاً عند الملوك ، صحبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السِّفارة ، فلقيناه بغَرْناطة ، وأخذنا بها عنه ، تام السَّرَاوة[2] ، حسن العهد ، مليح المجالس ، أنيق المحاضرة ، كريم الطبع ، صحيح المذهب .

---

(١) يبوء : يرجع ويعود ، والصفقة : أصلها ضرب اليد على اليد عند البيع ، ثم أطلقت على البيعة أى المرة الواحدة من البيع ، والخاسرة : ضد الرابحة .

(٢) السراوة : السخاء في مروءة ، وفعله سرا يسرو كدعا يدعو وسرو يسرو ، وهو سري .

تصانيفه ــ قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتاباً مفيداً ، وضم أجوبته على المسائل فى سفر ، وشرح كتاب « الرسالة » شرحا عظيم الإفادة .

مشيخته ــ لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارىء كتب الفقه عليه ، وجُلُّ انتفاعه فى التفقه به ، وروَى عن أبى زكريا بن يس ، قرأ عليه كتاب الموطأ إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنه سمعه بقراءة الغير ، وعن أبى عبد الله ابن رشيد، قرأ عليه الموطأ وشفاء عياض ، وعن أبى الحسن بن عبد الجليل السدواتى ، قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد الحق ، وأبى الحسن بن سليمان ، قرأ عليه رسالة ابن أبى زيد ، وعن غيرهم .

وفاته ــ فلج بأخَرَة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومَنْ دونه ، وتوفى بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

وقال ابن الخطيب القسمطينى : إن ابن أبى يحيى المذكور توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

محمد بن أحمد الطنجالى الهاشمى

ومن أشياخ لسان الدين الطنجالى الهاشمى ، وهو محمد بن أحمد . قال فى « عائد الصلة » : كان على سنَنِ سلفه كثرة حياء ، وسِمَةَ صلاح ، وشدة انقباض ، وإفراط وقار وحشمة ، بَذَّ الكهولة على حَدَاثة سنه فى باب الورع والدين والإغراق فى الصلاح والخير ، وتقدم خطيباً ثم قاضياً ببلده ، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه ، ففزع الناس إليه فى كائنة الوباء العظيم بأموالهم ، وقلدوه عهود صدقاتهم ، فاستقر فى يده من المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه ، ووضعه وَفْقَ عهوده ، فلم يتلبس منه بنَقِيرٍ ولا قِطْمِيرٍ[1] ، وكان مُدْرِكا أصيل الرأى ، قائماً على الفرائض والحساب ،

(١) النقير ــ بفتح النون ــ أصله النكتة التى فى ظهر النواة ، والقطمير ــ بكسر القاف ، بزنة قنديل ــ شق النواة ، وقيل : القشرة الرقيقة التى عليها ، وتضرب هذه العبارة مثلا فى الضآلة والقلة ، وفى القرآن الكريم : (مايملكون من قطمير)

ثم تحرج وطلب الإعفاء فأسعف به على حال ضنانة ، وفى ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضى أبو الحسن بن الحسن يخاطبه :

لك الله يا بَدْر السَّماحة والبِشْرِ رفعت بأعلى رتبـة راية الفخر
ولا سيما لما وليت أمـورها فرويتها من عذب نائلك الغَمْرِ (١)
ودارت قضاياها عليك بأسرها على حين لا بَرٌّ يعين على بِرٍّ
فقمت بها خـير القيام مصمما على الحق تصميم المُهَنَّدة البُترِ (٢)
فسرَّ بك الإسـلام يا ابن حمامة وأمست بك الأيام باسمَةَ الثغر
تعيد عليك الحمدَ ألسنُ حالهـا وتتلو لما يرضيك من سُوَرِ الشكر
لذاك أمير المسلمين بعـدله أقامك تقضى فى الزمان على جبر
فأحييت رسم العـلم بعد مَماته وغادرت وجه الحكم أسنى من البدر
ولـكنك استعفيت عنـه تورُّعًا وتلك سبيل الصالحين كما تدرى
فـكم من ولى فر عنـه لعلمه به كأبى الحجاج جدك من ذخر
فزاد اتصالا عـزه باجتنابه له وسَمَا قدراً على قُنَّـة النسر
جريت على نهج السلامة فى الذى تبعت له فابشر بأمنك فى الحشر
وأرضاك مولاك الإمام بفضـله وأعفاك إعفاء الـكرامة والبِرِ
فأنت على الحالين أفضل مَنْ قضى وأشرف من يعفى إلى آخر الدهر
لما حُزْت من شتى المعالى التى بها تحليت عن أسلافك السادة الغر
صدور مقامات المعـارف كلها بحور النوال الجم فى اليسر والعسر
هم النفر الأعلون من آل هاشم وناهيك من مجد أثيلٍ ومن فخر

وهى طويلة ، انتهى .

---

(١) النائل : العطاء ، والغمر : الـكثير .
(٢) المهندة : السيوف ، كانوا يجلبونها من الهنـد ، فاشتقوا لها منها اسما ، والبتر : جمع باتر ، وهو القاطع .

أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن مرزوق

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدى أبو عبد الله بن مرزوق ، ولنلخص ترجمته من « الإحاطة » وغيرها ، فنقول : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق ، العجيسى ، التلمسانى ، يكنى أبا عبد الله ، و يلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين ، قال أبو الحسن على بن لسان الدين بن الخطيب فى حقه : سيدى ، وسند أبى ، فخر المغرب ، و بركة الدول ، وعلم الأعلام ، ومستخدم السيوف والأقلام ، ومولى أهل المغرب على الإطلاق ، أبقاه الله تعالى وأمتع بحيانه وأعاننى على ما يجب فى حقه ! قاله تربيته وولده على ابن المؤلف ، انتهى ، يعنى ابن الخطيب .

وقال لسان الدين : هذا الرجل من طُرَف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة ، مليح التوسل ، حسن اللقاء ، مبذول البشر ، كثير التودد ، نظيف البِزَّة ، لطيف التأنى ، خير البيت ، طَلْق الوجه ، خَلُوبُ اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ ، عارف بالأبواب ، دَرِب على صحبة الملوك والأشراف ، مُتَقَاضٍ لإيثار السلاطين والأمراء ، يسحَرهم بخلابة لفظه ، ويَفْتِلهم فى الذِّرْوَة والغارب[1] بتنزله ، ويهتدى إلى أغراضهم الـكمينة بحذقه ، و يصطنع غاشيتهم بتلطفه ، ممزوج الدُّعابة بالوقار والفـكاهة بالنسك والحشمة بالبسط ، عظيم المشاركة لأهل وده ، والتعصب لإخوانه ، ألف مألوف ، كثير الأتباع والعُلَقِ ، مسخر الرقاع فى سبيل الوساطة ، مُجْـدى الجاه ، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقُهُ ، عذب التلاوة ، متسع الرواية ، مشارك فى فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر و يقيد و يؤلف ، فلا يَعْدُو السَّداد فى ذلك ، فارس منبر ، غير جزوع ولا هياب ، رحل إلى المشرق فى كَنَف حشمة من جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقى

---

(١) يقول العرب « ما زال فلان يفتل من فلان فى الذروة والغارب » يريدون أنه يداوره ويحاول أن يخدعه ، وهو مثل .

الجِلَّة ، ثم فارقه وقد عرف بالمشرق حقه ، وصرف وجهه إلى المغرب ، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميرُه اشتمالاً خالطه بنفسه ، وجعله مفضى سره ، وإمام جمعته ، وخطيب منبره ، وأمين رسالته ، فقدم فى غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانى وأربعين وسبعمائة ، ولما حالت بالأمير المذكور الحال استقر بالأندلس مفلتا من النكبة ، فى وسط عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وكان قد أقعده للإقراء بالمدرسة من حضرته ، وفى أخرَيَات عام أربعة وخمسين صَرَف عنه وجه بره فى أسلوب طماح ، ودالة وسبيل هَوًى وقحة ، فاغتنم الفترة ، وانتهز الفرصة ، وأنفذ فى الرحيل العزمة ، وانصرف عزيز الرحلة ، مغبوط المنقلب ، فاستقر بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبى عنان فارس فى محل تجلة و بساط قرب ، مشرك الجاه ، مجدى التوسط ، ناجع الشفاعة ، والله يتولاه و يزيده من فضله !.

مشيخته ـ من كتابه المسمى « عجالة المستوفز المستجاز ، فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز ، من أئمة المغرب والشام والحجاز » : فممن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام الإمام العالم العلامة عز الدين محمد أبو الحسن ابن على بن إسماعيل الواسطى ، صاحب خُطَّتى الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم النبوى ، وأفرد جزأ فى مناقبه .

ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجى السعدى العبادى ، تحمل عن عفيف الدين أبى محمد عبد السلام بن مزروع وأبى اليمن وغيره . والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ، ونائب الإمامة والخطابة به ، ومنشد الأمداح النبوية هنالك . والشيخ الصالح الثِّقة المعمَّر محيى الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوى التونسى سمع ابن حامل والتوزرى . والشيخ نور الدين أبو الحسن على بن محمد الحجار الفراش بحرم رسول الله والوقاد به ، وكان مقصودا من كل قُطْر . والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعانى نائب القضاء بالمدينة . والشيخ الإمام قاضى القضاة بالمدينة شرف الدين

ابن محرز الإخميمى بن الأسيوطى والشيخ الصالح عزالدين خالد بن عبد الله الطواشى . والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعيشى ، سمع ابن مزروع البصرى وغيره . والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعى المصرى ، الخطيب بالمسجد الكريم بها . والشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير بن أبى صعصعة الأسوانى . والشيخ عفيف الدين المطرى والشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد ، إلى أربعة عشر ، ابن أيمن ، التونسى ، المجاور . والشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون ، اليعمرى ، التونسى ، المجاور . والشيخ أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبى ركبون التونسى ، وقرأ بها على أبيه القرآن العظيم ، قال : وكانت قراءتى عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام .

وبمكة شرفها الله تعالى الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى ابن عبد الله ، الحجبى ، المكى ، المتوفى وقد قارب المائة . والشيخ زين الدين أحمد ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، الطبرى ، المكى . والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن ، العجمى . وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر ابن عبد الله ، المقرى . والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأيلى المصرى . والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمى . والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد الله ، القسطلانى ، التوزرى . والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد ، الشافعى ، الحجة ، انتهت إليه الرياسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم . والشيخ فخر الدين عثمان بن أبى بكر ، النويرى ، المالكى . والشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن الحرازى ، اليمنى . والشيخ قاضى القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد الله بن المحب الطبرى . والشيخ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن براجين ، القُشَيرى ، التلمسانى ، وقرأ بها على أبيه وألبسه بها الخرقة . والشيخ الملك شرف الدين عيسى بن محمد بن أبى بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد

ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبرى ، المكية . والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان ، المراكشى ، السفاح . والشيخ قاضى القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة ، الكنانى ، قاضى القضاة بالديار المصرية .

وبمصر الشيخ علاء الدين القونوى . والتقى السعدى . وقاضى القضاة القَزْوينى ، وهو شهير الذكر ، رفيع القدر . وقاضى القضاة البرهان الحنفى . والشرف أقضى القضاة الإخميمى . والشيخ المحدث المسند البدر محمد بن محمد الفارقى . والقطب الحافظ أبو محمد بن منير . والشهاب أحمد الجوهرى الحلبى . والمعمر الشرف يحيى المقدسى بن المصرى . والشيخ محسن القرشى . والشهاب الحنبلى . وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس ، اليعمرى . والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه . والإمام أبو حيان . والمؤرخ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر بن على ابن حاتم بن خليش ، الزبيرى ، المصرى ، يبلغ شيوخه نحوا من ألفى شيخ . والشيخ الشمس بن عدلان . والشهاب البوشى المالكى . والشيخ المتصوِّف تاج الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب ، المصرى ، مدرس المالكية . والشمس ابن كتشفرى ، الخطابى ، الصيرفى . والعماد ابن المنجم الدمياطى : والتاج الأشعرى . والتقى الثعلبى . والفتح بن عبد القوى . والشمس الورجمى . والتقى الأشمونى . والعلامة التقى السبكى . والمعروف ابن بنت الشاذلى . وأبو الحسن التميمى . والبرهان الخيمى . والشمس الأسوانى . والبرهان الحكرى . والشمس ابن جابر الوادى آشى . وأبو محمد عبد الكريم الطوسى . وأبو فارس الزروالى التونسى . وصالح بن عبد العظيم ابن يونس . وأبو عبد الله بن القماح . والتاج التبريزى . والشيخ محمود الإصبهانى . والشرف المقيلى . والبرهان السفافسى .

ومن النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومى البكرى .

وببلبيس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبى ، من أبناء الملوك .

ومن الشاميين بالمقدس علاء الدين أبو الحسن على بن أيوب ، وخطيب القدس النور ابن الصائغ المقدسى ، ومحمد بن على بن مثبت الأندلسى ، والبرهان الجعبرى إمام الخليل .

ومن أهل دمشق البرهان بن الفركاح ، والشمس بن مسلم قاضى الحنابلة .

وبالإسكندرية أحمد المرادى بن العشاب ، وأبو القاسم بن على بن البراء ، والناصر بن المنير .

وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار .

وبتونس الزبيدى ، والقاضى ابن عبد الرفيع ، والقاضى ابن عبد السلام ، وابن راشد ، وأبو موسى ، والمحدث أبو عبد الله التلمسانى ، والحافظ أبو زكريا يحيى بن عصفور التلمسانى نزيل تونس ، وأبو محمد بن سعد الله بن أبى القاسم بن البراء .

وببلاد الجريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك بن حيون .

وبالزاب ابن أبى ، والشيخ أبو محمد بن راشد .

وببجاية الإمام النظار المجتهد أبو على ناصر الدين المشذالى ، والحافظ فقيه زمانه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بالبخت الزواوى ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله الخطيب المسفر ، وغيرهم .

وبتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام ، وقاضى القضاة بها أبو عبد الله بن هدية ، والخيب أبو محمد المجاصى ، والشريف أبو على حسن بن يوسف بن يحيى الحسنى ، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على ، المعروف بابن إسحاق ، الخياط وغيرهم .

محنته — اقتضى الخوض الواقع بين يدى تأميل الأمير أبى الحسن رحمه الله تعالى عودَةَ الأمر إليه وقد ألقاه اليم إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلمسان أمراؤها المتوثبون عليها فى هذه الفترة من بنى زيّان ، إرضاء لقبيلهم المتهم بمداخلته ،

وقد رحل عنهم دسيساً من أميرهم عثمان بن يحيى ، فصرف مأخوذاً عليه طريقه ، منتهباً رحله ، منتهكة حرمته ، وأسكن قرارة مُطْبق عميق القعر ، مقفل المسلك ، حريز القفل ، ثانى اثنين ، انتهى ملخصاً .

ورأيت بخط ابن مرزوق على قوله « وقد رحل عنهم دسيساً - إلى آخره » ما نصه : لم أرحل عنهم إلا بإذنهم ، واقتراحهم على فى الإصلاح بينهم ، لكنهم غدروا تقية على أنفسهم ، قاله ابن مرزوق ، انتهى ، وكتب تحته ولدُ ابنِ الخطيب ما صورته : نعم ماتوا . * وعند الله تجتمع الخصوم * انتهى .

رجع إلى كلام لسان الدين فى حقه - قال بعد الكلام السابق ما ملخصه : ولأيام قتل ثانيه ذبحا ، كان بمقربة من شفا تلك الركية ، وانقطع أثره ، وأيقن الناس بفوات الأمر فيه ، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه فى خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فنجا ولا تسل كيف ، وخلصه الله خلاصاً جميلا ، وقدم على الأندلس ، والله ينفعه بنيته ، انتهى .

وكتب ابنُ مرزوق على هذا المحل ما نصه : لم يكن المقتولُ - حين قتل - معى ، ولا قتل ذبحاً ، قاله ابن مرزوق ، انتهى . وكتب بعضُ علماء مصر تحته ما نصه : هذه دعوى ، والمؤرخ أعرف ، انتهى ، فكتب آخر بعد هذا ما نصه : أتخبرنى عنى ؟ انتهى .

رجع - ثم قال لسان الدين فى ترجمة شعره ما صورته : ركب مع السلطان بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قبابها البيض ، وزينت الفحص العريض ، والروض الأريض ، فارتجل فى ذلك :

انظر إلى النوّار فى أغصانه يحكى النجوم إذا تبدّت فى الحلك[1]

---

(١) النوار - بضم النون ، بزنة الرمان - نور الزهر ، واحدته نوارة ، وتبدت : ظهرت ، والحلك : شدة الظلام

حيا أمير المسلمين وقال : قد   عميت بصيرة من بغيرك مَثَّلكْ (١)
يا يوسفا حزت الجمال بأسره   فمحاسن الأيام تُومِى هيتَ لكْ (٢)
أنت الذى صعدت به أوصافه   فيقال فيه ذا مليك أو مَلَكْ (٣)

إلى أن قال : ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أنشد عنه و بين يديه ليلة الميلاد المعظم عام ثلاثة وستين وسبعمائة :

قل لنسيم السحر   لله بلغ خبرى
إن أنت يوما بالحمى   جررت فضل المئزر
ثم حثثت الخطو من   فوق الكثيب الأعفر
مستقريا فى عُشْبِهِ   مخفى وَطْء المطر
تروى عن الضحاك فى   الروض حديث الزهر
مخلَّق الأذيال بالعبـ   ـير أو بالعنبر (٤)
وصِفْ لجيران الحمى   وجدى بهم وسَهَرى
وحَقِّهم ما غيرت   وُدِّى صروف الغِيَرِ (٥)
لله عهد فيه   قضيت حميد الأثر
أيامه هى التى   أحسبها من عمرى
ويا لليل فيه ما   عيب بغير القِصَرِ

---

(١) مثلك : زعم أن لك مثيلا وشبيها

(٢) تومى : تشير ، و« هيت لك » اسم فعل معناه هلم وتعال ، وهو مأخوذ عماحكاه القرآن الكريم عن امرأة العزيز إذ قالت ليوسف عليه السلام «هيت لك »

(٣) حكى القرآن أن النسوة التى دعتهن امرأة العزيز لرؤية يوسف عليه السلام (لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهم وقلن حاش لله ، ماهذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم)

(٤) العبير ـ بفتح العين ، بزنة الكريم ـ طيب الرائحة ، والعنبر : من الطيب عندهم

(٥) الصروف : أحداث الدهر ونوازله ، وحدها صرف ، بالفتح ، وغير الدهر ـ بكسر الغين وفتح الياء ـ كوارثه

العمر فينان ووجـــه الدهر طلق الغُرر (١)
والشمل بالأحباب منـــظوم كنظم الدرر
صفو من العيش بلا شائبة من كَدَرِ (٢)
مابين أهل تقطف الـــأنس جـنيَّ الثمر
وبين آمال تبيـــح القرب صافى الغُدُرِ (٣)
يا شجرات الحى حيـــاكِ الحْيَا من شجر (٤)
إذا أجال الشوق فى تلك المغانى فكرى
خَرَّجت من خدى حديـــث الدمع فوق الطرر (٥)
وقلت ياخدُّ ارو من دَمْعى صحاحَ الجوهر
عهدى بحادى الركب كالـــورقاء عند السحر (٦)
والعيس تجتاب الفلا واليَعْمَلاتُ تَنْبَرِى (٧)
تخبط بالأخفاف مظـــلوم البَرَى وهو بَرِى (٨)

(١) الفينان : أصله الحسن الشعر الطويله ، وأنثاه فينانة ، وصف العمر به على التشبيه ، ويقال « وجه طلق » يراد أنه بادي السرور والبشر ، والغرة - بالضم - أصلها البياض فى جبهة الفرس ، وأراد هنا الجبهة كلها

(٢) شائبة : أراد بها أصغر مايخالطه من كدر

(٣) الغدر : جمع غدير ، وأصله القطعة من المـاء يغادرها السيل فى مهبط من الأرض ، وأراد به هنا النهر ، والعبارة كلها كناية عن طيب العيش وخلوصه من المنغصات

(٤) الحيا : المطر ، وحياك : جادك ونزل عليك ليثير فيك الحياة

(٥) الطرر : جمع طرة ، وأصلها أن يقطع للجارية فى مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج

(٦) حادى الركب : الذى يحـدو للابل لتنشط فى سيرها ، والورقاء : الحمامة ، وهى مشهورة بالنوح والغناء

(٧) العيس : الإبل ، وحدها أعيس أو عيساء ، وتجتاب الفلا : تقطع الصحارى ، واليعملات : النوق النشيطة ، وتنبرى : تعترض ، وأراد أنها تبارى الإبل فى سرعة سيرها

(٨) البرى - بفتح الباء مقصورا - التراب ، وبرى : أراد برىء فسهل الهمزة

قد عطفت عن مَيَد والتفتت عن حور

قسى سير ماسوى الـعزم لهـا من وتر (١)

حتى إذا الأعـلام حلت لحفىِّ البشر

واستبشر النازح بالقـرب ونَيْـل الوَطَرِ

وعين الميقات للسَّـفرِ نجاح السفرِ

فالنـاس بين محرم بالحج أو معتمر

لبيك لبيك إله الخلـق بَارِى الصور

ولاحت الـكعبة بيت الله ذات الأثر

مقام إبراهيم والسـمأ من عند الذُّعُرِ (٢)

واغتنم القوم طوا ف القادم المبتـدر (٣)

وأعقبوا ركعتىِ السـعى اسـتلامَ الحجرِ

وعرفوا فى عرفا ت كل عَرْفٍ أذْفَرِ (٤)

ثم أفاض الناس سعـياً فى غدٍ للمشعر

فوقَفُوا وكبروا قبل الصباح المسفر (٥)

---

(١) قسى سير : هو من أوصـاف الإبل والنوق ، وهم يشبهونها بالقسى فى أنها ناحلة هزيلة من شدة ما جهدها السير ، ومنه قول الشاعر :

كالقسى المعطفات ، بل الأسهم مبرية بل الأوتار

(٢) المأمن : مكان الأمن ، والذعر : الخوف والفزع ، وأصله بسكون العـين فضمها إتباعا لضم الفاء

(٣) اغتنم : اتخذه غنيمة ، والمبتدر : المسرع إلى عمل الشىء ، وأراد طواف القدوم

(٤) العرف ـ بالفتح ـ الرائحة مطلقا ، وأكثر ما يطلق على الريح الطيبة ، والأذفر : الذي اشتدت ريحه ، وقالوا «مسك أذفر» و «ذفر» يريدون أنه جيد الريح للغاية

(٥) المشعر : مناسك الحج

(٦) أسفر النهار : بدا ضوءه وانتشر

وفى مِنًى نالوا المُنَى وأيقنوا بالظفــر
و بعد رمى الجمـرا ت كان حَلْقُ الشعر
أكرم بذاك السَّفْرِ والله وذاك السَّــفَرِ (١)
يا فوزهُ من موقفٍ يا ربحه من مَتْجَرِ
حتى إذا كان الودا ع وطوافِ الصَّدَرِ (٢)
فأى صبر لم يخن أو جَـلَدٍ لم يغدر (٣)
وأى وجد لم يصل وسـلوة لم تهجر
ما أفجع البين لقلـــب الواله المستعبر
ثم ثنوا نحو رسو ل الله سير الضُّمَّرِ
فعاينوا فى طيبــة لألاء نور نير
زاروا رسول الله واستشفوا بلثم الجُــدُرِ
نالوا به ما أمـلوا وعَرَّجُوا فى الأثر
على الضجيعين أبى بكر الرضا وعُمَرِ
زيارة الهادى الشفيـــع جُنَّــةٌ فى المحشر (٤)
فأحسن الله عزا ء قاصــد لم يزر
ربع ترى مستنزل الآى به والسور (٥)

(١) السفر ــ بسكون الفاء ــ جمـع سافر كشرب فى جمع شارب ، والسفر ــ بفتح الفاء ــ مصدر سفر

(٢) الصدر ــ بفتح الصاد والدال جميعا ــ الرجوع والعودة ، وطواف الصدر : هو الطوف الذى يكون آخر أعمال الحج ، سمى بذلك لأنهم بعده يعودون لأوطانهم

(٣) كنى بهذا عن كونهم جزعوا واضطربوا لنية مفارقة البيت .

(٤) الجنة ــ بضم الجيم ــ الوقاية ، أراد أنها واقية من عذاب الله .

(٥) مستنزل ــ بفتح الزاى ــ اسم مكان ، أراد الموضع الذى نزل فيه القرآن الكريم على سيد المرسلين

وملتقى جبريل بالهادي الزكي العنصر[١]

وروضة الجنة بين روضة ومنبر[٢]

منتخب الله ومختار الورى من مُضَرِ

والمنتقى والكون من ملابس الخلق عَرِى

إذ لم يكن فى أفق من زحل ومشترى

ذو المعجزات الغر أمثال النجوم الزُّهُرِ[٣]

يشهد بالصدق له منها انشقاقُ القمر[٤]

والضب والظبى إلى نُطْقِ الحصى والشجر

من أطعم الألف بصاع فى صحيح الخبر

والجيش رَوَّاه بماء الراحة المنهمر

يا نكتة الكون التى فاتت مَنَالَ الفكر[٥]

يا حجة الله على الرائح والمبتكر

يا أكرم الرسل على الله وخير البشر

يا من له التقدم الحق على التأخر[٦]

يا من لدى مولده المقدس المطهَّرِ

---

(١) العنصر : الأصل ، أراد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه عليه الصلاة والسلام خيار من خيار

(٢) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»

(٣) الزهر : جمع زهراء أو أزهر ، ويراد بالأزهر المضىء المشرق ، وأصل «الزهر» بسكون الهاء فضم الهاء إتباعا لضمة الزاى

(٤) من الخوارق التى أيد الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر ، وفى القرآن الكريم «اقتربت الساعة وانشق القمر» وقد حكى المؤلف فى «ص ٢٢٤ من هذا الجزء» حديثا عن إثبات هذه المعجزة جرى بين ملك الروم والقاضى أبى بكر ابن الطيب ، والأبيات التى بعد هذا البيت تذكر معجزات أخرى مشهورة

(٥) الفكر : جمع فكرة ، وأراد بها العقل ، ومنالها : المكان الذى تستطيع أن تناله وتدركه ، كناية عن كونها مما يعجز المفكرون عن إدراك حقيقته

(٦) «على» ههنا بمعنى مع : يريد أنه مع تأخره الزمنى متقدم القدر

إيوان كسرى ارتج إذ ضاءت قصور قيصر
وموقد النار طفى كأنه لم يسعر
يا عمدتي ياملجئي يا مفزعي يا وَزَرِي
يامن له اللواء والحــوض وورد الـكوثرِ
يا منقذ الغرقى وهم رهن العذاب الأكبر
إن لم تحقق أملي بؤت بسَعْي المخسر
صلى عليك الله يا ثمــال كل معسر (١)
صلى عليك الله يا نور الدجى المعتكر (٢)
ياويح نفسي كم أرى في غَفْلَةٍ من عمري
واحسرتي من قلة الزاد وبعـد السفر
يحجني والله بالـبرهان وعظُ المنبر
ياحسنها من خطب لوحركت من نظري
يا حسنها من شجر لو أورقت من ثمر
أؤمل الأوبة والأمرُ بكفِّ القــدر (٣)
أسوِّفُ العزم به من شهر لشهر
من صفر لرجب من رجب لصفر
ضيعت في الكبرة ما أعددته في صغرى
وليس مامر من الأيام بالمنتظـــر
وقلما أن حمدت سلامة في غَــرَرِ
ولى غريم لا يَنِي في طلب المنكسر
يا نفس جدى قد بدا الصبح ألا فاعتبرى
واتعظى بمن مضى وارتدعى وازدجرى

(١) الثمال ـ بكسر الثاء المثلثة ، بوزن الكتاب ـ الملجأ والموئل والمستند
(٢) اعتكر الليل : أظلم ، وقال الراجز * وتركى النوم إذا الليل اعتكر *
(٣) الأوبة : أراد العودة إلى وطنه

ما بعد شيب الفود مِنْ   مُرْتَقَب فشمرى
أنت و إن طال المدى   فى قُلْعَةٍ وسفر (١)
وليس من عذر يقيم   حجة المعتذر
ياليت شعرى والمنى   تسرق طيبَ العمر
هل أرتجى من عودة   أو رجعة أو صدرِ
فأبردَ الغُلَّةَ من   ذاك الزُّلالِ الخَصِرِ (٢)
مقتديا بمن مَضَى   من سلف ومعشر
نالوا جوار الله وهو   الفخر للمفتخر
أرجو بإبراهيم مو   لانا بلوغ الوطر
فوعده لا يَمْتَرِى   فى الصدق منه مُمْتَرِى (٣)
وهو الإمام المرتضى   والخيِّر ابن الخير
أكرم من نال العلا   بالمرهفات البتر
ممهد الملك وسيـ   ـف الحق والليث الجرى
خليفة الله الذى   فاق بحسن السير
وكان منه الخبر فى الـ   ـعلياء وفق الخبر
فصدق التصديق من   مرآه للتصور
ومستعين الله فى   وِرْدٍ له وصَدَرِ
فاق الملوك الصِّيدَ بالمجـ   ـد الرفيع الخطر
فأصبحت ألقابهم   منسية لم تذكر
وحاز منه أوحد   وصف العديد الأكثر
برأيه المأمون أو   عسكره المظفر

(١) قلعة ـ بالضم ـ انتقال ، وما لا دوام له ، وقالوا « الدنيا دار قلعة »
(٢) الغلة ـ بضم الغين ـ حرقة الجوف ، والخصر ـ بزنة فرح ـ العذب البارد
(٣) امترى فلان فى الخبر : أى لم يصدقه ، فهو ممتر امتراء

بسيفه السفاح أو بعزمه المقتـــدر(١)
بالعَـلَم المنصور أو بالذابـل المنتصر
يا ابن الإمام الطاهر الـبر الزكى السير
مدحك قد عَــلَّمَ نَظْم الشعر من لم يشعر
جَهْدُ المقل اليوم من مثلى كوسع المـكثر
فإن يُقَصِّرْ ظاهرى فلم يقصر مضمرى

قلت : قول لسان الدين فى حق هذه القصيدة « إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه » تعريضٌ خفى بأن هـذه القصيدة يحتمل أن تـكون قيلت على لسانه حسبما جرت بذلك عادة الأكابر والرؤساء أن ينسب إليهم ما ليس من كلامهم فى نفس الأمر ، وليس الواقع عندى كذلك ، لأن باع ابن مرزوق فى النظم والنثر مديد ، فأنى يقصر عن هذا القصيد ؟ ومن يصدر منه على البديهة قوله :

* أنظر إلى النوّار فى أغصانه *

الأبيات السابقة فى اللوز ـ لا يستغرب منه مثل هذا ، ولذا كتب ابن لسان الدين على قول والده « من الشعر المنسوب إلى محاسنه » ماصورته : حضرت إنشاءها و إنشادها ليلة الميلاد الشريف فى التاريخ المذكور ، واستحسنها شعراء العُدْوَتين ، وهى مما لا تنكر على مدارك سيدى أبى عبد الله ورسوخه فى علم النظم والنثر ، قاله على بن الخطيب ا هـ .

وكتب بعضهم على قوله فى هذه القصيدة :

أيامه هى التى أعُدُّها من عُمُرِى

ما نصه : ولت والله ، انتهى ، فـكتب ابن مرزوق بعده ما نصه : لـكنها

---

(١) السفاح : أصله الذى يكثر سفح الدم ، أى إسالته ، وهذا وما بعده تورية بذكر جماعة من الخلفاء

بدلت بخير منها والحمد لله ، وحصلت الخاتمة ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله :

وقلما أن حُمِدَتْ سَلاَمَةٌ فى غَرَرِ

ما نصه : كذلك كان ، وليت والدى رحمه الله تعالى كذلك ، انتهى .

وكتب على قوله «برأيه المأمون ـ إلخ» مانصه : لو كان له رأى مأمون ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبة بدخيلة طَلَب الراحة ، فضربت عنقه ، وكانت الراحة منه ، انتهى .

وكتب بعض أثر هذا ما صورته : القدر لا يغالَبُ ، الحذَرُ ينفع ما لم يأتك القدر ، فإذا أتى قدر ، لم ينفع حذر . انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله « فلم يقصر مضمرى » ما صورته : صدق والله ، انتهى .

ثم قال لسان الدين : ووردتُ باب السلطان الكبير أبى عنان فَبَلَوْتُ من مشاركته وحميد سعيه ما يليق بمثله ، ولما نكبه لم أقصر عن ممكن حيلة فى أمره ، فلما هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبى سالم بعد الولد المسمى بالسعيد كان ممن دمث له[1] الطاعة ، وأناخ راحلة الملك ، وحَلَب ضَرْعَ الدولة ، وخطب عروس الموهبة ، فأنْشَبَ ظفره فى مَنَاب معقود من لدن الأب ، مشدود من لدن التقرب ، فاستحكم عن قرب ، واستغلظ عن كثب ، فاستولى على أمره ، وخلطه بنفسه ، ولم يستأثر عنه ببثّه ، ولا انفرد بما سوى بضع أهله ، بحيث لا يقطع فى شىء إلا عن رأيه ، ولا يمحو ويثبت إلا واقفاً عند حدّه ،

---

(١) أصل هذه المادة قولهم « دمث فلان مرقده » إذا لينه ومهده ووطأه ، ومن أمثالهم « دمث لجنبك قبل النوم مضطجعا » ومنه قالوا « أرض دمثاء » أى سهلة لينة موطأة ممهدة

فغشيت بابَهُ الوفود ، وصُرفت إليه الوُجُوه ، ووقفت عليه الآمال ، وخدمته الأشراف ، وجلبت إلى سُدَّته بضائع العقول والأموال ، وهادته الملوك فلا تحدو(١) الحُدَاة إلا إليه ، ولا تحط الرحال إلا لديه ، إن حضر أجرى الرسم ، وأنفذ الأمر والنهى ، لحظا أو سراراً أو مكاتبة ، و إن غاب ترددت الرقاع ، واختلفت الرسل ، ثم انفرد أخيراً ببيت الخلوة ومنتبذ المناجاة من دونه مصطف الوزراء وغايات الحجاب ، فإذا انصرف تبعته الدنيا ، وسارت بين يديه الوزراء ، ووقفت ببابه الأمراء ، قد وسع الـكلَّ لحظُه ، وشملهم بحسب الرتب والأحوال رعيه ، ووسم أفذاذهم تسويده ، وعقدت ببنان عليتهم بنانه ، لـكن رضا الناس الغايةُ التى لا تدرك ، والحسد بين بنى آدم قديم ، وقبيل الملك مباين لمثله ، فطويت الجوانح على سل ، وحنيت الضلوع على بث ، وأُغمضت الجفون على قَذًى ، إلى أن كان من نكبته الثالثة ماهو معروف ، جعلها الله له طهورا ، ولماجرت الحادثة على الدولة بالأندلس وكان لحاق جميعنا بالمغرب جنيت ثمرة ما أسلفته من وده ، فوفى الـكيل ، وأشرك فى الجاه ، وأدرَّ الرزق ، ورفع المجلس ، بعد التسبب فى الخلاص والسعى فى الجبر ، جبره الله تعـالى ، وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم ! انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على هذا المحل ما صورته : هذا لسان أبى عليـه فى الغيبة والحضور ، انتهى .

ومما خاطبه به لسان الدين مهنئا من طريق القدوم على الأبواب المرينيـة ، مفلتا من البلية بشفاعته ، مانصه : سيدى الذى إليه انقطاعى وانحياشى ، ومَلْجئى الذى يَسَّر خلاصى وسَنَّى انتيـاشى ، ومُنْعمى الذى جبر جناحى وأنبت رياشى ،

(١) حدا يحدو : أى غنى للابل لتصبر على مشقة السير ، واستعمل فى معنى ساق ، وهذه العبارة كناية عن أن الرحال لاتشد إلا إلى لزيارته ، فهو جار مجرى قوله فيما قبل « ووقفت عليه الآمال ـ إلخ »

ومولى هذا الصنف العلمى ولاأحاشى ، كتبه صنيعُ نعمتكم الخالصة الحرة ، ومسترَق فضلكم الذى تألقت[1] منه فى ليل الخطوب الغرة ، ابن الخطيب لطف الله به من كذا ، وقد شدَّ إلى إبلاغ النفس عذرها فى مباشرة تقبيل اليد التى لها اليد العظمى ، والسجيه الرُّحمَى ، فلكم طوقت من نعمى ، وجبال النعم قد أثقلت الظهر ، واستغرقت السِّرَّ والجهر ، فبأى لسان أو بأى بنان ، ولا أثر بعد عيان ، تقابل نعم تداركت الرمق وقد أشفى ، وأبقت الذَّماء[2] والشروع فى استئصالها لا يخفى ، فيالك من فَرْد هزم ألفاً ، ووعد نصر لم يعرف خُلْفا ، ونية خلصت تبتغى إلى الله زُلْفَى ، لقد صدع بها مولاى غريبة فى الزمن ، بالغاً حسن صنيعها صنعاء اليمن ، مترفعة عن الثمن ، و إن لم يقم بها مثله فمَنْ ، فليهن سيدى ما ذاع لمجده بها من فخر ، وما قدم يوم تزل الأقدامُ من ذُخْر ، وما جلب للمقام المولوى الإبراهيمى من طيب ذكر ، واستفاضة حمد وشكر ، لقد أرتهن دعاء الحافى والناعل[3] ، والدال على الخير شريك الفاعل ، والذى أحيا النفس جدير برد جِدَتها ، و إنجاز عِدَتها ، وأنا قد قويت بجاهكم و إن كنت ضعيفا ، واستشعرت سعداً جديداً وقدراً منيفاً ، وأيقنت أن الله عز وجل كان بى لطيفاً ، إذ هيأ لى من رحمة ذلك المقام المولوى على يدكم نصراً عزيزا ، و بوأنى من جاهه حرزاً حريزاً ، وقد استأسدت الأعداء ، وأعضل الداء ، وأعمل الاعتداء ، وعز الفداء ، فانفرج الضيق ، وتيسرت للخير الطريق ، وساغ الريق ، ونجا الغريق ، غريبة لا تمثل إلا فى الحلم ، ولطيفة فيها اُعتبار لأولى العلم ، اللهم جاز سيدى فى نفسه وولده ، وحاله و بلده ، ومَعَاده بعد طول عمره وانفساح أمَدِه ، وكن له نصيراً أحوج ما يكون إلى نصر ، واجعل له سعة من كل حصر ، واقْصُر عليه جاه كل قصر ، كما جعلت ذاته فوق كل ذات وعصره فوق

---

(١) تألقت : أراد أضاءت ولمعت

(٢) الذماء ـ بفتح الذال ، بزنة السحاب ـ بقية الروح فى البدن

(٣) أراد بالحافى والناعل الصغير والكبير ، أى جميع الناس

كل عصر . وليعلم سيدى أن من أراد بى منافسة وحسداً ، وزأر علىَّ أسداً ، لما استقل على الكرسى جسداً ، من غير ذنب تبين ، ولا حد تعين ، أصابه من خلاصى المقيم المقعد ، ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد ، لما استنقذنى الله برحمته من بين ظفره ونابه ، وغطانى بسترجنابه ، وكثرنى فى العيون على قلة ، وأعزنى بعز نصره على حال ذلة ، لم يدع حيلة إلا نصبها أمامى ، ليحبط ذلك المقام الكريم ذمامى (١) ، ويكدر جمامى (٢) ، ويستدرك حمامى ، وزعم أن بيده على البعد زمامى ، ويأبى ذلك رأى يفرق بين الحق وضده ، وعدل لا يخرج الشىء عن حده ، فبهت سيدى خوفا أن تتجه حيله ، أو تفسد وسيله ، وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل فى رب الصنيعة على شاكلة المجد الذى هو له أهل ، فما بابتدائه جهل ، ولا يختلف فى عظم ما أسداه غر ولا كهل ، ولا يُنَبَّــه مثله على تتميم ، وإجزال فضل عميم ، ومؤانسة غريب ، وصلة نصر عزيز وفتح قريب ، بحول الله تعالى .

وقال لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه فى حق ابن مرزوق : ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنى عليه بسببه ، محمولا عليه من أجله ، تقبض عليه وأجمع الملأ على قتله ، وشد اعتقاله ، وطُلِبَ بالمال العريض وانتهبت أمواله واعتقلت رباعه ، وجُنِبَتْ مَرَاكبه ، واصطفيت أمهات أولاده ، وتمادى به الاعتقال والشدة ، إلى أن عادته عوائد الله فى الخلاص من الشدة ، والانتياش عن الورطة ظاهرةً عليه بركةُ سلفه ، قائمة له حجة الكرامة فى أمره .

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزه الله قال : عرض لى والدى رحمه الله تعالى فى النوم فقال : يا ولدى ، اشفع فى الفقيه ابن مرزوق ، فقبلت يده ، واقتضيت

---

(١) الذمام ــ بكسر الذال المعجمة ــ العهد والذمة

(٢) الجمام ــ بكسر الجيم ــ ملء القدح ماء ، وقد تقرأ بفتح الجيم ومعناها الراحة ، تقول « وجد فلان جمامه » أى وجد راحته

حظه ، وحكيت داعيته ، وعينت للوجهة فى ذلك قاضى الحضرة ، فكان ذلك ابتداء الفرج .

وحدثنى الثقة من خدام السلطان أبى عنان عنه مخبراً عن نفسه لما نفس عنه من نكبته ، وأجاره من سخطته ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرنى بذلك ، وكفى بها جاها وحُرْمة ، قلت : فترك سبيله ، وأتيح له[1] ركوب البحر إلى البلاد المشرقية بأهله وولده ، فسار فى كنف الستر ، وتحت جناح الرقابة ، فى وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعمائة من ساحل باديس ، صحب الله وجهته ، وختم عصمته ! انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين بلفظه .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط المذكور ماصورته : أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إنى قد وصلت إلى تونس المحروسة فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهدُ أمثالى ، ووَلِيتُ خطابة جامع ملكها ، وتدريس أم المدارس فيها ، وهى المعروفة بمدرسة الشماعين ، كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس ملكها ، إلى أن توفى سنة إحدى وسبعين ، ثم مع ولده وابن أخيه ، إلى أن رحلت فى البحر فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ، فحللت فى الديار المصرية ، ولقيت من ملكها الذى لم أر فى الملوك مثله حلما وفضلا وحياء وجوداً وتلطفا ورحما ، السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين والدنيا شعبان بن حسين ، فأحسن لى وأجرى على وعلى أولادى ما قام به الحال ، وقلدنى دروساً ومدارس ، وأهلنى للمثول بين يديه ، والحالُ مستمر على ذلك حتى الآن ، وذلك من فضل الله ومعهود إحسانه ، والمرجو من الله حسن العاقبة ، وكتب فى رمضان سنة خمس وسبعين ، انتهى .

---

(١) أتيح له كذا : تهيأ وأمكن

وكتب بعده أبو الحسن على بن لسان الدين رحمهما الله تعالى ما صورته : صدق، وهو فوق ذلك كله ، فقدره معروف ، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر به ، فصار يفتخر بتقليد الدروس :

* والدهر لا يبقى على حالة * انتهى

قال فى « الإحاطة » : ولما شرح كتاب الشفاء للقاضى عياض رحمه الله تعالى واستبحر فيه ، وأكثر النقل ، وبذل الجهد ، طلب أهل العدوتين نظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور ، وإطراء مؤلفه ، فانثال عليه من ذلك الطم والرم ، بما تعددت منه الأوراق ، واختلفت فى الإجادة وغيرها الأرزاق ، إيثاراً لغرضه ، ومبادرة من كل الجهات لإسعاف أربه ، وطلب منى أن ألم فى ذلك بشىء فكتبت له فى ذلك :

شفاء عياض للصدور شفاء فليس بفضل قد حواه خفاء
هدية برٍّ لم يكن لمديلها سوى الأجر والذكر الجميل كِفاء(١)
وَفَى لنبى الله حق وفائه وأكرمُ أوصاف الكرام وفاء
وجاء به بحرا يقول بفضله على البحر طعم طيب وصفاء
وحق رسول الله بعد وفاته رعاه ، وإغفالُ الحقوق جَفاء
هو الذخر يغنى فى الحياة عَتاده ويُترك منه للبنينَ رفاء
هو الأثر المحمود ليس ينا له دثور ، ولا يُخْشَى عليه عَفاء
حرصت على الإطناب فى نشر فضله وتمجيده لو ساعدتنىَ فاء

واستزاد من هذا الغرض الذى لم يقنع فيه بالقليل ، فبعثت إليه من محل انتقالى من مدينة سَلاَ حرسها الله تعالى :

---

(١) مديلها : اسم الفاعل من قولهم « أدال فلان الشىء » إذا جعله متداولا ، والكفاء — بكسر الكاف — الجزاء

أأزاهير رياض أم شفاء لعياض
جدل الباطل للحـق بأسياف مواضِ
وجـلا الأنواء برها نا بحق وافتراض
وشفى من يشتكى الغلة فى زرق الحيـاض
أى بنيان مقال آمن خوف انقضاض
أى عهد ليس يرمى بانتكاث وانتقاض (١)
ومعان فى سطور كأسود فى غياض
وشفاء لصـدور من ضنى الجهل مراض
حرر القصد فما شِينَ بنقـد واعتراض
يا أبا الفضل ادرأن الله عن سعيك راضِ
فاز عبد أقرض الله برجحان القِرَاضِ (٢)
وجبت غـر المزايا من طوال أو عراض
لك يا أصدق راوٍ لك يا أعدل قاضِ
لرسـول الله وفيت بجهـد وانتهاض
خير خلق الله فى حا ل وفى آت وماض
سدد الله ابن مروز ق إلى تلك المراضى
زبدة العرفان مَعْنَى كل نسك وارتياض
فتولى بسط ما أجملت من غير انقباض
ساهرا لم يدر فى استخلاصه طعمَ اغتماض
إن يكن دينا على الأيام قدحان التقاضى

---

(١) نـكث العهد : نقضه ، وانتـكث انتكاثا : انتقض ، فهو مطاوع نـكث

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له)

دام فى علو ومن عا داه يَهْوِى فى انخفاض (١)
ماوشى الصبح الدياجى بسواد فى بياض

ثم نظمت له أيضا فى الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط فى هذا الموضع ليس على سبيل التبجح بإجادته وغرابته ، ولكن على سبيل الإشادة بالشرح المشار إليه ، فهو بالغ غاية الاستبحار :

حييت يا مختط سبت ابن نوح بكل مزن يغتدى أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا أمانة فيك إلى كل روح
دار أبى الفضل عياض الذى أضحت بَرَيَّاه رياضا تفوح (٢)
يا ناقل الآثار يعنى بها وواصلا فى العلم جَرْىَ الجَمُوح
طِرْفُكَ فى الفضل بعيد المدى طَرْفُكَ للمجد شديد الطموح (٣)
كفاك إعجازا كتابُ الشفا والصبح لا يُنْكَرُ عند الوضوح
لله ما أجزلت فينا به من منحة تقصر عنها المُنُوحْ
روض من العلم همى فوقه من صَيِّب الفكر الغمامُ السفوح
فمن بيان الحق زهر بدا ومن لسان الصدق طير صَدُوح
تأرج العَرْفُ وطاب الجنى وكيف لا يثمر أو لا يفوح
وحلة من طيب خير الورى فى الجيب والأعطاف منها نضوح
ومَعْلَم للدين شيدته فهذه الأعلام منها تلوح
فَقُلْ لهامان كذا أو فلا يا من أضل الرشد تبنى الصروح
فى أحسن التقويم أنشأته خلقا جديدا بين جسم وروح
فعمره المكتوب لا ينقضى إذا تقضى عمر سام ونوح

---

(١) هوى يهوى – بوزن رمي يرمى – سقط من أعلى إلى أسفل
(٢) الريا : الرائحة الطيبة ، وتفوح : تملأ الجو
(٣) الطرف فى أول البيت بكسر الطاء ، وهو فى الأصل الفرس ، وفى النصف الثانى بفتح الطاء ومعناه العين الباصرة

كأنه فى الحفل ريح الصَّبا وكل عطف فهو غصن مَرُوحْ[(١)]
ما عذر مشغوف بخير الورى إن هاج منه الذكر أن لا يبوح
عجبت من أكباد أهل الهوى وقد سطا البعد وطال النزوح
إن ذكر المحبوب سالت دما ما هنّ أكباد ولكن جروح
يا سيد الأوضاع يا من له بسيد الأرسال فضل الرجوح
يا من له الفضل على غيره والشمس تخفى عند إشراق بوح[(٢)]
يا خير مشروح وَفَى واكتفى من ابن مرزوق بخير الشروح
فتح من الله حَبَاه به ومن جناب الله تأتى الفتوح

ثم قال : وعلى الجملة والتفصيل ، فهذا الرجل نسيجُ وحْده شهرة وجلالة وخصالا وأبوّة صالحة ، تولاه الله ! وكان له ! وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق عام أربعة وستين وسبعمائة ، تولاه الله تعالى ، وأسعد مُنْقَلبه ! ومولده بتلمسان عام أحد عشر وسبعمائة ، انتهى كلام لسان الدين .

ترجمة ابن مرزوق عن ابن خلدون

ولنزد فى هذه الترجمة على ما ذكره فنقول : قال ابن خلدون : صاحِبُنا الخطيبُ أبو عبد الله ابن مرزوق ، من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبى مَدْيَن بالعباد ، ومتوارثين تربته من لدن جدهم خادمِه فى حياته ، وكان جده الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم ، ونشأ محمد هذا بتلمسان ، ومولده فيما أخبرنى عام عشرة وسبعمائة ، انتهى .

وهو مخالف لما ذكره لسان الدين فيما مر عنه .

ثم قال ابن خلدون : وارتحل مع والده إلى المشرق سنة ثلاث عشرة ، وسمع ببجاية على الشيخ ناصر الدين ، ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة ، فأقام

(١) ريح الصبا : ريح الشمال ، وعطف الرجل — بالكسر — جانبه ، ومروح : اسم المفعول من قولهم « راحت الريح الشجر » أصابته فاهتزت أغصانه ، ويقال « مريح » أيضا (٢) بوح : اسم من أسماء الشمس ، ولعل الكلام محرف وأصله
* والبدر يخفى عند إشراق بوح *

وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطين ، ورجع سنة ثلاث وثلاثين إلى المغرب ، ولقي السلطان أبا الحسن محاصرا لتلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيما وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العباد ، وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه ، وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ، ويثني عليه ، فخلى بعينه ، فقربه ، وهو مع ذلك يلازم ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم ، وحضر مع السلطان وقعة طريف ، ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس ، ثم إلى ملك قَشْتالة في تقرير الصلح ، واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف ، ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصارى ، فرجع إلى المغرب ، ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حَظية أبي الحسن ، ثم رجع إلى تلمسان ، وأقام بالعباد ، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت ، والسلطان أبو الحسن بالجزائر ، وقد حشد هناك ، فأرسل أبو سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سراً في الصلح ، فلما اطلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، فبعثوا مَنْ حبس ابن مرزوق ، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس ، فنزل على أبي الحجاج سلطانها بغَرْناطة ، فقربه ، واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ، ورعى له وسائله[1] ، ونَظَمه في أكابر أهل مجلسه ، ثم بعثه لتونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنةَ السلطان أبي يحيى ، فردت الخطبة ، واختفت بتونس ، ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ، وأمر بسجنه ، فسجن مدة ، ثم أطلقه قبل موته .

---

(١) الوسائل : جمع وسيلة ، وهي كل ما توصلت به شيء ، أراد بوسائله التي رعاها علمه وفضله

ولما استولى أبو سالم على السلطنة آثره ، وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عتبته ، وغشى أشراف الدولة بابه ، وصرفوا إليه الوجوه ، فلما وثب عمر بن عبد الله بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق ، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله ، فمنعه منهم ، ثم لحق بتونس سنة أربع وستين ، ونزل على السلطان أبى إسحاق وصاحب دولته أبى محمد بن تافراكين ، فأكرموه وولوه الخطابة بجامع الموحدين، وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين وولى ابنه خالد ، ثم لما قتل السلطان أبو العباس خالداً واستولى على السلطنة ، وكان بينه وبين ابن مرزوق شىء لميله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية ، عزله عن الخطبة ، فوجم لها[1] ، فأجمع الرحلة إلى المشرق ، وسرحه السلطان ، فركب السفينة ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ارتحل إلى القاهرة، ولقى أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان الأشرف ، فولاه الوظائف العلمية ، فلم يزل بها مُوَفَّر الرتبة ، معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازما للتدريس ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين ، انتهى ملخصاً .

ترجمة ابن مرزوق عن ابن حجر

وقال الحافظ ابن حجر : إنه لما وصل تونس أكرم إكراماً عظيما ، وفوضت إليه الخطابة بجامع السلطان وتدريس أكبر المدارس ، ثم قدم القاهرة ، فأكرمه الأشرف شعبان ، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية ، وكان حسن الشكل ، جليل القدر ، مات فى ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ، انتهى .

وعن الخطيب القسمطينى

وقال ابن الخطيب القسمطينى : هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب ، توفى بالقاهرة ، ودفن بها بين ابن القاسم وأشهب ، وله طريق واضح فى الحديث ، ولقى

---

(١) وجم لها : سكت على غيظ ، أو سكت ولم يستطع الكلام من كثرة الحزن والغم

أعلاما ، وسمعنا منه البخارى وغيره فى مجالس ، ولمجلسه لباقة وجمال ، وله شرح جليل على « العمدة » فى الحديث ، انتهى .

وكتب بخطه بلديُّنَا أبو عبد الله بن العباس التلمسانى مانصه : نقلت من خط بعض السادات كتبه للامام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنه وجد بخطه جده الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد الله على يد الشيخ أبى يعقوب كتب ما نصه : الحمد لله على كل حال ، خرج الطبرى فى منسكه وأبو حفص الملاى فى سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم ، قالا : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الثَّنِية(١) التى بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من ههنا سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ، وجوهُهم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : هم الغرباء من أمتى الذين يدفنون ههنا ، ففى هذا الموضع دُفِن والدى رحمه الله تعالى ، و بعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتَراه لا يشفع فيمن أقال عَثْرة ولده ؟ أفما يشترى هذا بأموال الأرض ؟ أفلا يرعى لى ثمانية وأربعين منبرا فى الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ؟ أفلا يرعى لى أنه ليس اليوم يوجد من يُسْنِد أحاديث الصحاح سماعا من باب إسكندرية إلى البر وإلى الأندلس غيرى ونحو من مائتين وخمسين شيخا ؟ والله تعالى أعلم ، لكن حرمنى الله تعالى نبذة الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ! أفلا يرعى لى مجاورة نحو اثنى عشر عاما وختم القرآن فى داخل الكعبة ، والإحياء فى محراب النبى صلى الله عليه وسلم ، والإقراء بمكة ، ولا أعلم مَنْ له هذه الوسيلة غيرى ؟ أفلا يرعى لى

(١) الثنية — بفتح الثاء المثلثة — طريق العقبة ، والمرتقى إلى الجبل ، ويجمع على ثنايا ، وقال الشاعر (سحيم) :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

الصلاة بمكة سنين ، وغربتى بينكم ، ومحنتى فى بلدى على محبتكم وخدمتكم ، مَنْ ذا الذى خَدَمَكم من الناس يخرج على هذا الوجه ؟ أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله من ذنوبى ، وذنوبى أعظم ، وربى أعلم ، رب ارحم ، والسلام ، انتهى .

ففى هذا دليل على عظم قدره ومكانته فى الدين والدنيا .

قلت : ولقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده ، وعليه خطه الرائق الذى أعرفه ، وهو يقول : قرأت فى هذا المصحف تُجَاه الكعبة المشرفة اثنى عشر ألف ختمة ، انتهى.

ومع هذا فقد نسى فى المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى (ينقلب إليك البصر) حتى كتبه بخطه فوق السطر حفيدُه العلامة سيدى أبو عبد الله محمد ابن مرزوق ، رحمة الله على الجميع !

وقال الخطيب المذكور رحمه الله تعالى فى بعض تعاليقه ما صورته : ومن أشياخ والدى سيدى محمد المرشدى ، لقيه فى ارتحالنا إلى الشرق ، وحين حملنى إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده ، ووافقنا صلاة الجمعة ، ومِنْ عادته أن لا يتخذ للمسجد إماما ، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء مَنْ لا يمكن اجتماع مثلهم فى غير ذلك المشهد ، قال: فقرب وقت الصلاة ، فتشوّف [1] مَنْ حضر من الفقهاء والخطباء إلى التقديم ، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا وشمالا وأنا خلف والدى ، فوقع بصره على ، فقال لى : يا محمد ، تعالَ ، قال : فقمت معه حتى دخلت معه فى موضع خلوة ، فباحثنى فى الفروض والشروط والسنن ، قال : فتوضأت وأخلصت النية ، فأعجبه وضوئى ، ودخل معى المسجد ، وقادنى إلى المنبر ، وقال لى : يا محمد ، ارقَ المنبر [2] ، فقلت له : ياسيدى ، والله لا أدرى ما أقول ، فقال لى:

---

(١) تشوف من حضر : أى أن كل واحد منهم تطلعت عينه لأن يكون هو المقدم للخطابة

(٢) ارق المنبر : اصعده ، وكل سلم يقال له مرقاة ومصعد

أُرق ، وناوَلَنِي السيفَ الذى يتوكأُ عليه الخطيبُ عندهم ، وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون ، فلما فرغوا نادانى بصوته ، وقال لى يا محمد : قم ، وقل بسم الله ، قال : فقمت ، وانطلق لسانى بما لا أدرى ما هو ، إلا أنى كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلى و يخشعون مِنْ موعظتى ، فأ كملت الخطبة ، فلما نزلت قال لى: أحسنت يا محمد ، قِرَاكَ[1] عندنا أن نولِّيك الخطابة ، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ، ثم سافرنا لحججنا ، وأراد والدى الجوار ، وأمرنى بالرجوع لأونس عمى وقرابتى بتلمسان ، وأمرنى بالوقوف على سيدى المرشدى هنالك ، فوقفت عليه ، وسألنى عن والدى ، فقلت له : يُقبِّل أيديكم ، و يسلم عليكم ، فقال لى : تقدم يا محمد ، واستند إلى هذه النخلة ، فإن شعيبا ــ يعنى أبا مدين ــ عَبَدَ الله عندها ثلاث سنين ، ثم دخل خلوته زمانا ، ثم خرج فأمرنى بالجلوس بين يديه ، ثم قال لى : يا محمد ، أبوك من أحبابنا و إخواننا ، إلا أنك يا محمد ، إلا أنك يا محمد ، فكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطتى أهلَ الدنيا والتخليط ، ثم قال لى : يا محمد أنت مشوش من جهة أبيك ، تتوهم أنه مريض ، ومن بلدك ، أما أبوك فبخير وعافية ، وهو الآن عن يمين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن يمينه خليل المالـكى ، وعن يساره أحمد قاضى مكة ، وأما بلدك ، فسمى الله فخط دائرة فى الأرض ، ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى وجعلهما خلف يطوف بتلك الدائرة ، و يقول : تلمسان ، تلمسان ، حتى طاف بتلك الدائرة مرات ، ثم قال لى : يا محمد ، قد قضى الله الحاجة فيها ، فقلت له : كيف يا سيدى ؟ فقال : ستر الله إن شاء الله على من فيها من الذرارى والحريم ، و يملـكها هذا الذى حصرها ، يعنى السلطان أبا الحسن ، وهو خير لهم ، ثم جلس وجلست بين يديه ، فقال لى:

---

(١) أصل القرى ــ بكسر القاف ، مقصورا ــ ما يقدم للضيف من ألطاف

يا خطيب ، فقلت : يا سيدى عبدك ومملوكك ، فقال لى : كن خطيبا ، أنت الخطيب ، وأخبرنى بأمور ، وقال لى : لابد أن تخطب بالجامع الغربى ، وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية ، ثم أعطانى شيئا من كعيكات صغار ، وزوّدنى بها ، وأمرنى بالرحيل .

وأما خبر تلمسان فدخلها المرينى كما ذكر ، وستر الله من فيها من الذرارى والحريم ، وكان هذا المرشدى يتصرف فى الولاية كتصرف سيدى أبى العباس السبتى ، نفعنا الله بهما ! .

وللخطيب ابن مرزوق المذكور تآليف : منها شرحه الجليل على العمدة فى خمسة أسفار ، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفاكهانى مع زوائد ، وشرحه النفيس على الشفاء ، ولم يكمل ، وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق ، وشرحه على ابن الحاجب الفرعى ، سماه « إزالة الحاجب ، عن فروع ابن الحاجب » وله غيرها. وديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التى قالها فى نكبته بتلمسان ، وأولها :

رفعت أمورى لبارى النَّسَمْ ومُوجِدِنَا بعد سبق العدم[1]

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس :

أُودعكم وأثنى ثم أثنى على ملك تطاول بالجميل
وأسأل رغبة منكم لربى بتيسير المقاصد والسبيل
سلام الله يشملنا جميعا فقدعزم الغريب على الرحيل

ومن نظم أبى المكارم ابن آجروم يُسْلى المذكور عندما سجن بعد قتل السلطان أبى سالم .

يا شمس علم أفَلَتْ بعدما أضاءت المشرق والمغربا

(١) النسم ـ بفتح النون والسين جميعا ـ جمع نسمة ، وهى كل دابة فيها روح

حُجبتِ قَسْراً عن عيون الورى والشمس لا ينكر أن تحجبا(١)

وبيتهم بيت علم وولاية وصلاح كعمه وجده وأبيه وجد أبيه ، وكولديه محمد وأحمد وحفيده عالم الدنيا البحر أبى عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وولد حفيده المعروف بالكفيف ، وحفيد حفيده المعروف بالخطيب ، وهو آخر المذكورين منهم فيما نعلم .

قلت : كان مرادى أن أعرّف بجميعهم ، ولكنى خشيت الطول ، فلنلم بذكر الحفيد عالم الدنيا ، وابنه العلامة المشهور بالكفيف ، لأنه – أعنى الكفيف – والد أم جدى أحمد ، لأبى أحمد بن محمد بن أحمد ، فوالدة الجد أحمد بنت الكفيف المذكور ، وهو – أعنى الكفيف – محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق المتقدم الذكر ، وكان الكفيف إماما عالما علامة ، ووصفه ابن داود البلوى بأنه الشيخ الإمام ، عَلَم الأعلام ، فخر خطباء الإسلام ، سلالة الأولياء ، وخلف الأتقياء الأرضياء ، المسنِد الراوية المحدّث العلامة المتفنن القدوة الحافل الكامل ، وأخذ العلم عن جماعة : منهم عالم الدنيا أبوه ، قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغيرها كتاب من تآليفه وغيرها ، وتفقه وأجازه عموما ، وعن عالمى تلمسان أبوى الفضل ابن الإمام والعقبانى ، وغيرهما كالبجائى والثعالبى ، والنظار أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم المشذالى ، وقاضى الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، وكل هؤلاء أجازوه ، وقرأ عليهم مشافهة ، إلا ابن حجر فمكاتبة ، ومولده غرة ذى القعدة عام أربعة وعشرين وثمانمائة ، نصف ليلة الثلاثاء ، ومن شيوخه العلامة ابن العباس التلمسانى وغيره .

ابن مرزوق الكفيف

---

(١) حجبت – بالبناء للمجهول – منعت ، وقسرا : مصدر قسره على الأمر يقسره – من باب ضرب – أكرهه عليه وألجأه إلى فعله

وقال السخاوى : قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وسمعت سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أنه فى الأحياء ، انتهى .

وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسى صاحب العقائد الشهيرة وغيرها،والوانشريسى صاحب المعيار ، والعلامة أبى عبد الله بن العباس ، وحلاه بشيخنا ومفيدنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ المغرب ، وقال : قرأت عليه الصحيحين و بعض مختصرى ابن الحاجب الفرعى والأصلى ، وحضرت عليه جملة من التهذيب و بعض الخونجى وغيرها ، وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازى حسبما ذكره فى كتابه المسمى « بالتعلل برسوم الإسناد ، بعد انتقال الساكن والناد » .

وقال بعض الحفاظ : إن وفاته عام أحد وتسعمائة بتلمسان ، وزرت قبره مرارا، رحمه الله تعالى ! ونقل عنه المازونىّ فى نوازله بالمسماة « بالدرة المكنونه ، فى نوازل ما زونه » .

ابن مرزوق الحفيد

وأما والده عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد فهو البحر الإمام المشهور الحجة الحافظ العلامة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقى الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشى النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولى المفسر المحدث الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقرى المجوّد النحوى اللغوى البيانى العروضى الصوفى الأوّاب[1] الولى الصالح العارف بالله، الآخذ من كل فنّ بأوفر نصيب ، الراعى فى كل علم مَرْعَاهُ الخصيب ، حجة الله على خلقه ، المفتى الشهير ، الرحلة ، الحاج ، فارس الكراسى والمنابر ، سليل الأكابر ، سيد العلماء الأخيار ، و إمام الأئمة ، وآخر الشيوخ ، ذوى الرسوخ ، بدر التمام ، الجامع بين المعقول والمنقول ، والحقيقة والشريعة بأجل محصول ، آخر النظار

(١) الأواب : صيغة مبالغة لآئب ، وهو الراجع ، والأواب : يراد به هنا الكثير الرجوع إلى الله تعالى فى أموره

الفحول ، شيخ المشايخ ، صاحب التحقيقات البديعة ، والاختراعات الأنيقة ، والأبحاث الغريبة ، والفوائد الغزيرة ، المتفق على علمه وصلاحه وهديه ، الذكى الفهامة القدوة الذى لا يسمح الزمان بمثله أبدا ، أوحد الأفراد فى جميع الفنون الشرعية ، ذو المناقب العديدة ، والأحوال السَّديدة ، شيخ الإسلام ، وإمام المسلمين ومفتى الأنام ، الذى له القدم الراسخ فى كل مقام ضيق ، ولرحب الواسع فى حل كل مشكل مقفل ، صاحب الكرامات والاستقامات ، السَّنى السُّنى(١) ، الحريص على تحصيل السنة ، ومجانبة البدعة ، السيف المسلول على أهل البدع والأهواء الزائغة ، الذى أفاض الله تعالى على خلقه به بركته ، ورفع بين البرية محله ودرجته ، ووسع على خليقته به نحلته ، معدن العلم ، وشُعْلة الفهم ، وكيمياء السعادة ، وكنز الإفادة ، ابن الشيخ الفقيه العالم أبى العباس أحمد ، ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدث الشهير شمس الدين محمد ، ابن الشيخ العالم الصالح الولى المجاور أبى العباس أحمد ، ابن الفقيه الولى الصالح الخاشع محمد ، ابن الولى الكبير ذى الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبى بكر بن مرزوق ، العجيسى ، التلمسانى ، كان رحمه الله تعالى آية الله فى تحقيق العلوم ، والاطلاع المفرط على النقول ، والقيام التام على الفنون بأسرها ، أما الفقه فهو فيه مالك ، ولأزمّة فروعه حائز ومالك ، فلو رآه الإمام لقال له : تقدم ، فلك العهد والولاية فتكلم ، فمنك يُسْمَع فقهى وفُرُوعِى ، ومثلك مَنْ راعى ما ينبغى فُرُوعى(٢) ، أو ابن القاسم لقرّبه عيناً ، وقال له : طالما دفعت عن المذهب عَيْبا وشَيْنا ، أو المازرى ، لعلم أنه بمناظرته حَرى ، أو الحافظ ابن رشد ، لقال : هلم يا حافظ الرشد ،

---

(١) السنى ـ بفتح السين ـ الوصف من السناء أو من السنا ، أى الرفيع القدر ، أو الوضىء الوجه ، والسنى ـ بضم السين ـ المنسوب إلى السنة

(٢) فروعى الأول : جمع فرع ، و «فروعى» الثانى مؤلف من كلمتين : الفاء العاطفة ، و «روعى» فعل ماض مبنى للمجهول من المراعاة

أو اللخمى لأبصر منه محاسن التبصرة ، أو القرطبى لنال منه التذكرة ، أو القرافى لاستفاد منه قواعده المقررة ، أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه فى كشف الإشكالات المحررة ، إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره ، والاضطلاع بحقائق التأويل وغُرره ، فلو رآهُ مجاهد ، لعلم أنه فى التحقيق خير جاهد ، أو مقاتل ، لقال : مثلك طَبَّقَ من الفهوم الـكلى وأصاب المقاتل ، أو الزمخشرى لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقه ، وقال لـكتابه : تنحَّ لهذا الحبر عن سلوك الطريقه ، أو ابن عطيه ، لركب فى الرحلة إلى الاستفادة منه المطيه ، أو أبو حيان لغرق فى نهره ، ولم تَسِلْ له نقطة من بحره ، إلى الإحاطة بالحديث وفنونه ، والاطلاع على أسانيده ومتونه ، ومعرفة منكره ومعروفه ، ونظم أنواعه ورصف صنوفه ، إذ له الرحلة انتهت فى رواياته ودراياته ، وعليه المعوّل فى حل مشكلاته وفتح مقفلاته . وأما الأصول فالعَضُد ينقطع عند مناظرته ساعدُه ، والسيف يكلّ عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده ، والبرهان لا يهتدى معه لحجة ، والمقترح لا يركب فى بحره لجـــة . وأما النحو فلو رآه محمود[1] لتلجلج فى قراءة المفصل ، واستقل ما عنده من القدر المحصل ، أو الرمانى لاشتاق إلى مفاكهته وارتاح ، واستجدى من ثمار فوائده وامتاح[2] ، أو الزجاج لعلم أن زجاجه لا يقوم بجواهره ، وأنه لا يجرى معه فى هذا العلم إلا فى ظواهره ، بل لو رآه الخليل ، لقال : هذا هو المقصد الجليل ، وأثنى عليه بكل جميل ، وقال لفرسان النحو : مالـكم إلى لحوق عربيته من سبيل ، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح ، وصاحب المفتاح لا يهتدى معـه إلى الفتح ، والقزْوينى يلقى علومه لإيضاح المعانى ، والسعد يرقى بفهومه فى مطالع المثَانى ، وكم له من مناقب ، تنحط عن منالها الثواقب ، ومواهب ، تجلو بأنوارها الغياهب[3] ، وأما زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان ، واتفق عليه الثقلان ، فمن

---

(١) محمود : هو الزمخشرى صاحب المفصل فى النحو وغيره (٢) أصل الامتياح أن تملأ الدلو من البئر ، واستعمله ههنا مجازا (٣) الغياهب : جمع غيهب ، وهو الظلام

وصفه بالبحر ، فقل له : دون علمه البحر ، أو البدر ، فما يصل خلقه البدر، أو الدر، فأنى يشبه منطقه الدر ، و بالجملة فالوصف يتقاصر عن صِفاتِهِ وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صَفَاتِه ، فهو شيخ العلماء فى أوانه ، و إمام الأئمة فى عصره وزمانه ، شهد بنَشْر علومه العاكفُ والبادى ، وارتوى من بحار تحقيقاته الظمآن والصادى.

حلف الزمان ليأتينَّ بمثله حَنِثَتْ يمينك يا زمان فكفر(١)

هكذا وصفه بعض العلماء ، وهو فوق ذلك كله .

وقال فى حقه بلدينا الشيخ أبو الفرج ابن أبى يحيى الشريف التلمسانى رحمه الله تعالى : هو شيخنا الإمام العالم العلم ، جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا راسخ القدم ، رافع لواء الإمامة بين الأمم ، ناصر الدين بيده ولسانه و بنانِه و بالقلم ، محيى السنة بالفعال والمقال والشيم ، قطب الوقت فى الحال والمقام، والنهج الواضح والسبيل الأمم(٢) ، مستمر على الإرشاد والهداية ، والتبليغ والإفادة ، ذو الرواية والدراية والعناية ، ملازم الكتاب والسنة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع فى زمن لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ، وهمة علية ، ورتبة سنية ، وأخلاق مرضية ، وفضل وكرم ، إمام الأئمة ، وعالم الأمة ، الناطق بالحكم ، ومنير الظلَم ، سليل الصالحين ، وخلاصة مجد التقى والدين ، نتيجة مقدمات المهتدين ، حجة الله على العلم والعالم ، جامع بين الشريعة والحقيقة ، على أصح طريقة ، متمسك بالكتاب لا يفارق فرِيقه ، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ، اتصلت به فأويتُ منه إلى ربوة ذات قرار ومَعين ، وقصرت توجهى عليه ، ومثلت بين يديه ، فأنزلنى أعلى الله قدره ! منزلة ولده رعاية للذِّمَم ، وحفظا على الود الموروث من القدم ، فأفادنى من بحار علمه ما تَقْصُر عنه العبارة و يكلّ دونه القلم ، فقرأت

(١) حنثت يمينك : كناية عن أنه لا يقدر على الإتيان بمثله

(٢) السبيل الأمم ــ بفتح الهمزة والميم جميعا ــ الطريق القريب البين الواضح

عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخارى بقراءتى وقراءة غيرى مراراً وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذى وأبى داود بقراءتى ، والموطأ سماعا وتفقها والعمدة ، ومن علم الحديث أرجوزة الحديقة و بعض الكبرى وهى الروضة تفقها ، ومن العربية نصف المغرب (١) تفقها وجميع كتاب سيبويه كذلك ، وألفية ابن مالك ، وأوائل شرح الإيضاح لابن أبى الربيع ، و بعض المغنى لابن هشام ، ومن الفقه التهذيب كله تفقها ، وابن الحاجب الفرعى ، و بعض مختصر خليل ، والتلقين ، وثلثى الجلاب ، وجملة من المتيطية ، والبيان لابن رشد ، و بعض الرسالة ، وكل ذلك قراءة تفقه ، وتفقهت عليه من كتب الشافعية فى تنبيه الشيرازى ووجيز الغزالى من أوله إلى كتاب الإقرار ، ومن كتب الحنفية مختصر القدورى تفقها ، ومن كتب الحنابلة مختصر الخرقى تفقها ، ومن أصول الفقه المحصول ، ومختصر ابن الحاجب ، والتنقيح ، وكتاب المفتاح لجدى ، وقواعد عز الدين ، وكتاب المصالح والمفاسد له ، وقواعد القرافى ، وجملة من النظائر والأشباه للعلائى ، و إرشاد العميدى ، ومن أصول الدين المحصل والإرشاد تفقها ، وفى القراءات قصيدة الشاطبى تفقها ، وابن البرى ، ومن البيان التلخيص ، والإيضاح ، والمصابيح ، وكلها تفقها ، ومن التصوف الإحياء للغزالى سوى الربع الأخير منه ، وألبسنى خرقة التصوف كما ألبسه أبوه وعمه ، وهما ألبسهما أبوهما جده ، انتهى ملخصاً .

وكتب المذكور تحت هذا مانصه : صدق السيد بن السيد بن السيد أبوالفرج المذكور فيما ذكر من القراءة والسماع والتفقه و برّ ، وقد أجزته فى ذلك كله ، فهو حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر ، جعلنى الله و إياه ممن علم وعمل لآخرته واعتبر ، قال محمد بن مرزوق ، انتهى .

---

(١) كذا في ب ، ولعله «نصف المقرب» بالقاف ، والمقرب : كتاب فى النحو لابن عصفور

وقال تلميذه الولى أبو زيد سيدى عبد الرحمن الثعالبى : قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق فأقام بها ، فأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه جميعَ الموطأ بقراءة صاحبنا أبى حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشانى ، وختمت عليه أربعينيات النووى ، قرأتها عليه فى منزله قراءة تفهم ، فكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ، ثم يأخذ فى البكاء ، فلم أزَلْ أقرأ وهو يبكى إلى أن ختمت الكتاب ، وكان من أولياء الله الذين إذا رُؤُا ذُكِر الله ، وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية ، واشتهر ذكره فى البلاد ، فكان بذكره تطرز المجالس ، وجعل الله تعالى حبه فى قلوب العامة والخاصة فلا يذكر فى مجلس إلا والنفوس متشوقة إلى ما يحكى عنه ، وكان فى التواضع والإنصاف والاعتراف بالحق فى الغاية وفوق النهاية ، لا أعلم له نظيراً فى ذلك فى وقته ، ثم ذكر كثيراً جداً من الكتب مما سمعه عليه ، وأطال فى ذلك .

وقال فى موضع آخر : هو سيدى الشيخ الإمام ، والحبر الهمام ، حجة أهل الفضل فى وقتنا وخاتمتهم ، ورحلة النقاد وخلاصتهم ، ورئيس المحققين وقادَتُهم ، السيد الكبير ، والذهب الإبريز ، والعَلَم الذى نصبه التميز ، ابن البيت الكبير ، والفلك الأثير ، ومعدن الفضل الكثير ، سيدى أبو عبد الله محمد بن الإمام الجليل الأوحد الأصيل ، جمال الفضلاء ، سليل الأولياء ، أبى العباس أحمد ، ابن العالم الكبير ، العلم الشهير ، تاج المحدثين ، وقدوة المحققين ، أبى عبد الله محمد ابن مرزوق .

وقال أيضاً فى موضع آخر : هو شيخى الإمام العَلَم الصدر الكبير ، المحدث الثقة المحقق بقية المحدِّثين ، و إمام الحَفَظَة الأقدمين والمحدَثين ، سيد وقته ، و إمام عصره ووَرِع زمانه ، وفاضل أقرانه ، أعجوبة أوانه ، وفاروق زمانه ، ذو الأخلاق

المرضية ، والأحوال الصالحة السنية ، والأعمال الفاضلة الزكية ، أبو عبد الله .

وقال فى حقه المازونى فى أول نوازله : شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ، ذو التواليف العجيبة ، والفوائد الغريبة ، مستوفى المطالب والحقوق ، أبو عبد الله بن مرزوق .

وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد الله التنيسى عند ذكره : إن إمامنا مالكا سئل عن أربعين مسألة فقال فى ست وثلاثين «لا أدرى،وجُنّة العالم لا أدرى[1]» ما نصه : ولم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تَمرَّن على هذه الخصلة الشريفة ويكثر استعمالها غير شيخنا العالم العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبى عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق .

وقال الشيخ أبو الحسن القلصادى فى رحلته : أدركت بتلمسان كثيراً من العلماء والعباد والزهاد والصلحاء ، أولاهم فى الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخُنا و بركتُنا أبو عبد الله بن مرزوق ، حَلَّ كَنَفَ العلم والعلا ، وجل قدره فى الجِلّة والفُضَلا ، قطع الليالى ساهراً ، وقطف من العلم أزاهراً ، فأثمر وأورق ، وغرب وشرق ، حتى توغل فى فنون العلم واستغرق ، إلى أن أطلع للأبصار هلالا لأن الغرب مطلعه ، وسما فى النفوس موضعه وموقعه ، فلا ترى أحسن من لقائه ، ولا أسهل من إلقائه ، لقى الشيوخ الأكابر ، و بقى حَمْده مغترفا من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر ، وكان رضى الله عنه من رجال الدنيا والآخرة ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف ، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة ، وكانت له بالعلم عناية ، تكشف بها العَمَاية[2] ، ودراية ، تعضدها الرواية ، ونباهة ،

---

(١) الجنة - بالضم - الوقاية ، وهو مأخوذ مما ينسب إلى ابن عباس « من ترك لا أدرى أصيبت مقاتله »

(٢) العماية - بفتح العين - أراد الضلالة التى تعمى فيها البصائر

تكسب النزاهة ، قرأت عليه ــ رضى الله عنه ! ــ بعضَ كتابه فى الفرائض وأواخر إيضاح الفارسى وشيئاً من شرح التسهيل ، وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح البخارى والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب الفرعى والتلقين وتسهيل ابن مالك والألفية والكافية وابن الصلاح فى علم الحديث ومنهاج الغزالى و بعض الرسالة وغيرها ، ثم توفى يوم الخميس بعصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة ، وصلى عليه بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة ، وحضر جنازته السلطان فمن دونه ، ولم أر مثلها قبل ، وأسف الناس لفقده ، وآخر بيت سمع منه قبل موته :

إن كان سَفْكُ دمى أقصَى مرادكمُ فما غَلَتْ نَظْرَةٌ منكم بسفك دمى

انتهى ملخصاً .

وفى فهرست ابن غازى فى ترجمة شيخه أبى محمد الورياطى ما صورته : وممن لقى من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العلم العلامة الصدر الأوحد المحقق النظار الحجة العالم الربانى أبو عبد الله بن مرزوق ، وقد حدثنى بكثير من مناقبه وصفة إقرائه ، وقوة اجتهاده ، وتواضعه لطلبة العلم ، وشدته على أهل البدع ، وما اتفق له مع بعضهم ، إلى غيرها من شيمه الكريمة ، ومحاسنه العظيمة ، انتهى.

وقال بعضهم فى حقه : إنه كان يسير سيرة سلفه فى العلم والتخلق والحلم والشفقة وحب المساكين ، آية الله فى الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة واتباع السنة فى الأقوال والأفعال ، ومحبة أهلها فى جميع الأحوال ، مبغضاً لأهل البدع ومحبا سَدَّ الذرائع(١) ، له كرامات ، انتهى .

وأما شيوخه فمنهم العلامة السيد عبد الله الشريف التلمسانى ، وعالم المغرب القاضى سيدى سعيد العقبانى التلمسانى ، والولى العابد الصالح أبو إسحاق سيدى

(١) الذرائع : جمع ذريعة ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشىء ، واشتهرت هذه الكلمة فى لسان أهل الشرع عما يكون وسيلة إلى الشر ، وسد الذرائع باب واسع فى الفقه الإسلامى ، والمراد به ترك مايظن أنه يفضى إلى المحرم

إبراهيم المصمودى ، وأفرد ترجمته بتأليف ، وعن أبيه وعمه ، ويروى عن جده بالإجازة وابن عرفة وأبى العباس القصار التونسى ، وبفاس عن النحوى أبى حيان وأبى زيد المكودى ، وجماعة غيرهما ، وبمصر عن السراج البلقينى ، والزين الحافظ العراقى ، والشمس الغمارى ، والسراج ابن الملقن ، وصاحب القاموس ، والمحب ابن هشام صاحب المغنى ، والنور النويرى ، والولى ابن خلدون ، والقاضى التنيسى ، وغيرهم .

وأخذ عنه جماعة كالثعالبى ، والقاضى عمر القلشانى ، وابن العباس نصر الزواوى ، والولى سيدى الحسن بن كان ، وابنه ، وأبى البركات الغمارى ، وأبى الفضل المشذالى (١) ، وقاضى غَرْنَاطة أبى العباس بن أبى يحيى الشريف ، وإبراهيم بن قائد ، وأبى العباس التدرومى ، وابنه الكفيف ، وسيدى على بن ثابت ، والشهاب ابن كحيل التجانى ، والعلامة أحمد بن يونس القسمطينى ، والعلامة يحيى بن بيدير وأبى الحسن القلصادى ، والشيخ عيسى بن سلامة البكرى ، وغيرهم ، كالحافظ التنيسى التلمسانى .

قلت : وسندى إليه عن عمى الإمام سيدى سعيد المقّرى ، عن الشيخ أبى عبد الله التنيسى ، عن والده الحافظ أبى عبد الله محمد التنيسى المذكور ، عن ابن مرزوق المذكور بكل مروياته وتآليفه .

وقال السخاوى فى حقه : هو أبو عبد الله ، يعرف بحفيد ابن مرزوق ، وقد يختص بابن مرزوق ، وقد تلا لنافع على أبى عثمان الزروالى ، وانتفع فى الفقه بأبى عبد الله بن عرفة ، وأجازه أبو القاسم محمد بن الخشاب ومحمد بن على الحفار الأنصارى ومحمد القيجاطى ، وحج قديماً سنة تسعين وسبعمائة رفيقاً لابن عرفة ، وسمع من البهاء

(١) يقع هذا الاسم أحيانا بالذال المعجمة وأحيانا بالدال المهملة

الدماميني والنور العقيلي بمكة ، وفيها قرأ البخارى على ابن صديق ، ولازم المحب ابن هشام فى العربية ، وكذا حج سنة تسع عشرة وثمانمائة ، والقيه الزيني رضوان بمكة ، وكذا لقيه ابن حجر ، انتهى .

وأما تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة ، وسمى الأكبر « إظهار صدق المودة ، فى شرح البردة » واستوفى فيه غاية الاستيفاء ، وضمنه سبعة فنون فى كل بيت ، والأوسط ، والأصغر المسمى « بالاستيعاب ، لما فيها من البيان والإعراب » ومنها « المفاتيح القراطيسية ، فى شرح الشقراطيسيه » و « المفاتيح المرزوقية ، فى استخراج رجز الخزرجية » ورجز فى علوم الحديث سماه « الروضة » ومختصره فى رجز سماه « الحديقة » ورجز فى الميقات سماه « المقنع الشافى » مشتمل على ألف وسبعمائة بيت ، و « نهاية الأمل ، فى شرح الجمل » أى جمل الخونجى ، و « اغتنام الفرصة ، فى محادثة عالم قفصه » وهو أجوبة عن مسائل فى فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبى يحيى بن عقبة فأجابه عنها ، و « المعراج ، إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج » فى كراسه ونصف ، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطى عن مسائل نحوية ومنطقية ، و « أنوار اليقين ، فى شرح حديث أولياء الله المتقين » وهو حديث أول حلية أبى نُعَيم [1] فى شأن البدلاء وغيرهم ، و « الدليل المومى ، فى ترجيح طهارة الكاغد الرومى » و « النصح الخالص ، فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص » فى سبعة كراريس ، رَدَّ به على عصريه الإمام أبى الفضل قاسم العقبانى فى فتواه فى مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقبانى صنيعهم ، وخالفه هو ، و « مختصر الحاوى فى الفتاوى » لابن عبد النور ، و « الروض البهيج ، فى مسائل الخليج » و « أنوار الدرارى ، فى مكررات البخارى » ورجز تلخيص ابن البناء ،

---

(١) يريد « حلية الأولياء » الذى ألفه الحافظ أبو نعيم الأصفهانى

ورجز تلخيص المفتاح ، نظمه فى حال صغره ، ورجز « حرز الأمانى » ورجز جمل الخونجى ، ورجز اختصار ألفية ابن مالك ، وتأليفه فى مناقب شيخه المصمودى ، وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء ، وهذه كلها تامة .

وأما ما لم يكمل من تآليفه فالمتجر الربيح والسعى الرجيح والمرحب الفسيح فى شرح الجامع الصحيح ، وروضة الأريب فى شرح التهذيب ، والمنزع النبيل فى شرح مختصر الخليل ، شرح منه كتاب الطهارة فى مجلدين ، ومن الأقضية إلى آخره فى سفرين ، وإيضاح السالك ، على ألفية ابن مالك ، إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلد كبير فى قدر شرح المرادى ، وشرح شواهد شراح الألفية إلى باب « كان » مجلد ، وله خطب عجيبة .

وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقا وغربا بدواً وحضراً ، وقد نقل المازونى والونشريسى منها جملة وافرة .

ومن تآليفه أيضا عقيدته المسماة « عقيدة أهل التوحيد ، المخرجة من ظلمة التقليد » و « الآيات الواضحات ، فى وجه دلالة المعجزات » و « الدليل الواضح المعلوم ، فى طهارة كاغد الروم » و « إسماع الصم ، فى إثبات الشرف من قبل الأم » وذكر السخاوى أن من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعى ، وشرح التسهيل ، انتهى .

ومولده كما ذكرنا فى شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشرى ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة قال : حدثتنى أمى عائشة بنت الفقيه الصالح القاضى أحمد بن الحسن المديونى ، وكانت من الصالحات ألفت مجموعا على أدعية اختارتها ، وكانت لها قوة على تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن ، أنه أصابنى مرض شديد أشفيت منه على الموت ، ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلا نادراً ، وكانوا أسمونى أبا الفضل أول الأمر ، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور ، فلما رأى مرضى وما بلغ بى غضب وقال : ألم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل ، ما الذى

رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل ؟ سموه محمدا ، لا أسمع أحداً يناديه بغيره إلا فعلت به وفعلت ، يتوعد بالأدب ، قالت : فسميناك محمدا ، ففرج الله عنك ، انتهى .

ومن فوائده ما حكى فى بعض فتاويه قال : حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عَرَفة رحمه الله تعالى أول مجلس حضرته فقرأ (ومن يَعْشُ (١) عن عن ذكر الرحمن) فجرى بيننا مذاكرات رائقة ، وأبحاث حسنة فائقة ، منها أنه قال : قرىء (يعشو) بالرفع و (نُقَيِّضْ) بالجزم ، ووجهها أبو حيان بكلام مافهمته ، وذكر أن فى النسخة خللا ، وذكر بعضَ ذلك الكلام ، فاهتديت إلى تمامه فقلت : يا سيدى ، معنى ما ذكره أن جزم (نُقَيض) بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط ، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذى لا يشبه لفظُه لفظَ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة ، فوافق رحمه الله تعالى وفرح ، لما أن الإنصاف كان طبعه ، وعند ذلك أنكر علىّ جماعة من أهل المجلس وطالبونى بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط ، فقلت : نصهم على دخول الفاء فى خبر الموصول فى نحو « الذى يأتينى فله درهم » من ذلك ، فنازعونى فى ذلك ، وكنت حديثَ عهدٍ بحفظ التسهيل ، فقلت : قال ابن مالك فيما يشبه المسألة : وقد يجزم متسبب عن صلة الذى تشبيها بجواب الشرط ، وأنشدت من شواهد المسألة قولَ الشاعر :

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما ... تُصِبْهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعْ

فجاء الشاهد موافقا للحال ، انتهى بنقل تلميذه المازونى .

---

(١) يعش عن ذكر الرحمن : يصدف عنه وينصرف إلى غيره ، ونقيض : نهيء ، و« من » فى صدر الآية يجوز أن تكون شرطية فالفعلان مجزومان ، ويجوز أن تكون موصولة فالفعلان مرفوعان ، فإذا قرىء (يعشو) بالرفع و (نقيض) بالجزم ، كما حكى ، احتاجت هذه القراءة إلى التخريج ، وهو ما ذكره

وقد ذكر الشيخ ابن غازى الحكاية فى فهرسته فى ترجمة شيخه الأستاذ الصغير ، وفيها بعض مخالفة لما تقدم ، فلنَسُقه ، قال : حدثنى أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرس من صلاة الغدَاة إلى الزوال ، يقرأ فنونا ، ويبتدىء بالتفسير ، وأن الإمام ابن مرزوق أوّل ما دخل عليه وَجَده يفسر هذه الآية (ومن يعش عن ذكر الرحمن) فكان أوّل ما فاتحه أن قال له : هل يصح كون (من) هنا موصولة ؟ فقال ابن عرفة : كيف وقد جزمت ؟ فقال له : تشبيها لها بالشرط ، فقال ابن عرفة : إنما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد من كلام العرب ، فقال : أما النص فقول التسهيل كذا ، وأما الشاهد فقول الشاعر :

فلا تحفِرَنْ بئراً تريد أخا بها ... فإنك فيها أنت مِنْ دُونِهِ تقَعُ[1]

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما ... تُصِبْهُ على رغم عواقب ماصنع

فقال ابن عرفة : فأنت إذًا ابنُ مرزوق ، قال : نعم ، فرحب به ، انتهى . وهو خلاف ما تقدم ، والأول أصوب لنقل غير واحد أن جزم الموصولات إنما يكون فى الجواب ، لافى الشرط ، والله تعالى أعلم .

وفى بعض المجاميع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انفصل المجلس .

ومن فوائده أنه كان يصرف لفظ « هريرة » من « أبى هريرة » بناء على أن جزء العلَم غيرُ علم ، وخالفه أهل فاس فى ذلك لما بلغهم ، ومال الأستاذ الصغير والحافظ القورى إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها ، ومنها قول ابن مالك

* ولا ضطرار كبَنَاتِ الأوبر *

فإنه مؤذن بأن جزء العلم عَلَمٌ ، وقد ألف فى المسألة أبو العباس تأليفا سماه « الاعتراف ، فى ذكر ما فى لفظ أبى هريرة من الانصراف » انتهى .

ومن نظمه :

---

(١) أخذ هذا البيت من قولهم « من حفر بئرا لأخيه وقع فيها »

بلد الجدار ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهواها
ياعاذلى كن عاذرى فى حبها يكفيك منها ماؤها وهواها

ويعنى ببلد الجدار تلمسان ، ولذلك قال فى رجز فى علم الحديث ما صورته :

وأهلها أهل ذكاء وفطن فى رابع من الأقاليم قُطِنْ[1]
يكفيك أن الداودى بها دفن مع ضجيعه ابن غزلون الفطن

قلت : وحدثنى عمى الإمام سيدى سعيد المقَّرى — رحمه الله تعالى ! — أن العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس فى بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم فى التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب — الآية) وأرادوا بذلك إفحام الشيخ ، والتعريض به ، فوجم هنيهة ، ثم تفجر بينابيع العلم ، إلى أن أجرى ذكر ما فى الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عَدَّ من ذلك جملة ، ثم قال فى آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خصلة ذميمة ، وهى إنكاره للضيف ، ثم افترق المجلس ، وأخبرنى أنه أطال فى ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر ، وقد طال عهدى بالحكاية ، وإنما نقلتها بمعناها من حفظى ، وهى من الغرائب . ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصة فى الحجاز حسبما ذكره فى مناقب شيخه المصمودى ، رحم الله الجميع ! .

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين ، فنقول :

أبو الحسن ابن الجياب

ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن على ابن الجياب ، وهو كما فى

---

(١) فطن — بكسر الفاء وفتح الطاء — جمع فطنة ، وهى توقد الذهن والتنبه إلى غوامض الأمور ، وقطن — بالبناء للمجهول — سكن

« الإحاطة » على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان بن الحسن ، الأنصارى ، الغرناطى ، أبو الحسن ، قال : وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ . ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى ، وخلق ، قال : وقد دونت شعره ، فمن معشراته قوله فى حرف الجيم :

جريئاً على الزلاَّت غير مفكر ... جبانا على الطاعات غير معرج
جمعت لما يفنى اغتراراً بجمعه ... وضيعت ما يبقى سجية أهوج
جنوناً بدار لا يدوم سرورها ... فدعها سُدًى ليست بعُشِّكِ فادْرُجِى (١)
جيادك فى شأو الضلال سوابق ... تفوت مدى سن الوجيه وأعوج (٢)
جهلت سبيل الرشد فاقصد دليله ... تجد دار سعد بابها غير مُرْتَجِ
جناب رسول ساد أولاد آدم ... وقرب فى السبع الطباق بمَعْرَجِ
جمال أنار الأرض شرقاً ومغرباً ... فكل سَنًى من نوره المتبلج
جلا صدأ المرتاب أن سبح الحصى ... لديه بنطقٍ ليس بالمتلجلج
جعلت امتداحى والصلاة عليه لى ... وسائلَ تُحْظِينِى بما أنا مرتَجِ

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية :

هات اسقنى صِرْفاً بغير مزاج ... راحى التى هى راحتى وعلاجى
إن صب منها فى الزجاجة قطرة ... شفَّ الزجاج عن السنى الوهاج
وإذا الخليع أصاب منها شربة ... حاجاه بالسر المصون مُحَاجِى
وإذا المريد أصاب منها جرعة ... ناجاه بالحق المبين مناجى
تاهت به فى مهمهٍ لا يهتدى ... فيه لتأويب ولا إدلاج
يرتاح من طرب بها فكأنما ... غنتـه بالأرمال والأهزاج

---

(١) ورد فى مثل قولهم « ليس بعشك فادرجى » يضرب لمن يقحم نفسه فيما ليس من شأنه
(٢) الوجيه وأعوج : فرسان من جياد خيل العرب

هبت عليــــه نفحة قدسية ... فى فَىْء باب دائم الإرتاج[1]
فإذا انتشى يوماً وفيــه بقية ... سارت به قصداً على المنهاج
وإذا تمكن منه سكرُ مُعَرْبِدٍ ... فليصبرن لمصرع الحلاج
قصرت عبارة فيه عن وجدانه ... فغدا يفيض بمنطق لَجْلَاجِ
أعشــاه نور للحقيقة باهر ... فتراه يخبط فى الظلام الداجى
رام الصعود بها لمركز أصله ... فرمَتْ به فى بحرها المواج
فلئن أمد برحمة وسعادة ... فليخلصن من بعد طول هياج
وليرجعن بغنيمة موفورة ... ما شِيبَ عَذْبُ شرابها بأجاج[2]
ولئن تخطاه القبول لما جنى ... فليرجعن نكساً على الأدراج
ما أنت إلا درة مكنونة ... قد أودعت فى نطفة أمْشَاجِ[3]
فاجهد على تخليصها من طبعها ... تعرج بها فى أرفع المعراج
واُشدد يديك معاً على حبل التقى ... فإن اعتصمت به فأنت الناجى
ولدى العزيز اُبسط بساط تذلل ... وإلى الغنى اُمدد يد المحتاج
هـذا الطريق له مقدمتان صا ... دقتان أنتجتا أصَحَّ نتاج
فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى ... واقنع من الإسهاب بالإدماج
حرفان قد جمعا الذى قد سطروا ... من بسط أقوال وطول حِجَاج
والمشرب الأصفى الذى مَنْ ذاقه ... فقد اهتدى منه بنور سراج
أن لا ترى إلا الحقيقة وحدها ... والكل مضطر إليها لاجى
هذى بدائع حكمة أنشأتها ... بإشارة المولى أبى الحجاج
وسع الأنام بفضله وبعدله ... وبحمله وبجوده الثجاج

---

(١) أرتج الباب : أوصده وأغلقه (٢) الماء الأجاج ـ بالضم ـ الملح
(٣) نطفة أمشاج : مختلطة ، وصفت بالجمع كما فى قولهم : ثوب أخلاق ، وبرد أسمال ، وبرمة أعشار ، وفى القرآن الكريم (من نطفة أمشاج)

من آل نصر نخبة الملك الرضا أمْنُ المروّع هُمْ وغيثُ الراجى
من آل قيلة ناصرى خير الورى والخلق بين تخاذل ولجاج
ماذا أقول وكل قول قاصر فى وصف بحر زاخر الأمواج
منـه لباغى العُرْفِ در فاخر ولمن يعادى الدين هَوْلٌ فاجى(١)
دامت سعودك فى مزيد ، والمنى تأتيك أفواجاً على أفواج

وقال من المطولات :

لمن المطايا فى السراب سوابحا تَفْلِى الفلاة غواديا وروائحـا
عُوجٌ كأمثال القسىّ ضوامر يرمين فى الآفاق مَرْمَي نازحا(٢)

وقال يمدح ، ويصف مصنعاً سلطانياً :

زارت تجر لنحوه أذيالهـا هيفاء تخلط بالنِّفار دَلاَلَهَا
فالشمس من حسد لها مصفرة إذ قَصَّرَتْ عن أن تكون مثالها
وافتك تمزج لينها بقساوة قد أدرجَتْ طى العتاب نوالَهَا
كم رمت كتم مزارها لـكنه صحت دلائل لم تطق إعلالها
تركت على الأرجاء عند مسيرها أرَجاً كأن المسك فُتَّ خلالها
ما واصلتك محبـة وتفضلا لو كان ذاك لواصلت أفضالها
لـكن توقعتِ السلو فجددت لك لوعة لا تتقى ترحالهـا
فوحبهـا قسما يحق بروره لتجشمنك فى الهوى أهوالها
حَسَّنَت نظم الشعر فى أوصافها إذ قبحت لك فى الهوى أفعالها
يا حسن ليلة وصلها ، ما ضرها لو أتبعت من بعدها أمثالها
لما سكرت بريقها وجفونها أهملت كأسك لم ترد إعمالها

---

(١) فاجى : أصله فاجيء – بالهمز – فسهلت الهمزة بقلبها ياء ، وفاجيء : اسم فاعل من « فجأه يفجؤه » إذا باغته وجاءه فجأة

(٢) عوج : جمع أعوج ، وأراد انحناء ظهورهن من طول ما سارت ، وتشبيه المطايا بالقسى كثير فى شعر العرب ، ومرمي : مكان الرمى ، ونازحا : بعيدا

هذا الربيع أتاك ينشر حسنه فافسح لنفسك فى مَدَاه مجالها
واخلع عذارك فى البطالة جامحاً وأُقرن بأسحار الهنا آصالها
فى جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس لدى الزفاف جمالها
شكرت أيادى للحيا شكر الورى شرف الملوك همامها مفضالها
وصميمها أصلا وفرعا خيرها ذاتا وخلقا سمحها بَذَّالَهَا(١)
الطاهر الأعلى الأمين المرتضى بحر المكارم غيثها سلسالها
حاز المعالى كابراً عن كابر وجرَى لغايات الكرام فنالها
إن تلقه فى يوم بذلِ هِبَاتِهِ تلقى الغمائم أرسلت هطالها(٢)
أو تلقه فى يوم حرب عداته تلقى الضَّراغم فارقت أشبالها
ملك إذا ما صال يوما صولة خِلْتَ البسيطة زلزت زلزالها
فبسَيْبِهِ وبسيفه نلت المنى واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها فكفى العفاة سؤالها ومِطالها
والقاتلُ الآلاف قبل قراعها فكفى العداة قِراعها ونزالها
إن قلت بحر كفه قصرت إذ شبهت بالملح الأجاج نوالها
ملأ البسيطة عدله وأمانه فالوحش لا تعدو على مَنْ غالها(٣)
وسقى البرية فيض كفيه فقد عم البلاد سهولها وجبالها
جمع العلوم عناية بعيونها آدابَهَا وحسابها وجِدَالَهَا
منقولها معقولها ، وأصولها وفروعها ، تفصيلها إجمالها
فإذا عُفَاتك عاينوك تهللوا لما رأوا من كفك استهلالها
وإذا عداتك أبصروك تيقنوا أن المنية سلطت رِيبَالَهَا(٤)

(١) بذال : صيغة مبالغة لباذل ، وتقول : بذل يبذل — من باب نصر — أى أعطى
(٢) هطال: صيغة مبالغة هاطل ، وتقول «هطل المطر» من باب جلس — إذا تتابع
(٣) تعدو : تسطو ، وغالها : أراد قتلها (٤) الريبال : الأسد

بددت شملهم ببيض صوارم روِيت من علق الكماة نصالها[1]
وأبحت أرضهم فأصبح أهلها خَوَراً تغادر نهبة أموالها[2]
فتحت إمارتكَ السعيدة للورى أبوابَ بشرى واصلت إقبالها
وبَنَتْ مصانع رائقات ذَكَّرَتْ دار النعيم جنانها وظلالها
وأجلها قدراً وأرفعها مدى هذا الذى سامَى النجومَ وطالَهَا
هو جنة فيها الأمير مخلد بلغت إمارته بها آمالها
ولأرض أندلس مفاخر أنتم أربابها أضفيتُمُ سِرْبالَهَا[3]
فحميتمو أرجاءها ، وكفيتمو أعداءها ، وهديتمو ضلالها
فبآل نصرٍ فاخرت لا غيرهم لم تعتمد من قبلهم أقيالها[4]
بمحمد ومحمد ومحمد قصرت على الخصم الألد نِضَالَهَا
فهم الألى ركبوا لكل عظيمة جُرْداً كسين من النجيع جِلاَلَهَا
وهم الألى فتحوا لكل ملمة باباً أزاح بفتحه إشكالها
متقلدون من السيوف عضابها متأبطون من الرماح طوالها
الراكبون من الجياد عِرابها والضاربون من العدا أبطالها
أو َّ عهد المسلمين ونخبة الأملاك صفوة مَحْضها وزلالها
إن العباد مع البلاد مُقِرة بفضائل لك مهدت أحوالها
فتفكُّ عانيها وتحمى سِرْبَها وتفيد حلماً دائماً جُهَّالَهَا

وقال يرثى ولده أبا القاسم رحمهما الله تعالى :

هو البين حتما ، لا لعل ولا عسى فما بالُ نفسى لم تَفِضْ عنده أسى
وما لِفُؤادى لم يذب منه حسرة فَتَبًّا لهذا القلب سَرْعَانَ ما قسا

(١) العلق ، هنا : الدم، والكماة : جمع كمى، وهو الفارس المتكمى (المتغطى) بسلاحه
(٢) خورا : جبنا ، وهو مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله
(٣) أضفيتم سر بالها : جعلتم ثوبها ضافيا ، أى ساترا يغطى كل الجسم ، وهو مجاز
(٤) الأقيال : جمع قيل ، وهو الذى يقول فلا يجسر أحد أن يرد قوله

ومالجفـونى لا تفيض مُوَرَّداً … من الدمع يهمى تارة ومُوَرَّسا(١)
وما للسانى مفصـحاً بخطابه … وما كان لو أوفى بعهـد ليَنْبِسا(٢)
أمن بعدما أودعت روحى َ فى الثرى … ووسَّدْتُ منى فلذة القلب مرمسا(٣)
وبعد فراق ابنى أبى القاسم الذى … كسانى َ ثوب الثكل لا كان ملبسا
أؤمل فى الدنيا حياة وأرتضى … مقيـلا لدى أبنائها ومعرسا(٤)
فآها وللمفجوع فيها استراحـة … ولا بد للمصدور أن يتنفسا
على عُمُرٍ أفنيت فيـه بضاعتى … فأسلمنى للقبر حيران مفلسا
ظللت به فى غفـلة وجهالة … إلى أن رمى سهم الفراق فقرطسا
إلى الله أشكو بَرْحَ حزنى فإنه … تلبس منـه القلب ما قد تلبسا
وهَدَّة َ خطب نازلتـنى عشية … فما أغنت الشكوى ولا نفعَ الأسا
فقد صَدَّعَتْ شملى وأصمَتْ مقاتلى … وقد هدمت ركنى الوثيق المؤسسا
ثبت لها صـبرا لشدة وقعها … فما زلزلت صبرى الجميل وقد رسا
وأطمع أن يلقى برحمتـه الرضا … وأجزع أن يشقى بذنب فينكسا
أبا القاسم اسمع شكو والدك الذى … حسا من كؤس البين أفظع ما حسا
وقفت فؤادى مذ رحلت على الأسى … فأشهد لا ينفك وقفاً محبَّسا
وقطَّعت آمالى من الناس كلهم … فلست أبالى أحسن المرء أم أسا
تواريت يا شمسى وبدرى وناظرى … فصار وجودى مذ تواريْتَ حِنْدِسَا
وخلفت لى عِبْئًا من الثكل فادحا … فما أتعب الثكلان نفساً وأتعسا
أحقاتوى ذاك الشباب فلا أرى … له بعد هـذا اليوم حولىَ مجلسا
فيا غُصُناً نضراً ثوى عندما استوى … فأوحشنى أضعاف ما كان آنسا

---

(١) مورد : أخذلون الورد وهو الحمرة ، ومورس : أخذلون الورس وهو الزعفران
(٢) نبس فلان : نطق ، و « لم ينبس فلان ببنت شفة » لم ينطق بكلمة واحدة
(٣) مرمسا : موضوعا فى الرمس ، وهو القبر . (٤) المقيل : المكان تقيل فيه وقت القيلولة (نصف النهار عند اشتداد الحر) والمعرس : المكان تنزل فيه ليلا

ويا نعمة لما تبلغتها انقضت ... فأنعمُ أحوالى بها صار أبأسا
لَوَدَّعْتُه والدمع تهمى سحابهُ ... كما أسلم السلك الفريد المخمسا
وقبلت فى ذاك الجبين مودعا ... لأكرم من نفسى على وأنفسا
وحققت من وجدى به قرب رحلتى ... وما ذا عسى أن ينظر الدهرمَنْ عسا (١)
فيا رحمة للشيب يبكى شبيبة ... قياسٌ لعمرى عَكْسُه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فدية ... حَبَوْناه أموالا كراماً وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب ... يُسَلِّم فيه من بخير الورى ائتسى (٢)
تغمدك الرحمن بالعفو والرضا ... وكرم مَثْوَاكَ الجديد وقدسا
وألف منا الشمل فى جنة العلا ... فنشرب تسنيما ونلبسُ سندسا

وكتب إلى القاضى الشريف وهو بوادى آش :

أهزلا وقد جَدَّتْ بك اللمة الشمطا ... وأمناً وقد ساورت يا حية رَقْطَا (٣)
أغرك طول العمر فى غير طائل ... وسَرَّكَ أن الموت فى سيره أبطا (٤)
رويداً فإن الموت أسرعُ وافدٍ ... على عمرك الفانى ركائبه حطا
فإذ ذاك لا تسطيع إدراك مامضى ... بحال ، ولا قبضاً تطيق ولا بسطا
تأهَّبْ فقد وافى مشيبك منذراً ... وها هو فى فَوْدَيْكَ أحْرُفَه خطا
فرافقت منه كاتب السرواشياً ... له القلم الأعلى يخط به وخطا
معمى كتاب فكُّه «احذر» فهذه ... سفينة هذا العمر قاربت الشطا
وإن طالما خاضت به اللجَجَ التى ... خبطت بها فى كل مهلكة خبطا
ومازلت فى أمواجها متقلباً ... فآونة رفعاً وآونة حَطَّا
فقد أوشكت تلقيك فى قعر حفرة ... تشد عليك الجانبين بها ضغطا

---

(١) عسا الرجل يعسو : شاخ وكبر . (٢) ائتسى : اقتدى .
(٣) اللمة الشمطا : التى وخطها الشيب ، والحيه الرقطاء : المرقشة ، وهى من أخبث الحيات . (٤) أبطا : أصله أبطأ ، أى تأخر .

ولست على علم بما أنت بعدها ملاق، أرضوانا من الله أم سخطا؟
وأعجب شيء منك دعواك فى النهى وهذا الهوى المردى على العقل قد غَطَّى
قسطت عن الحق المبين جهالة وقد خالفتك النفس فادعت القسطا(١)
وطاوعْتَ شيطانا تجيب إذا دعا وتَقْبَلُ إن أغوى وتأخذ إن أعطى
تناءى عن الأخرى وقد قربت مدى تدانى من الدنيا وقد أزمعت شحطا(٢)
وتمنحها حباً وفرط صبابة وما منحت إلا القَتادة والخرطا(٣)
فها أنت تهوى وَصْلَها وهى فارك وتأمل قرباً من حِماها وقد شطا
صراط هدى نَـكَّبت عنه عماية ودار ردًى أودعت فى سجنها سرطا
فمالك إلا السيد الشافع الذى له فضل جاهٍ كل ما يَرْتجِى يعطى
دليل إلى الرحمن، فانهج سبيله فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطا
محبته شرط القبول، فمن خلت صحيفته منها فقدْ فَقَدَ الشرطا
وما قُبِلت منه لدى الله قربة ولا زكت الأعمال، بل حبطت حبطا
به الحق وضاح، به الإفك زاهق به الفوز مرجو، به الذنب قد حطا
هو الملجأ الأحمى هو الموئل الذى به فى غد يستشفع المذنب الخطا
لقد مازجتْ روحى محبته التى بقلبى خطت قبل أن أعرف الخطا
إليك ابنَ خير الخلق بنتَ بديهة تُقَبِّلُ تبجيلا أناملك السبطا
وحيدة هذا العصر وافت وحيدة لتبسط من شتَّى بدائعها بسطا
وتتلو آيات التشيع إنها لموثقة عهداً ومحكمة ربطا
لك الشرف المأثور يا ابن محمد وحسبك أن تنمى إلى سبطه سبطا
إلى شرفَىْ دين وعلم تظاهراً تبارك من أعطى و بورك فى المعطى

---

(١) قسطت : جرت وانحرفت ، وفى التنزيل : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) . (٢) الشحط : البعد (٣) يشير إلى قولهم فى مثل « دون هذا خرط القتاد » والقتاد — بفتح القاف — الشوك ، وخرطه : أن تملطه بيدك .

ورهطك أهل البيت بيت محمد　　فأعظم به بيتا وأكرم به رهطا
بعثت به عقدا من الدر فاخرا　　وذكر رسول الله درته الوُسْطى (١)
وأهـــديت منها للسيادة غادة　　نظمت من الدر الثمين بها سِمْطَا
وحاشيتها من كل ما شانها ، فإن　　تجعد حُوشِيِ تجد لفظها سبطا
وفى الطيبين الطاهرين نظمتها　　فساعَدَهَا من أجل ذلك حرف الطا
عليك ســلام الله ما ذَرَّ شارق　　وما رددت ورقاء فى غصنها لغطا (٢)

وقال :

لله عصر الشباب عصرا　　فَتَّحَ للخــير كل باب
حَفِظْتُ ماشئت فيه حفظا　　كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى　　نَدَّ ولكن بلا إياب (٣)
لا تعتنوا بعــدها بحفظ　　وقيدوا العلم بالكتاب

وقال :

يا أيها الممســك البخيل　　إلهُكَ المنفق الكفيل
أنفق وثق بالإله تَرْبَحْ　　فإن إحسانه جزيل
وقـدم الأقربين واذكر　　ما رُوِىَ ابْدَأْ بمن تَعُولُ (٤)

وقال :

وقائلة لِمْ عــراكَ المشيب　　وما إن بعهد الصبا من قدم
فقلت لها لم أشِبْ كبرة　　ولكنه الهم نصف الهرم

وقال :

أيعتادنى سقم وأنت طبيب　　وتبعد آمالى وأنت قريب

---

(١) وسطى حبات القلادة : أكبرها ، وأفضلها جوهرا ، وأنفسها .
(٢) ذر : طلع ، والشارق : كل ما أضاء من نجم أو بدر . (٣) ند : شرد ونفر
(٤) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول » .

يقينىَ أن الله جل جلاله يقينى فراجى الله ليس يخيب (١)

وقال :

هى النفس إن أنت سامحتها رمت بك أقصى مَهَاوى الخديعه
وإن أنت جشمتها خطة تنافى رضاها تجدها مطيعه
فإن شئت فوزا فناقض هواها وإن واصلتْكَ أجزها القطيعه
ولا تعبأن بميعادها فميعادها كسَرَاب بقِيعَهْ

وقال :

من أنت يا مولى الورى مقصوده طوبى له قد ساعدته سعوده
فليشهدنك له فؤاد صادق وشهوده قامت عليه شهوده
وليفنين عن نفسه ورسومه طرا ، وفى ذاك الفناء وجوده
وليحفظنه بارق يرقى به فى أشرف المعراج ثم يعيده
حتى يظل وليس يدرى دهشة تقريبه المقصود أم تبعيده
لكنه ألقى السلاح مسلما فمراده ما أنت منه تريده
فلقد تساوى عنده إكرامه وهَوَانُه ومفيده ومبيده

وقال ملغزا فى حجل :

حاجيت كل فطن لبيب ما اسم لأنثى من بنى يعقوب
ذات كرامات فزرها قربة فزورها أحق بالتقريب
تشركها فى الأُسم أنثى لم تزل حافظة لسرها المحجوب
وقد جرى فى خاتم الوحى الرضا لها حديث ليس بالمكذوب
وهو إذا ما الفاء منه صحفت صبغ الحياء لا الحيا المسكوب

---

١) اليقين فى أول البيت : الإدراك الجازم ، ويقينى فى أول النصف الثانى مضارع « وقاه الله وقاية » أى حفظه ، وبين اللفظين جناس تام

فها كها واضحـــة أسرارها   فأمرها أقرب من قريب

وقال أيضا فى آب :

حاجيتكم ما اسْمٌ عَلَمْ   ذو نسبة إلى العجم
يخـبر بالرجعة وهو   راجع كما زعم
وصف الحبيب هو بالتصحيف   أو بدء قسم
دونكه أوضح من   نار على رأس علم

وقال فى كانون :

وما اسم لسميين   ولم يجمعهما جنس (١)
فهـــذا كلما يأتى   فبالآخر لى أنس
وهذا ما له شخص   وهـذا ما له حس
وهـذا ما له سَوْم   وذا قيمتـه فلس
وهذا أصله الأرض   وهذا أصله الشمس
وهذا واحد من سبعة   تحيا بها النفس
فمن محموله الجن   ومن موضوعه الإنس
فقد بان الذى ألغز   ت ما فى أمره لبس

وقال فى سلم :

ما اسم مركب مفيـد الوضع   مستعمل فى الوصل لا فى القطع
ينصب لـكن أكثر استعمال من   يعنى به فى الخفض أو فى الرفع
هو إذا خففته مغـيرا   تراه شمـلا لم يزل ذا صـدع
فالاسم إن طلبته تجده فى   خامسة من الطوال السبع

---

(١) الـكانون : موقد النار ، وكانون : شهر من الشهور الرومية يجىء فى الشتاء ، فهذان سمياه ، وإذا جاء شهر كانون كان له بكانون النار أنس ، فتفهم ذلك

وهو إذا صحفته يعرب عن مكسر فى غير باب الجمع
له أخ أفضل منه لم تزل آثاره محمودة فى الشرع(١)
هما جميعاً من بنى النجار والأفضل أصل فى حنين الجذع
فهاكه قد سطعت أنواره لاسيما لكل ذاكى الطبع

وقال فى مائدة:

حاجيت كل فطِنٍ نظار ما اسم لأنثى من بنى النجار
وفى كتاب الله جاء ذكرها فقلما يغفل عنها القارى
فى خَبَرَ المهدى فاطلبها تجد إن كنت من مطالعى الأخبار
ما هى إلا العيد عيد رحمة ونعمة ساطعة الأنوار
يشركها فى الاسم وصف حسن من وصف قضب الروضة المعطار
فهاكه كالشمس فى وقت الضحى قد شق عنها حجب الأستار

ثم قال لسان الدين: وأما نثره فمطوّلات عرفت بما تخللها من الأحوال متونها، وقلت لمكان البديهة والاستعجال عيونها، وقد اقتنصت جزأ منها سميته «تافه من جم، ونقطة من يم» وولد بغرْناطة فى جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين وستمائة، وتوفى ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة، وأنشدت من نظمى فى رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة:

ما لليراع خواضِعَ الأعناق طَرَقَ النعىُّ فهن فى إطراق
وكأنما صبغ الشحوبُ وجوهها والسقم من جزع ومن إشفاق
ما للصحائف صوّحت روضاتها أسفا وكن نضيرة الأوراق
ما للبيان كؤسه مهجورة غفل المدير لها ونام الساقى

(١) الأخ الأفضل هو المنبر، وآثاره وهى المواعظ محمودة فى الشرع، والسلم والمنبر جميعا من عمل النجار، والمنبر أصل فى حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه حينما صنع له المنبر ورقاه أول مرة سمع للجذع الذى كان يخطب عليه قبل حنين، فنزل عليه الصلاة والسلام من المنبر والتزم الجذع وضمه، فسكن

مالى عدمت تجلدى وتصبرى والصبر فى الأزمات من أخلاقى[١]
خطب أصابَ بنى البلاغة والحجا شب الزفير به عن الأطواق[٢]
أما وقد أودى أبو الحسن الرضا فالفضل قد أودى على الإطلاق
كنز المعارف لا تبيد نقوده يوما ولا تفنى على الإنفاق
مَنْ للبدائع أصبحت سمر السرى ما بين شام للورى وعراق
مَنْ لليراع يجيل من خَطِّيها سم العدا ومفاتح الأرزاق
قُضْب ذوابل مثمرات بالمنى وأراقم ينفثن بالترياق
مَنْ للرقاع الحمر يجمع حسنها خجل الخدود وصبغة الأحداق
تغتال أحشاء العدو كأنها صفحات دامية الغرار رقاق
وتهزُّ أعطاف الولىِّ كأنها راح مشعشعة براحة ساقى
مَنْ للفنون يجيل فى ميدانها خيل البيان كريمة الأعراق
مَنْ للحقائق أبهمت أبوابها للناس يفتحها على استغلاق
مَنْ للمساعى الغر تقصد جاهه حرما فينصرها على الإخفاق
كم شد من عَقْدٍ وثيق حكمه فى الله أو أفتى بحل وثاق
رَحْب الذراع بكل خَطْب فادح أعيت رياضته على الحذاق
صعب المقادة فى الهوادة والهوى سهل على العافين والطرّاق
ركب الطريق إلى الجنان وحُورها يلقينه بتصافح وعناق
فأعجب لأنس فى مظنة وحشة ومقام وصل فى مقام فراق
أمطيناً بمحامد العمل الرضا ومكفنا بمكارم الأخلاق
ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى رضوى نسير به على الأعناق

(١) التجلد : تكلف الصبر ، والأزمات : جمع أزمة ، وهى كل ما نزل فشق التخلص منه

(٢) أخذ هذه العبارة من قولهم فى مثل « شب عمرو عن الطوق » أى لم يعد الطوق يصلح له

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن اللحود خزائن الأعلاق(١)
يا كوكب الهدى الذى من بعده ركد الظلام بهذه الآفاق
يا واحداً مهما جرى فى حَلْبة جَلَّى بغرة سابق السُّبَّاقِ
يا ثاويا بطنَ الضريح وذكْرُهُ أبداً رفيقُ ركائب ورفاق
يا غَوْثَ من وصل الصريخ فلم يجد فى الأرض من وَزَر ولا من واق
ما كنت إلا ديمة منشورة من غير إرعاد ولا إبراق(٢)
ما كنت إلا روضة ممطورة ما شئت من ثمر ومن أوراق
يا مزمعا عنا العشى ركابه هلا ثَوَيْتَ ولو بقدر فُوَاق(٣)
رفقاً أبانا جل ما حملتنا لا تنس فينا عادة الإشفاق
واسمح ولو بمزار لقى فى الكرى تُبْقِى بها منا على الأرماق
وإذا اللقاء تصرمت أسبابه كان الخيال تَعِلَّةَ المشتاق
عجباً لنفس ودعتك وأيقنت أن ليس بعد نَوَاكَ يوم تلاقى
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى فى فضل كأس قد شربت دِهَاقِ
إن قصرت أجفاننا عن أن ترى تبكى النجيع عليك باستحقاق
واستوقفت دهشاً فإن قلوبنا نهضت بكل وظيفة الآماق
ثق بالوفاء على المَدَى من فتية بك تقتدى فى العهد والميثاق
سَجَعَتْ بما طوقتها من منة حتى زَرَتْ بحمائم الأطواق
تبكى فراقك خلوةٌ عمرتها بالذكر فى طَفَل وفى إشراق
أما الثناء على عُلاكَ فذائع قد صح بالإجماع والإصفاق
والله قد قرن الثناء بأرضه بثنائه من فوق سبع طِبَاقِ

(١) اللحود : أرادالقبور ، والأعلاق : النفائس التى يضن بها
(٢) أصل الديمة السحابة يدوم مطرها ، شبهه بها ، ثم فرق بينهما بما يجعله خيرا منها
(٣) ثوى : أقام ، و « قدر فواق » بضم الفاء بزنة غراب — يضرب مثلا فى قصر المدة

جادت ضريحك ديمة هطالة   تبكى عليه بواكف رَقْراقِ
وتغمدتك من الإله سعادة   تسمو بروحك للمحل الراقى
صبراً بَنِى الجيـان إن فقيدكم   سيسر مقـدمه بمـا هو لاقِ
و إذا الأسى لفح القلوبَ أُوارُهُ   فالصبر والتسليم أى رواق(١)

وأنشد فى هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله بن جُزَى :

ألم تر أن المجـد أقوت معالمه   فأطنابه قد قُوِّضَتْ ودعائمه
هوى من سماء المعلوات شهابها   وخانَتْ جواد المكرمات قوائمه
وثلت من الفخر المشيد عروشه   وفلت من العز المنيع صوَارمه
وعُطِّل من حلى البلاغة قُسُّها   وعُرِّىَ من جود الأنامل حاتمه(٢)
أجل إنه الخطب الذى جل وقعه   وثلم غرب الدين والعلم دَاهِمُهْ
وإلافمـــــا للنوم طار مَطَاره   وما للزَيمِ الحزن قصت قوادمه
وما لصباح الأنس أظلم نوره   وما لمحيـا الدهر قَطَّبَ باسمـه
وما لدموع العين فُضَّتْ كأنهـا   فواقع زهر والجفون كمائمه(٣)
قضى الله فى قطب الرياسة أن قضى   فشتت ذاك الشمل مَنْ هو ناظمه
ومن قارع الأيام سبعين حجة   ستنبو غراراه ويندق قائمه
وفى مثلها أعيا النطاسىَّ طبه   وضل طريق الحزم فى الرأى حازمه
تساوى جواد فى رداه وباخل   فلا الجود واقيه ولا البخل عاصمه
وما نفعت رب الجياد كرامه   ولا منعت منـه الغنى كرائمه
وكل تلاق فالفراق أمامه   وكل طلوع فالغروب ملازمـه
وكيف مجال العقل فى غير مَنْفَذ   إذا كان بانى مَصْنع هو هادمه

(١) الأسى : الحزن ، والأوار — بضم الهمزة — وهجه وحره

(٢) قس الإيادى : خطيب جاهلي مشهور ، وهو مضرب المثل فى الفصاحة ، وحاتم الطائى مضرب المثل فى الجود (٣) الكمام : غلاف الزهر ، واحدها كمامة

ليبْك علياً مستجير بعدله ... يصاح لشكواه ويمنع ظالمه
ليبك علياً مائح بحرَ علمه ... يُرْوَّى بأنواع المعارف هائمه
ليبْك عليا مُظْهر فضل نصحه ... يحلّأ عن وِرْد المآثم حائمُهْ(١)
ليبك علياً معتفٍ جودَ كفه ... يواسيه فى أمواله ويقاسمه(٢)
ليبك علياً ليلُه وهو قائم ... يكابده أو يومُه وهو صائمه
ليبك علياً فضل كل بلاغة ... يخلده فى صفحة الطرس راقمه
وشخص ضئيل الجسم يرهب نفثه ... ليوث الشرى فى خيسها وضراغمه(٣)
تكفّل بالرزق المقدر للورى ... إذا الله أعطى فهو فى الناس قاسمه
يسددهُ سهما وينضوه صارما ... ويَشْرَعه رمحاً فكل يلائمه
إذا سال من شقيه سائلُ حبره ... بما شاء منه سائل فهو عالمه
ليبك عليه اليوم مَنْ كان باكيا ... فتلك مغانيه خلَتْ ومعالمه
تقلد منه الملك عَضْبَ بلاغة ... يقد السلوقى المضاعف صارمه
وقلده مثنى الوزارة فاكتفى ... بها ألْمعى حازم الرأى عازِمُهْ
ففى يده وهو الزعيم بحقها ... براعته والمشرفىّ وخاتمه
سخى على العافين سهلٌ قيادُه ... أبى على العادين صعب شكائمه
إذا ضلت الآراء فى ليل حادث ... رآها برأى يصدع الخطب ناجمُهْ
وقام بأمر الدين والملك حاميا ... فذل معاديه وضل مراغمه
وقد كان نِيطَ العلم والحلم والتقى ... به وهو ما نيطت عليه تمائمه
ودوخ أعناق الليالى بهمة ... يبيت ونجمُ الأفق فيها يزاحمه
وزاد على بعد المَنال تواضعاً ... أبى الله إلا أن تتم مكارمه
سقيت الغوادى ! أى علم وحكمة ... ودين متين ذلك القبر كاتمه؟

---

(١) يحلأ ـ بالبناء للمجهول ـ يمنع ويطرد ويذاد (٢) المعتفى : طالب المعروف
(٣) الليوث : الأسود ، والشرى : مكان بعينه مسكن للآساد ، والضراغم : الأسود أيضا ، واحدها ضرغام ، والخيس ـ بكسر الخاء ـ مأواها

وما زال يُسْتَسْقى بدعوتك الحيا ... وها هو يستسقى لقبرك ساجمه(١)
بكت فَقْدَكَ الكتابُ إذ كان شملهم ... يؤلفه من دوح فضلك ناعمه
وطوقتهم بالبر ثم سقيتهم ... نداك فكنت الروض ناحت حمائمه
ويبكيك منى ذاهب الصبر موجعٌ ... توقد فى جنبيه للحزن جاحِمُه(٢)
فتًى نال منه الدهر إلا وفاءه ... فما وَهَنَتْ فى حفظ عهد عزائمه
عَليلُ الذى زُرَّتْ عليه جيوبه ... قريح الذى شدت عليه حزائمه
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة ... تعارض دونى بأسه وتصادمه
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى ... أحارب حزنى مرة وأسالمه
وأهديك إذ عز اللقاء تحيةً ... وطيب ثناء كالعبير نواسمه

وأنشد الفقيه القاضى أبو جعفر بن جزى قصيدة أولها :

أبثكما والصبر للعهد ناكث ... حديثاً أملّتْهُ علىّ الحوادثُ

وأنشد القاضى أبو بكر بن على القرشى قصيدة أولها :

هى الآمال غايتها نفادُ ... وفى الغايات تمتاز الجياد

وأنشد الفقيه الكاتب القاضى أبو القاسم بن الحكم قصيدة أولها :

لِيَنْع الحِجَا والحلم مَنْ كان ناعيا ... ويرع العلا والعلم من كان راعيا

وهذه ثلاث قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض ، فكان هذا التأبين غريبا لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلّة فى مثل هذا مقصورة على أولى الأمر ، انتهى ما لخصته من ترجمته فى « الإحاطة » .

ولنزد فنقول : ومن ألغازه فى الدرهم :

ما بغيضٌ إلى الكرام خصوصا ... وحبيب إلى الأنام عموما
فاعجبوا منه كيف يحمى ويحمى ... ويكفُّ العدا ويغنى العديما

(١) يستسقى : تطلب السقيا ، وهى الدعاء إلى الله تعالى أن ينزل المطر ، والحيا : المطر ، وساجمه : اسم الفاعل من « سجمت السحابة الماء » من بابى نصر وضرب إذا أسالته .
(٢) جاحمه : مستعمره وملتهبه ومتوقده .

إن تغير شطريه فالأول أسم يألف الضرع والغمام السُّجُوما(١)
ويكون الثانى كبير أناس حطمته حيـــاته تحطيما
فإذا ما قلبت أول شطـــر رد منطوق لغـــزه مفهوما
فإذا ما قلبت ثانى شطـــر كان كفاً وليس كفا رقيما
قَلْبُهُ بعد حذفك الفاء منـه هو شيء يحلل التحريما
أو صغـير مستحسن لم يؤدب إن تعلِّمه يقبــــل التعليما
فلتبين ما قلتـــه ولتعين وبه فلنقـــم مقاماً كريما

وقال فى المسك :

ما طاهر طيب ولــكن ما أصله من ذوى الطهاره
من الظباء الحسان لــكن إذا تأملتـــه فماره
نص حديث الرسول فيـه شهادة تقتضى بشـاره
تصحيفه بعد حذف حرف منزلك الآهـل العماره

يعنى مبنى

وقال فى فلك :

ما اسم لشىءٍ مُرْتَقِى فى مغرب ومشرق
إذا حـذفت فاءه كان لك الذى بقى

وقال أيضاً فى الفنار :

ما اسم إذا حذفت منـــه فاءه المنوعه
فإنه ابنـــة الزنا مضافة لأربعـه

يعنى ابنة الزناد ، وهى النار .

وقال فى النوم :

(١) أول شطريه هو «در» فلو غيرته بفتح أوله صار اسما لما ينزل من الضرع وهو اللبن ولما ينزل من السحاب وهو المطر ، وثانيهما هو « هم » فلو غيرته بكسر الهاء صار وصفاً للرجل الـكبير السن الذى حطمته الأيام .

ما اسم مسماه به يسقط حكم التكليف
وإن دخلت البيت بالتصحيف حق التعنيف
وإن أردت شبهه فقلبه بالتصحيف
بينه فهو فى كتا ب الله بادى التعريف

وقال فى غزال :

حاجيتكم ما اسم شىء يروق فى الوصف حسنا
له محاسن شتى منها فرادى ومثنى
له بل الشعر أثنى (١)
مهما تنله بحذف أتاك حرفاً لمعنى
إن زال أول حرف زال الذى منه يعنى
أوزال ثانيه منه فالقتل أدهى وأفنى
أوزال ثالثه فهو لغَوْصَبٍ معنى
أوزال رابعه فالجهاد فيه تَسَنَّى
فأوضح القصد يا مَنْ قد فاق عقلا وذهنا

وقال فى النمل :

ما حيوان اسمه قد جاء فى الذكر الحكيم
وهو إذا قلبته لمن به أنت عليم (٢)
وإن تصحف اسمه فبعض أوصاف اللئيم

وقال فى دواة :

وما أنثى بها رَعْىُ الرعايا وإمضاء المنايا والقضايا
وتقصدها بنوها من رضاع إذا انبعثوا لإبرام القضايا

---

(١) سقط أول هذا البيت من جميع الأصول .
(٢) فى ب عجز هذا البيت « ومر به أنت عليم » تحريف .

لها اسم إن أزلت النقط منه فعذ بالله من شر البلايا
وإن أبدلت آخره بهمز فقد أبرأت نازلة الشكايا
وإن بدّلت أوّله بنون أتيت ببعض أرزاق المطايا
فأوضح ما رمزناه بفكر سديد القصد مُبْدٍ للخفايا

وقال فى سفينة :

ما ذات نفع وغناء عظيم لها حديث فى الزمان القديم
أوحى بها الله إلى عبده فحبّذا فعل الرسول الكريم
دعا بها فيما مضى صالح حسبك ما نص الكتاب الحكيم (١)
وفى كتاب الله تردادها فاقرأ تجده فى قضايا الكليم
إن أنت صحفت اُسمها تلقه مَحَلَّ أنس أو بلاء مقيم
أو هو فعل لك فيما مضى لكن إذا أبرأت داء السقيم
فهاكه قد لاح برهانه مبيناً لكل فكر سليم

وقال فى المسك أيضاً :

كتبتم كثيراً ولم تكتبوا كهذا الذى سُبْلُه واضحه
فما اُسْمٌ جرى ذكره فى الكتاب فإن شئته فاقرأ الفاتحه (٢)
ففيها مُصَحَّف مقلوبِهِ يعبر عن حالة صالحه
وليست بغادية فاعلموا ولكنها أبداً رائحه

ويعنى بقوله فى الفاتحة قوله أول الأبيات كتبتم فافهم .

وقال فى صقر :

حاجيتكم ما اسم لبعض السباع تصحيفه مالك فيه انتفاع

---

(١) فى ب « وعابها فيما مضى صالح » .
(٢) يريد فاتحة هذه الأبيات أى أول كلة منها وهى « كتبتم » كما سينص عليه المؤلف

وعكسه إن شئت عكساله يوجد لكن عند دور السماع
وإن تصحف بعد قلب له فمذهب يعزى لأهل النزاع
فبين الألغاز وارفع لنا بنور فكر منك عنه القناع

وقال فى الحوت :

ما حيوان فى اسمه إن اعتبرته فنون
أحرفه ثلاثة والكل منها هو نون
إن أنت صحفت اسمه فما جناه المذنبون[1]
أو أبيض أو أسود أوصفة النفس الخؤن
قَلْبُ اسمه مصحفا عليه دارت السنون[2]
كانت به فيما مضى عبرة قوم يعقلون
أودع فيه زمنا سر من السر المصون
فهاكه كالنار فى الزند له فيها كمون

وقال فى لبن :

أفديك ما اسم إذا ما صحفته فهو سبع
وإن تصحف بعكس ففيه للقبط شرع
والاُسم يعرب عما لديه رى وشبع
فى النحل يلفى ولكن لا يتقى فيه لسع
فليس للنحل أصلا ولا لها فيه فرع
فهاكه قد تبدَّى لحجبه عنه رفع

---

(١) يصير « حوب » بالباء ، وهو الذنب والإثم .

(٢) قلب اسمه مصحفاً يصير « نوح » وقد مرت عليه السنون الطوال .

وقال فى القلم :

ومأموم به عرف الإمام كما باهت بصحبته الكرام
له إذ يرتوى طيشان صادٍ ويسكن حين يعروه الأوامُ
ويذرى حين يستسقى دموعا يرقن كما يروق الابتسام

وله ـ رحمه الله تعالى ! ـ كثير من هذا ، ولم أر أحدا أحكم الألغاز مثل ما أحكمه ابن الجياب المذكور ، ولولا الإطالة لذكرت منها ما يستدل به على صحة الدعوى ، وفيما ذكرنا كفاية .

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور فى رثاء عمر بن على بن عتيق القرشى الهاشمى الغَرْناطى قولُه :

قضى الأمر فيا نفس اصبرى صَبْرَ تسليمٍ لحكم القدر
وعــزاء يا فؤادى إنه حكم مَلْكٍ قاهر مقتـدر
حكمـــة أحكمها تدبيره نحن منها فى سبيل السفر
أجـل مقدر ليس بمستـــقدم يوما ولا مستأخر (١)
أحسن الله عزاء كل ذى خشـــية لربه فى عمر
فى إمامنا التقى الخاشع الطاهر الذات الزكى النـــير
قرشى هاشمى منتقى من صميم الشرف المطهر
يشهد الليلُ علـــيه أنه دائم الذكر طويل السهر
فى صلاة بعثت وفودها زمرا للمصطفى من مضر
قائما وراكعا وساجـدا لطلوع فجـــره المنفجر
جمع الرحمن شملنا غـدا بحبيب الله خـير البشر

(١) أخذ هــذا البيت من قوله تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) .

وتلقته وفود رحمة الله تأتى بالرضا والبشر

قلت : هذا النظم ـ و إن برد بما فيه من الزحاف ـ فله من الوعظ وذكر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم خير لحاف .

قال لسان الدين : ولما نظم القاضى أبو بكر بن شيرين ببيت الكتابة ومألف الجملة هذين البيتين :

ألا يا محب المصطفى زد صبابة ... وضمخ لسان الذكر منك بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنما ... علامة حب الله حب حبيبه

وأخذ الأصحاب فى تذييل ذلك ، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب رحمه الله تعالى ورضى عنه :

فمن يعمر الأوقات طرا بذكره ... فليس نصيب فى الهدى كنصيبه

ومن كان عنه معرضا طول عمره ... فكيف يرجيه شفيع ذنوبه

وقال أبو القاسم بن أبى العافية :

أليس الذى جلى دجى الجهل هديه ... بنور أقمنا بعده نهتدى به

ومن لم يكن من ذاته شكر منعم ... فمشهده فى الناس مثل مغيبه (١)

وقال أبو بكر بن أرقم :

نبى هدانا من ضلال وحيرة ... إلى مرتقى سامى المحل خصيبه

فهل ينكر الملهوف فضل مجيره ... ويغمط شاكى الداء شكر طبيبه

فانتهى القول إلى الخطيب أبى محمد بن أبى المجد فقال :

ومن قال مغرورا حجابك ذكره ... فذلك مغمور طريد عيوبه

وذكر رسول الله فرض مؤكد ... وكل محق قائل بوجوبه

---

(١) مشهده : حضوره ، مصدر ميمى من « شهد فلان » من باب علم ـ إذا حضر

وقال يوما الشيخ أبو الحسن بن الجياب تجربة للخاطر على العادة :

جاهـــد النفس جاهدا فإذا ما فنيت منك فهو عين الوجود
وليكن حكمها المســـدد فيها حكم ســـعد فى قتله لليهود(١)

فأجابه أبو محمد بن أبى المجد بقوله :

أيها العارف المعـــبر ذوقا عن معان عزيزة فى الوجود
إن حال الفناء عن كل غـــير كمقام المراد غـــير المريد
كيف لى بالجهاد غيرَ مُعَانٍ وعدوِّى مظاهَرٌ بجنـــود
ولو أنى حكمت فيمن ذكرتم حكم سعد لـكنت جـد سعيد
فأراها حيـــاته بى فتونا وأرانى فى حبهـــا كيزيد
كيف أسلو بنصحكم عن هواها ولو أُبدت فعل المحب الودود
ليس شىء ســوى الْهَكَ يبقى واعتبر صدق ذا بقول لبيـــد

ترجمة ابن أبى المجد

وابن أبى المجد المذكور هو عبد الله بن عبد البر بن على بن سليمان بن محمد بن محمد ابن أشعب الرعينى ، من أرجدونة من كورة رية ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن أبى المجد ، كان من أعلام الـكورة سلفا وصلاحا ونية فى الصالحين ، كثير الإيثار بما تيسر ، مليح التخلق ، حسن السَّمْت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ من الأدب والفقه والقراآت والفرائض ، وخوض فى التصوّف ، قطع عمره خطيبا وقاضيا ببلده ووزيراً ، قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير وابن أبى فضيلة المعافرى وابن رشيد ، وأجازه طائفة كبيرة ، توفى ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى !.

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بغَرْناطة :

---

(١) سعد : هو سعد بن معاذ سيد الأنصار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكمه فى يهود بنى قريظة — بعد أن سألهم عن مبلغ رضاهم عن حكمه فرضوه — فحكم بأن يقتل كل من يحمل السلاح منهم .

يا طالب العلم هـذا بابه فُتِحَا فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضُحَى
واشكر مجيرك من حل ومرتحل إذ قرب الله من مرماك ما نزحا
وشرفت حضرة الإسلام مدرسة بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
أعمـــال يوسف مولانا ونيته قد طرزت صحفا ميزانها رجحَا

من نظم ابن الجياب

ومنه قوله :

أبى الله إلا أن تكون اليد العليا لأندلس من غير شرط ولا ثنيا(١)
وإن هى عضتها بنوب نوائب فصيرت الشهد المَشُورَ بها شريا(٢)
فما عدمت أهل البلاغة والحجا يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا
إذا خطبوا قاموا بكل بليغة تجلى القلوب الغلف والأعين العميا
وإن شعروا جاؤا بكل غريبة تخال النجوم النيرات لهـا حليا
فأسأل فى الدنيا من الله ستره علينا وفى الأخرى إذا حانت اللقيا

وقال أبو الحسن بن الجياب :

أرى الدهر فى أطواره متقلبا فلا تأمَنَنَّ الدهر يوما فتخدعا
فما هو إلا مثل ما قال قائل (مكر مفر مقبل مدبر معـا)

وحكى أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمانا ثم دخل عليه عائداً ، فلما رآه قال له : يا فقيه ، نعم بالهدنة زمانك ، أراد نعمت الهدية رمانك ، وكان هذا قبل موته من مرضه بيسير ، وهو مما يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت ، سامحه الله تعالى ! .

من نثر ابن الجياب

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعالى ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين وقته ، وهو السلطان أبو سعيد المَرِينى صاحب فاس ، ونصه : المقامُ لدى الملك

(١) ثنيا — بضم الثاء وسكون النون — أى استثناء .

(٢) الشهد — بالضم ، وبالفتح — العسل ، والمشور : اسم المفعول من « شرت العسل أشوره » مثل قلت أقول — إذا جنيته وأخذته من كوارته ، والشرى — بالفتح — الحنظل .

المنصور الأعلام ، والفضل الثابت الأحكام ، والمجد الذى أشرقت به وجوه الأيام ، والفخر الذى تُتَدَارَسُ أخباره بين الركن والمقَام ، والعز الذى تعلو به كلمة الإسلام ، مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام ، السلطان الكذا أبقاه الله فى ملك منيع الذمار ، وسعد باهر الأنوار ، ومجد رفيع المقدار ، وسلطان عزيز الأنصار ، كريم المآثر والآثار ، كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار ! مُعَظِّم مقامه وموقره ، ومُجِلُّ سلطانه ومُكْبِره ، المثنى على فضله الذى أربى على ظاهره مضمره ، الشاكر لمجده الذى كرم أثره ، المعتدّ بأبوته العلية فى كل ما يقدمه ويؤخره ، ويورده ويُصْدِره ، الداعى إلى الله تعالى بطول بقائه فى سعد سامٍ مظهرُه ، حام عسكره ، فلان .

سلام كريم ، طيب بَرّعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمه الله وبركاته .

أما بعدَ حمد الله الذى أولاكم ملكا منصوراً ، وفخراً مشهوراً ، وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكراً منشوراً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى اختاره بشيراً ونذيراً ، وشرح بهدايته صُدُوراً ، وجعل الملأ الأعلى له ظَهيراً(١) ، والرضا عن آله وصحبه الذين ظاهروه فى حياته ، وخَلَفوه فى أمته بعد وفاته ، فنالوا فى الحالين فضلا مستوراً ، وأجراً موفوراً ، والدعاء لمقامكم الأعلى أسماه الله تعالى بنصر لايزال به الإسلام مَحْبوّاً مَحْبوراً(٢) ، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نوراً ، فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة ، وحباكم من آلائه بالحسنى والزيادة ، من حمراء غَرْناطة حرسها الله تعالى ، وليس - بفضل الله سبحانه ثم ببركة مقامكم أيد الله تعالى سلطانه - إلا الخير الأكمل ، والبر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ، وأما الذى عند معظم أمركم من الإعظام

(١) ظهيراً : معيناً وناصراً ، وفى القرآن الكريم : ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾

(٢) محبواً : اسم المفعول من «حباه يحبوه» إذا أعطاه ومنحه ، ومحبوراً : مسروراً

لمقامكم والإكبار ، والثناء المردد المجدد على توالى الأعصار ، والشكر الذى تُتْلَى سُوَرُه آناء الليل والنهار ، والعلم بما لـكم من المكارم التى سار ذكرها فى الأقطار أشهر من المثل السيَّار ، والاعتداد بسلطانكم العلى فى الإعلان والإسرار ، والاستناد إلى جنابكم الـكريم فى الأقوال والأفعال والأخبار ، فذلك لا يزال بحمد الله تعالى محفوظاً ملحوظاً بعين الاستبصار ، والله ولى العَوْن على ذلك بفضله وطَوْله ، وإلى هذا أيد الله تعالى سلطانكم ، ومهد أوطانكم ، فقد تقدمت مطالعة مقامكم أسماه الله أن ملك قَشْتالة دسَّ من يتحدث فى عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد ، ويرتفع به عنها مكابدته من جهة الأعاد ، وقدَّرْنا أولا أن ذلك ليس على ظاهر الحال فيه ، وأنه يبدى به[1] غير ما يُخفيه ، ولـكن جرينا معه فى ذلك المضمار[2] قصدا للتشوف على الأخبار ، فلما دار الحديث فى هذا الحـكم ، ظهر منه أنه قد جنح للسّلم ، وكان خديمنا نقروز بحكم الاتفاق قد ورد إشبيلية لبعض أشغاله ، فاستحضره وأخذ معه فى أمر الصلح وشرح أحواله ، وأعاده إلى معظمكم ليستفهم ما عنده ، ويعلم مَذْهبه وقَصْده ، فأعيد إليه بأنه إن أراد المصالحة على صلح والده مع هذه الدار النَّصرية من غير زيادة على شروط تلك القضية ، ولا يعرض لاسترجاع معقل[3] من المعاقل التى أخلصت من يد النصرانية ، وأن يكون عَقْده على الجزيرة الخضراء ورُندة وغيرهما من البلاد الأندلسية ، فلا بد من مُطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبى سعيد أيده الله واستطلاع ما يراه ، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه ، وأكد على نقروز فى أنه إن انقاد[4] لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمدٍ من الدهر بقدر ما يتسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم ، ويستطلع فيها نظر مقامكم ، فما هو إلا أن عاد يومَ تاريخ هذا بكتاب ملك قَشْتالة ، وقد أجاب إلى الصلح وأنقاد إليه ،

---

(١) يبدى : يظهر . (٢) أصل المضمار المسافة التى جعلت أمدا لسير خيل الحلبة

(٣) المعقل : الحصن. (٤) انقاد له : خضع .

على حسب ما شرط عليه ، وأعطى مُهَادنة مدة شهر فبرير ليعرف فيها مقامكم ، ويعلم ما لديه ، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجل أبى عبد الله بن حبشية أعزه الله من بابكم الكريم أسماه الله ، فأخذمعه فى هذا القصد ، واستفهم عما لديه من مقامكم فى ذلك من الإمضاء أو الرد ، فذكر أنكم قد أذنتم لمعظمكم فى عقد السلم على ما يراه من الأحكام ، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام ، فلما عرف مذهبكم الصالح ، وقصدكم الناجح ، رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح ، على ما يعود إن شاء الله تعالى على المسلمين بالنُّجح ، وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدى جوابكم الوافد من مقامكم صحبة الفقيه أبى عبد الله أعزه الله تعالى ، ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد فى الوقت إلى هُدْنة تُستدرك بها رَمَقها[1] مما لقيته من جهد الحرب ، وما حل بها فى هذه السنين من القحط والجَدْب ، فالصلاحُ بحمد الله فى هذه الحال بادى الظهور ، وإلى الله عاقبة الأمور ، هذا ما تزيد لدى معظم مقامكم ، وما يتزيد بعدُ فليس إلا المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم ، وما كان إمساك الفقيه أبى عبد الله بن حبشية فى هذه الأيام إلا لانتظار خبر الصلح ، حتى يأتيكم به مستوفى الشرح ، وهاهو قد أخذ فى الرجوع إلى بابكم الأسمى ، والقدوم إلى حضرتكم العظمى ، والله يصل سعودكم ، ويحرس وجودكم ، ويبلغكم أملكم ومقصودكم ، والسلام .

ومن إنشاء ابن الجياب رحمه الله تعالى فى العزاء بالسلطان أبى الحسن المرينى ما صورته بعد الصدر :

أما بعد حمد الله الواحد القهار ، الحى القيوم حياة لا تتقيد بالأعصار ، القادر الذى كل شئ فى قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار ، الغنى فى ملكوته

---

(١) الرمق — بفتح الراء والميم — بقية الروح فى الجسد .

فلا يلحقه لاحق الافتقار، المريد الذى بإرادته تصريف الأقدار، وتقدير الآجال والأعمار، العالم الذى لا تعزب عن علمه خفايا الأسرار، وخبايا الأفكار، مالك الملك وأهله، ومدبر الأمور بحكمته وعدله، تذكرة لأولى الألباب وعبرة لأولى الأبصار خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار، الذى نهتدى بهديه الكريم فى الإيراد والإصدار، والإحلاء والإمرار، فى الشدة والرخاء، والسراء والضراء، بسيره الكريمة الآثار، ونتعزى بالمصيبة به عمادهم من المصائب الكبار، ونقدم منه إلى ربنا شفيعا ماحياً للأوزار[1]، وآخذا بالحُجَزِ عن النار[2]، ونعلم أننا باتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار، وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار، والرضا عن آله وصحبه، وأوليائه وحزبه، الذين ظاهروه فى حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار، وخَلَفوه فى أمته قائمين بالعدل حامين للذِّمار، والدعاء لمحل أبينا والدكم المقدَّس قدس الله روحه، وبرد ضريحه، بالرحمة التى تتعهد روضته التى هى أذكى من الروض المِعْطَار[3]، والرضوان الذى يتبوأ به مُبَوأ صدق فى الملوك المجاهدين الأخيار، ولمقامكم الأعلى بسعادة المقدار، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار، فإنا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر، وربط على قلبكم بالصبر! - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عندما تحقق لدينا النبأ الذى فَتَّ فى الأعضاد، وشب نار الأكباد، والحادث الذى هدَّ أعظم الأطواد، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد، والواقع الذى لولا وجودكم لمحا رسم الأجواد، وعطل رسوم الجهاد، وكسا الآفاق ثوب الحداد، والخطب الذى ضاقت له الأرض بما رحبت، وأمَرَّت الدنيا بما عذبت، من وفاة محل أبينا أكبر ملوك المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، والدكم

---

(١) الأوزار : جمع وزر — بالكسر — وهو الذنب .
(٢) أخذ فلان بحجز فلان : كناية عن أنه حماه ومنعه .
(٣) الروض المعطار : الشديد العطر وطيب الرائحة لكثرة أزهاره .

أتحفه الله تعالى بَرْدَ رضاه، وجَعَل جَنَّتَه نُزُله ومَثْواه ! ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة ، وما خلده من الآثار العظيمة ! فإنا لله و إنا إليه راجعون تسليما لمقضاه ، ورضا بما أنفذه وأمضاهُ ، وعند الله نحتسب منه والدا شفيقاً ، حانيا رفيقاً ، لم يزل يولى الجميل قولُه وفعله ، و يصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضلُه ، وما هو أحق به وأهله ، وكنا طولَ حياته لم نجد أثرا لفقد الوالد ، لما أولانا من جميل العوائد ، وكرم المقاصد ، جزاه الله أحسن جزائه ! وأعاننا على توفية حقه وأدائه ! ولمثل هذه المصيبة ــ ولا مثل لها ــ تُظلِم الأرجاء(١) ، و يضيق الفضاء، وتبكيه مُسَوَّمة الجياد ، ومعالم الجهاد ، والسيوف فى الأغماد ، وشتى العباد والبلاد ، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم، والحادث المُقْعِد المقيم(٢) ، والرزية التى لا رزية مثلها ، والحادثة التى أصيبت بها الملة وأهلها ، فوَجْدُنا لفقده يتضاعف مع الآناء ، و يتجدد تذكار ماأسلف من أعمال الملوك الفضلاء ، ولكنه أمرحتْم ، وقضاء من الله جَزْم ، وسبيل يسلك عليها الأول والآخر ، والآنى والغابر ، وليس إلا التسليم، لما حكم به الحكيم العليم ، ولماانتهى إلينا هذا النبأالذى ملأ القلب حسرة والعين عَبْرة ، وتواترت شتى الأنباء ، وغلب اليأس فيها على الرجاء ، وجدناله مايوجد لفقد الأب الذى ابتدأ بالإحسان والإجمال ، وأولىٰ عوارف القبول والإقبال ، ولكنه ماأطفأ نار ذلك الوجد ، وجَبَرَ كسرذلك الفقد، إلاّ مامَنَّ الله به علينا وعلى المسلمين من تقلدكم ذلك الملك الذى بكم سمعت معالمه ، وقامت مراسمه ، وعليكم انعقد الإجماع ، و بولايتكم استبشرت الأصقاع ، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأوّاب ، صاحب الحرب والمحراب ، عُدَّة الإسلام، وعلم الأعلام ، مَنْ ثبتت فضائله أوضح من مُحَيا النهار ، وسارت مكارمه فى الآفاق أشهر من

---

(١) الأرجاء : النواحى ، واحدها رجا .

(٢) يقال « أخذه من هــذا الأمر المقعد المقيم » يراد الأمر الشديد الذى لا يستقر معه على حال فهو لا يزال منه يقوم ثم يقعد .

المثل السيار ، وقد كان محل أبينا والدكم رضى الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار ، وما قمتم به من حقه الذى وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار ، ألقى إليكم مقاليد سلطانه ، وآثر إليكم أثر قبوله ورضوانه ، حتى انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تنالون به قرة العين ، وعز الدارين ، والظفر بكلتا الحسنيين ، فتلك المملكة بحمد الله تعالى قد قام بها حامى ذِمارها ، وابنُ خيارها ، ومطلع أنوارها ، الملك الرضى العدل الطاهر ، قوّام الدياجى وصوّام الهَواجر[1] ، حسنة هذا الزمان ، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان ، فالحمد لله على أن جبر بكم صَدْعَ الإيمان ، وانتضى منكم سيفاً مسلولا على عبدة الصلبان ، وأقر بكم ملك آبائكم الملوك الأعاظم ، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء المتفاقم ، فإن فقدنا أعظم مفقود ، فقد ظفرنا بأكرم مقصود ، وما مات مَنْ أبقى منكم سلالة طاهرة تحيي سنن المعالى والمكارم ، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم ، فتلك المملكة قد أصبحت بحمد الله ونورُ سعدكم فى أرجائها طالع ، وسيف بأسكم فى أعدائها قاطع ، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع ، قد أوَتْ منكم إلى الملجأ الأحمى ، واستمسكت بإيالتكم العظمى ، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، ومعاليكم القاطعة البراهين ، ما يملؤها عدلا وإحسانا ، وتبلغ به آمالها مثنى ووحدانا ، فهنيئاً لنا ولها أن صارت فى مِلْكِكم ، وأن تشرفت بمُلْكِكم ، وألقت مقاليدها إلى من يحمى حماها ، ويدفع عداها ، وليَهنِ ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين وما قلده من الملك الذى هو نظام الدنيا والدين ، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين ، لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين ، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين وأما هذه البلاد الأندلسية — حماها الله ! — فهى وإن فقدت من السلطان الأعلى

---

(١) الدياجى : أراد الليالى الشديدة الظلام ، وقوامها : الذى يقوم فيها لعبادة الله ، والهواجر : جمع هاجرة ، وهى الوقت الذى يشتد فيه الحر ، يريد أنه كثير الاحتمال فى عبادة ربه .

أبى سعيد أكرم ظهير ، ووقع مصابه منها بمحل كبير ، فقد لجأت منكم إلى من يحميها ، ويكف بأس أعاديها ، و يبتغى مرضاة خالقها فيها ، فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب ، جديد الأثواب ، عريق الأنساب ، أصيل الأحساب ، ومجدكم جارٍ على أعراقه جَرْىَ الجياد العِراب[1] ، و إنا لما ورد علينا هذا النبأ معقباً بهذه البشرى ، ووفد علينا ذلك الخبر مردفا بهذه المسرة الكبرى ، علمنا أن الله سبحانه قد رَأَبَ ذلك الصَّدْع[2] بهذا الصنع الجميل ، وتلافى ذلك الخطب بذلك الخير الجزيل ، فأخذنا من مساهمتكم فى الأمور النصيب الوافر ، ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت عن مُحَيَّاها السافر ، وعيَّنَّا للوفادة على بابكم لينوب عنا فى العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء ، ووجه القواد والكرماء .

ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب رحمه الله تعالى ! ويظهر لى أن نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظماً ولا نثراً رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، وعامله بمحض فضله ! .

أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيهُ الكاتب البارع العلامة النحوى اللغوى صاحب العَلاَمة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى ، قال فى « الإحاطة » فيه ما ملخصه : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد ابن على بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمى ، أبو محمد ، شيخنا الرئيس ، صاحب القلم الأعلى بالمغرب من الإكليل ، تاج المفرق ، وفخر المغرب على المشرق ، أطلع منه نورا أضاءت له الآفاق ، وأثْر منه بذخيرة حملت أحاديثَها الرفاق ، ما شئت من مجد سامى المَصَاعد والمَرَاقب ، عزيز عن لحاق النجم الثاقب ، وسلف زينت سماؤه بنجوم المناقب ، نشأ بسبتة بلده بين علم يفيده ، وفخر يَشِيدُه ، وطهارة

---

(١) الجياد العراب : الخيل العربية الأصيلة .

(٢) رأب : أصلح ، والصدع : كسر الزجاج ونحوه ، ويقال « رأب فلان الصدع » يراد أنه أصلح الفاسد .

يلتحف مَطَارفها ، ورياسة يتفيأ وارِفهَا ، وأبوه رحمه الله تعالى قطبُ مَدَارها ، ومقام حجها واعتمارها ، فسلك الوُعُورَ من المعارف والسُّهول ، وبَذَّ على حداثة سنة الكهول ، فلما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلَّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلى ، تنافست فيه همم الملوك الأخاير ، واستأثرت به الدول على عادتها فى الاستئثار بالذخائر ، فاستقلَّت بالسياسة ذراعه ، وأخْدَم الذوابل والسيوف يَرَاعه ، وكان عين الملك التى بها يبصر ، ولسانه الذى يسهب به أو يختصر ، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفادة ، وجلت به عليها الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم فى عقودها الرفيعة وسلوكها ، وله فى الآداب الراية الخافقة ، والعقودُ المتناسقة ، ومشيخته حافلة تزيد عن الإحصاء ، وشعره منحط عن محله من العلم والشهرة ، وإن كان داخلا تحت طَوْر الإجادة ، فمن ذلك قوله :

تراءى سحيرا والنسيم عليل ... وللنجم طرف بالصباح كليل (١)

وللفجر نهر خاضهُ الليل فاعتلت ... شَوَى أدهم الظلماء منه حُجُولُ (٢)

بريق بأعلى الرقمتين كأنه ... طلائع شهب فى السماء تجول

فمزق ساجى الليل منه شرارة ... وخرَّق ستر الغيم منه نصول

تبسم ثغر الروض عند ابتسامه ... وفاضت عيونٌ للغمام همول

ومالت غصون البان نَشْوَى كأنها ... يدار عليها من صباه شَمول (٣)

وغنت على تلك الغصون حمائم ... لهن خفيف فوقها وهديل (٤)

إذا سجعت فى لحنها ثم قرقرت ... يطيح خفيف دونها وثقيل

سقى الله ربعا لا يزال يشوقنى ... إليه رسوم دونها وطلول

وجاد رُبَاه كلّما ذر شارق ... من الودق هَتَّان أجش هطول

(١) كليل : ضعيف (٢) الشوى — بفح الشين — الأطراف ، وأراد قوائم الفرس الذى شبه الليل به ، والأدهم : الأسود ، والحجول : بياض فى قوائم الفرس (٣) الشمول — بفتح الشين — الخمر (٤) الهديل : غناء الطير .

ومالىَ أستسقى الغمام ومدمعى سَفُوح على تلك العراص هَمُول
وعاذلة باتت تلوم على السرى وتكثر من تعذالهـــا وتطيل
تقول إلى كم ذا فراق وغربة ونأى على ما خيلت ورحيل
ذرينىَ أسعى للتى تكسب العلا سناء وتبقى الذكر وهو جميل
فإما ترينى من ممارسة الهوى نحيلا فحَـدُّ المشرفى نحيلُ[(١)]
وفوق أنابيب اليراعة صعوة تزين ، وفى قدِّ القناة ذبول
ولولا السرى لم يحتل البدر كاملا ولا بات منـه للسعود نزيل
ولولا اغتراب المرء فى طلب العلا لما كان نحو المجد منـه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمـد لأصبح ربع المجد وهو مُحِيلُ[(٢)]
وزير سما فوق السماك جلالة وليس له إلا النجومَ قبيلُ
من القوم أما فى النديِّ فإنهم هضاب وأما فى النَّدَى فَسُيول[(٣)]
حوَوْا شرف العلياء إرثا ومكسبا وطابت فروع منهم وأصول
وما جونة هطالة ذات هيدب مَرَتْهَا شمال مرجف وقبول[(٤)]
لها زجل من رعدها ولوامع من البرق عنها للعيون كلول
كما هَدَرَتْ وسط القِلَاصِ وأرسلت شقاشقَها عنـد الهياج فُحُولُ
بأجود من كف الوزير محمد إذا ما توالت للسنين مُحول .
ولا روضة بالحسن طيبة الشَّذا ينمُّ عليهـــا إذخر وجليل
وقد أذكيت للزهر فيها مَجامر تعطر منهـــا للنسيم ذيول
وفى مُقَل النوّار للطل عبرة ترددها أجفانهـــــا وتحيل

(١) المشرفى : السيف (٢) محيل : قد حال عما عهدناه وتغير
(٣) الندى ـ بتشديد الياء ـ مجتمع القوم للسمر وللتشاور ، والندى ـ بفتح النون مقصوراً بزنة الفتى ـ الجود والكرم
(٤) أراد بالجونة السحابة ، ومرتها : أراد أسالت ماءها وهو المطر ، والشمال : ريح الصبا ، والقبول : ريح الجنوب .

بأطيبَ من أخلاقه الغر كلما ... تفاقم خطب للزمان يهـــول
حويت أبا عبد الإله مناقبا ... تفوت يدا من رامها وتطول
فغرناطة مصر وأنت خصيبها ... ونائل يمناك الكريمة نيل(١)
فذاك رجال حاولوا دَرْكَ العلا ... ببخل ، وهـل نال العلاء بخيل ؟
تخيرك المولى وزيرا وناصحا ... فـكان له مما أراد حصول
وألقى مقاليـد الأمور مفوّضا ... إليك فلم يعدم يمينك سُولُ
وقام بحفظ الملك منك مؤيد ... نهوض بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك أشوس باسل ... مبيد العـدا للمعتفين منيل
وأبلج وقاد الجبين كأنمـــا ... على وجنتيه للنُّضار مسـيل
تهيم به العلياء حتى كأنهـــا ... بثينته فى الحب وَهْوَ جميل
له عزمات لو أعير مضاءها ... حسام لما نالت ظُباه فلول
سرى ذكره فى الخافقين فأصبحت ... إليـــه قلوب العالمين تميل
وأعدى قريضى جوده وثناؤه ... فأصبح فى أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرقلت ... برحلىَ هوجاء النَّجاء ذَلُولُ
فليت إلى لقياك ناصية الفلا ... بأيدى ركاب سيرهن ذميل
تسددنى سهما لـكل ثنيـة ... ضوامر أشباه القِسِىِّ نُحُول
وقد لفظتنى الأرض حتى رمت إلى ... ذَرَاك برحلى هوجل وهجول
فقيدت أفراسى به وركائبى ... ولذ مقـــام لى به وحلول
وقد كنت ذا نفس عَزوفٍ وهمة ... عليها لأحداث الزمان ذحول
وتهوى العلا حظى وتغرى بضده ... لذاك اعترته رقة ونحـــول
وتأبى لىَ الأيام إلا إدالة ... فصونك لى أن الزمان مُديل

---

(١) يشير إلى قول أبى نواس فى مدح الخصيب :

أنت الخصيب وهـذه مصر ... فتدفقا فـكلاكما بحـر

فكل خضوع فى جنابك عزة وكل اعتزاز قد عَدَاكَ خُمُولُ(١)

وقال :

أبت همتى أن يرانى امرؤ على الدهر يوما له ذا خضوع

وما ذاك إلا لأنى اتقيت بعز القناعة ذُلَّ الخشوع

مولده بسبتة عام ستة وسبعين وستمائة ، وتوفى بتونس ثانى عشر شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة فى الطاعون ، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله تعالى ، انتهى .

وحكى أن السلطان أبا الحسن المَرِينى سبَّ الشيخَ عبدَ المهيمن الحضرمى بمجلس كتابه ، فأخذ عبدالمهيمن القلم وكسره ، وقال : هذا هوالجامع بينى و بينك ، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم ، وأفضل عليه ، وخجل مما صدر منه

وكان عبدالمهيمن ينطق بالكلام مُعْرَبا ، و يرتفع نسبُه إلى العلاء بن الحضرمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصل سلفه من اليمن ، وكان جدهم الأعلى عبدون لحقه الضَّيْم ببلده ، فارتحل إلى المغرب ، فنزل سبتة

ولعبد المهيمن الحضرمى شيوخ أجلاء كابن أبى الربيع النحوى وابن الشاط وابن مسعود وغيرهم ، وكان ذا سعد وسؤدد ، حسن الخط ، رأيت خطه بإجازته لأبى عبدالله ابن مرزوق وغيره ، وكان عالى الهمة سَرِيًّا ، أعطى المنصب حقه ، وكان لا يحتمل الضيم واحتقار العلم ، وكان سريع الجواب ، حكى أن القاضى المليلى وأبا محمد عبد المهيمن الحضرمى المذكور صاحب العلامة للسلطان أبى الحسن حضرا مجلس السلطان ، فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق ، فقال المليلى : جمع من الفنون كذا ، حتى وضع يده على أبى محمد عبد المهيمن ، وقال مخاطبا للسلطان : ويكتب لك أحسن من ذا ، فوضع عبد المهيمن يده على المليلى وقال : نعم يا مولاى ، ويقضى لك أحسن من ذا .

---

(١) عداك : جاوزك وفاتك .

وقال ابن الخطيب القسمطينى الشهير بابن قنفذ فى وفياته ما نصه : وفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفى الشيخ الراوية المحدث الكاتب أبو محمد عبد المهيمن ابن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن على بن محمد ، الحضرمى ، السبتى ، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبى الربيع وابن الغماز وابن صالح الكنانى وغيرهم من الأعلام ، انتهى .

وقال غيره : إن والد عبد المهيمن توفى غرة صفر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، رحمه الله تعالى!.

وحكى أن الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يوما بنى العزفى ، فأثنى عليهم ، فقال له أحد الحسينيين ، وكان بينهم شىء : إنهم كانوا يحبون أهل البيت ، فكيف حبك أنت لهم ؟ يعنى لأهل البيت ، فقال : أحبهم حب التشرع ، لا حب التشيع ، انتهى .

قيل : يعنى بالعزفيين أهلَ الدولة الثانية ، وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة الآل ، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام .

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمى من التشبيه قوله :

لقد راقنى مرأى سِجِلْمَاسَةَ الذى ... يقر له فى حسنه كل منصف
كأن رؤس النخل فى عَرَصَاتها ... فواتح سورات بآخر مصحف[1]

وهذا من التشبيه العقيم الذى لم يسبق إليه فيما أظن ، وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المرينى لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبى على عمر بسجلماسة وظفر به استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم فى تشبيه النخل ، فقال عبد المهيمن ما مر ، فلم يترك مقالا لقائل .

---

(١) عرصاتها : ساحاتها ، واحدها عرصة ، وقال امرؤ القيس :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال : أنشدنى شيخنا ولى الدين الرئيس أبو زيدعبدالرحمن بن خلدون الحضرمى لشيخه الرئيس أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتى رحمه الله تعالى قوله :

يُجْفَى الفقير و يَغْشَى الناسُ قاطبةً باب الغنى ، كذا حكم المقادير
و إنما الناس أمثال الفَرَاش ، فهم يُلْفَوْنَ حيث مصابيح الدنانير(١)

قلت : ورأيت هـذين البيتين فى كتاب « دوح الشجر ، وروح الشعر » للعالم الـكاتب ابن الجياب منسو بين لأبى المتوكل الهيثم بن أحمد السكونى الإشبيلى ، قال : أنشدنى أبو الحجاج الحافظ قال:أنشدنى الهيثم ، فذكر البيتين ، وكان تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيمن ، فتعين أن البيتين ليسا من نظمه ، و إنما تمثل بهما ونسبتهما له وهم لا محالة ، والله أعلم .

وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أباحيان مدح عبد المهيمن بقوله :

ليس فى الغرب عالم مثل عبـد المهيمن
نحن فى العلم أسـوة أنا منـه وَهْوَ مِـنِى(٢)

فقد نسبه ابن غازى إلى أبى حيان كما اشتهر ، لـكن تاريخ مرور أبى حيان بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيمن بلا خفاء ، وهو عندى محمول على أحد أمرين : أن المراد عبد المهيمن جد عبد المهيمن المذكور ، أو أن أباحيان كتب بالبيتين من مصر بعد ماظهر عبد المهيمن وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب ، ولذا لما ذكر لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الـكتيبة الـكامنة ، فى أنباء أهل المائة الثامنة » الشيخَ أبا حيان قال : وهذا الرجل طالت حياته حتى أجاز ولدى .

ولعبد المهيمن المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار ، وقد ألف

---

(١) يضرب المثل بالفراش فى الطيش وقلة المعرفة لأنه يلقى بنفسه على النار فيحترق

(٢) « منى » فى هذا البيت مخفف النون ، كما وقع فى قول الشاعر :

أيهـا السـائل عنهم وعنى لست من قيس ولا قيس منى

الخطيب ابن مرزوق باسم ولد ولده فهرسته المشهورة ، وحلاه فى صدرها أحسن حلية ، وهو أهل لذلك ، وقد ذكره مولاى الجد فى شيوخه كما تقدم ، وقال فيه : إنه إمام الحديث والعربية ، وكاتب الدولة العثمانية والعلوية ، فليراجع ذلك فيما سبق فى ترجمة الجد .

أبو سعيد محمد بن عبدالمهيمن الحضرمى

وأبو سعيد ابن عبد المهيمن كان عالى الهمة كآبائه ، ولما بويع السلطان أبو عنان طلب منه أن يكون مرتسما فى جملة كتاب بابه ، فامتنع ، وقال : لا أكون تحت حكم غيرى ، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتاب ، فكيف يكون هو مرؤساً بغيره ؟ فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك ، وارتحل أبو سعيد محمد المذكور ، وكان فقيهاً عالماً ، من فاس لسبتة إلى أن توفى بها سنة ٨٨٧ ، وكان قليل الكلام ، جميل الرُّواء[١] ، حسن الهيئة والبزة والشكل ، روى عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤ ، وروى عن الفقيه أبى الحسن بن سليمان والرحالة ابن جابر الوادى آشى وابن رشيد وغيرهم .

عبد المهيمن ابن أبى سعيد

وابن أبى سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجده ، وكان صاحب القلم الأعلى ، روى عن أبيه وجده وغيرهما ، رحم الله الجميع .

محمد بن محمد بن الحاج البلفيقى

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضى الجماعة أبو البركات ابن الحاج البلفيقى ، نادرة الزمان ، وشاعر ذلك الأوان ، وهو محمد بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن الشيخ الولى أبى إسحاق بن الحاج البلفيقى ، وكان أبو البركات أحد رجال الكمال علما ومجدا وسوددا موروثا ومكتسبا ، وقد عرف به فى « الإحاطة » بترجمة مد فيها النفَس ، وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته :

---

(١) الرواء – بضم الراء – المنظر .

رحمك الله تعالى يافقيه الأندلس ، وحسيبها ، وصدرها ، وشيخها ، وبرد ضريحك فلله ما أفدت من نادرة ، وأكسبت من فائدة ، انتهى .

وحكى فى « الإحاطة » أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين :

ظَمِئَتْ إلى السقيا الأباطحُ والربا   حتى دعونا العام عاما مُجْدِبَا
والغيث مسدول الحجاب ، وإنما   عَلِمَ الغمامُ قدومكم فتأدبا

ثم ذكر فى « الإحاطة » تآليف أبى البركات وشعره ، إلى أن قال حاكيا عن أبى البركات ما صورته : ومما نظمته وقد أكثروا من التعجب لملازمتى البناء وحفر الآبار :

فى احتفار الأساس والآبار   وانتقال التراب والجيَّار
وقعودى ما بين رمل وآجر   وجص والطوب والأحجار
وامتهانى بُرْدَىَّ بالطين والما   ء ورأسى ولحيتى بالغبار
نشوة لم تمرَّ قط على قلب   خليع وما لها من خمار(١)
من غريب البناء أن بنيه   متعبون يهوون طول النهار
يبتغون الوصال من صانعيه   والبدار إليه كل البدار
فإذا حلَّ فى ذَرَاهم تراهم   يشتهون منه بعيد المزار(٢)
مَنْ عَذيرى من لائم فى بنائى   وهو لى الترجمان عن أخبارى
ليس يدرى معناه من ليس يدرى   أن ما عنده على مقدار
أقتدى بالذى يقول بناها   ذلك الخالق الحكيم البارى(٣)
وبمن يرفع القواعد من بيت   عتيق للحج والزوار(٤)
وبمن كان ذا جدار وقد كا   ن أبوه من صالحى الأبرار

---

(١) الخمار — بضم الخاء — صداع الرأس من شرب الخمر

(٢) حل : نزل ، وذراهم — بفتح الذال — جانبهم وناحيتهم

(٣) يشير إلى قوله تعالى (السماء بناها رفع سمكها فسواها)

(٤) يشير إلى قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) .

وبما قد أقامه الخضر المخـــصوص علمـــاً بباطن الأسرار
كان تحت الجـدار كنز، وما أد راك ما كان تحت كنز الجـدار؟
وبمن قد مضى من آبائى الغر الألى شـــيدوا رفيع المنار
فالذى قد بنـوه نبنى له مثـــلا ونجــرى له على مضمار
قد بنينـا من المساجد دهرا ثم نبنى لجارها خـــير جار
مثل ما قد بنيت للمجد أمثـــا ل مبانيهم بكل اعتبـــار
فالمبانى لسان حالى ولى فيهـــا لعمرى ذكر من الأذكار
روح أعمالنا المقاصـد ، لـكن حيث تخفى تخفى مع الأعـذار
فعسى مَنْ قضى ببنيـــان هـــذى الدار يقضى لنا بعقبى الدار

ثم قال فى « الإحاطة » بعد كلام : ومن نظمه فى الإنحاء على نفسه ، واستبعاد وجود المطالب فى جنسه ، قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين وسبعمائة وأنا متنزه فى غار ببعض جبال المَرِيَّة :

زعموا أن فى الجبال رجالا صالحين قالوا من الأبدال
وادعَوْا أن كل من ساح فيها فســـيلقاهُمُ على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مرارا بنعال طـورا ودون نعـال
ما رأينا بها خلاف الأفاعى وشَبَا عقرب كمثـــل النبال(١)
وسباع يجرون بالليـل عَدْواً لا تسلنى عنهم بتلك الليـالى(٢)
ولَوَ انا كنا لدى العدوة الأخـــرى رأينا نواجذ الريبـــال(٣)
وإذا أظلم الدجا جاء إبليـــس إلينا يزور طيف خيال
هو كان الأنيس فيها ولولا هُ أصيبت عقولنـا بالخبـال(٤)

---

(١) شبا العقرب : إبرتها التى تلدغ بها (٢) العدو ــ بالفتح ــ السير السريع
(٣) الريبال : الأسد ، ونواجذه : أنيابه (٤) الخبال ــ بفتح الخاء ــ الجنون

خل عنك المحال يا من تَعَنَّى ليس يلقى الرجال غير الرجال

وجمع شعره وسماه « العذب والأجاج ، من كلام أبى البركات بن الحاج » وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه « باللؤلؤ والمرجان ، من بحر أبى البركات ابن الحاج يستخرجان » .

ومن نظم الشيخ أبى البركات بن الحاج قوله رحمه الله تعالى :

ألا ليت شعرى هل لما أنا أرتجى من الله فى يوم الجزاء بلاغ
وكيف لمثلى أن ينال وسيلة لها فى سبيل الصالحين مراغ
وكم رمت دهرى فتح باب عبادة يكون بها فى الفائزين مساغ
فكدت ولم أفعل وكيف وليس لى المعينان فيها صحة وفراغ
لأصبحت من قوم دعاهم إلى الرضا منادى الهدى فاستنكروه فراغوا
أباغ ترى أخراه من يزدهيه من زخارف دنياه الدنية باغ
و يضرب صفحاً عن حقيقة ماطوت فيلهيه زور قد أتته مصاغ
إذا ما بدا للرشد نهج بيانه يراع به من وحشة فيراغ
فيارب بَرْدَ العفو هَبْ لى إذا غلت من الحر فى يوم الحساب دماغ
فمن حرق للنفس فيه لواعج ومن خجل للوجد فيه صباغ
وعَظْتُكِ نفسى لو أنبت ، وفى الذى وعظت به لو ترعوين بلاغ(١)

وأنشد القاضى أبو البركات فى هذا الروى قولَ شيخه الأستاذ أبى على ابن سليمان القرطبى :

ألا هل إلى ما أرتضيه بلاغ وكيف يُرَى يوما إليه فراغ
وقد قطعت دونى قواطعُ جمة أراع لها مهما جرَتْ وأُراغُ
ومالى إلا عفو رب وفضله ففيه إلى ما أرتجيه بلاغ

(١) أنبت : رجعت ، وترعوين : تكفين عما أنت عليه ، وبلاغ : وصول إلى ماترجين

وكان القاضى أبو البركات من بيت كبير علما وصلاحا وزهدا ، وجده الإمام الولى العارف سيدى أبو إسحاق بن الحاج أشهر من نار على علم ، وقبره مشهور بمراكش وقد زرته بها ، وله كرامات مشهورة .

وحكى فى «مزية المرية» من كراماته جملة قال حفيدهُ الشيخ أبو البركات : دخلت على الشيخ الصالح العابد المجتهد الحاج أبى عبد الله محمد بن على البكرى ، المعروف بابن الحاج ، فى منزله بالمرية عائدا قال : أظنه فى مرضه الذى مات فيه فقال له حين سأله عن حاله : ادعُ لى ، فقلت له : ياسيدى ، بل أنت تدعو لى ، فقال لى : شرح الله صدرك ! ونور قلبك بنور معرفته ! فمن عرف الله لم يذكر غيره ، فقد حكى سيدى أبو جعفر بن مكنون عن جدك قال : كنت مع سيدى أبى إسحاق بن الحاج بمراكش فقال لى : هل ترى فى المنام شيئاً ؟ فقلت : نعم ، أرى كأنى فى المرية أمشى من الدار إلى المسجد ، ومن كذا إلى كذا ، فأعرض عنى وقال : ألا ترى إلا الله ؟ قال : ثم مر به فى أثناء كلامه ابنه محمد ، فقال لى : رأيت هذا ؟ والله ما أدرى أن لى أبنا حتى يمر بى ، ولا أذكره إذا غاب عنى ، ولا أرى إلا الله ، انتهى .

ومن تآليف أبى البركات رحمه الله تعالى كتاب ذكرفيه أخبار سلفه رضى الله عنهم ، وذكر جملة من كرامات جده سيدى أبى إسحاق المذكور ، نفعنا الله به .

ومن شعر جده المذكور قوله :

ألا كرّم الله البـلاد بخطبة ... همُ حسنات الدهر لانابَهُمْ خَطْبُ(١)
رعايتهم فرض على كل مسـلم ... وحبهمُ حقاً قَدَ أوجبه الرب
إذا ما سألت الله شيئاً فسل بهم ... فتعظيمهم قرب وغيبتهم حرب(٢)

(١) نابهم : نزل بهم ، والخطب ـ بالفتح ـ الحادث المؤلم من حوادث الدهر

(٢) غيبتهم ـ بكسر الغين ـ أراد ذكرهم بالمكروه .

وقوله :

شـكا فشكا قلبي خبالا مبرحا على غير علم كان مني بشكواه
وما التقتِ الأسرارُ إلا بجامع من النعت سلطانُ الحقيقة سوّاه
فيا فرحة المجهود إن بات سره وسر الذى يهواه مأواه مأواه
ومن أجله قد كان بالبعد راضياً فـكيف ترى مغناه والقلب مثواه(١)
بدا فبدت أعلام ضدين فى الهوى هما عجب لولا الدليل وفحواه
برؤيتـه فارقت موتى لبعده ومت بها من أجل علمى ببلواه
فهـــا أنا حى ميت بلقائه ولم ينج مَنْ لم يسعد الفهم نجواه
إذا لم تكن أنت الحبيب بعينه رضا وعتاباً ضَلَّ من قال يهواه
وأكذب ما يُلْفَى الفتى وهو صادق إذا لم يحقق بالأفاعيل دعواه

وقوله رضى الله تعالى عنه :

الحب فى الله نور يستضاء به والهجر فى ذاته نور على نور
جنبْ أخا حدث فى الدين ذا غير إن المغـــيِّرَ فى نكس وتغيير
حاشى الديانة أن تبنى على خَبَلٍ سبحان خالقنا من قول مثبور(٢)
إن الحقائق لا تبـــدو لمبتدع كذا المعارف لا تهدى لمغرور
تالله لو أبصرت عيناه أو ظفرت يمنـاه ما ظل فى ظَنٍّ وتقدير
حقق ترى عجباً إن كنت ذا أدب ولا يغرنَّكَ الجهـــال بالزور
إن الطريقة فى التنزيل واضحة وما تواتر من وحى ومشهور
فافهم هديت هُدَى الرحمن وأُهدبه هدى يفيدك يوم النفخ فى الصور

وقوله صَدْرَ رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية :

---

(١) مغناه : مكان إقامته ، تقول « غنى فلان بالمكان يغنى » مثل رضي يرضي — إذا أقام (٢) مثبور : هالك ، وفى التنزيل : (وإني لأظنك يافرعون مثبوراً)

إذا شئت أن تحظى بوصلى وقربتى فجنب قرين السوء واصْرِمْ حباله(١)
وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها وحصل علوم الدين واعرف رجاله

وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يتمثل ببيتى مهيار الديلمى ، وهما :

ومن عَجَب أنى أحن إليهمُ وأسأل شوقا عنهمُو وهُمُو معى
وتبكيهمُ عينى وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

وحدث القاضى أبو البركات حفيده عن ابن خميس التلمسانى المتقدم الذكر قال : سمعت بعض الأشياخ يقول : كان الشيخ أبو إسحاق البلفيقى الكبير يقول : اجتمع لنا فى الله أربعون ألف صاحب .

وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفى أبى الأصبع ابن عزرة قال : هذه صلاة على النبى صلى الله عليه وسلم أخذتها عن رابك الشيخ الصالح الحاج أبى عبد الله محمد بن على بن الحاج مشافهة ، وقال لى : إنها صلاة أبى إسحاق بن الحاج جدّك ، وهى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاةً دائمة مستمرة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، وتخلد بخلودك ، ولا غاية لها دون مرضاتك ، ولا جزاء لقائلها ومصليها غير جنتك والنظر إلى وجهك الكريم .

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بالمرية بهذا الدعاء : اللهم اجعلنا فى عِياذٍ منك مَنيع(٢) ، وحصن حصين ، وولاية جميلة ، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين ، مُبَشَّرين برضوانك يوم لقائك ، قال : وفى وسط الدعاء وآخره : واُكفنا عدوّنا إبليس ، وأعداءنا من الجن والإنس بعافيتنا وسلامتنا .

وكان الشيخ رضى الله عنه يواصل أربعين يوماً .

---

(١) اصرم : اقطع ، يقول : لا تخالط قريناً يدعوك إلى الشر واقطع علاقتك به

(٢) عياذ منك : التجاء إليك وتحصن بك ، ومنيع : لا يصل إليه أحد .

ومن مآثره أنه بنى ثمانية عشر جبا فى مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجداً وبنى أكثر سور حصن بَلْفيق ، كلُّ ذلك من ماله .

وقال رضى الله عنه فى بعض رسائله : الصوفى عبارة عن رجل عَدْل تقى صالح زاهد ، غير منتسب لسبب من الأسباب ، ولا مُخِل بأدب من الآداب ، قد عرف شأنه وزمانه ، وملكت مكارم الأخلاق عِنانه(١) ، لا ينتصر لنفسه ، ولا يتفكر فى غده وأمسه ، العلم خليلُه ، والقرآن دليلُه ، والحق حفيظه ووكيله ، نظره إلى الخلق بالرحمة ، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة ، انتهى .

وأحوالُ هذا الشيخ عجيبة ، وكراماته شهيرة ، وإنما ذكرنا هذا النَّزْر(٢) اليسير تبركا بذكره رضى الله عنه فى هذا الكتاب ، وتطفلا على رب الأرباب أن ينفعنا بأمثاله ويحقق لنا النجاة والمتاب ، إنه على ذلك قدير .

رجع إلى أخبار أبى البركات — ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين المتعاصرين رد عليه ابن صفوان ، فانتصر لأبى البركات بعضُ طلبته بتأليف سماه « شواظ من نار ونحاس ، يُرْسَلُ على مَنْ لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس » وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول ، وألفى على ظهره بخط الشيخ أبى البركات ماصورته :

قد شبع الكلب كما ينبغى … من حَجَرٍ صَلْد ومن مقرع
فإن يَعُدْ من بعد ذا لِلَّذى … قد كان منه فهو ممن نعى

ومن بديع نظم الشيخ أبى البركات رحمه الله تعالى قولُه :

يلوموننى بعدالعِذَارِ على الهوى … ومثلىَ فى وجدى له لا يفند(٣)
يقولون أمسك عنه قد ذهب الصِّبَا(٤) … وكيف أرى الإمساك والخيط أسود

(١) أصل العنان ـ بكسر العين ـ ما تقاد به الدابة

(٢) النزر ـ بالفتح ـ القليل (٣) لا يفند : لا يتهم بالكذب

(٤) فى البيتين تورية ، فالإمساك يطلق على الصوم ، والخيط الأسود يطلق على الليل ، وهو من قوله تعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر) وأراد بالإمساك الكف عن حب حبيبه ، وبالخيط الأسود العذار

وقوله فى المجبنات :

ومصفرة الخدّين مطوية الحشى — على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف

لها بهجة كالشمس عند طلوعها — ولكنها فى الحين تغرب فى الجوف (١)

وفى هذين البيتين تورية متعددة .

وحدث القاضى أبو البركات أنه لما أراد الانصراف عن سبتة قال له السيد الشريف أبو العباس رحمه الله : متى عزمت على الرحيل ؟ فأنشد أبو البركات :

أما الرحيل فدُونَ بعد غَدٍ — فمتى تقولُ الدار تجمعنا

فأنشد الشريف رحمه الله تعالى :

لا مرحباً بغد ولا أهلاً به — إن كان تفريقُ الأحبة فى غد

وحكى أن السيد أبا العباس الشريف المذكور ساير القاضى أبا البركات فى بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس ـ أعاده الله تعالى ! ـ فلما انتهيا إلى قرية تَرليانة ، وأدركهما النصَب ، واشتد عليهما حَرُّ الهجير ، نَزَلاَ وأكلا من باكر التين الذى هناك ، وشربا من ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها ، ثم التفت إلى السيد أبى العباس وقال :

ماذا تقول فدتك النفس فى حالى — يَفْنَى زمانىَ فى حل وترحال

وأرتج عليه ، فقال لأبى العباس : أجز ، فقال بديها :

كذا النفوسُ اللواتى العزُّ يصحبها — لا ترتضى بمقام دون آمال

دعها تسرفى الفيافى والقفار إلى — أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال

الموت أهون من عيش لدى زمن — يُعْلِى اللئيمَ ويدنى الأشرفَ العالى

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبى عبد الله محمد بن إبراهيم الكنانى ثم المغيلى طلقة كتب نسختها

---

(١) أشار إلى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) .

بما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، يقول عبد الله الراجى رحمته محمد المدعوّ بأبى البركات بن الحاج خار الله له والطف به : إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغرائز شتى (١) ، ففيهم السخى والبخيل ، والشجاع والجبان ، والغبى والفطِن ، والكيس والعاجز (٢) ، والمسامح والمناقش ، والمتكبر والمتواضع ، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق ، كانت العِشْرَة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين : إما بالاشتراك فى الصفات أو فى بعضها ، وإما بصَبْر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك ، ولما علم الشارع أن بنى آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه مَنْ عِيلَ صبره على صاحبه ، توسعةً عليهم ، وإحسانا منه إليهم ، فلأجل العمل على هذا طلق كاتبُ هذا عبد الله محمد المذكور زوجَه الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبى عبد الله محمد المغيلى ، طلقة واحدة ، ملكت بها أمر نفسها دونه ، عارفا قدره ، قصد بذلك إراحتها من عشرته ، طالبا من الله أن يغنى كُلًّا من سَعَته ، مشهدا بذلك على نفسه فى صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الثانى عام أحد وخمسين وسبعمائة ، انتهى .

ومن نوادره رحمه الله تعالى أنه لما استناب بعض قضاة المرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة فى القضاء من عمله بخارج المرية ، فاتفق أن جاء بعض الجنّانين بفَحْص المرية يشتكى من جائحة أو أذاية أصابت جنانه ، ففسدت غلته لذلك ، فأخذ ذلك الجنان قرعة وأشار إليها متشكيا ، وقال : هذه القرعة تشهد بما أصاب

(١) الغرائز : جمع غريزة ، وأراد بها السجايا والطباع

(٢) الكيس - بفتح الكاف ، بزنة جيد وطيب - حسن الفعل ، وجمعه أكياس ، ونظيره جيد وأجياد .

جنانى ، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك غريبتان فى عام واحد : القرعة تقضى ، والقرعة تشهد .

وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير .

وقال رحمه الله تعالى : نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وقد رأيت فى النوم كأنى أريد إتيان امرأة لا تحل لى ، فيأتى رقيب فيحول بينى و بين ذلك المرة بعد المرة ، قولى :

ألا كرّم الله الرقيبَ فإنه   كفانى أموراً لا يحلُّ ارتكابُهَا
و بالغ فى سد الذريعة فاغتدى   يلاحظنى نوما ليغلق بابها

وقال رحمه الله : أنشدنى شيخى أبو عبد الله بن رشيد عند قراءتى عليه شرحه لقوافى أبى الحسن حازم ، وقد باحثته يوما ، مناقشة فى بعض ألفاظه من الشرح المذكور :

تسامح ولا تستوف حقك كله   وأغضِ فلم يستوف قط كريم

ومن نظم الشيخ أبى البركات قوله :

ألا خَلِّ دمع العين يَهْمِى بمقلتى   لفرقة عين الدمع وقف على الدم
فللماء فيـــه رنة شجنية   كرنة مسلوب الفؤاد متيم
وللطير فيـــه نغمة موصلية   تذكرنى عهـــد الصبا المتقدم (١)
وللحسن أقمار به يوسفيـــة   تردُّ إلى دين الهوى كل مسلم (٢)

وله رحمه الله تعالى :

ما كُلُّ من شد على رأســه   عمامة يحظى بِسَمْتِ الوقار
ما قيمـــة المرء بأثوابه   السر فى السكان لا فى الديار

(١) نغمة موصلية : أراد أنها تشبه نغمات إسحاق الموصلي النديم ، وهو من أشهر حذاق المغنين فى الدولة العباسية .

(٢) يوسفية : منسوبة إلى يوسف الصديق ابن يعقوب عليهما السلام ، وهو مضرب المثل فى الحسن .

وله سامحه الله تعالى :

إذا ما كتمت السر عمن أوده ... توهم أن الود غـير حقيقى
ولم أخف عنه السر من ضِنَّةٍ به ... ولكننى أخشى صديق صديقى

وله وقد جلس فى حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره بسبتة :

إن كنت أبصرتك لا أُبصرت ... بصيرتى فى الحق برهانها
لا غرو أنى لم أشاهدكمُ ... فالعين لا تبصر إنسانها

ومما يعجبه رحمه الله من قوله قال فى « الإحاطة » ويحق أن يعجبه :

تطالبنى نفسى بما ليس لى به ... يدان فأعطيها الأمان فتقبل(١)
عجبت لخصم لج فى طلبـاته ... يصالح عنهـا بالمحال فيفصل

ومما أورد له فى «الإحاطة» وذكر أنه لو رحل راحل إلى خراسان لما أتى إلا بهما :

رعى الله إخوان الخيانة إنهم ... كَفَوْنا مَؤُنات البقاء على العهد
فلو قد وَفَوْا كانوا أسارى حقوقهم ... نراوح ما بين النسيئة والنقد

وقد تمثل القاضى أبو بركات فى مخاطبة له للسان الدين بقول القائل :

أيتها النفس إليـه اذهبى ... فحبه المشهور من مذهبى
أيأسنى التوبة من حبـه ... طلوعـه شمساً من المغرب

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوى أن القاضى أبا البركات لما عزم على الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابنُ خاتمة بما صورته :

أشَمْسَ الغرب حقاً ما سمعنا ... بأنك قد سئمت من الإقامة
وأنك قد عزمت على طلوع ... إلى شرق سموت به علامة
لقد زلزلْتَ منا كل قلب ... بحق الله لا تُقِمِ القيامة(٢)

---

(١) ليس لى به يدان : يكنى به عن عدم القدرة على فعله

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها ـ الآيات) .

قال الحاكى : فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا ، انتهى ، يشير بقوله « لقد زلزلت ـ إلخ » إلى طلوع الشمس من مغربها .

قلت : ولما عزمت على هذه الرحلة كتب إلىَّ بعضُ أصحابنا المغاربة بالأبيات المذكورة متمثلا ، ولم أرجع عن العزم ، والله غالب على أمره .

قال الوزير لسان الدين رحمه الله تعالى : وما أحسن قول شيخنا أبى البركات معتذرا عن زرقة عينيه :

حزِنَتْ عليك العين يامَغْنَى الهوى فالدمع منها بعد بعدك مارَقَا[1]
ولذاك ما ظهرت بلون أزرق أو ما ترى ثوب المآتم أزرقا

قال رحمه الله تعالى : وهو من الغريب .

وقال بعض الشيوخ : كنت أقرأ على الشيخ أبى البركات التفسير ، فنسيت ذات ليلة السِّفْر الذى كنت أقرأ فيه بمنزلى ، فاتفق أن حضر الجامع الصحيح للبخارى ، فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من أوله : افتح فى أثناء الأوراق ولا تعين ، وما خرج لك من ترجمة لجهة اليمين فاقرأها ، ففعلت ، فإذا غزوة أحد ، فقرأت الحديث الأول من الباب ، وهو عن عقبة بن عامر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : إنى بين أيديكم فرَط ، وأنا شهيد عليكم ، و إن موعدكم الحوضُ ، و إنى لأنظر إليه من مقامى هذا ، و إنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافَسُوها ، قال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الشيخ قوله « صلى على قتلى أحد » لفظ الصلاة يطلق لغةً على الدعاء ، وشرعا على الأفعال المخصوصة المعلومة ، و إذا دار اللفظ بين الشرعى

---

(١) رقا : أصله رقأ ـ بالهمز ـ فسهل الهمزة بقلبها ألفاً ، وتقول « رقأ الدمع يرقأ » من باب فتح ـ إذا سكن ولم يسل .

واللغوى فحمله على الشرعى أولى حتى يدلَّ الدليلُ على خلافه ، فقوله « صلى على قتلى أحد » يحتمل الصلاة الشرعية ، ويكون ذلك منسوخا إذ قد تقرر أنه لايُصَلَّى على شهيد المعترك ولا على من قد صُلِّي عليه ، ولمن يعارضه أن يقول : إن قتلى أحد متفرقون فى أماكن ، فلا تتأتى الصلاة الشرعية عليهم ، إذ الصلاة الشرعية إنما تتأتى لو كانوا مجتمعين ، والجواب أنهم وإن كانوا متفرقين تجمعهم جهة واحدة ، وليس بعدُ ما بينهم بحيث لا تتأتى معه الصلاة عليهم ، هذا ، وإن احتمل حمله على الصلاة اللغوية ، وقوله « كالمودع للأحياء والأموات » أما وداعه للأحياء فلا إشكال فيه ، وأما الأموات فمعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم ، لأنه إذا مات فقد حيل بينه وبين الدعاء لهم ، فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إنى بين أيديكم » أى أتقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم « بين أيديكم فرط » أى متقدم ، وبين إذا أضيفت إلى الأيدى تستعمل فيما قبل زمانك وفيما بعده ، والمعنى هنا فى قوله « بين أيديكم » أى أتقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم «وأنا شهيد عليكم» فيه وجهان[1] : أحدهما : أن يخلق الله فى قلبه علما ضروريا يميز به بين البر والفاجر ، فيشهد بما خلق الله فى قلبه من ذلك ، إذ لا تكون الشهادة إلا على أمر مشاهَدٍ ، ومعلومٌ أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته فيخلق الله له علما بذلك ، الوجه الثانى : أن يخبره الله تعالى بذلك كما فى حديث الحوض « لَيُذَادن عنه أقوام ، كما يُذَاد البعير الضال » فأقول : ألا هلم ، ألا هلم ، فيقال : إنهم قد غيروا بعدك ، فأقول : فسحقا فسحقا ، فيشهد بما أخبره الله تعالى به ، وهو نظير ماروى فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) من

---

(١) قد بين النبى صلى الله عليه وسلم المراد بذلك فى حديث آخر ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فما وجدت من خير حمدت الله ، وما وجدت من شر استغفرت لكم » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأى داع إلى هذا الترديد والاحتمالات ؟ .

أن قوم نوح يقولون : كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخر عن زماننا؟ فيقولون: لأن الله تعالى قص علينا أخباركم فى كتابه ، فقال (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ـ إلى آخره) وقوله صلى الله عليه وسلم « وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا » نظرُه صلى الله عليه وسلم إلى الحوض فيه وجهان (١) : أحدهما : أن يكون نظره إليه بقلبه ، إذ كان قد أطْلَعَه الله عليه ليلة الإسراء ، فصار مرتسما فى قلبه ، فيكون نظره إليه بعين قلبه ، كما يرتسم فى قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك ، الثانى : أن يكون الله تعالى قد كشف له عنه ، فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا » إن قيل : كيف قال ذلك وقد ارتد عن الإسلام من ارتد من العرب بعده ؟ فالجواب أنه إنما خاطب بذلك مَنْ لم يشركْ من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته ، ولم يراع رعاعَ العرب وجُهَّالهم ، إذ لا اعتبار بهم لاحتقارهم ، وقوله عليه الصلاة والسلام « ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قد وقع ما خشى منه عليه الصلاة والسلام من المنافسة فى الدنيا ، فكان كما ذكر صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وحدث الشيخ أبو البركات قال : كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشذالى أيام قراءتى عليه ، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه : هل الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقلت : الدليل لأن الملائكة أفضل أن الله أمرهم بالسجود لآدم ، قال : فجعل الطلبة ينظر بعضُهم إلى بعض ، حتى قال لى بعضهم : استند ياسيدنا ، كأنه يقول : أُستند إلى حائط ليزول هوس رأسك ، وكانت عبارتهم فى ذلك ، وكل منهم يقول لى نحو ذلك إزراء (٢) ، وقال لى الإمام ناصر الدين : أبصر فإنهم

(١) وهذا أيضاً قد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر بيت المقدس بأن الله تعالى عرض عليه ـ وكفار مكة يسألونه ـ بيت المقدس أدنى من الحائط الذى أمامه ، فكان ينظر إليه ويصفه وصف معاينة ومشاهدة ، وقدرة الله تعالى فوق الشك والتهم

(٢) إزراء : انتقاصاً له

يقولون لك الحق ، وكانت لغته أن يقول : أبصر ، قال : فقلت : أتقولون إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار ؟ قالوا : نعم ، قلت : أفيختبر العبد بتقبيل يد سيده ليرى تواضُعَه ؟ قالوا: لا ، فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر، بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد ، قلت : فكذا الملائكة ، لو أمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده ، قال : فكأنما ألقمتهم حجرا (١).

قال الشيخ أبو البركات : وهذه حكاية أبي بكر بن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة ، وذلك أنه اجتمع معه فى مجلس الخليفة ، فناظره فى مسألة رؤية البارى ، فقال له رئيسهم : ما الدليل أيها القاضى على جواز رؤية الله تعالى ؟ قال قوله تعالى (لاتدركه الأبصار) فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا : جُنَّ القاضى ، وذلك أن هذه الآية هى معظم ما احتجوا به على مذهبهم ، وهو ساكت ، ثم قال لهم : أتقولون إن من لسان العرب قولك « الحائط لا يبصر » قالوا : لا ، قال : أتقولون إن من لسان العرب « الحجر لا يأكل » قالوا : لا، قال : فلايصح إذاً نفيُ الصفة إلا عمَّا من شأنه صحةُ إثباتها له ، قالوا : نعم ، قال : فكذلك قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه ، فأذعنوا لما قال ، واستحسنوه .

وقال الشيخ أبو البركات : كنت ببجاية ، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يعرف بابن الحدّاد ، فركب الناس فى الأخذ عنه والرواية لما يحمله كُلَّ صعبٍ وذَلول ، مع أنه لم تكن منزلته هنالك فى العلم ، فعجبت لذلك ، حتى قلت لبعض الطلبة : لقد أخذتموه بكلتا اليدين ، ولم أركم مع مَنْ هو أعلى قدرا منه كذلك ،

---

(١) ألقمتهم حجرا : كناية عن إسكاتهم ، وذلك أن من وضع فى فمه حجراً لا يقدر على الكلام ، وقد قال الشاعر :

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً   لأصبح الصخر مثقالا بدينار

فقالوا لى : لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه ، وهو فى زى حسن بخادم يخدمه ، يظن مَنْ يراه أن أباه من أعيان أهل بلده ، فسألناه أحى أبوه أم لا ؟ قال : بل حى ، قلنا : أهو من أهل العلم ؟ قال : لا ، هو دلال فى سوق الخدم ، فلذلك آثرناه على مَنْ هوفوقه فى العلم ، قال : فقلت لهم : حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته لتخلقه وفضله .

وفوائد أبى البركات كثيرة .

ومن تآليفه «المؤتمن ، على أنباء أبناء الزمن» كتاب مفيد جداً ، وهو رضى الله عنه من ذرية العباس بن مرداس السُّلَمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال الشيخ أبو البركات : ذكر لى أن الشيخ الفقيه الكاتب أبا الحسن ابن الجياب يحدث عنى ، ولا أذكر الآن أنى قلت ذلك ، ولكننى لما سمعته علمت أنه مما من شأنى أن أقوله وهو أنى قلت مثلُ العالم مثل رجل يصبُّ ماء فى قفة ، إن واظب على صب الماء بقيت القفة ملأى ، وإن ترك صب الماء بقيت القفة لا شىء فيها من الماء ؛ فكذلك العالم : إن واظب على طلب العلم بقى العلم لم ينقص منه شىء ، وإن ترك الطلب ذهب علمه ، انتهى .

ونقلت ممن رأى كلامَ ابن الصباغ فى ترجمة أبى البركات ما نصه : لما ورد مدينة فاس فى غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبى بكر السعيد بن أمير المؤمنين أبى عنان ، وأبصر الدار غاصة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعدم منها عدا شخصه ، والولدُ على أريكة أبيه أنشد :

لما تبدلت المجالس أوْجُهاً ... غير الذين عهدت من جلسائها
ورأيتها محفوفة بسوى الألى ... كانوا حُماة صدورها وبنائها

أنشدت بيتاً سائراً متقدماً والعين قد شَرِقَتْ بجارى مائها

(أما القباب فإنها كقبابهم وأرى نساء الحى غير نسائها)

وأظن أنه تمثل بالأبيات فى سره ، وإلا فيبعد أن يقولها فى ذلك الحفل لما فى ذلك من التعرض للهلك ، والله سبحانه أعلم .

وحكى بعضهم أنه كان جالساً فى دهليز بيته مع بعض الأصحاب ، فدخلت زوجته من الحمام وهى بغير سراويل لقرب الحمام من البيت ، فانكشف ساقها ، فدخل خلفها مسرعاً ، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد :

كَشَفَتْ على ساق لها فرأيته متلألئاً كالجوهر البراق

لا تعجبوا إن قام منه قيامتى إن القيامة يوم كشف الساق(١)

وله فى خديم اسمه يحيى أُحتجم محجمة واحدة :

أرانىَ يحيى صنعة فى قفائه مُهَذَّبة لما تبادر للباب

أرى الخمس فيها لا تفارق ساعة فصوّر بالموسى بها شكل محراب

وتوفى الشيخ القاضى أبو البركات المذكور بشوّال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى ! .

* * *

قد تم ـ بمعونة الله تعالى ـ الجزء السابع من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » للمقّرِى ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثامن مفتتحاً بقول المؤلف « ومن أشياخ لسان الدين الشيخ الحكيم العلامة التعاليمى » نسأل الله أن يعين على إكماله ، بمنه

---

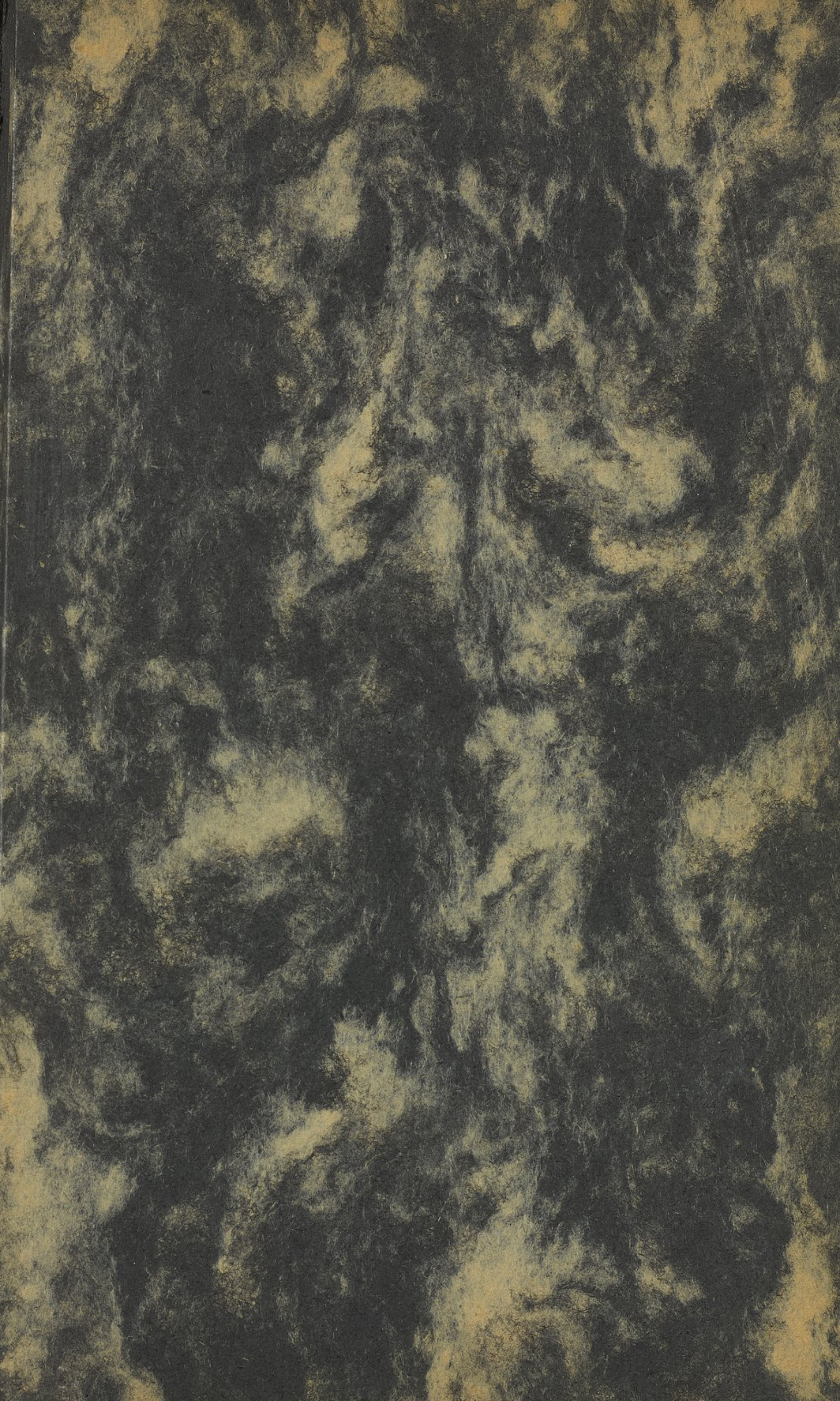
(١) يشير إلى قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون)

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء السابع من كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب
والتعريف بوزيرها لسان الدين بن الخطيب »

للشيخ أحمد بن محمد ، المقرى ، التلمسانى

تمت فهرست الجزء السابع من كتاب «نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» والحمد لله أولا وآخراً، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.




COLUMBIA UNIVERSITY
0026814366

